

# التاريخ مشتهر جوا نبر

مطالعات في تاريخ الغرب

الالف  
كتاب  
الشاف  
١٣٩



إعداد: ستيفن أوزمنت  
فرانك تيرنر  
ترجمة: د. أحمد حمدي محمود

الجزء الأول



التاريخ من شتى جوانبه  
المطبعة في مطبعه القريب

# الألفبا كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان

رئيسة مجلة البدار

ونيلس التجميع

لمنى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

إخراج الفنى

علياء أبوشادى

# التاريخ من شتى جوانبه

## مطالعات في تاريخ الغرب

إعداد  
ستيفن أوزمنت  
فرانك شيرتر

ترجمة  
د. أحمد حمدي محمود

الجزء الأول



المكتبة الوطنية والارشيف الإسلامية للجمهورية الإسلامية الإيرانية

١٩٩٣

علم هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

**THE MANY SIDES OF HISTORY**

By

**Steven Ozment**

**Frank M. Turner**

## فهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة الطبعة العربية
٩	تمهيد
١١	مقدمة
٢١	أولا : أواخر القرون الوسطى وعصر النهضة
	الفن والمواكب الاحتفالية والسياسية في نيسيا في عصر النهضة
٢٣	
٣٧	الربان واليهود
٥٩	الطالبة بكنيسة حقة
٨٣	الطامون والتعليم العالي في انجلترا
١٠٧	صورة الانسان في عصر النهضة
١٢٣	ثانيا : عصر الإصلاح الديني
	هل كانت حركة الإصلاح الديني ثورة ؟ المثال الخامس
١٢٥	يجتيف
١٦٥	الطباعة والدعاية في ثمانيا أثناء عهد الإصلاح
١٩٣	عهد الملك هنري الثامن
٢١٩	النساء وعهد الإصلاح الديني
٢٤٥	ثالثا : أوروبا الحديثة في عهدها المبكى
٢٤٧	الحرب الدينية في فرنسا
٢٧١	كوبرنيك والثورة العلمية
٢٨٩	من هم المسحرة .. مطاردة المسحرة في اسكتلندا
٣٠٩	الحياة الامرية الانجليزية





## مقدمة الطبعة العربية

عُشقت التأريخ منذ حدثتي ، حتى في صورته الشائبة التي كانت تقسم لنا في دروس المراحل الأولى للتعليم . وما زالت قراءتي المرة تتركز عليه ، ولعل هذا الولع قد أقصع عن نفسه عندما اخترت لرسالة الماجستير موضوعاً في فلسفة التأريخ عنوانه « المثالية والتجريبية في منهج التأريخ عند كولينجود » ، ونشرت بعد ذلك بحثاً في المجلة التي كانت تصدرها الإدارة العامة للثقافة (الهيئة العامة للكتاب الآن) تراث الإنسانية وأنبهتها بتوجه بعض كتب فلسفة التأريخ مثل مدخل لفلسفة التأريخ لـ لوولش وفي المعرفة التاريخية لكاسير وما هو التأريخ لـ ادوارد كار ، وفكرة التقسيم لـ بيودي .

واستدعى انتباهي سفر عظيم تركز على أسلوب الكتابة التاريخية الحديثة ، وتقسيم نماذج من تأليف نفر من المؤرخين الحديثين ، الذين اختاروا عدة مواقف حاسمة تركت آثاراً بعيدة على الأحداث اللاحقة ، وعلى العقلية الغربية بوجه عام ، وقد آثرت الاكتفاء بالأجزاء التي تناولت الثقل الهام من المصور الوسطى إلى عصر النهضة ، وما تلا ذلك باعتبارها تلقي ضوءاً مباشراً على الحضارة الحديثة التي مازلنا نعيش في ظلها ، بخيرها وشرها .

وكم أتمنى أن يستفيد بهذه الترجمة دارسو التأريخ وعشاقه ، ولعلنا نهتدي بها في محاولاتنا التاريخية ، وبمنهجها الذي يعتمد على الكشف الحديثة التي ظهرت في علوم وثيقة الصلة بالتأريخ كعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا والسياسة وعلم النفس ، وليتنا تدرك أيضاً أنه لم يعد هناك من يؤمن بالموضوعية المحضة في الكتابة التاريخية . فلابد أن يكتب التأريخ من منظور شخصي يمثل لحظة معينة في تيار التأريخ ، شريطة أن يتسم انقاري، دوماً يحرص المؤرخ على الالتزام بنزاهة أحكامه ويسئوليته الكبرى من كل واقعة يروي أحداثها .

٢٠٠١ م



## تمهيد

في السنوات القليلة العهد ، استحدثت ابعاد عديدة . ساعدت على ازدياد قهسا لمضى أوروبا . هذا المؤرخون يسرون غور مجال جديد من البحث ، الواحد تلو الآخر . واتضح وجود جوع من البشر تساهل الاهتمام بدلا من اعمال شأنها في سجلات التاريخ . وألفت قطاعات من النشاط البشري ، أغفل المؤرخون امرها ، أو نظروا اليها شذرا ، ألقت نفسها موضع اهتمام واستقصاء . وفي ذات الوقت ، امسرت ميادين أكثر تقليدية من الكتابة التاريخية بحيث الباحثين المميزين ولا تكف عن انارتها لحب الاستطلاع .

وتعرض هذه المجموعة من اى مقالات في الكتابة التاريخية الأوروبية الحديثة مختبرات من المنجزات المتنازعة التي تمثل مختلف ألوان البحوث المعاصرة . ولا وجود لرامح صيغته محلوقةا وتمائلت فيما تضم من تعدد وتنوع . وسعى هذه المطالعات لتفسير هذه الصورة المتعددة للأساندة والطلاب على السواء كي يدركوا شتى جوانب البحوث التاريخية المعاصرة . واما كانت طريقة الاستفادة بها ، يعني كطالعت مكملة لبرامج البحوث الأوروبية السهيدية ، أو لبرامج منهجية التاريخ ، فإن جلسمى هذه المختارات يأمل أن يعطى التنوع الخالى من أية شوائب لمادج الكتابات التاريخية المعاصرة بأعجاب الطلبة وعلمهم مما . وأن يدركوا ما يتطلبه تعدد الخاصى عند بحثه من اتباع لطرائق عديدة متنوعة واهتمامات مختلفة .

ويود المؤلفان توجيه الشكر الى اريك ارنسون وإلى ميلوفسكى لما قدما من عون عند اعداد هذه المختارات .

ستيفن أوغمنت

فرانك تيرنر



## مقدمة

### المقصود المنهجى لدراسة التاريخ

تعرضت لدراسة التاريخ لهزة عنيفة خلال العقدتين الأخيرتين من الزمان ، بعد أن نجحت الأساليب المستحدثة للتاريخ فى تخطى الوسائل الأقدم عهداً ، ولا تقتصر هذه التغييرات على تعريفنا ببعض الأشياء عن المؤرخين وصناعتهم ، ولكنها تعرفنا أيضاً كلمة كثيرة عن مجتمعنا فى شموله ، وعلى الرغم من أن التقنيات فى ميدان تخصصى ( تاريخ عصر النهضة وعصر الإصلاح الدينى والحركة البروتستانتية ) ، لم تكن سريعة أو شاملة كما حدث فى ميادين أخرى ، إلا أننا اعتبرها معقدة لما جرى فى تاريخ العالم فى صورة متميزة .

عندما كنت طالباً فى قسم التاريخ ( ١٩٦٤ ) كان اساتذتى ( وسامسيهم « بالمؤرخين القدامى » ) يفتقون بعض افراضات سائدة عن الدراسة التاريخية ، فكانوا يركزون - أولاً - على أهمية السياق التاريخى ، ويعتقدون بذلك دراسة العصر فى نطاق ظروفه الخاصة . ولم تتوافق إلا للآلئ الرغبة المهيمنة للربط المباشر بين الماضى والحاضر . واعتقدوا أننا ندرس الماضى لمعرفة ما جرى فى الماضى ، والتقدير مدى اختلافه عن أحوال الحاضر ، وإبتعاده عنه ، وتفرده ، ونحس النظر عن أى ارتباط مباشر قد يوجد بين هذا الماضى وبين المجتمع الحديث . أتبعنا للافتراض بأن الدراسة التاريخية ترتبطاً بمتنظور واحد ، وبالإحساس بوجود أحداث سابقة للحاضر .

ورأوا أن هدفنا الأساسى هو أن نصبح معاصرين لموضوع بحثنا ، واعتقد أن هذا العمل الجازى بعيد نسبياً عن التعقيد - فكل ما يفعله المؤرخون هو الفوص فى المصادر الأولية والإطلاع القزير والناقل العميق لكتابات من عاشوا أبان عصرى النهضة والإصلاح الدينى ، من شكور وألث ، وعند القيام بذلك ، لم يروا داعياً للاستعانة بأية نماذج أو تصليقات من علوم الأثروبولوجيا والنفس والاجتماع . ولو حدثت مثل هذه الاستعانة ، فإنها كانت ستبدو لاساتذتى سبباً لاحتفال تعرضى رؤى

المؤرخ لسحب ضبابية كثيفة ، وباحتمال قيامها بدق اسفين بين المؤرخين ومصابريهم ، مما قد يعرض قراءتهم للماضي لتأثير بعيد عن روح التاريخ له صيغة تجرح الى اضافة الجدالة على ملادة البحث القديمة بطابعها .

فالمؤرخ يدرس شخصيات ممثلة للاصول التي اقتدرنا ملها ، الى جانب حداثة لافراد وجماعات قامت بنور تاريخي ، وكان دورها واسماها في المجتمع واضحا وجديرا بالاشادة - فهل هناك ما يبرر دراسة دور الشعوب التي لم تقم باى دور محدد يلقى في تشكيل حضارة المجتمع وقوانينه ومؤسساته ، ولم يتمخض عن هذا الدور اية عواقب بعيدة او تسمية ؟ - فلا يكفى القول بان هذه الشعوب كانت ، موجودة حين ذاك او هناك - لكن تكون اهلا للدراسة التاريخية ، فتاحية الكم وحدها لا تضيف شيئا للاهمية التاريخية ، لأن دراسة التاريخ تعنى دراسة النظر وما تستحق من الجأز -

ورئي ان الأفكار والمعتقدات والقيم هي التي تحرك التاريخ . اذ كان اساتذتي ( ١٩٤٦ ) يخصصون تاريخ الفكر والحضارة والدين باسمي مكانة ، اي انهم كانوا مؤرخين يؤمنون بالكيف لا بالكم . ولا يعنى هذا انهم كانوا مثاليين حاليين يركزون على ما ينبغي ان يكون بدلا من اهتمامهم بما حدث في الماضي . فكل ما كتلوا يؤمنون به هو قيام الشعوب بالتضحية بافضل مصالحها الذاتية في سبيل الجردات والخرعيلات - وما أسهل استهواء العقائد والشعارات ذات التأثير الوهمي في الارتقاء بوجودهم على الأرض - وما كان أسهل تعرضهم للتضليل وعجزهم عن تصور ما قد يلحق بهم من ضرر من تذكير التعلق بمثل هذه الأشياء ، نعم لم يبد هناك شيء أوضح في نظر اساتذتي من شدة تأثير القوى الفكرية الروحية على التاريخ - صفناح السلوك يكمن في الوجدان والعقل يقدر كموته في العدة والأحشاء -

واعتقد المؤرخون القدامى ان الاداة الجراحية التي تارزم المؤرخ للاضطلاع بمهمته هي اللغة ، لأنها هي وحدها التي سلتج له الفرصة لعاصرة الماضي - واهم صفة يمكن تعريف المؤرخ بها هي انه الشخص القادر على الاطلاع والتفكير بلغة الماضي . ومع هذا كانت اللغة تعنى في نظر اساتذتي اولا وقبل كل شيء اللغة اللاتينية ، اي لغة صفوة أهل العصر . وكانت الموضوعات الأساسية للدراسة التاريخية هي كتابات أهل العلم ومن تصعدوا بالنلوذ والاسطغان -

وكانت الخطيئة الكبرى التي يقرؤها الطلبة من ابتداء جيلتي هي اخفاق تقدير الماضي لذاته . فلا يفترض ان يعساأل المرء الماضي أسئلة لم تخطر ببال هذا الماضي ، او يطرح مشكلات حديثة على شعوب عاشت

قبل عصرنا الحديث • ولا يتناول للقيام بذلك على أنه وقاحة فحسب ، وإنما تعتبر هذه الفعلة على حد قول لوسيان فيشر ( يوضع ثلاث نقاط على إفاء اللغوية ) عملاً سيكولوجياً يتقاسم اختلاف المكان والزمان ( ٣ ) ، لأنه يعنى نسبة تكوين وجداني لعصر ما كانت من سمات عصر آخر ( بعيد الاختلاف ) - فالجسملرات أقرب إلى الانفصال كل منها عن الأخرى ، ولكل منها حياتها الخاصة بها • فالملضى في نظرهم لا يحيا في العالم الحديث ، ولا ينبغي أن يطالب بإبقاء الماضي بأن يشعروا أو يفعلوا مثلما تفعل أو لفعل نحن إبقاء العصر الحديث •

وفي السبعينيات ، سيطر على ميدان البحث التاريخي ما يعرف « بالتاريخ الجديد » • ففي ١٩٦٢ حملت الرياح قسطنطين ريمون إلى ما طرأ من تغير على دراسة التاريخ عند الباحثين في تاريخ عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني - القضية الأولى - كانت كتيبا ألفه أحد مؤرخي الكنيسة ويدعى برنت مولر ويسمى « المدن الإمبريالية وعصر الإصلاح الديني » • وقد فسد هذا الكتاب بالاهتمامات الضيقة التي لدراسة عصر الإصلاح الديني في ألمانيا ، التي تضمنت الكثير من الكلام عن مارتن لوتر والقليل من الانتباه إلى القوى الاجتماعية والسياسية الأعظم شأنا • وأثار مولر زوبعة عندما عزا نجاح الحركة البروتستانتية لوتير إلى مبررات عبر عنها بمصطلحات غير لاهوتية ، واستهانته بالدور الذي يلعبه عظماء الرجال في صنع التاريخ • وعلى الرغم من أنه لم ينكر أهمية الإيمان الديني ، إلا أنه رآه ثانوي الأهمية في أحداث الإصلاح الديني بالمقارنة بالتجربة الاجتماعية والسياسية لأهل المدن • ونكر مولر أن الناس قد اعتنقوا البروتستانتية لأنهم انزعجوا من سيطرة البابا والحكام والكنيسة التقليدية وبلغتهم في التحرر من سيطرة الحكام والكنيسة • وبالحظ في هذا التعبير يك ظهور مؤثرات واسعة تعلم الاجتماع حلت محل اللاهوت الديني في تفسير عصر الإصلاح الديني •

وفي السنة نفسها ، التي انتقد فيها مولر مؤرخي عصر الإصلاح كعقم بحولهم ، ظهرت أول طبعة شعبية لكتاب يتبع اتجاهها آخر ، وصور اريكسون ( ٤ ) « لوتير » كشاب موهوب يعاني من أزمة ترجع إلى « تأخر شعوره بالهوية » • وظهر في هذا الكتاب تفسير يركز على الجانب الإنساني الذي يشترك فيه لوتر هو وغيره من الأكمنين بدلا من التركيز على عبقرية اللاهوتية • وساعدت التسمية الغريبة لهذا الكتاب في أمريكا على توطيد

Breid Moeller — anachronistic

(٤)

Young Man Luther

رأسم الكتاب

Erik Erikson

كتاب (★ ★)

• [١٩٥٨]

القيام علم النفس في أساليب الدراسة التاريخية الحديثة ووضع أساس  
الدراسة الأمريكية الوطيدة للعقيدة الجماعية والسلوك الاجتماعي .

وبينما ركز مولر على التجربة الاجتماعية والسياسية المسالمة ،  
رأيها أريكسون يعني بالجوانب السيكولوجية المشتركة ، بحثا عن المخالفات  
والتكوينات والتؤسعات التي يشترك فيها الجميع - بعد تصور المجتمع  
والسياسة والحياة الأسرية تصورا دجيبا وديناميا - باعتبارها المفتاح الأمثل  
للتحليل التاريخي . وأصبح المؤرخون الآن يركزون على عوامل أكبر من  
الحيلة الفردية كالقوى الديموجرافية والاقتصادية التي تؤثر لا شعوريا في  
السلوك ، وبما غدا ما يدور في أذهان الأفراد عن وعي ذا مكانة ثانوية  
بالمقارنة بما يصيبهم من آثار مثل هذه القوى الأعنى التي تتجاوز إرادتهم  
وتعلو عليها ، بل وتعلو على آراء الحشود الأكبر .

وهكذا انتقلت بؤرة الاهتمام في جميع ميادين البحث التاريخي شيئا  
قشينا من أفكار التراث وأفعالهم بطبيعتها الجزئية إلى مسائل الكتل البشرية  
عبر العصور ، ويرجع فضل ريادة هذا التطور والتحول إلى المؤرخين  
الفرنسيين ، وما دمجهم يراهم في حويلاتهم ، وأصبحت الأشياء التي  
يقبأوى الناس في حيازتها كالثقافة الجماعية والمسلك الاجتماعية أكثر  
المزلة للاهتمام في نظر المؤرخين من مجزأاتهم الفردية التي تفرق بينهم .

وحلت الكثرة محل القلة ، ولحلت الإحصاءات الصدارة في البحث  
التاريخي ، وبنت - بالمقارنة - التفسيرات الذاتية للمعاصرين ، وخطايرهم  
عن مصورهم وأثارهم ويومياتهم ورمائلهم ومواعظهم وكتيبهم أخف وزنا  
وأثرا كونها بعيدة عن تمثيل هذه العصور ، لا يقلب عليها من مشاعر ذاتية  
واشدة انحيازها لسور الأفراد بصفاتهم الفردية .

ويتشابه المؤرخون الجدد هم وأسلافهم في اتساعهم للافتراضات  
المشتركة والقيم المشتركة ، فهم يلاترون لأثرا عميقا بالعلوم الحديثة  
كالانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وبما زويتهم بها من نماذج  
ونظريات ، بأن أثرا في روايتهم للأحداث - وقد لا يتفق المؤرخون دائما  
على هذه النظريات والنماذج ، ولكنهم يهلون فيها إلى أساس علمي  
ليجوتهم القاريحية .

والمؤرخون الجدد مولمون بصفة خاصة بالخصرة الشعبية لو العامة  
المدارة المستمدة من دراسة الكتل البشرية وجموع البسطاء ، وهم



يحرصون على الإطلاع على اللغة اللاتينية - لغة الصقوة - عندما تساعدهم على الاقتراب من الشعب والعوام . ويعد التاريخ الجديد الى رواية قصته بدءا بالأصل ثم يرتقى بعد ذلك الى القيم العليا . ويتجنب الاختصار على رؤية المجتمع بمنظور فوقى حتى تتوافر له الرؤية التاريخية « الشاملة » التى تضم ما يجرى فى القرية والمدينة على السواء ، ويخطب عامة الناس مثلما يخطب صقوة المثقلين .

واتخذت الصحافة أنواع جديدة بعد ظهور التاريخ الجديد . وكل هذه الفاعية هى اعظم منجزاته أصالة . وينظر الآن الى الأفعال الجماعية كالعصيان والتظاهرات الجماهيرية كاسلبيد تساعد على التعرف الى الوعي الشعبى ، بالقساؤل عما يحظى بتقدير جموع البشر وما يثير الرأى العلم ، فعلمنا أن تكفى الإجابة من سلك هذه الجموع ، باعتباره هو وحده الذى يحمل بصماتها . وتمشيا مع هذه الفكرة ازداد الاهتمام بالكرنفالات التى تمثل نظرات الكتل البشرية ، واتقلاب تصوراتها رأسا على عقب . ولم ينس المؤرخون الإهتمام بالطبوس الاجتماعية المصممة لغرض القيم السلوكية المحلية كالأمراض الصاخبة التى وطلت التور الاجتماعى للرجال والنساء فى المجتمع الريفى . واكتسبت سجلات محاكم التفتيش أهمية عند المؤرخين المحسنين لما تكشف عنه من قدرة على الكشف عن أفكار عامة الناس ومشاعرهم . وازاحت الدراسات القرية العهد المهرقة والوروق فى القرى والعادات الجنسية ونظرة البسطاء للعالم والسعرة - على درجات متفاوتة شتى - الستار عن « ما يجول فى كوامن عامة الناس » بعد الإطلاع على سجلات ومحاضر محاكم التفتيش . ويفضل استطاعة هذه السجلات نقل قصورات من عيشوا هذه الأحداث بمعنى للدراسات المستندة إليها استحضار صور الأفكار وأفكارهم والتعرف عليها وتعدد موضعها المناسب فى البحث التاريخى بعد أن كانت تحتل مكانة ملاحرة فى دراسة المؤرخين القدامى .

ويرى المؤرخون الجدد اهتمام المؤرخ الى مستوى عال من الموضوعية والحيدة أمرا بعيدا الخال . ولا يصح فى الحق الاسراف فى الإنسادة بأهميته . وينظر الآن الى « الذاتية » والمصالح الذاتى كمؤثرات لا مفر منها فى جميع الكتابات التاريخية . ويسفر اليوم من المؤرخين من أمثال ليوبولد فون راتكه الذى اعتقد فى « إمكان إعادة بناء الماضي كما كان بالفعل » ويعتقد بعضى أن حداثة المؤرخ ، التى تتصلر فيها عادل معاون ، لأنها تضمن عدم انزلاق الكتابة التاريخية الى « السلفية » لأنها مرتبطة بالحاضر ومشقولة به .

ويصبح المؤرخون الجدد الماضى - بكل حراة - بالمنايع المصرى ، يمتنى  
 مختبرون صمة النظريات الاجتماعية الحديثة والمؤشرات السياسية الحديثة  
 فى مجالات لم تعرف من قبل كتاريخ المرأة والأسرة • فهم يوجهون  
 للشعوب التى سبقت الشعوب الحديثة أسئلة حديثة ، ويحاولون الربط  
 بينها وبين القضايا الحديثة • فعلا كثيف المحدثون من كتابات سيرة  
 عاتقن لوتن عن اهتمام أقل بشخصه كرامب وعالم لاموت يتحدث بلغة  
 علماء العصر الوسيط الآخرين ، بالمقارنة باهتمامهم به كمنافس مزعوم  
 للمسامية • ومن دعاة المساواة بين الرجل والمرأة ونصير للحكم السياسى  
 المطلق • ويركزون على اكتشافه لظاهرة (م) شاعت بين المحدثات تمثلت فى  
 نزوع بعض النساء الى الرهينة هربا من سيطرة الأبوين والتيار المعادى  
 للنساء • وقد راين فى قضية الرهينة عملا مساعدا للتعرف على حقيقة  
 امرعن • وصد القيم الاجتماعية للسلطة • وينظر الآن الى ارتفاع نسبة  
 الوفيات بين الأطفال على انه دليل على ما حدث من تمسور فى مشاعر  
 الآباء والأمهات نحو ذريتهم ، وتصور الحركات الإصلاحية الدينية فى القرن  
 والذى لم تنجح فى القرى عدى صدق الماركسية •

وثمة جوانب مغيرة للاهتمام تكتضت فى انتهاكات للصفوة من أهل  
 العلم والسلطة • إذ يبين من دراسات أساطير المدن وطقوسها فى المدن  
 الأوروبية الكبرى كيف حافظ نهضة الحكام على سلطنتهم ، وكيف عززوا  
 سيطرتهم على رعاياهم • وتبين الحياة المجتمعية للقبائل عند اختلافهم  
 عن باقى البشر ، وتفسر أسباب اختياراتهم السياسية والدينية • وهناك  
 نوع جديد أخلا من الدراسات يدور حول السجرة ، ويصور صفوة  
 المجتمع كأوغاد حقا وضحايا لحرقى العصر ، ويبين كيف اتصفوا بفجالاتهم  
 فى الإيمان بالخرعيلات ويصوتهم المارقة ، ويتسلط المعتقدات الشيطانية  
 على رؤوسهم بقدر يفوق ما هو شائع بين جموع عامة الناس • إذ رأوا أن  
 الإيمان بالسكر وللعوايد كثيرا ما أثبت نوره البضاء والره الاجتماعى  
 القوى فى نطاق القرى المحلية • وفى التاريخ الجديد كثيرا ما يبين أيضا  
 أن الأكثر تلقا والأفضل هو الأسوأ أخلاقيا • وهناك ميل مناظر الى إعادة  
 تقييم اللا متعلمين ومن لا يتمتعون بأية حقوق سياسية • ويعتقدون القارىء  
 الحصيف أن يصادف فى الدراسات الحديثة العهد لحضارة عامة الناس  
 عودة بزوغ مصطلح « انسان النهضة » الذى أطلقه المؤرخ السويسرى  
 ياكوب بوركارث على المسيحى الملقب بالنيويبات العصرية • ولم تكن  
 هذه الصفة وفقا على الهيومائين الإيطاليين من أهل العلم وحسب ، ولكنها  
 كانت تصدق أيضا على المصطلم من العرفيين والقرويين •

وإذا تمسب قصور التاريخ القديم الى النقص في المادة التاريخية . فان مشكلة التاريخ الجديد ترجع الى شرط ما لديه من هذه المادة . وإذا قلنا ان التاريخ القديم لم يلتفت لثافتنا كبريا بل الابعاد الكاملة لتجربة التاريخية . فاننا سنرى التاريخ الجديد شديد الوثوق من المعالم الأكثر أهمية من التاريخ . ولقد رفض برلت مولر الذي ينسب اليه فضل الاتجاهات الحاضرة في الدراسة التاريخية حديثا النزعات الحاضرة في عصر النهضة والحركة البروسلندية ، ووصفها بأنها من آثار نزعة افطرت في الموضوع لعلم الاجتماع(\*) . ويعني بذلك نوعا جديدا من قصر النظر التاريخي الذي يتصف بموضوعه للنواحي الاجتماعية والسياسية بدلا من خضوعه للنواحي اللاهوتية والفكرية ، ولكنه في نهاية المطاف لا يعد أقل مسما للتجربة التاريخية . وأسف لوريس مسكون المؤرخ من جامعة برنستون ومن أقوى المدافعين عن الاتجاهات التاريخية المستعينة لمقابلية هذه الاتجاهات للمسح والتحريف .

وربما وجب علينا ان لا نبالغ في امتداح المؤرخين أو لومهم على الطريقة التي يتبعونها في تسجيل الماضي ، إذ قامت قوى عاتية بدور فعال في تشكيل تصوراتنا وتقييماتنا خلال العتدين الأخيرين . وتسود نفس النزعات الداعية للمساواة التي غمرت الدراسة التاريخية اليوم الجامعات والمجتمع في شموله أيضا . فلقد قلما يصيغ مهنة الكتابة التاريخية وموضوعها بصيغة الديموقراطية المروجة لم يسبق لها مثيل . ونجم عن تلك ظهور تنوع متعدد أكبر في شخصيات المؤرخين والموضوعات . وارتدب على ذلك أيضا الطلاق مخيلة المؤرخين بلا كليب أو جامع . وجفح التاريخ الى الهراء أكثر مما حدث فيما مضى . غير ان الاتساع السريع للدراسة التاريخية قد زاد من اتساع رقعة التاريخ الذي يتناول الماضي .

وما يدعو الى الاهتمام أنه خلال خمسة عشر عاما الأخيرة نقص عدد الاهتمام البارزة بين المشتغلين في التاريخ في الجامعات الأمريكية بمقدار ٥٨٪ . وعلى الرغم من أن التاريخ قد ازداد طرافة واتصالا بالاهتمامات الحبيبة ، إلا أن كثيرين لم يعودوا ينفرون اليه على أنه شيء حيوى يهم الإنسان المثقف . وقوخيا للانصاف ، فتوجب الإشارة الى أن المشكلات التي تواجه الدراسات التاريخية تواجه أيضا الدراسات الانسانية بوجه عام في نطاق الجامعة الحديثة . إذ تناقص عدد الاسماء البارزة بين المشتغلين في تعليم الإنجليزية والادب الإنجليزي بمقدار كبير مماثل ( ٦٠٪ ) خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة . وما يبدو أننا نعرض لخطورة فقداننا هو الاجماع على تعريف ماهية الإنسان المثقف .

وفي غياب مثل هذا الاجماع ومثل هذه المعايير ، فاننا نتعرض لخطر الوقوع في ايراث السبيلة (\*) في تعليم الفنون الحرة التي تزداد تركزا على التجاع في عالم المهن والحرفيات وتأمين المستقبل بدلا من الاجتهاد نحو التعليم الواسع النطاق . ولا يخفى أن الاتفاق حول المعايير الفكرية والغاية العامة الواضحة قد تصبح مشكلة للمجتمع في جملته مثلما هو مشيئة بالنسبة للمؤرخ الحديث . اذ لا تعد دراسة للمؤرخ بعيدة كل البعد من المفير العام للملكة .

ولو تسامعنا عن الطريق الذي يتوقع أن تسلكه الدراسات التاريخية مستقبلا سيكون بمقدورنا التعرف على قوى فعالة تحاول استعادة التوازن المفقود . فلقد وجه الى التاريخ العتيق الكثير من النقد الذي يستحقه ، وقد استفاد منه . فلن يكتب لتاريخ الحضارة والأفكار والعلمية مرة أخرى على نفس النحو الذي اتبع في كتابته . ويفضل التاريخ الجديد ، اكتسبت مثل هذه الأعمال المزيد من الرحابة والثراء . غير أن التاريخ الجديد مطالب ايضا بتعلم شيء ما من التاريخ القديم ، من ناحية أسلوب العرض والجوهر على السواء ، ولقد بدأت هذه العملية بالكاد . اذ تعد حركة إعادة احياء « طريقة السرد » التي لوحظت في العهد القريب ، واستثمرتها بعض المحافل قضية في عهد الريح ، فلا بد أيضا أن يتشابه التاريخ الجديد هو والتاريخ القديم في الاهتمامات التي كانت سائدة فيما مضى ، والتي أرغم على اتباعها ، على أن تراعى اهتمامات التاريخ الجديد . فنكلا النوعين من التاريخ ما يجب أن يتعلم من التاريخ الآخر ، ولابد أن يستند النوعان على أرضية مشتركة هي وجود عدة جوانب متشابهة ومداخلة للتاريخ . فمسألة التاريخ القديم والتاريخ الحديث هي الكتابة عن اشياء تتميز بحقيقتها . ونحن بحاجة الى فهم القليل مثلما يجب أن تفهم العديد ، وأن نفهم المثل العليا مثلما يتعين فهمنا للزعات والغايات القصيرة الأمد والغايات البعيدة الآن أيضا ، وأن ندرس الحروف والأرقام معا ، والتجارب الدقيقة وكذلك التجارب الاجتماعية . علينا أن نهتم بالأفكار نفس اهتمامنا بمصادر الثروة .

وتحتل المضاربات التي انتقناها لهذا الكتاب التاريخ في شتى جوانبه ، وقد بذلنا جهدا واعيا لكي نتجنب التركيز على الأنواع التي تجتذب الانتباه الآن ، ولكنها قد تنمى في الغد ، وهناك نماذج لتاريخ الأفكار والتاريخ النبلي والكتلة التاريخية والسير والأخبار السياسية . وهناك أيضا مختارات من الميامين الأحدث لتاريخ الأسرة والدراسات

التصانيف والحضارة الشعبية • وما تأمل أن نعلقه هو العرض المتوازن للإبعاد المختلفة للواقع التاريخي والطرائق المتنوعة التي تتبع في رواية التاريخ •

ولما كانت كناية التاريخ الجدد ليست اختراعا حديثا لذا يضم الكتاب ثلاثة أجيال من المؤرخين • ولقد ركزنا الانتباه على بعض مقبوعات جوهرية من الدراسة التي تميزت بصديق المفكرة الى موضوعها ، والتي ستظل تثير الاهتمام بعد خمسين سنة مثلما تثير الاهتمام الآن ، وتكتشف المختارات يطولها التسبيح نوعا ، وبأنها أكثر تحديا من الدراسات التي كانت تختار في الكتب التقليدية التي تضم مقترحات من التاريخ ، فلقد تغير الزمان في الفصل الدراسي الأمريكي ، وولى عهد الاختراعات - فأصبح الأساتذة والطلبة يطالبون باقتضاء الكتيب الذي يعثرون قراءتها واحترامها • وتساعد المختارات البسطة في هذا الكتاب الدارسين على الحصول على معلومات مفصلة عن أحد الموضوعات بالذات ، وعلى العكوف على تموجات على التامل التاريخي والتحليل التاريخي - فما نرمي إليه هو تعريف القراء أشياء عن الماضي وتزويدهم بالاحساس بما تعنيه كتابة التاريخ •

وربما جاز وصف بعض مقترحات قليلة من هذا الكتاب بأنها قد نكرت من قبيل التجريب - إلا أن أغلبها يستعين بمناهج تتبع أكثر من علم ، وتحاول عبور الفجوة الفاصلة بين مجالين أو أكثر من مجالات الدراسة ، ولقد وضعنا الرمز « أ » للمختارات التي كتبها مؤرخون تقليديون قاموا بوعى بعملية إعادة صياغة أساليبهم تحت تأثير التاريخ الجديد ، وتعد المختارات القليلة التي أدرجناها تحت الرمز ( ١ ) تابعة للتاريخ بصورته العتيقة الجامدة التي لا يمكن الدخول عنها ، ولعل أكثر المختارات إثارة للاهتمام هي تلك التي التفتي فيها اهتمام المؤرخين الجدد والمؤرخين القدامى فيما يمكن أن يسمى التاريخ الهجين ، لأن جزءا منها قد اتصف بعنقاده ، واتصف الجزء الآخر بجذبه •



## أواخر القرون الوسطى وعصر النهضة

١٩٥

تقع بين القرن الرابع عشر ومصعب القرن السادس عشر حقبة تاريخية تميزت بما حدث خلالها من أحداث متطرفة - فارتفعت إلى حد لم يسبق له مثيل شدة المرض ، واشتدت حدة الحرب والاضطهاد الديني - إنه عهد الموت الأسود ( الطاعون ) وحرب الأعوام المنية ، وبلغ محاكم التفتيش أوجها وسادت الحركة المردولة للفتك بالمشتغلين بالسحر ، ومن ناحية أخرى ، تحقق لبعض الأقاليم خلال هذه الفترة مستويات جديدة من الاستقرار السياسي ، وازدهرت المؤسسات المثقلة للشعب ، وبرزت إلى عالم الوجود الجامعات ، وانتشر التعليم بين عامة الناس في المدن ، وخطفت الألبان حركة الإصلاح المعروفة بالحركة الإنسانية ( الهيومانية ) في فصول الدراسة وتصور الحكام - ولقد ولدت هذه الحركة في إيطاليا ، وما لبثت أن انتقلت إلى الشمال -

وتوقفت العرى بين الأمم وبين مدن أوروبا - وبهذه الحكام بهام الحفاظ على سلطانهم السياسي ، وتصغيه - ويشرح إدوارد مور كيف استطاع حكام فيسبيا تسخير الفن والاحتفالات الشعبية لتحقيق هذه الباسية خلال السنوات الأخيرة من عصر النهضة حتى بلغت تفتيتها حيد الكمال -

ونجح الحكام الملبانيون أيضا في احكام القبضة على الكنيسة - فبعد أن تمتعت الكنيسة بالسلطة المارعة خلال القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، استطاعت فرض سلطانها بالكامل في المجال الروحاني من خلال حركة الإصلاح الديني ، وترتب على ذلك أن ألقت الأقليات والمشتغلون أنفسهم خاضعين لسلطوت جديدة لكن يتواسوا هم وتعاليم الكنيسة - وبعض جريسي كرهن تأثير ذلك على اليهود عندما عدلت الأنظمة البابوية

المدينة للفرنسيسكان والدومنيكان الى توحيد الحياة الاخلاقية والدينية في  
عالم المسيحية .

وإذا قلنا ان الكنيسة كانت توالى زحها في الحجاب الروحي ، فإنا  
نستطيع القول بأنها قد التزمت جانب الدفاع في هذا المجال أيضا . فقد  
أدت العناية الملكية وانتشار التعليم بين العوام الى زيادة نزوح الجماهير  
الى نقد الكنيسة مما شجع حركة الاستقلال عنها والتمرد عليها - وواجهت  
الكنيسة أحط نكد لها فعمل مسكرها عندما بنى للكلمة وأقام العوام  
المثل الدينية البسيطة ليسوع والكنيسة المسيحية الأولى . ويكتب سكوت  
هيدريكس بحثا موقفا عن الاتجاه الذي طالما جع نحو المهرطقة ، واندفع  
من حين لآخر اندفاعا ثوريا طالبا بكنيسة جديدة ، إبان القرنين الأخيرين  
من القرون الوسطى .

وربما ترك انتشار الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر عندما  
مات - في أغلب الظن - خمسا سكان أوروبا الاطباع بتوقف الحياة  
الطبيعية عن مساوها زهاء عدة عقود من الزمان - وبين وليم ج .  
كورتيناى مستشهدا بما حدث في أكسفورد كيف استمرت الثقافة تبض  
بالحياة أثناء هذه السنوات المجاف رغم الطاعون الذي لم يترك الى حد  
بعيد أى أثر يذكر على مجالات عديدة ومؤسسات كثيرة .

وقد يوحى العديد من النواحي الباقية التي استطاع الاعتماد عليها  
عند تقييم القرون الوسطى وحصر النهضة بأن هذا العصر كان محكما  
بالسود ، ومستعبدا سياسيا . وتوحى صورة الانسان الذى صقلته تعاليم  
المدرسين في الجامعات أيضا بهذا الاطباع ، لأنها تصور المخلوقات  
الأدمية مكبلة دائما بالقصور والأهواء الحيوانية الوحشية والارادة التي  
لا تسمى لغير صائلها ، مما يحوق مواجهة أعباء الحياة الصلية . غير أن  
رؤى الهيومايين التي نالقت أيضا في هذه الحقبة داتها تنقى هذه الصورة .  
فلقد صور الهيومايون الفرد كوحدة معقدة من العقل والارادة والمشاعر ،  
كحقوق يملك موهبة خلافة ، ويستمتع بالحرية حتى عندما يرتكب الشر  
والخطيئة . ويعتد وليم دورما الاثروبولوجيا الانسانية الجديدة ويفرق  
بينها وبين النظرة للمردية السائدة ، ويعتبع تاريخها القلب المتعدد  
الألوان .



## الفن والمواكب الاحتفالية والسياسية في فنيسيا في عصر النهضة

أدوارد موير

تتمتع الصورة الذاتية للحكومة بالرجوع الى الترتيب الزمني للأحداث التي مرت بها والتي وثقتها المبلوماتية ، بالإضافة الى ما يشيع بين وعيها من فنون ومواكب احتفالية ، وتكشف هذه الصورة لعامة الناس في أشد حالات الوعي الذاتي ، ففي العروض والمواكب ، تطلعا اية حكومة على قيمها التقليدية وتؤكد سلطانها وتثبت وجود نظام داخلي بها ، وتعرف نفسها للزوار من غير أهل البلاد ، ويبدو الفن والاحتفالات في نظر الحكام الذين يلجأون الى مثل هذه الاحتفالات انبوت سياسية راقية لتقديم التعبير السياسي الذاتي ، وفرض السيطرة السياسية ، وعندما حل القرن الخامس عشر سجع حكام لوديا بالفصل في آليات حلهم لفن الدعاية . وفي القرن السادس عشر تحققت لهم خبرة فعلية بهذا المجال .

وإنشاء أواخر عصر النهضة عرف حكام فنيسيا الأصبقاء والأعداد على النبوء الرسالة التي يهدفون الى نشرها ، بالاستعانة بالأعمال الفنية والاحتفالات التي كان يوسع الكافة التفرج عليها . واتسيد بفضل الجمهورية ومزاياها في عبارات فصيحة ميطنة بالمداخلة على المسارح العامة ، بينما نفت الممارسة السياسية الفعلية - غالبا - وجود مثل هذه الفضائل ، وفي هذه العروض السخية التي ليد أن تكون قد أسرت المشاهدين ، ويهت أبقاء الطبقات الاجتماعية النخيا - قارن الحكام أنفسهم بالهة الرومان ، وحقت صناعة الأساطير في أعلى درجاتها على نحو مباشر الموضوحات السياسية للحكام ، وساعدت أيضا على تحقيق وحدة المتشاعر الوطنية والأعزاز عند جميع أهالي فنيسيا ، بغض النظر عن الاختلاف في الطبقة الاجتماعية ، وأمنت الدعاية الرسمية مكانة الحكومة كما جندت المييلة .

Images of Power · Art and Pageantry

American Historical Review

نشر بمجلة

نلا عن مقال ومعاون

In Renaissance Venice

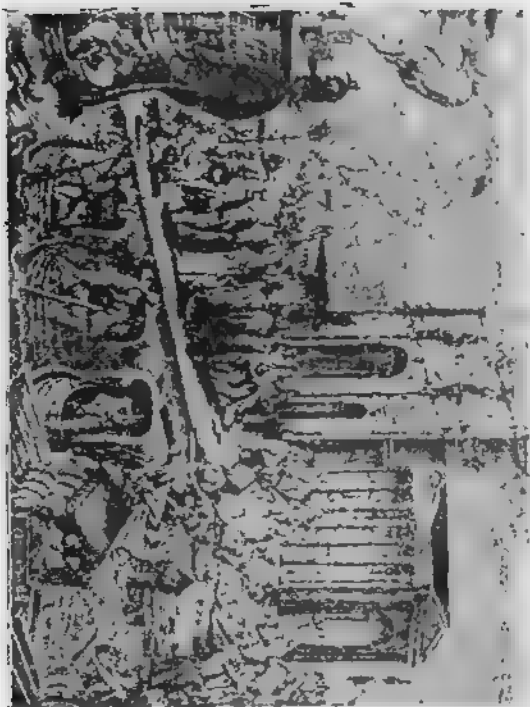
الجزء ٨٨ ( ١٩٧٩ ) ص ٤٢ - ٨٣ .

يحظر الى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن السادس عشر على أنها تمثل العصر العظيم للبروز الاحتفالية الفينيسية . فلتد استهوت الأساليب التبنيد يفانيسها صفوة الحكام الذين عنوا بتقديم صورة للقوة والجلال في الساحل والمخرج في مواجهه التهديدات الخارجية لفنيسيا ومكانتها الامبريالية الدافعة الصيت . وبدأت هذه التهديدات بصياع قبرص ، واستيلاء الأتراك عليها ١٥٧٣ . ونقش الطاعون بين ١٥٧٥ و ١٥٧٧ في أعقاب الكارثة . وتسبب في مقتل ما يفوق ثلث السكان ، ونسح الدلاع النيران ١٥٧٤ و ١٥٧٧ التي دمرت قاعات اجتماعات المستشارين في قصر الدوقية . وأثارت جميع هذه الأحداث الاوتاليب فيما يقال في وصف فنيسيا بالدينية الفصيلة عند الله . واستجاب النبلاء للستولون عن التخطيط بالنقد بفتكرتين فييتين : الفكرة الأولى تدور حول المياينة بين مسعود فنيسيا الكاثوليكية المحافظة وديانسس الهراطعة المحاتلي والكفار الأقوياء الذين همداو أوربا . اما الفكرة الثانية فقولها للقارة بين موقف فنيسيا وكفاح امبراطورية روما عنفما صمت الصقوف لواجهة البرابرة . وحقت الفكرتان الفاية المستوددة - فلولا أهل قيسيا لما كان من المستبعد أن تسقط روما عن بكرة أبيها صريحة بسيف الأتراك . أو تعرض للانحراف بالبحر لسو البرونستانتية ٤ .

وحملت سبعينات القرن السادس عشر أسماء طيبة . ففي أكتوبر ١٥٧١ ، تمكنت أساطيل دولة البانا واسبانيا وفنيسيا ، وبعض القوى الكاثوليكية الأهلون شأنا مجتمعة من إلحاق الهزيمة بالأسطول التركي بالقرب من لبيانتو على خليج باتراس في البردان . وفي الاحتمالات البهيجة التي أقبعت في قيسيا اتبع تقليد مصوير فنيسيا كمثلة للفضائل الدينية بالاسماعة بالصور المشخصة لآلهة الرومان وأيضا بالصور التي سحر من الأتراك بعد هزيتهم . وقور في إحدى اللوحات (٢٠) دين بيوس الخامس وميليب الثاني والموج ( بعد تصنيفه بالاله بتون ) بالفضائل الرئيسية : الابنان والأهل والكرم . وفي نفس الصورة ظهرت لوحة لثلاثة فيان طلمتون تبنيا ضحما يحمل شعاع الهلال فوق رأسه كرم لسلطان الأتراك . وفي اللوحة الأخرى (٢١) بالصورة ظهرت اشكال يمثل الايمان . وروما واسبانيا والموج والنصر وكانتيا مستطبة غربات النصر - وهذه لوحة كلاسيكية أخرى . وفي احتفال أقيم فيما بعد في الريالتو . أقيم هرم يشع بالنور ويغور على محور ، ويحمل نماثيل ولوحات لستون وحويتير وزحل ومارس .

(٢٠) لوحة Scuola grande + ألوح لف حاكم فنيسيا Alvise Mocenigo

(٢١) لوحة العولمة . Solaro



١ - زيارة حيزي الثالث للبيضا

وعلى الرغم من فقدان قبرص ( أعني الممتلكات الشرقية لفينيسيا ) في معالوضات السلام مع تركيا ١٥٧٣ . إلا أن بعثات التهليل المصاحبه للسواكبه الاحتفالية قد استمرت . فمثلا راز الملك هنرى الثالث ملك فرنسا فينيسيا ١٥٧٤ قبل تنويجه ملكا شديدا التمسك بالمسيحية ، بعد أن أمضى عاما تمسا كملكك ليولامة ، أقيمت حفلات ترفيقيه على شرفه أنفق عليها بحد شديده ، وتميزت بما اشتهرت به فينيسيا في عصر النهضة من ولع بالهريج والأناقة ( انظر اللوحة ١ ) . وصنعت ساحه المآذب الملكية قوسا للنصر ومماثيل من السكر - وأقيمت الرغبات التي وعزت الى الاشادة بفصل القريسيين عن حساب الأسيان - وقام بتخطيط هذه الرغبات فريق من السلا يصم اثنين من المعروفين باهتماماتهم الانسانية ، وبرعايتهم للصل بالادير - وبذلك حققوا الحواصة بين التوايا الدبلوماسية للدولة والرموز والامامات الكلاسيكية الجديدة الضميمة . وكان العمل الفني الرئيسي الذي أقيم بمناسبة الاحتفال بالريارة قوسا (\*) للنصر من الخشب استماه ناداديو على شاطئه اليلدو ( فينيسيا ) ، وقام بزخرفته الفنان فيرويز والفنان تينتوريتو كمحاكاة لقوس نصر شهر بروما (٢) . ووضعت لوحة بحل شعاري فينيسيا وقوسا تبنت اسمع تشالي النصر والسلام ، وأحيط القوس بلوحات تمثل المارك التي كسها هنرى في حربه ضد الهجوت ، وساعلت الصور الكلاسيكية على ارمز المعري العام للتكريم بالتعبير عن معنى عسكري ومعنى آخر ديني قوي . اد كانت فينيسيا هي الشريك الطبيعي باعتبارها حصنا مميحا وحطا دفاعيا اماميا في مواجهة الأتراك ( الكفار ) مثلما كان الملوك القريسيون هم الحصة المقداني للقضية الكاثوليكية ضد الهرطقة -

ويلاحظ أيضا الحساسية والتقدير الشديدين في أواخر القرن السادس عشر للروح اللولية في مقابل الولع بالمبهريات فحسب في الصروس الاحتفالية . فلقد منحت فرصة ذهبية عندما راز بعض النبلاء البابايين فينيسيا ١٥٨٥ بعد اعتناقهم للمسيحية حديثا على يد مبشرين من فينيسيا ، منحت لتقديم دراما تعليمية - وأحلت الكوليجيو الموكب الذي كان يقام سنويا احتفاء بعيد القديس ماركو ( ٢٥ يونيو ) حتى يتوافق هو ومهرجان الأعياد الثلاثة للقديسين بطرس وبولس ، وفُتحت بإيقاف المساربات والمحفلات المأخذه التي تقام عادة في منتصف الصيف حتى يتمنى للمدينة إقامة حفلات دينية ماسمة لتكريم القديس . وشملت صرحا روعي في ضميمه أن يتقايه والمسرح ، لكي يروي فيه التاريخ المقدس للمهدين

القديم والحديد محاكمات القديسين والشهداء ، واسمعناوا ثلاثاثة قلوب  
لقل صناديق النعائس المقدسة . ونام ستة من الرهبان النوميكان  
والفرنسيسكان وطوائف دينية أخرى برسم لوحات حية تعرف اليابايي  
حقائق العقيدة المسيحية ، وتعرفهم - فيما لذلك - بالكتابة المتميزة لعيسيا  
في المخطوط الالهى - وتصممت اللوحات الشخصى المألوف لعيسيا كذلكه  
محاولة بالفصائل وجنوع القديسين . كما كانت هناك محاولات لتفسير  
بعض الموضوعات المعقدة مثل الاسطورة المحلية التى تروى عن اهداء  
القديس مرقس حاتيه الأسقفى الى صياد صيبي ، وما قام به سيديا مملكان  
لائيات حكمته وتراثه ولكنه سما ( يلقبس ) وعملية تمديد قسطنطين  
وما عرف عنه من حجب على الفقراء . وحلت في مائل عند توليع معاهدة  
السلام بين الملك فيليب الثاني والملك هنرى الرابع ١٥٩٨ ، والتي أنهت  
سنوات العلاء بين القويى الكاثوليكيين والمطبيين ، ودرست لوحات يهدم  
المناسبة غلبت عليها الموضوعات الكلاسيكية والدينية والرموز المعقدة التى  
تمثلها . وانصمت الطائفة الكاثوليكية بكنيسة القديس مرقس مجبوعة من  
اللوحات التى ترمز الى القارات ، وتصممت صورا لفتيات مستطين ثورا  
وجملا ونمسايا ووحيدا للقرن ، ويمثل أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقيا وأمريكا -  
وفى مجموعة أخرى اقام معه ديسى آخر (٥) معرضا ياسبيا لاقام آتد ويكشف  
عن شروء الحرب . ولم يكن يقدور أى شاهد أوجه العنور على الكلمات  
المناسبة لوصف آلاف الرموز المخلصة التى تقلد الاضطراب الذى أحدثته  
الحروب على الأرض ، فأربا نتموى بعض القويى التى غمرت البحار وانتصار  
الموت على جيعة الصحايا واختراى القلاع والقصور واختلط جندى لقتام  
ضخمية وسورات المضرب المازمة التى احتاحت الكرة الأرضية ، وبذلك  
أصبحت العروض الاحتفالية سلاحا يرويا وسياسيا من أعلى درجة -

وهناك مثالا آخران يسمعان على تصوير مدى لأعليه للمظاهر  
الاحتفالية كإداة سياسية . ويوجد المثل الأول فى أواخر القرن السادس  
عشر عندما استعوى بالاحتفالات كوسيلة لتحطى الحواجز الجبهودية .  
وسماعت الاحتفالات فى المثل الآخر على استعادة المصادقة فى فترة من  
فترات الأزمان المملوامة . وفى ١٥٩٧ أعلن ماركو حريمانى بعد  
انتخابه بمسئور دوحا - وكان يشتمع بشعبية عارمة عند عامه الشعب  
- حطله لإعادة احياء الممارسة التى عا عليها الرمان . لتتويج ، ووحته  
فى احتفال رمسى نرف فيه الى عصر العوقية ، ومن ثم قامت الكوليجيو  
الخاصة بأعضاء مجلس الشيوخ بتعيين مشرف على الاحتفالات للاشراف



٢ - تنويع النوجة في فينسيا

على التحصينات ، وشكلت لجنة من سفار البلاه لاعقد وسائل الترفيه والتسلية ، وبويلها • وكلفت النقابات بمسئولية انشاء سراقق للبروص في القصر اللوثي • وكشفت تنويج • الدويجة • ( انظر لوحة ٢ ) عما يشهده لتساقضات • لأنها لم تخرج بالفعل على الاطلاق • ولكنها قدمت - عوضا عن ذلك - قائمة من • الوعود • • فلقد اتسمت على الحرس على اتباع القنود الرسمية على مسلك اسره النوح • ومع هذا فان أسرة جريمانى وموروڤينى قد حولنا مناسبة هذا الاحتمال الجمهورى الى استعراض للمجاهد • فلقد كلفت جماعة شباب البلاه فيستنسو سكاوڤزى تلمذ بالاديو بتصميم مركب كبيرة للايجار عن القتال الكبير عملة النويجة موروڤينا موروڤينى وجريمانى في مركب مصحوف بخاشية كبيرة من مياه الاشراف • وقزيمها الصغرى • وصمت التحليات التي تحطت بها المركب اعمدة صحت عليها صورة لبتون وهو يخطى ذيل حوت وكرة • ومشهد يمثل القديس مرقس يمسح وهو يتوج النوح وغريسته • وهما راكبان • هنا ايضا حدثت مشكلة تتعلق بسلطات اللوق • اذ تجاهل مسلم مشهد تنويج القديس مرقس وزوجته حقيقة قيام الماشين بانضحاب جريمانى لهذا المصعب • فلم يكن القديس مرقس مساعدا للنوح • كما ظهر في النسخة المنقحة للصورة التي رسمها فيرونز للنوح سبستيانو قبر (٣) • كما ان النوح لم يكن مثالا للمحتم • عندما ظهر في حالة تصرع للقديس • وكان ما حدث هو اختيار القديس مرقس - بصفته الشخصية - ملاديو وموروڤينا جريمانى لحكم • الصورة • !

وعندما نزلت موروڤينا جريمانى الى الساحة ( المياڤيتا ) اختزلت قوس النصر الذي اقيم لتعجيد الامرتى • واعتلى القوس شمال لمرأة ( يمثل فينيسا ) وهي تحمل صولجانا ( يمثل السلطة ) وحرمة من اللال ( تمثل الرخاء ) واحيط الشئال بحسوة من اللوحات تصور ممتلكات فيسبيا • واستكمل رموز الوظائف التي تشغلها ذرية آل جريمانى وآل موروڤينى • والتي اتخذت اشكال تيجان ملكة ودوية وقيمات الكرادلة وصولجاناب الاساقفة والصليب الطوريكى وزواير قادة الجيش واسلحة الاسرتى • وهناك اشارات للانزادة سلالة النوح جريمانى كبعوث للبابا • وايضا هناك اشارات لكرمه كممثل للادعاء • ولعدائه بوصفه حاكما لاحدى ولايات الاقاليم • وتكرر نفس المسمى في صور متنوعة عندما اتجهت النوحة عبر سراقق النقابات في طريقها الى القاعة الكبرى بالقصر اللوثي • واجتهد آل جريمانى اعتمادا كبيرا على المظاهر الاحتمالية في قلب النظام التقليدى

لتتويج الدوحة . ونحولت الطقوس القديسة التي تقسم فيها بالولاة الى مسئلتها للسلطة الشرعية الى مهرجان ملكي يندد بالتقاليد الجمهورية التي تسعى لتحقيق المساواة بين الأشراف والطبقة الأوليغاركية ( الأثرياء ) التي تسعى للانسان الى الأرستقراطية . ولم يكن بغيره جريسياني أن يطالب شرعا أثناء حفل تتويجه . بأن يتمتع بالسلطة التي كان يأمل الحصول عليها . ولكن المظاهر الاحتفالية المدروسة بعناية قد أقصحت بلا موارع عن طموحاته عند تتويج زوجته .

والمثل الأخير الذي يصور الدور الفعال للمظاهر الاحتفالية مأخوذ من الحادثة الشهيرة تاريخيا عن «الشهرة السياسية» لفرنسا ناهر والتنحور الكبير للمثل الجمهورية عند الممارسة إعادة تركيبها من الناحية النظرية . ونمل هذه الدفاع النظري عن القيم الجمهورية أكثر من التتويج بالحياة السياسية لفرنسيا هو الذي أذاع شهرة «السريسيما» (\*) في شبي أنحاء أوروبا كمثل أعلى للحياة في ظل النظام الجمهوري . فلقد ذاعت شهرة فرنسيا « كمنافع عن الحرية في النظام الجمهوري » على حد قول أحد المؤرخين ، وبخاصة في البلدان البروتستانتية ، بفضل مقاومتها الحمية لمتدخل البابوي في الشؤون الداخلية لفرنسيا . وبلغ الصراع بين فرنسيا والبابوية أوجه عندما حرم البابا نول الخامس فرنسيا من رعايته من ١٦٠٦ الى ١٦٠٧ . ويرجع تاريخ دفاع فرنسيا عن نفسها الذي امتنع طويلا الى هذه الحادثة التي عبرت عنها قصيرا بلغا كتابات القس باولو سارابي الذي حاجي ببساطة ضد الرغبة المزعومة التي نسبت للبابا عن محاولته إقامة نظام ملكي عالمي . ولكن تثبيت الحكومة للعالم تحتها بولاء رعاياها حتى في المسائل الدينية ، فانها عجلت الى إقامة احتفالات مصحوبة بالطقوس متجددة لذلك الحظر البابوي .

وهكذا أتاح الموكب (\*\*\*) (١٦٠٦) الفرصة لاقلمة عرض يست المقاربة الشعبية لأوامر الحظر . وينشر العناية الماهرة للبابا . ووجهت هذه المظاهر الى حد ما ما دفع السر هنري ووتون (\*\*\*) الى الاشارة بها ووصفها « بأبهى موكب شهدته المدينة » . وهرا به حاكمو لامر تدعو الجاسوس اليسوعي وبعته بالموكب القمص (\*\*\*) . واشتركت حشود القسس العلمانيين وطوائف أخرى في الموكب وقامت « السكولي جراندي » برسم العديد من اللوحات التي تضمنت مشاهد بوعت بالمطالب المبقولة للجمهورية من البابا

La Serenissima.

(\*)

Cornus Christi.

(\*\*\*)

Sir Henry Wotton .

(\*\*\*)

Spettacolo miserabile .

(\*\*\*\*)



والتى ذكرت تلميحا كالعادة السائدة حينذاك - ولصحت اللوحات بوجه خاص الى الفروق بين السلطان المقدس والسلطان العلماني الذي يمس عليه اهل فلسفيا قضيتهم - ووقف أحد الممثلين في قارب مرتديا ردا يمثل المسيح وكتب على المتصلة التي وقف فوقها شعار باللاتينية نقلًا عن انجيل مرقس : « اطل لقيصر ما لقيصر ولكه ما لله » وفي قارب آخر ، بدا للمسيح وهو يذكر الرسل بان نفوسهم لا تبسح لهم اغتصاب سلطان الملوك الذي يمس لهم الت في مسائل البشر التي يحسن علما الأرض . وحادث أكثر الإشارات صراحة الى حماقات البابا في وصف الكنيسة بأنها كنيسة متناعية (\*) يساعدها دوج فلسيا بمعاونة القديسين الومينيك والفرنسيسكان - ووقف على كلا جانبي الكنيسة قسم آخرون يشبهون سيوفهم العريضة وقد نقش عليها « نفا الموى » .

وحاء المركب صربية ديبلوماسية موفقة - فمنما سلوت الصبورة في المركب قبل ذلك بتسعة أيام في « بيتي كوست » غير مصحوة بأي سفير من السفراء الأحادي . وانتشرت الشائعات بتخطي اصغفه فلسيا عنها وارادات غطة الحشود الشربة عنها تاجر ظهور السفير الفرنسي والسفير الامبريالي في احتفال العيد . وروي السفير الانجليزي ووتون ما جرى مقال - « في تصوري هناك حينئذ لهذا المظهر الوقور غير العادي - الاول - هو الحفاظ على تعلق الجماهير بالمرسلات وولاتها الأعلى لهذه الحفة من الأشخاص . السبب الثاني - لكي يعرف الباي ( ولديه ما لبه الكفاية من الاستخبارات ) بأنه رغم قراراته التحظرية ، عاد لديهم ما يكفي من النفس وغيرهم من وحال الدين القادرين على تحقيق كل ما يتفق من هذا اليوم » . وحقق المركب - طاهريا - عهد الفايك ، وساعد على تحويل زمام الدبلوماسية لصالح فيلسيا .

وعكذا تحولت المظاهر الاحتفالية ايان القرن السادس عشر الى صبورة بلج بنا منذ به الأحداث ومرتاة عامة تنكس صور القوى السياسية . وحل هذا القى محل الفنون الأخرى كوسيلة سياسية ، ولكن طابعه الطبع والقادر على التكيف على أنحاء شتى . قد استهوى من تدربوا على حكم الآخرين - وزودت المظاهر الاحتفالية أهل الصقوة في فيلسيا بوسيلة بارعة لتعطيق شمار ما كيا قياى الذى رأى تفوق المظاهر على الحقائق في التاكيد على الحماهير .



في جميع ما ناقشنا من أمثلة ، قامت الفنون بالاقتراح عن أفكار سياسية بالاستطاعة الاستمارة بها للقياس عليها . فلقد سمي للفنون اعتمادا على الرمز والاستمارة من رفع شأن أية فكرة سياسية - مهما كانت رخيصة أو محطلة للشخص أو دالة على التفاف - الى مستوى عال ، مما جعل الدورات يتشابهون هم والقديسون ، وصورت الآلهة على أنها بضطلع بدور توجيه عجلة الحرب أو الدبلوماسية - أما فينيسيا ذاتها مظهر إليها كخلاصة للفضائل اللاهوتية والسياسية والكلاسيكية ، وعلى الرغم من أن الصورة قد تغيرت ، وانضمت الآلهة الوثنية الى المسيحيين في باتيون المدينة ، إلا أن القياس والمجاز قد ظل قائم ، ولم تكن مثل هذه الطريقة في الاستدلال غير مألوفة لأن أغلب الفكر السياسي في عصر النهضة - حتى ما وضع مختطفه أصحاب أرحح المقول - قد اعتمد على اللغة المجازية كقولهم مثلا : « جسد الملك » « مركب الدولة » « وزيعة البحر » ، لكشف النقاب باستعمال لغة الأدباء عن متصينات أي حيداً معطى أو تجريد . وقد عثر الكثيرون - يقينا - الى هذه المقاربات نظرة الجد ، ولكن ربما كان من الصعب معرفة الى أي حد أثرت مثل هذه العادة في المدركات والقرارات السياسية العادية - ففي أية حقبة تاريخية ، ليس في مقدور شخص واحد - ومن المحتمل أن يكون من المتصور تحديد التوازن الصحيح بين الأيديولوجية والمعتقدات والموضوعية ، وهو كل منها في الحرف لا يجاز قتل بالذات . ومع هذا فالظاهر أن الأيديولوجية قد قامت في فينيسيا بدور بارز بين مؤيدي النظام ومعارضيه ، وفي احتجاجات عصر النهضة الأساسية ضد العادات الديكتاتورية للحكام الأوليجاركيين . ونظر الى الممارسة دائما على أنها عملية لاستمادة التوازن التقليدي لمسئوليات واختيارات جميع الأشراف . واستعان المضرضون بهذه الكليشيهات المستهلكة للنظام الوطني للمحاجة ضد هذا النظام ذاته -

لعل أهم صفة للنجاحية التصويرية السياسية في الفنون هي قدرتها على الإقناع - وقامت الصور المرئية بمداينة الإيمان فسيطرت القصصا السياسية ، وصحتها ، بأن تعاجلت الوقائع المثيرة للاعتراض ، ووصت الرموز التي تربط بين الأفكار ، والتي قد لا يكون بينها أية علاقة منطقية أو واقعية . ولقد عثر أحد الكتاب (٣) على ميل اقناعي مماثل في الكتب السياسية التي ظهرت في القرن الثامن عشر . وهناك أمثلة أخرى من السياسة قد ترجمت على نحو ما الى فن يمكن بالتأكيد اكتشافها حتى في وقتنا الحالي . غير أن الفن لم يبد في نظر القسيسين على عهد النهضة

مجرد دعوى أو شرح للقضايا العامة أو مجرد تعزيز للفروق في المكانة والندوة في سلم المراتب . ولكن القنون قد قامت - بالأحرى - بالنزويد بتعقيبات على النظام السياسي والاجتماعي برمته ، وبخاصة على طبيعة الفروق الطبقيّة وإميازات النبلاء والمؤسسات المتوارثة المكتسبة ، وإذا أمكن رد الفن في فنيصيا إلى شيء ما أشبه «بلوطيقة» لكان يومنا آتد اعتبار وظيفة تفسيرية . إنه كان قراءة على الطريقة الفينسية للتجربة الفينسية ، أو بمثابة قصة قلوا بروايتها بأنفسهم عن أنفسهم .

ونجد العلاقة بين رعاية القنون والسلطان السياسي مشكلة أقل مراوغة . إذ حرص أغنى الأفراد الذين يشغلون أسمى وظائف السلطة على الحفاظ على سيطرتهم وحرمهم على جميع الأفكار السياسية في الفن . فلم تظهر سوى أصوات تافهة من علم الاتفاق عن الصور السياسية في القنون كالاختلاف حول طريقة تصوير سلطان الدوج بين أولئك الذين احتلوا الحلقة المحيطة من الأفراد الذين كانوا يتبادلون الوظائف العامة فيما بينهم ، ولأد بالصبغ لفراء النبلاء والقلّة المميّزة (\*) ( التي تمثل المستوى الأدنى من سلالة أهل الصفوة ) وجموع الشعب المحرومة من التصويت - ولربما كان الفن في وقت ما هو اللغة المماثلة بين الشعب ، كما اعتقد برسون ( برنارد ) ، ولكن ثمة جماعة صغيرة من الأقوياء كانت قادرة على اختيار ما ينبغي أن يقال . وفي القرن السادس عشر ، ازداد اختيار هذه الجماعة للفن لم يكن يتعدى غير قلّة من المثقفين قهها : قسا الذي يعرفه المسيحيون وساقو الجنود عن يوبتر ومارس والإيجرامات اللاتينية ؟

إن هذه الصفوة (\*\*) لا تنير المشعة - فلقد بين علمه الإنثروبولوجيا كيف يسيطر الأقوياء في أية قرية في الكثير من المجتمعات التقليدية على الظواهر المقبولة بوجه عام والأكثر حليمية . ولاحظ مورس بكهام قسا يتعلّق بالجميع العربي أن «الفنون السامية» قد ارتبطت دائما بمراكز القوة ، وساعدت على توطيد أقدامها . وضاعى الوهم الحديث الذي يزعم أن الفنانين يسمون أن يصنعوا بالإماتة مع أنفسهم ، وأن لا يسموا أي شيء - الحقيقة بكل لفظاتها وبلاياها ، - على حد قول فاننوت - فطاقة الحقيقة التي أثبتت أن الفنانين لا يتصورون بالحياة إلا تما لارادة أولياء صحتهم وزبائنهم ويريدهم . وما يعرف عن الأقوياء الذين يرفعون القنون السامية أنهم قلما كانوا يهتمون بالحقيقة لذاتها . فلا موضع للفرد البوهيمي في قيتسبا على عهد النهضة . وبلاستثناء قلائل من الدوجات ، فإن القنون لم تمجد تفرد النفس ، وتساعد المأوضة الشخصية إلى دور اجتماعي

متوارث ، ولكنها كانت تعنى مطالب المجتمع من الفرد ، وتقدم تصميماً للنظام القائم .

بطبيعة الحال ، حدثت بعض تغيرات في طريقة الاستعمال السياسي للفن في القرن السادس عشر في فينسيا . فقد كشف انتشار المظاهر الاحتفالية وقبول الأسلوب المتين والأيقنة (\*) ، والاهتمام بالاستثمارات الوطنية التي ظهرت في القرن في أعقاب حرب بحالف كمبراي - ان لم يكن حدوث تماظر بين مبادئ ومطالب الصفوة « بالويليتا » ( النبالة ) فانها كشفت على أقل تقدير عن بزوغ حضارة لم تلق ترحيباً من الفينيسي المادى مماثلاً لقبوله وترجييه بحالم الأسطورة الدينية الفينيسي والقيم المدنية العامة التي كانوا يدعون لها في المابر في كل موعظة في الكنائس ، ومن الواضح أيضاً ان الاهتمام بالحضارة الكلاسيكية لم يكن على أى نحو مائلاً لامتصاص الراسمالية اليوجوازية ، ولكنه كان أقرب الى رفضها كقيمة صائفة . وأخيراً فان هذه التغيرات في فن الفؤلة الفينيسية قد عبرت عن حساسية جديدة بين البلاء دفعتهم الى تصور امكان تسخيرهم جهاز الدولة لفرض قيمهم وامتيازاتهم الحضارية على المجتمع برمته . وبعد هذا التصور - بطبيعة الحال - تصوروا ناقصاً لما سماه مؤرخون كثيرون « بركة التصغير » . ان ما سيطر على التحول الفني في فينسيا بكل وضوح لم يكن تنظراً في الأحوال الاقتصادية أو الاجتماعية يمكن اتبائه تجريبياً ، بقدر كونه ادراكاً للسلاسل لوجود تغير . فهل كان للنظرة للعالم التي ورثها النبلاء دور في تكوين الواقع بحيث لم يكن باستطاعتهم ادراكه على أى نحو آخر ؟ لم تظهر غير دلائل قليلة لماضيهم الأسطوري البطلون في واقع القرن السادس عشر في فينسيا . ولما أنهم لم يشعروا بالأمان نتيجة لذلك فهذا كان أمراً طبيعياً - ومع هذا فقد ورثوا عن أسلافهم أيضاً علاجاً لحالة عدم الأمان - يصح اختراع الأساطير . ان بدأ لهم التعامل وصوروا أكثر تألقاً للقوة جزءاً من صميم ذاتهم وولاه القوة .

---

(\*) Iconography . { دراسة كل ما يمثل عبداً عن طريق دراسة الرسوم والتماثيل } .

## المراجع

- D. S. Chambers — *The Imperial Age of Venice (1380-1580)*, 1970.
- A. G. Dickens (ed.) — *The Courts of Europe : Politics, Patronage and Royalty : 1400-1800* — (1977).
- Clifford Geertz — *Centers, Kings and Charisma : Reflections on the Symbolics of Power* — in *Culture and its Creators* ed by Joseph Ben David 1977, p. 150-171.
- Ralph E. Gieryn — *The Royal Funeral Ceremony in Renaissance —France*, (1968).
- Werner L. Gundersheimer — *Ferrara : The Style of a Renaissance Despotism* (1973).
- Johan Huizinga — *Homo Luden* — *A Study of the Play-Element in Culture* (1930).
- William H. McNeill — *Venice : The Hinge of Europe 1081-1797* (1974).
- Edward Muir — *Civic Ritual in Renaissance Venice* 1981.
- Brian Pullan — *Rich and Poor in Renaissance Venice* (1971).



## الرهبان واليهود

### جيرمي كوهن

ترعت الكنيسة في بواكير عهدها ، انبعاثا لتعاليم الكهنة الممسطين  
التي التسلح مع اليهود • كما قامت البابوية تقليديا بحمايتهم • ولكن في  
القرن الثالث عشر ، تبع هذا الاتجاه كلية • فقد شجب البابا جريجوري  
للتاسع التلمود واليهود الذين تمسكوا بقعاليمه باعتبارهم قد اتحدوا عما  
جاء بالتوراة • وبينما أعلنت البابوية استعدادها لمواصلة حماية اليهود  
« التوراتيون » ، إلا أن هذا العهد قد أثبت أنه عهد خداع وسار بعد أن  
صممت البابوية على القول بأن مثل هؤلاء اليهود لم يجد لهم وجود •

وعكس الهجوم على التلمود باعتباره مرفقة تطورا كثيرا من الكنيسة  
في القرن الثالث عشر ترعته الأنظمة الجديدة للرهبان المستجدين •  
واتصب جهد هذه الكنيسة على امتلاك اليهود من أوروبا • وهناك عاملان  
ألهما هذه الحرب الصليبية : الأول - هو توقع ظهور المسيح مرة أخرى •  
فقد أتى الإيمان اليساوي (\*) ، بعد أن اشعلت نبوءات الراهب الكالابراي  
بواقيم من نبوءي الحماسة لكفر المسيحية في أوروبا ، واعتناق جميع أهلها  
لها ، وتبد كل من يقاومون هذا التيار باعتباره آخلاقا للمسيح المجلد •  
وأهم من ذلك ، فقد بزغت فكرة جديدة عن الكنيسة في القرن الثالث  
عشر مؤداهما اعتبار كنيسة روما أكبر من مجرد نظام بابوي ، لأنها  
تتمثل رسالة تخص « للعالم المسيحي برمه » • وقد تطلع الرهبان إلى  
تحويل أوروبا إلى رابطة مقبسة تتبع المسيحية والذين يثولوا اليأس لروما •  
وبذلك ظهر تصور لاموتى جديد للمجتمع كوحدة عضوية • ولا موضع في  
مثل هذه الرؤية للمتشقين والكفار ، وأصبحت الضرورة تحتم إما أن  
توافق هذه العناصر القريبة هي والأمر الراهن أو تكيد •

خلا من مقال The Friars and the Jews كتيبه Jeremy Cohn

ضمن كتاب Evolution of Medieval Anti-Judaism س ٢١٢ - ٢١٣ •

( جامعة كورنيل ١٩٨٢ ) (٥) Mendanic .

وعندما أدان البابا حريجورى التاسع ( ١٢٢٩ ) التلمود ووصفه بالانحراف عن التراث انثروائى اليهودى . فانه فى أغلب الظن لم يتصور الآثار الهامة لتصريحاته على سبيل الأبحاث التاريخية . فما كان بوسعه أن يتوقع أنه يكلفه قد أقر بداية نزع الأيديولوجية قد يرتكن عليها فى تبرير محاولات استبعاد الوجود اليهودى من عالم المسيحية . وأن ما قام به كان بمثابة ابتعاد جبرى عن الموقف الأعظمى القائل بأن اليهود يحتلون مكانة محقة وضرورية فى المجتمع المسيحى . على أن ابتعاد حريجورى للاختلاف بين ديانة اليهود المعاصرين واليهود التوراتيين الذين رغب أنغسطين فى السماح معهم . بالإضافة الى بدء البابا الذى قال فيه ان الايمان بالتلمود « هو السبب الأساسى الذى دفع اليهود الى التمسك بمعتقد يعلم الوفاء بالعهد » فد وضع الأساس الهام الذى استند اليه كل ما جاء بعده . ففى الأجيال التى تلت فى أعقاب مشاحنات باريس ١٢٤٠ والحرق المبدئى للتلمود ١٢٤٢ واصل أعضاء محاكم التفتيش فى شتى أنحاء أوروبا عملية اضطهاد المؤلفات الرابانية (٥) . وادغموا اليهود على الخضوع لمواعظهم الملتهبة . وعندما سنتحت لهم الظروف غالبا ما سموا الى القضاء الكامل على المجتمعات اليهودية المتنوعة . وفى بواكير القرن الرابع عشر . أحرقت برنارد جوى (٥٥) التلمود حتى فى علم وحود اليهود . وفى ذات الوقت . وبعد أن أصبح الهجوم على المبرانية الحاخامية عملا ثابتا للتصاعد لمحاكم التفتيش . قامت المفوضة اللومبكية الأساسية لرابيوند دى بيدافورتى بتخصيم الاتهام الموجه لليهود وتلمودهم بالهرطقة . وفى غضون عدة عقود . بعد أن أتم رايونود ماونيتى كتابه « حنوخ الايمان » جمعت جامعة باريس براعيته ونشرتها فى المحاضرات اللاهوتية التى ألقاها نيقولاس من ليرا . وأخيرا اتجه نفر من اللومنيكان والفرنسيسكان الآخرين الى اتساع الأيديولوجية الجديدة . وحاولوا عرس فكرة بيد اليهود فى الضمير الأوربى . واضطلع بهذا الدور رايونود لول فى حملته المحكمة لتبصير اليهود . ودعوته الى الخلاص من يرقضون التعميد . وتبعض بهله المهمة أيضا فى عطايتهم المسيحية (٥٥٥) اومرحو فى كتابه المزين بالصور عن الشعر الرومانتيكى . وبرتولت فون ريجزبورج (٥٥٥) وجورنانو ريفالتو (٥٥٥) .

ومن المترف به علم استطاعة هؤلاء الرهبان رعاة قرن من الزمان من تعديل نظرة جميع للمسيحيين الى المسألة اليهودية . فلم تحاول البابوية فى العصر الوسيط من الناحية الرسمية المطالبة بإقصاء اليهود الأوربيين .

---

Sol. (★★) rabbinic (★)  
 Meïtra Eisenstadt — Pugio Fidei. (★★★)  
 Berthold von Regensburg (★ ★ ★ ★)  
 Giordano da Rivalta. (★ ★ ★ ★ ★)



أو محديهم جسدياً - واستمر بعض الغموس في اتباع الطريقة العتيقة في المجادلات المناهضة لليهود ، والتي لم تكن مرتبطة باليهود والعبرانية في أيامهم إلا برباط وله سسياً - وعكف حتى رجال المومنان والمونثيسكان على تأليف كتب من هذا النوع الذي يسم نفس المجادلات من حين لآخر ، غير أن استمرار بقاء الاتجاه القديم ضد اليهود لم يحد ، أو لم يحل دون التوصل المتواصل للاتجاه الجديد ، والتأريه - وعلى الرغم من أن البابوية كانت تحمي اليهود من الحاجة الرئيسية ، إلا أنها كانت مصطرة إلى الاقتصاد على حماية من نواقض والتصور الأعطشني الكلاسيكي لأنصار النوراة ( العهد القديم ) ، وإن كان هذا النوع من اليهود لم يحد له وجود - فمثلاً أضاف البابا أوشتي الثالث لتفسيره لتعاليم البابوية (٦) التي ضمنت لليهود حقوقهم وحرياتهم في مطلق المجتمع المسيحي شرطاً جديراً بالاشادة : - ومع هذا فانا نود أن يقتصر من يشملهم هذا الفرمان بالحماية على من لم يصلوا إلى التأخر ضد العقيدة المسيحية - وتبعاً لتقدير الرهبان المعبرانية الحاخمانية ، فإن مثل هذا التمهيد قد يعني استبعاد تسمية كبيرة من اليهودية الأدبية ، وإن لم يكن يستبعد اليهود الأوروبيين جميعاً - وفي القرن الرابع عشر ، كاد الفرمان - بوجه خاص - والتمهيد بالحماية البابوية لليهود - بوجه عام - يفقد تأثيرهما الصل - أو كما بين حديثاً والنز بادر - بينما صبح القول بأن معاملة اليهود تعد لما جاء في مؤلفات المشرعين قد تحسنت بالفعل إبان القرن الثالث عشر . إلا أن هذا الأمر قد اقتصر على النواحي القليلة الأهمية لليهود المعاصرين كالانجاء في العبد من غير اليهود - ولم يشمل على المسائل الحيوية مثل حق الدراسة وتحرر المؤلفات الحاخمانية .

وشخص بعض المؤرخين هذه التطورات بقولهم أنها قد كشفت الفجوة القائمة بين الحاجة النظرية والنسبية العملية في السياسة اليهودية في أواخر عهد الكنيسة الوسيطة - وهو تافه قد أدى إلى أحداث اضطراب في صفوف المجتمع المسيحي ودفعه إلى اتباع طريقة اعتد في التعامل واليهود - على أن ما تكشف لي فذمني إلى اعانة تحطيد أوجه النقص واعتبارها قائمة بين اتحامين أيديولوجيين مختلفين - الاتجاه الأعطشني ، واتحاد الرهبان ، وكان للمعان في أواخر العهد الوسيط على اليهودية المعاصرة ما يبرره من الحاجة اللاهوتية - ولوق ذلك فقد كانت صلة المستعدين (٦٦) والموام في أوروبا أوفق من صلة البابوات والمشرعين معاً

Slout Judeah.

(٦٦)

الغوس الذين يجمعون على الاستجداء والتسول .

mendicant (٦٦٦)

ساعدهم على اتباع ايدولوجيتهم في المعاملات المباشرة مع اليهود وساعدهم  
ايضا على التعبير عن مشاعرهم عند التعامل مع جمهور اكبر وأكثر تنوعا .

وباستثناء من القرن الثالث عشر ، وبعد ذلك ، استعمل المدونون  
المنهضين لليهودية في أوروبا . فلأول مرة ظهرت صورة اليهود كمصلين تشطب  
للسيطان ، واتهموا اتهامات لا حصر لها بمعاداة المسيحية وعالمها والمسيحيين  
كأفراد . وظهرت لأول مرة في أوروبا ابان القرن الثالث عشر ادعاءات  
القدس كشيخة متنازعة عن الإتهام الأقدم بالتكيد بالظنوس واتهامات تديس  
القربان للقدس . وفي هذا القرن ، صور اليهود في الفن المسيحي على نحو  
يكشف بقدر ملحوظ ارياد المدون والنقير بعد أن ظهرت أول أمثلة  
لجموعة الصور المرذولة ( التي صورت اليهود يرشون من حملة خيرية )  
بالإضافة إلى شيوع تصوير اليهود بصحبة الشياطين . واحتفت الصور  
التي صورت اليهود كجيرانهم للمسيحيين ، كمجرد رموز في دراما التاريخ  
الديني ، وتحولوا إلى أعداء خبيثاء للمسيحيين والكنيسة . وكثيرا ما كانوا  
يظهرون في هذه التصاوير كنماذج للبرطقة . وبدأ طرد اليهود الأوروبيين ،  
واستمر بلا انقطاع . وما أن جاء منتصف القرن الثالث حتى بدأ توجيه  
القول لليهود بعد تفشي الطاعون في البلاد أمرا لا مندوحة منه . وأيدت  
طوائف عديدة من اليهود إبادة كاملة في ألمانيا . وفي منتصف القرن  
السادس عشر ، خطت معظم بلدان غرب أوروبا من اليهود . ونظرا للتأثير  
الهامم للدين على الشعب في أوروبا الوسطى ، لذا يصعب الاعتقاد باحتمال  
حدوث تغير في الأوضاع لو أن الكنيسة استمرت ملتزمة باتباع السياسة  
الانغليكانية التي تدعو إلى التسامح واليهود واستبعاد التصفية الكاملة  
لليهود في غرب أوروبا . فليس من شك أن حدوث تغير في الاتجاهات  
اللاهوتية المسيحية نحو اليهود ليس بمفكوره وحده استبعادهم من المجتمع  
الأوروبي . إذ كان دور الرعيان ضروريا بصفة حيوية ، لأنه كان ميسماعد  
في نهاية المطاف على اصطلاح العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية  
بلورها .

ولقد أفاضت الكتابة التاريخية اليهودية الحديثة في الحديث عن  
محنة اليهود ابان القرون الأخيرة من العصر الوسيط . ولن يساعد أي إسهاب  
في الكلام عما تعرضت له الطائفة اليهودية في أوروبا الوسطى من انحلال  
عن بوشيع ما نرى إليه توصيفا بناء . وبدلا من ذلك ، أرى أن سطر من  
سباق أرحب في أمر الايدولوجية الجديدة المناهضة لليهودية عند الرصان  
المستجيبين ( المتديكتين ) والموجة ضد العبرانية المناهضة في القرن  
الثالث عشر ، ونسائل من أين بعثت ؟ وما الذي أدى إلى حدوث الهجوم

اللاهوتى من قبل المنديكيين على العبرانية الجامعة في القرن الثالث عشر ؟ • وهناك احتمال يرى أنه لا كان الرهبان كثيرا ما اعتصموا على مطالب الطبقة المتوسطة المسيحية واستجابوا لها فلما قلعهم شعروا بالحقه والنقمة - بطبيعة الحال - على اليهود الذين سادوا طويلا الكثير من ميادين التجارة وعمليات الاتراض في أوروبا الغربية (وكانوا إلى جانب ذلك من المكافر) وساعدت حالة الكنيسة في بداية القرن الثالث عشر ، والتي لعب فيها الرهبان دورا حاسما على زيادة العداء نحو اليهود • غير انه وغم ما في هذا التفسير من اقتراپ من الحقيقة ، إلا أنه لم يبين القوي الفكرى لهجوم الرهبان المستجدين على اليهود - وما من شك في أن البداية الفعلية للمواجهة بين الرهبان واليهود قد اعتمدت إلى حد كبير على ظروف عرضية عابرة كعصبة أحد اليهود الذين أقتنوا أسرار مؤلفات موسى بن ميرون إلى محكمة التفتيش في بروكس ، أو قد يرجع ذلك إلى انتقام أحد الرهبان مثل بيغولاس دونين • ومع هذا وعلى منتصف القرن الرابع عشر ، فإن هجوم الرهبان على اليهود لم يمد يصره بمرضيته أو خضوعه للمصادقات - فالتد مثل محاولة متعددة من قبل جماعات الرهبان المستجدين (المنديكيين) لتخليص أوروبا من العبرانية الممارسة - كما الذي جرى في المو القديس وفي غير أوساط المفكرين ودفع الرهبان إلى التخلي عن الاتجاه الأعسطنى السابق والاتجاه إلى هذا الاتجاه المختلف ؟ وإذا راعينا أن اليهود الأوربيين قد عاشوا دوما تبعا لتعاليم التلمود - وهذا حقا ما حدث - فما الذي حصل ودفعهم على حين غرة إلى اتباع اتجاه جديد صنف الدراسة الجامعية بالهرطقة وبأبها لا يمكن لها في عالم المسيحية ؟

لعل أحد العوامل التي سببت في ذلك هو الأشغال المترايد بفكرة اقتراب الآخرة (\*) وبمختلف النظريات عن تعاقب المصور في التاريخ الانجالي للعالم - فلقد اعاد كثيرون من الكتاب المهم في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الاهتمام بالطريقى القديم بتقسيم التاريخ إلى عصور • ولا يخفى أن أهم هؤلاء الكتاب وهو يواقيم القلوى ( ١١٣٥ - ١٢٢٢ ) قد غرس في بقاء كثيرة من أوروبا فكرة توكع حدوث نقلة وشبكة إلى العصر النهائي الأكمل للروح ، وكما يست ملاحولى ريفس (\*\*) وآخرون ، أن هذا الاحساس بحدوث تغير وشيك كان متواثما حتى في كتابات كثيرين من المحصوم الرئيسيين لفكر يواقيم • وقد صمم هذا الطريق جماعة من الوعاظ وتقرأ من القرنين سبكان الذين ظلوا يتصورون اتجاهها محافظا خلال المشاحنات الملهية للعصر • ولقد عكس روجر بيكون ( المشهور بدواعته )

Salvific.

Harvey

(٣٤)

{٢٠٢}

وبيقولاس من ليرا ، ناثير يواقيم على مؤلفاتهما ، وكان يوناثستورا الذى كان بالذات من المدافعين عن السحرة الفرنسيسكانية ضد أنصار يواقيم ، وهاجم نظرات يواقيم فى علم نعاط ، كما لاحظت ريس « من أنصار يواقيم » « ونحنا عنه »

وعادة تتضمن مثل هذه الأوصاف لنهاية العالم كذلك التى فاه بها يواقيم وتلك التى اتادها تركه يواقيم بحل جميع الكفار عن اديانهم واعسابهم للمسيحية . ومن ثم يصح القول بأن التوهمات للمسيحية ( ) قد اسهمت فى الروح العامة الفاعية الى اعتناق المسيحية التى عرضها الرهبان خلال القرن الثالث عشر . فلما كان من بين جميع التفكير يفترض أن اليهود هم على رأس القائمة التى يقصى اعتناقها للمسيحية لذا يحتفل أن يكون كثيرون قد نظروا الى عملية نصرهم جملة واحدة كوسيلة لتخليص عالم للمسيحية من المبرانية كهمة ملحة يتعين القيام بها لتعميد الطريق أمام الخلاص النهائى . وهكذا اتخذ تفنيد أساطير اليهود طابعا أشد عسوانية أكثر مما تصف به عندما كان يقصد به أساسا « الاستهلاك » داخل المجتمع المسيحى . وقد استعمل يواقيم نفسه - التى نسيب أهمية خاصة لتتصير اليهود فى بيانه لليوم الآخر - هذا الارتباط بين هذا الضرب من الجدل وبين الأخرويات - إذ كتب مبهما لمعادلته ( ) : « فكر كثيرون في الرجوع الى الأسفار المقدسة لمواجهة الغباء المتيد لليهود ، لأنه إذا لم يوجد من هو قادر على صده من يهاجون إيماننا ، فإن الفرصة ستصبح حين ذاك لإعلاء الصليب المسيحى للسحرية من سلطة من يؤمنون بالمسيح ، وسبعاني هذا النفر من ضلالت القول من القضاء على إيمانهم . واثنى أود أن أعارض هؤلاء ( اليهود ) وخباياهم لا من أجل هذا السبب قصص ، وإنما أيضا لأننى أعتقد أن الوقت مناسيب للاشفاق عليهم ، يبنى لمواساتهم ونصيرهم » .

واستنتج بعضهم احتمالات اوضاع مهادنة اتروشتنى لليهود الى ترقعه للمرتد ( ) . وعندما عقب الفرنسيسكى الروحى بتر أوليفى على المرتد ، فانه طالب أبناء طاقته بالتبشير فى صفوف اليهود . ولما كان اليهود قد وصلوا تقليديا بأنصار المسيح النحال ، لذا ربما يكون الاقتراب الوثنيك للمعركة بين هؤلاء الأنصار وقوى المسيح قد أضاف بعدا جديدا للمهادنة ضد اليهود .

Mendicant

(\*)

adversus Iudaeos

(\*\*\*)

apocalypses

(\*\*\*\*)

والظاهر أن الاتجاه الجديد نحو اليهود قد تزود بقوة دافعة أبعد من ذلك من الموضة المتصاعدة في الموائز الكنسية التي اعتنقت أن كنيسة روما ليست مجرد مقر للبابوية ، أو مجرد شريعة محدودة للبابا في عالم المسيحية العاصم للصبغ الروحي والسبب الرسمي ، ولكنها بالأحرى تضم عالم المسيحية بمختلف خلفها وحشود المؤمنين<sup>(\*)</sup> . ولقد احتلت دوما فكره الكنيسة ككيان يعمل على كل انزواطين مكانة بارزة في اللاهوت الكاثوليكي ، ولكنها بدأت تحدث تأثيرها الأكبر على الضيق الأوربي بعد حركة الإصلاح الجريجورياني والحلاف حول أسلوب تقليد المصائب الدينية في القرن الحادي عشر . وعندما حاولت الكنيسة تعديل مسار عالم المسيحية في أوروبا تبعا للاتجاه الجريجورياني ، فإنها طالبت أيضا باحتلال مكان الرئاسة في هذا المجتمع ، فاقصت الحكام الدينيين وحطت من مكانتهم وأرسلتها إلى مجرد مكانة قانونية من حيث السلاطين والأهمية . وحدث نزوع للنظر إلى المجتمع في جملة كوحدة عضوية يصمد ميرر وجودها على السعي لتحقيق الوحدة الكاملة للمسيح على الأرض في نهاية المطاف . وفي نطاق مثل هذه الوحدة ، تقاس كل شئرة أو كل وحدة من مكوناتها من منظور غائي . فلا يقتصر الأمر على وجوب بهوص كل مكون من الكل بمثل الكل ، ولكن عليه أيضا أن يجسم في مسنوى ميكروكوزمي (مصغر دقيق) مثل الكون الأعظم . وهكذا وتبعا لذلك تكون الطبيعة المسيحية لهذا الكون الأصغر قد حدثت ضرورة الخضوع لحكم من أحسنوا تأمل هذه الطبيعة . ولما كان المسيح في حياته يرجع في كلفته من حيث القيمة والأهمية على كافة أبنائه مجتمعين لذا فإنه يصد أي سماح للزعة الفردية أو الانحراف في نطاق المجتمع في شموكه ، ومن ثم فافتنا نرى كيف عبر أوتو جبركه عن هذه الحالة بقوله :

« هذه هي الصفات الثيوقراطية والروحانية التي تجلت في المذاهب الوسيطة للمجتمع . فمن ناحية - أن كل تنظيم للمجتمع البشري لابد أن يظهر بمظهر متحاب والوحدة المصوية في مدينة الله<sup>(\*\*)</sup> التي تضم السماء والأرض . ومن ناحية أخرى - يجب أن يكون الهدف الأبدي والأخروي لكل فرد على نحو مباشر أو غير مباشر هو الذي يحدد هدف كل جماعة يشترك فيها » .

واقترب من التحقق هذا التصور للعالم المسيحي وما يتضمنه من نظام حكم قائم على الترتيب الهرمي ، إبان النصف الأول من القرن الثالث

عشر الذى بدأ بالبابا انوشتى الثالث ، اذ ساعدت محاولات انوشمتى لاصلاح الكنيسة ، وحملاته ضد مختلف أعدائها . على تحقيق الوحدة الكبرى للعالم المسيحى تحت اشراف البابا . وتحدث كثيرون عن انوشمتى فوسفو بأنه قد تفرد بكوره البابا الذى افسح فى علاقاته بالملك الدنيويين عن المزايم البعيدة للسيادة البابوية للعالم . ولكن وينقض النظر عن طريقة تقييمها لمزايم انوشسى عن السلطان الدنيوي ، فان رغبة البابا فى توحيد المجتمع المسيحى لم تبرز صراحة الا فى المجمع المسكونى الرابع(\*) الذى دعا الى عقده ١٢١٥ . فلم يقتصر انوشمتى فى دعونه لهذا الاصلاح على القسيس الكاثوليك ، ولكنه دعا أيضا بعض عامة الناس وممثلى البيطريكيان اليونانية الأربع الى هذا المجمع العظمى ، لانه قصد أن يكون هذا الاجتماع مثلاً صحيحاً للعالم المسيحى فى جملته ، وأسفر هذا الاجتماع عن تحديد مسئوليات عالية ، كاصلاح الحماة المسيحية وقسح الهرطقة وتنظيم الكهنوت وشن الحروب الصليبية ، والعديد من المسائل الأخرى . فلا عجب اذا دعيت مثالية انوشتى واقباله الى تصور الوحدة المسيحية ككيان عضوي، وسمحت لها بالقيام بدور فعال فى التأثير على أوروبا فى القرن الثالث عشر .

وتكشف الاهتمام الكاسح بالتنظيم الشامل الصحيح والوحدة الوظيفية للعالم المسيحى فى العديد من المظاهر فى المناخ الروحاني والعكرى للعصر . وأوضح العديد من مؤرخي الحضارة كيف نطسب الاهتمام بأحداث توليفة موحدة فى جانب الكشف الفكرى والنواحي الابتاعية الفردية على حركة الهيومانانية فى عصر النهضة فى القرن الثانى عشر . انها الحركة التى افسحت المجال للفرقة اللدوسية ( الاسكولائية ) فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ما اصبحت الاتجاه التركيبى والاصلاحى فى ميدان العلم ، منسباً مع المبادئ الفلسفية والمنطقية ، على رأس منجزات الكتاب المدرسيين . وظهرت بين علماء لاهوت القرن الثالث عشر نزعة لاعادة تفسير الموضوعات التقليدية للطبيعة والحياة الالهية ، حتى يتزايد الاهتمام بالحياة فى هذا العالم . وسواء نظروا الى هذه الظاهرة بصطور القديس فرنسيس الاسرى ومحاولته الحياة تبعا لمبدأ التقوى الانجيلية باعتزال المجتمع - وهى طريقة فى الحياة تركز جل اهتمامها على الجانب الروحى فى الطبيعة - أو نظروا اليها بصطور توما الاكويى ، وتقديره للخير الكامل فى الطبيعة ، فاننا سنرى أن النزعة اللاهوتية الجديدة قد سمحت بتضييق الغروق بين الجانب الروحى والجانب الدنيوي فى الحياة اليومية ، وإن

كانت قد حثت على محاولة توحيد جميع جوانب الفرد في سعيه لتحقيق  
 المثلى الدينى الأعلى . وبمكس حتى طراز المصارف فى العصر الذى عبرت  
 عه اكمل تعبير الكاتدرائية القوطية الاحتفال الجديد باحداث توليفة تضم  
 التجربة الانسانية فى شمولها . وتبعا لما كتبه أحد الكتاب : « لعل  
 الكاتدرائية مبيهم مغزاها فها افضل لو تظر اليها كنموذج للكون الوسيط »  
 وكانت الشفافية اللاهوتية لهذا الكون هى التى حولت السودج الى زهر » .

وعندما ركز كل انسان فى شتى مجالات الابداع الفكرى الانسانى  
 على الوحدة الوظيفية لعالمهم . والمستندة على فكرة كلية كنيسة روما -  
 فقد رأى كثيرون انه من المناسب تسمية المجتمع المسيحى فى جعلته بالكيان  
 الروحانى للمسيح(\*) . وابتان القرن الثالث عشر ، شاع استعمال هذا التعبير  
 الجارى للدلالة على المجتمع الذى يضم جميع المؤمنين بدلا من دلالته على  
 جسد المسيح كما هو متضمن ووجبا فى «السر المقدس» (\*\*) كنتيجة لريادة  
 التشييت بمذهب «التجسد» الذى أدى الى وصف القربان المقدس بالكيان  
 الروحانى للمسيح . وفى القرن الثالث عشر ، بزغ الفلاسفة وعلماء  
 اللاهوت والمعاير الى الاعتراف بمواحدة تصور الكيان الروحانى للمسيح  
 للتعبير عن تصورهم لعالم المسيح . وسرعان ما اتجه كثيرون الى وصف  
 «المواحدة» على نحو سائل . واثبت المصطلح قاعدته فى الاطلة بالنهاية والطبيعة  
 الحقيقة والتكوين الثالى للمجتمع المسيحى . كما هى منعكسة فى المجتمع فى  
 شموله ، وفى طريقة عمل كل عنصر من مكوناته . وفى ديباجة قراوات  
 المجمع الرابع فى لاتيران تشير الى تأييد المجمع لهذه النظرة :

« هناك كنيسة عالية واحدة للؤمنين ، لن يشتر أحد خارجا قط  
 بالامان . وفيها يضطلع يسوع المسيح ذاته بدور الكاهن والفضية فى  
 ذات الوقت - فجسده ودمه محتويان فى القربان المقدس للتدبير فى شكل  
 الخبز والخبز . باعتبار الخبر قد تجسد فى الجسم والنبذ فى الدم بفضل  
 «القوة الإلهية» وحتى نبلغ سر وحدة ( المسيح ) الكمال . يوسنا نحن  
 أنفسنا أن نلتقى منه ما تلقاه فى ميبلنا . وليس بمقدور أحد النهوض  
 بهمة هذا الشأن الربانى ما عدا القس المرسوم طبقا للطقوس الدينية ووفقا  
 لتعاليمات الكنيسة التى منحها يسوع المسيح نفسه للرسول وخلفائهم » .

وعندما قدم المجمع هذا البرنامج فى قراراته ، فإنه أعلن فى ذات  
 الوقت عن عالية الكنيسة ، ووحدةها ، وربط بين هذه الوحدة وسر تجسد

Corpus mysticum christi.  
 Sacrament.

(\*)  
 (\*\*)

جسم المسيح . وشدد على المور الاسامي للكنيسة في البلوغ بهذه الوحدة  
الكمال .

وحنفيا عبر توما الاكويتي عن هذه النظرة بقوله : « ان الكنيسة  
المقدسة قد وصفت بالجسم الروحاني الواحد من قبيل التشبيه بالجسم  
الفرثاني للانسان » . اكتسب هذا القول أهمية خاصة لوجود توافق بين  
العهد الذي سادت فيه واعادة استعمال تصور التكامل العضوي أو الاتحاد  
على غرار الشخصية المموية، في نظريات السياسة والدور العربية .  
ولما كانت الصورة الاثرومورفية قد توأمت هي ومصطلح الكيان الروحي  
ويعني الاتحاد(\*) على حيز وجه فسر على ما استعارت الصورة الاثرومورفية  
جزئيات تصورات كيف يتعين أن يمثل العالم المسيحي ؟ . وعكسه  
المشرعون الكسبيون في القرن الثالث عشر - بوجه خاص - بحكم اهتمامهم  
بتضمين النظام المناسب للعالم في نظمهم التشريعي على استعمال تصور  
الكيان الروحي المنحد فجعلوه أساسا لنظريتهم في النظام الموناركي  
البابوي . فكما تحكم الرأس الجسد ، كذلك يتوجب أن تكون كنيسة روما  
محاكمة يرأسها . أي بالمسيح . وينبئ البابا على الأرض . ومنطق هذا  
التكوين السلطوي مستمد بطريقة مباشرة من الأهداف الخلاصية للمجتمع  
المسيحي . غالبا هو المسئول الأخير عن صالح الأرواح المسيحية ، ولذا  
لم يعهد للمسيح بمسلكه على الأرض لأحد خلاف تابعه ( معنى البابا ) حتى  
يتسنى لحبح المسيحيين أفرادا وجماعات الاسهام بفاعلية في الرسالة  
المقدسة للكنيسة . وتحقيق خلاص المؤمنين .

وهكذا ترجم مفرد القانون الكسبي الأفكار الجارية عن وحدة العالم  
المسيحي إلى قانون وقطرية تنص على تمتع البابا بكامل القوى - وقضلا  
عن ذلك ، فقد طالبت البابوية بالتضوع المباشر للحكام الزمانيين الذين  
هددوا أهدافها . فلم تتردد مجلة مرات عن تجريد الامبراطور المشاكس  
فردريك الثاني من نفوذه وسرمائه من رعاية الكنيسة . وطالب البابوات  
بسلطات تشريعية وقضائية أوسع لتطبيقها على المسيحيين ، وأجسا على  
الكفار . وأصدر البابا جريجوري التاسع ١٢٣٤ أول تشريع رسمي  
للقانون البابوي لتؤكد من تيسير ادولة ممتلكاته . وعلى الرغم من أن  
محاولات البابوات لم تنض يلا معروضة بأي حال ، إلا أن اتجاهاتهم  
الموناركية قد أثبتت كيف استندت الحكومة إلى الوعي الذاتي بفكرة العالم  
المسيحي خلال هذه الحقبة المستمدة من المجتمع المسيحي العالمي على  
الأرض . وقد استخلص البابا بونيفاتس السابع هذا الارتباط ، ولعل



قانونه(\*) قد أقصع على نحو بالغ الصراحة عن المرامم البابوية الوسيطة في القوة والسلطة عندما قال :

« لما كانت هناك كنيسة وسولي وكنائس مفسدة واحدة ، لنا فتحن مزمعون بالاعتقاد في وجودها ، وحيثما إيماننا على ذلك - وعلينا أن نحترف بكل بساطة بها ، وبعدم امكان الخلاص أو غفران الخطايا من غير طريق الكنيسة » - كما صرح راعيها في « الأناجيل » - « الواحد هو يمامتي التي تتمتع بالكمال ، فهي الوحيدة من بين تلك التي اختارها بعد أن حملتها » ولتي تشل جسدا روحيا إلهيا رأسه المسيح ، بينما رأس المسيح هو الله - ففى هذه الكنيسة هناك سيد واحد وإيمان واحد وعباد واحد ، فعندما حدث الطوفان لم يوجد أكثر من سفينتين واحد يمثل الكنيسة تتحرك بفصل مجيئ دواع واحدة ، وللهذه السفينة ماسك واحد لتلطفه وربان واحد هو نوح - وقد قرأنا أن كل ما كان خارجها قد تعرض للتهلكة - لذا فليس هناك غير رأس واحدة - وهذه الرأس هي الكنيسة الوحيدة ، وليس هناك رؤسان ، كما هو الحال عند الوحوش ، معنى هناك للمسيح وعماونه بطرس ومن خلفه » .

وعندما أصدر البابا بوفاتشي السابع قراره السالف الذكر ، تم تكن الحقائق السياسية في أوروبا الغربية ملائمة لهذا المثل الأعلى الباعى الى الاكتفاء بنظام بابوي موحد كامل يسود العالم المسيحي ، كما لبت أن تصاعد تصورات القومية المتمايز ، وظهر لمالم الوجود - ومع هذا فقد ناز الجدل ، وقيل انه خلال القرن المنصرم جنح عديفون الى تخيل سيادة الوحدة على الكثرة في المجتمع السياسى - ولو صغ ذلك ، فيمقتضونا أن نتوقع قيامهم بالتعبير عن ولائهم لمل هذا العالم المسيحي في شكل مشاعر أشبه بالمشاعر القومية والوطنية - وعلى وجه الدقة ، إبان القرن الثالث عشر ، أدرك العلماء ظهور أول علامات للقومية الوطنية في أوروبا الغربية في قوانين المبر والسليب دعايته - وعلى نهاية القرن ، عندما بدأت السلطة الموناركية لئبابوية في الانحلال أصبحت كلمة « باتريا » تدل على كيانات قوية مثل امجلترا وفرنسا - غير أن فكرة « الباتريا » والولاء ( التي كانت تسمى آنذا بالوطنية ) قد ظلت دوما تمثل دوافع هامة في لاهوت الكنيسة - وتمشقا مع ذلك ، رأينا انرنست كانتروفتشى يحاكي ويقول : « على أقل تقدير ، يؤمننا أن ننظر فى احتمال حدوث ذلك » . وقبل أن تحقق للنائب القانونى والانسانية تأثيرها كاملا ، كان التصور الاقليسى الحديدى لمعنى الوطن ( باتريا ) قد نما كنتيجة حائية لاعادة صيغ

(\*) (٢٠٢٢) / nam sanctum .

التقليد المسيحي بالصيغة الملمانية أو الدنيوية - ووضح القول أيضا بأن الشعور الوطني الجديد قد امتدح إلى قيم أخلاقية منقولة من « الباتريا » في السماء إلى السخلمة على الأرض - وزيادة في التخصيد نقول أن كانتروفيتش قد بين أنه كما حدث في إحدى نظريات البايوتس (٢٠) فإن بزوخ مشاعر الوطنية لصالح النظام السيلسي كانت مستمدة أيضا من الميل الجادى لنظر إلى العالم المسيحي « ككيان روحي » - ولقد اتبعت الوطنية أيضا - إلى حد ما على أقل تقدير - من تصور العالم كوحدة على غرار وحدة المجتمع المسيحي العالمي -

وفي أى مجتمع ملنرم بالمثل الأعلى للوحدة الطموية ، ويطالب جميع أبنائه بالمشاركة بدور لاسطر هذه الوحدة التى تحدد مثله الأعلى وطريقه تنظيمه على غرار الجسم الإلهى للمسيح ، والذى يعمل ( من الناحية النظرية على أقل تقدير ) ، كنظام موداركي مركزى يصل تحت إمرة نائب المسيح على الأرض ، والذي ساعد على ظهور الشعور الجارف للوطنية لصالحه ، فإنه لا وجود لأى موضع فى مثل هذا النظام للكفار - ولقد ساعدت هذه السيارت في الفكر السيلسي والدينى في القرن الثالث عشر على بويثة المناخ المناسب - يقينا - لاستبعاد اليهوديعنى الكفار ، الذين تمتد جذورهم في الأرض امتدادا عميقا في العالم المسيحي - ومع هذا قلل بعض تطورات أخرى قد وقعت عملاء الكنيسة - مثلا فعل الرحيان - كتنقيح عن جوهر المبرانية المعاصرة ووضع نظرية الهرطقة اليهودية التى بررت انقطاع التسامح السابق الذى نادى به الأغسطينيون - فلهذا بلغت سلطه النظام الكسسي لروما ووحدها أوجها خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وعلى أواخر القرن وأثناء القرن التالى ، فأنها اتجهت في طريق أقرب إلى الانحلال بالمراد - وعمما أسست بالتهسيات ، الوشيكة - مثلا جعلت في حالة معظم الامبراطوريات عندما تبلغ ذروة قوتها تضعفها - من القوى ذات الطرد المركزى ، والتى تؤدى إلى الانكماش والانحلال ، حاولت الكنيسة حماية المكاسب التى حصلت عليها ، وصعدت إلى تحصين نفسها في قمة سلطتها ، وكشفت في ثلاثة أنحاء عامة أقصى أساليب التقاع التى عرفت عن الامبراطوريات المنهورة -

قائلا وبينما كانت الفقة تبحر تحقيق الوحدة الكاملة للعالم المسيحي تضم المحاولة الماوسية ( الاسكولائية ) لإنتاج تراكيب فكرية تعكس هي ذاتها هذه الوحدة ، فإن الفروح الدفاعية للقرن الثالث عشر قد كشفت عن نفسها في محاولتها التحكم في الفكر الالسماني ، وتنظيمه - فنظر إلى

الأفكار ، وإلى المتعديبات التي لا توافق مواجها دقيقا هي وأفكار المؤسسة  
 الكنسية على أنها ضعف سلطان الكنيسة ، وتهدد بالقضاء على المسيحية  
 التي كافحت الكنيسة لتوطئها . وكان لا مفر من أن يدعو المثل الأعلى  
 للمجتمع (السموي أساسا) الذي سمي الكنيسة من أجله إلى ظهور بيانات  
 فكرية ولاهوتية معادية ، أدب بدوره إلى إرداء صراحة رد الفعل الكنسي .  
 ولقد رأينا بالفعل التعريف المايوي للهرطقة خلال هذا العصر ، وكيف  
 اعتزتها حرية حيانة ضد العالم المسحي . وترتب على ذلك ابتداء محاكم  
 التفتيش لمحاوئها - وكما رأينا ، فإن الهرطقة - يوجه عام - والهرطقات  
 المعاصرة - عرجه خاص - قد عازمت الكثير من الأركان الأساسية للمجتمع  
 المسحي الوسيط - وكل ما مسعى لنوصيحه الآن هو تأكيد الارتباط الكامن  
 بين محاكم التفتيش والرأس الديوي للجسم الإلهي للمسيح - وكما لاحظ  
 والتر أولمان ، ه يتبين فهم محاكم التفتيش المايوية من وجهة النظر الوسيطة  
 المعاصرة التي لم تعرف أية حرية للتصير أو الفكر في المسائل التي تمس  
 جوهر الإيمان ، ومن هنا أتى إحراج عن الإيمان ، كما حدده أثناسيا .  
 لم يعتبر فقط ضد السلطان القائم الذي رغم تعرفه باختكار جميع المسائل  
 المتصلة بالأسس الدينية للمجتمع » .

ولم تقصر المايوية اهتمامها على التعبير عن مثل هذه المرام الاحتكارية  
 في إنشاء محاكم التفتيش - إذ شهد القرن الثالث عشر أيضا ازديادا مطردا  
 في تحمل المايوية في شئون جامعة باريس ، ومحاوئله للسيطرة على  
 ميخزات أعظم عقول فلسفية ولاهوتية في أوروبا - ففي نظر الكنيسة ، -  
 كما لاحظ بويك(\*) ، ه الجامعة هي مومة المجتمع المسيحي ، وليست نظاما  
 منفصلا - فلما كان من الضروري منح الأفكار التي لا تتوافق هي والنظام  
 السائد ، لهذا فإن بمقلوبونا أن نقدر الحماسة التي صاحبت هجوم الكنيسة  
 على التلمود والعبرانية التي ترعاه . فاليهود عندما اتبعوا في حياتهم  
 تعاليم التلمود فانهم لم يتعوضوا بدورهم الصحيح في المجتمع المسحي .  
 وهذا يشتم إحراجهم هم ومنهم عن وحدة المسيح - وبمشا مع  
 الطاء الموعوم للعبرانية الحاخاماسه للعقائد الأساسية للمسيحية وأنصارها ،  
 فإن اليهودي الوسيط يكون قد أحدث تهديدا ربما كان أشد للعالم المسيحي  
 اللاتيني يفوق ما قام به الهرطقة الأسليون - وربما جاز القول بأن  
 البابا جريجوري التاسع قد أصدر لائحته التنظيمية الشهيرة لجامعة  
 باريس(\*\*) ، وحرم فيها تدريس النصوص غير الممهدة لأرسطو ، وأمر باتناع  
 ضوابط جامعة باريس وجامعة بولونيا باعتبارها الحص المياري القانوني

الأوجه ، وأشأ أول محكمة دائمة للتهتيس ، كل هذا قبل سنوات قليلة من المنع البابوي (٢) في معر البابوية .

وهناك مظهر ثانٍ للأجواء الدافعة التي استغناها المؤسسة الكنسية في القرن الثالث عشر ، ولعلنا نسجاً للاتجاه الأول ، يسمى الاتجاه للتخوف من كل مستحدث في اللاهوت ، ومهاجمة - من الناحية النظرية ، تعد صبح التعاليم المسيحية الأصلية مستمدة من الأسفار المقدسة ، كما فسرهما آباء الكنيسة وأباءناوات والمجالس الكنسية - ومالا يتوافق في نهاية الأمر هو والتوراة وتعاليم الكنيسة المأكدة ليس له موضع صحيح في البنية الدينية الوحيدة للعصر ، لأن مجرد اتصافها بالخطاة يحرمها من ادعاء الشرعية ، ويدل - بداية - على الهرطقة . ولا يخفى أهميته هذه النظرة في حالة اعتناء الرهبان على المبرانية المباشرة . إذ انحاز يهود أوروبا الوسطى إلى مذهب جديد في العقيدة ، بعد أن فقدوا حقهم في الوجود في العالم المسيحي الذي منح لهم سلفاً لتسليمهم بالمبرانية الدورانية العتيقة . ومع هذا فإن ظهور مثل هذه التعليلات لم تكن وقفاً على حالات التضامن بين الرهبان المستجدين واليهود ، خصوصاً مصادفتها في خلاف أمر تشابه هو والخلاف الأول في هجومه على اليهود ، وقرن في جامعة باريس ، ولكن الرهبان هم الذين صوروا في هذا المثل الأخير كتركيبي خطيئة انتداع أسما مسيحية . وأثناء الصراع بين الكهنة المستجدين والكهنة الديويين في جامعة باريس ، عبر الأساتذة الديويين عن نفستهم - بوجه خاص على مذهب المستجدين أو الاستجدائين لمظاهر العقر الملقح الذي تصور الرهبان أنه ضرورة مسبقه لتحقيق أعلى مستوى من التقوى . ورد الأساتذة الديويين على ذلك بأن السوراة لم تصور عيسى والمرسل كاشخاص يعيشون في حالة فقر مدقع ، وأن الرهبان عملوا تشبثوا بهذا المذهب فأنهم طعنوا في تعوى البابوات والقسس منذ عهد الكنيسة الأيكر .

وكتب ولهم من سان أمور ، وكان لسان حال أساساً للأساتذة انديويين في أحد مؤلفاته المأدية للرهبان المستجدين : عملها يسط أحد ضد الأسفار المقدسة ، وإذا دعا أحداً إلى أشياء لم تظهر في التوراة أو تستمد منها ، فإنه سيتصف بالريف ، بدلاً من اصافه بصديق الاعتقاد . ثم شرح ما يسته موجهاً كلامه إلى الرهبان :

هناك بعض وعاطف ميسر عندما حدثهم الرغبة إلى تعبير عقيدة الآخرين لكن يتقلوا طريقتهم الجديدة في الحياة ، فأنهم أنحروا بعض المستحدثات

الخرافية التي لم يرد ذكرها في مرات الكنيسة ، ولكنهم قدموا هذه المسحونات في مظهر يجعلها تبدو في مظهر المتعصب . . والظاهر أنهم يشهدون المحبة النافذة ، وفي هذا الصنف أولئك الوعاظ الذين (يصرخون) أصلا مقلدة أو مروية لثبوت لم يسبق ظهورها ولم يسمع بها أحد ، حتى يؤمن بها الكثرة من الناس . كما أنهم يمارسون تعاليد مستحدثة وهيبة لم يسمع بها أحد ، ويهيمون بمصدا واعين وجوبه عرضها على الكافة . وهذا يمارس والكتب اللاهية المقسمة والمؤسسة الشرعة والعرف الكنسي .

ويرد ولم متهما هذه الفعلية بمخالفتها لتصبيحة الفيلسوف الروماني سنيكا ضد الدع المستحدثة . فلقد اندع الرهبان هذه التعاليد الجديدة حتى يظهر من يسرون على الآخرين يكملهم وتواضعهم وتواضعهم على أن هذه المأثورات الدينية التي يطلق عليها المسحونون اسما كريما (\*) اما هي في الواقع من احراج اناس من البشر ، وليست من صنع الله ، وكان الانسب هو تسميتها بالخرعلات والمدسات ، لأنها في الواقع قد انتهكت كلمة الله الذي أنزل الدين الحق . فشلا وبالرغم من أن هؤلاء الوعاظ يحذرون المال كباقي الكهان النظاميين الآخرين ، وبالرغم من استعلاهم لقبول المبدأ علما تعرض عليهم ، إلا أنهم احسروا بدع الموز الاجبلي للتظاهر باعظم قدر من الكمال رغم معارضه وأحكام الكنيسة وتعاليمها . انهم يدعون في تعاليمهم ان من يتصف بالتقوى الحق لا يتعين أن يشتغل بالعمل البدوي، بل عنه أن يكون عالة على احسان أهل الصدقة حتى وان حرمت الشرائع صراحة التسول بلا موجب ، أو قد يدكروا من قبيل الزعم أن لديهم القدرة على الاستماع الى الاعتراضات في الأبرشيات التي لا يلزم أن يكونوا أربابا لها . ويستخلص ولم القول انهم نادواهم عن الأسفار المقدسة ، فإن أولئك الذين تظاهروا بالتقوى أو التدين ، وعندما يتحايلون بالدعوة الى تعاليد من هذا القبيل أو تماثلها مما يتعارض مع السنن الالهية والرسولية وبالعالم الآيل المقدسي فإنهم يؤدون دورا أشبه بدور الفريسيين عندما ظهرت تعاليم يسوع وما انتدعوه من معتقدات تظهر بمظهر التقوى وتسي الى كلام الله . وكما أصبحت تعاليد الفريسيين ( أول حركات التمرد ) عن التعاليد الأصلية للبراميس ، كذلك بالاستطاعة وصف مذهب المسحونين بالخرعلات . وعلى حد قول ولیم : « لا بنا لم تتلقها من السيد المسيح أو الرسل أو المجامع المقدسة أو شروح الكاترة المقدسين ، ولكنها أصبحت عن طريق دخلاء محدثين تبعا لأهوائهم » . ولقد نلت تعاليم الرهبان في احراقها أقصى الحدود مما دفع ولیم في نهاية المطاف الى تسميتهم

بالنسيجي<sup>(\*)</sup> ، الدين لا موصح لهم في العقيدة الصحيحة . وقد أثبتوا مدى ريف الوعاظ المستجدين ، ونزع بالمثل جيرار دابيل<sup>(\*\*)</sup> اللاعبة الكبير الذي حاد بعد ذلك الى تشجيع الاساتذة العلمانيين على اتهام الرهبان لانهم عمدوا الى تعبئة النعاليق المقدسة للأسفار بما اصافوه من محتجرات اسمائية . وتمشيا مع ما قاله حرار فان المذاهب الاحتجاجية المناهية الى الفقر قد سجلت شرعية مختلف المناويات وسلطانهم ، ومن هنا فقد استحدثت هذه المذاهب الرهبان على المحط من الهيئة المسماة بكيسة روما والوقوف في خطية الهرطقة .

ولا يخفى ان دوليم وجرار قد كتبوا بعد مرور سنوات على اول هجوم على التلمود في جامعة باريس . وليس مقبولنا ان نحاشي بالقول بان حملتهم ضد المستحدثات المقدسة للرهبان قد تعاقمت وتحوّلت الى مواجهة بين هؤلاء الرهبان واليهود . ومع هذا فان التشابه بين الاتهامات الموجهة انهاء الخلافين يبدو واضحة الى حد كبير مما يسعون الى الطي بانها لم تكن محض مصادقة . فاذا كانت الاتهامات الموجهة في بعض الخصومات لم تؤد على نحو مباشر الى اتهامات في خصومات أخرى — وان كان الاحتمال مازال قائما بتأثر الهجوم على الرهبان بالهجوم على التلمود — الا ان هذه الاتهامات قد استمرت ترمي نفس الانجاء الفكري السائد بين كهنة القرن الثالث عشر . فجميع الأفكار اللاهوتية قد احتاجت الى فحص دقيق لئلا يكتفى من توافيقها هي وتعاليم الأسفار المقدسة . كما فسرت وفقا لتقاليد الكنيسة . وتعدت للمعتقدات غير النابعة من الأسفار المقدسة بما يقال عن وحدة العالم المسيحي ، مما صعب تحيلها . لاذ كانت تحمل معاني جديدة ، وبروز التنديد باسم التشيع أو الهرطقة . فاذا سلمنا بهذا السياق ، سيكون بوسعنا تقدير سر حدة الهجوم الكنسي على التلمود الذي لم يكن مبرورا على هذا العهد .

وأخيرا هناك نتيجة ثانوية للروح الدفاعية للعالم المسيحي في القرن الثالث عشر اصبحت عند تحول المشاعر الشنيعة بالقومية الوطنية لصالح الكيسة النالية الى تعابير عن مذهب الفطرية<sup>(\*\*\*)</sup> . ولقد ظهر هذا المصطلح في الوقت الحاضر في أغلب الأحيان في كتابات المؤرخين الأمريكيين ، وان كان من الواضح ان لا يفرض هذا الاستعمال أي تحديد ضروري على مدى نفسه وامكانات تطبيقه . ويدل المصطلح على نظرة الى مجتمع ما لا يستلزم

Sectae.  
Gerard d'Abbeville  
Nationalism.

(\*)  
(\*\*)  
(\*\*\*)

اعتمادا عليها الاعتراف بمواطنة أى فرد تقع إسهاماته الأساسية وولائه ومثله خارج المجتمع ، لأن مثل هذا الفرد لا يقف على أرض صلبة ، ولأن هذه النوعية من الأفراد مهدد صالح باقى المواطنين - « والرغبة القطرية » حالة مخفية قد تكون - شعوريا أو لا شعوريا - وثيمة الصلة بالقومية ، وتمتد حدودها - كما هو الحال فى القومية - إلى الاحساس بالاشتراك فى الارتباطات المشعورية والتاريخ واللغة والعادات والدين ... الخ . والظاهر أن كثيرين فى القرن السادس عشر قد قفروا على القفزة القصيرة إلى مذهب « القطرية » مدعوعين بشاعر مسيحية عدوانية أو بدافع وطنى . فأننا قلنا إن أوروبا كانت مؤلفة من وحدة مسيحية كاملة ، سيطر فى هذه الحالة إلى كل من هو غير مسيحي لا على أنه غريب عن المجتمع المسيحي فحسب ، وإنما سرعان ما سينظر إليه على أنه عدو أيضا . وحضر المجلس الإسباني (٣) لهذه الحالة العقلية عندما قرر ، أن كريمة لله التى يحتفى فيها بأصحاب المناصب الدينية وتقام فيها شعائر القربان المقدس يتعين تطهيرها حتى لا تصاب بالدمس من تأثير الاتصال بين الكفار والمؤمنين . فالأحاسب أو الأغرب فى أى مجتمع منجاس يسيثون إلى وحدة المجتمع ، ومن ثم فانهم مصررون للمداء من جميع المواطنين الصالحين . وكما ذكر جون بوسويل حديثا فى المناصب بالشذوذ الجنسي ، فإن تطهير العناصر العربية وحده لا يكفى . فلا عجب إذا وأيضا حتى أولئك المسيحيين الذين اختلفت قيمهم المشحونة عن قيم الأغلبية يواجهن الاضطهاد والسد الاجتماعي فى أوروبا فى القرن الثالث عشر . وكما حدث فى الحركة القومية الجرمانية المتطرفة فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولئن سميت فى بروغ الاتهامات المباشرة للسامية وللمصاهرة التلمودية الشيطانية المعاصرة لليهود ، ولتى طالب باستبعادهم من أوطانهم ، أو فى حركة الإصلاح الأمريكى الكورى التى ظهرت فى بواكير هذا القرن . ولتى نبعت الكاثوليك لأنهم تخلوا عن حقائق المسيحية وعارضوا المثل العليا الأمريكية ، وارتكبوا جرائم لا أخلاقية اتسمت بالفتنة ضد المجتمع ، كذلك بدت حركة الاستقصاء المدتق للكيسة التى أدانت العنصرية الوسيطة معقولة نسبيا فى سياق مذهب « القطرية » . إذ كانت كنيسة روما أيضا مجتمعا يسعى لتحقيق وحدة وظيفية واستئصال الزوائد الثرية . وهاجمت هذه الكنيسة أيضا إحدى المحامات الدينية التى نساء إلى هذه الوحدة وتشوهها ، واهتمتها بنفس الجرائم الأساسية . الاسراف الهرطقى عن الأسفار المقدسة والنزوق والارتداد عن مثل المحسب والمؤمنين الأخلاقي وغير الطبيعيين على المواطنين . وقد ساعدت الرغبة القطرية كعامل مساعد - على أقل تقدير - فى تصاعد

أربعة ترى أن اليهود ليس لهم حق النفاذ في العالم المسيحي - وما دام ذلك كذلك فلن يصعب علينا تقدير حقيقة حدوث تزايد في حركة الاصطهاد النعسي لليهود أوروبا الوسطى ، واقصاء اليهود بالجلمة من البلدان الأوربية في نهاية الغزوان الوسطى ، والتي تبرزت بما صاحبها من استعمال في المضاعف القومي . وظهور حكومات نمثلية قومية .

ولقد ساعد المناخ العكري والروحي في أوروبا في القرن الثالث عشر بعد أن اصطنح بفكرة الوحدة المسيحية على خلق الوقت المناسب لظهور حركة انصاء حديثة لليهود . واعرفت البابوية المواركية بحقها في التدخل في خصوصيات المسائل العقائدية . وحج للمفكرين إلى المطالبة بإصدار تشريعات كنسية مباشرة ضد اليهود . وكما لاحظ سورون : فلقد ساعدت الحساسية الدينية المفعلة آنذاك على إباحة العنف لأهل أوروبا في معاملة اليهود . ومع هذا ، وكما رأينا ، لقد قاد العملية الرئيسية لانهاء هذا الاتجاه الجديد وتنقيته وتبريره الموهيكان والفريسيين . ويسمى أن لا يعتبر الدور الهام الذي بهى به الرعنان المستجفون وطائفة مستندة من نفس الجاهات ونفس المناخ في المجتمع الديني الأوربي الذي تحدثنا عنه : لقد وصف الباحثون للحدثون القرن الثالث عشر « بالعصر الذهبي للرهبان » لأنه على حد قول دافيد (\*) نولز :

« لقد أصحى كل من القديس فرسيسيس والقديس دومنيك - على نحوين مختلفين ، وأبنا متكاملان - على الكنيسة شكلا حديثا من الحياة الدينية . استهوى الشعب استهواء دافعا وجارعا ، واجتنب نوعا حديثا من المحدثين ، وأليم بدوره عامة الناس برسالة يضطلع بها لمواجهة الهرطقة ، والهرطقة . ولا يقتصر الأمر على أثر ظهور الرهبان في انقلا الكنيسة العربية من الإمبراطورية الهرطقة والانقسام ، ولكن لقد ساعدت الحماية الجديدة لنعمة والوعظ والاعتراف والاستشارة اليومية للرهبان على بث روح جديدة في المستوى القديس للمجتمع المسيحي ، وأدت دورا فعالا في انهاء الروح والوحدة الاجتماعية ، وبذلك عززت القوة الناعية لشرعية والمواع السياسية في المستويات الأصحى للحياة الكنسية . وبالإضافة إلى ذلك ، فلقد شارك الرهبان بدوره كبير في الإردهاو الرائع للمبغرة اللاهوتية للمذاهب . وترتب عليها أثر مردوج في عالم الروح . فلقد ذكرت الوعي المسيحي كيفية العيش على الأرض ، وبما ساد هذا العيش من محبة وقرر ومعاونة ، وضربت بذلك مثلا لما يتوجب اتباعه حتى النهاية » وفي ذات



الوقت ، فابها كعمت تحبوا لاهويا رسالة المسيح في قاعات الدرس  
ومتأين العالم المسيحي بمرجه \*

وهكذا ترك الرهبان أثرا حاسما على المجتمع المسيحي في العصر .  
وعندما قصوا ذلك فانهم شاركوا بالكتير في تحقيق وحدة العالم المسيحي  
والحفاظ عليه ، كما ذكرنا . وبعد أن وطلت الكيسة أقدام الظالمين  
الاستجدائين وساعدتهما على نشر تعاليمهما والدعوة ضد الهرطقة ، فانهما  
نزعوا الى محاربة القوايين ذات الطرد للكرى التي هدبت الوحدة المسيحية .  
وبعد أن تعهدوا بالرام القواعد التي توعد بإتباع العيش وفقا للقوى  
الاجيلية لما الرهبان الى تقديم نموذج للكون الأصغر للعالية المسحة في  
مسلكتهم الفردى . وساعدتهم الأصول الاجتماعية التي انطردوا منها ويسرت  
لهم إضافة بعد جديد كلية للوحدة المسيحية بعد أن وجهوا حياتهم الروحية  
والدنية على نحو يحقق تلاقيا هي واحتياجات أمانط العسقة المتوسطة  
الفارقة في التدبويات ، من تعاد ورجال أعمال . وهكذا عبر الاستجدائون  
حائيا من العجوة التي تعصل بالندى عن الشخص الدارج ، ويسرت لهم  
المشاركة في نفس الاهتمامات الروحية . وعندما تبارعوا هم والكفار عند  
محاولتهم تغيير مسلكهم ، سعوا لتصحيح وحدة المجتمع المسيحي والارتقاء  
بها داخل النطاقات المادية للعالم المسيحي الأوربي وحارجه . وعندما نظروا  
الى الجسم الإلهي للمسيح صبور الرهبان تلك الحلايا على أنها متشعبة  
بمحاربة الأعداء الخارجيين . ومقاومة الإصابات الداخلية . وعندما تأملوا  
لألة جريجورى التاسع(\*) ، اعتقدوا أن نور الرهبان هو إعادة مركب  
الكنيسة الى الطريق القويم وتحريكها من الظلمة الى النور . وبذلك يمسس  
لهم النجاح في اصطياذ سلك البحر في شاك مركبهم .

وعمر من كبير من الرهبان أنفسهم عن الفكرة السائدة في المجتمع  
المسيحي الموحدة والمنظم تطبيقا متالبا . وعندما كان ريبون دى بينافورتى  
يصل كتابات جريجورى التاسع ايان ثلاثيات القرن الثالث عشر جسع  
الفرمانات البابوية التي نقرها جريجورى جاعتازها الشريعة الوحيدة  
المعترف بها للقانون الكنسى لكي تدرس وتطبق في شتى المجالات كوسيلة  
لدعوى بالوحدة المسيحية ، كما لا يخفى ، وتشابه هو وما قام به المؤلف  
الفرنسيسكانى البافارى الذى سعى لتقديم النموذج على نحو وصي لمحاولات  
البابا حكم عالم المسيحية وتوجيهه . وسأولت - بوجه خاص  
للموعظين (\*) الذين حصصهما للكلام عن حرمان اليهود من دخول ميدان

Dunstanus,

(\*)

Berthold Von Regensburg تأليف Schwabenspiegel كتاب (☆☆)

اسلم المسيح فكرة وجهه المسححة وفي احدى الموعظتين ، وصف برتولت  
 الجدران الثلاثة المحيطة ببيدات الايمان البابوية والقوى الرعية واللائكة .  
 ويتعين قيام كل طرف منها بواجبه المناسب لحماية العالم المسيحي  
 والا تعرض لعقوبة اللعنة . وفي الوعظة الثانية ، قسم برتولت أهل  
 المسيحية الى طبقات ناظر المراتب المنزلة لللائكة في السماء ، وضخم  
 الطبقات الثلاث الأولى : البابا والكهنة الديويين والأنظمة الدينية والحكام  
 الرسمين ، وتوكل اليها مسئولية حماية المذاهب وإدارته تحت اشراف  
 البابوية . وبين الطبقات الست الباقية العامة الناس ، يصف سعي كل فرد  
 لاجتاز مهمته الخاصة من أجل المجتمع برعته . ولي يكون بقلوب المسححة  
 الحفاظ على وحدتها الا بتباعد هذه الطريقة . فاداً لم يسلم أي طرف  
 منها انقباض بدوره على الوجه الصحيح . وأدى ذلك الى أحداث حصل في  
 الوحدة المسيحية ، فان هذا الطرف سببها الى الطيقة المباشرة من الشعب  
 والمؤمنين الذين تحالفوا هم والشيطان وكان رايونند لال(١) يرقب ظهور  
 النظام العالمي الكاثوليكي والموجود بشعب كسر ، واعتقه ان هذا الأمر  
 لو تحقق ، فان هذا الكفار ستكون مجرد خطوط في هذا السلسل ، ولكنها  
 ستكون خطوة حاسمة ، والترم كتابه وبرايتكاه تأليف برادر حوى بحكم  
 طبيعته بالحفاظ على وحدة الايمان المسيحي ، وفرضه . وأثبت البحث  
 الحديث كيف عني حتى تيقولاس الليبري بالحكومة المناسبة للمجتمع  
 المسيحي وتعليم الكنائسيات والعلاقات الاجتماعية الكنسية في الكنيسة .  
 وقد أوضح هو الآخر عن ايمانه بوحدة العالم المسيحي باعتباره يحسم كيانا  
 معزدا واحدا . وبلاستطاعة فهم السر الكاس وراء هجوم هؤلاء الرهائن على  
 اليهود باعتباره مستمدا من الاعتماد الجامع بالوحدة المسححة إبان القرن  
 الثالث عشر وبواكير القرن الرابع عشر ، ومن دورهم العمال في محاولة  
 تحقيقه سواء عن طريق البيئات التشريعية أو الشعوب الماصرة لتساعية  
 أو الوعظ المتحولين .

## المراجع

- Bernard S. Bachrach — Early Medieval Jewish Policy in Western Europe 1977.
- John Boswell — Christianity, Social Tolerance and Homosexuality. 1980.
- Robert Chazan — Medieval Jewry in Northern France 1973.
- Norman Cohn — The Pursuit of the Millennium 1970.
- John B. Freed — The Friars and German Society in the Thirteenth Century, 1977
- Bernard McGinn — Visions of the End 1979.
- Heiko Oberman — The Roots of Anti-Semitism in the Age of Renaissance and Reformation, 1984.
- James Parkes — The Jew in the Medieval Community 1976.
- Marjorie Reeves — The Influence of Prophecy in the Later Middle Ages 1969.
- Cecil Roth — The Jews of Medieval Oxford (1951).



## المطالبة بكنيسة حقة (\*)

مكوت هنسلريكس

طوال القرون الوسطى ، عندما طالب رجال الكنيسة من المؤمنين بالإصلاح الدينى ، وطالب العوام أيضا بالرجوع الى « الكنيسة الحقة » ، كان ما خطر ببالهم هو اصلاح كل شخص لنفسه واصلاح حال المجتمع ، والناس بكنيسة الرسل الاوائل ، وما كانت تتمتع به من نقاء . وبعد ١٢٠٠ عندما تحولت الكنيسة الى سلطة زمنية هامة ، اهتزت الثقة بالسلطة البابوية وزعامة الكنيسة بعد أن توقفت البابوية عن تبنى المثل التي اتبعها الرسل . واثارت هذه الحالة من جديد جدلا نقيا محتوما حول طبيعة الكنيسة الحقة .

وظهرت سلطات جديدة وتمازج جديدة للكنيسة الحقة . فوضع الفرانسيسكان ، اى الاتباع المتطرفون للقديس فرسيس الاسيزى علما (\*) للكنائس « الباقية » يعنى للكنيسة الحقة . وجادلوا بالقول بأن الكنيسة الحقة ما هي الا اثر بسيط من آثار السبعين ممن اقتدوا فى حياتهم بالمثل التي ضربها الرسل . وهاجم مارسيلئوس من بادوا - ولعله اهم اصحاب النظريات السياسية فى القرن الرابع عشر - الادعاءات البابوية بالحكم باسم السلطة الزمنية ، وأعلن أن الكتاب المقدس هو الحكم الذى يرجع اليه عند الحكم على الكنيسة الحقة . وحاجج أيضا بالقول بأن حق تفسير الكتاب المقدس ليس وقفاً على البابا ، ولكنه من حق المجلس الممثل للكنيسة . ونهب الفيلسوف ولدم من اوكام الى ما هو ابعد . إذ رأى عدم الاعتراف بالحصانة لجميع السلطات التي تتمتع بها المؤسسات الدينية ، وأن باستطاعة الكنيسة الاستمرار فى البقاء حتى لو اتقض عليها الجميع ولم يبق سوى فرد واحد كما حدث عند صلب المسيح ، ولم يستمر فى الوفاء له ولتكرامه غير أمه مريم . إذ اعتقد حتى المستشار المحافظ لجامعة باريس جان جرمون أن المجائس القديمة هي أحق وسيط للروح

In Quest of the Vera Ecclesia -

(\*) نقلا عن كتاب -

Scott. H. Hendrix أليف. The Crimes of Late Medieval Ecclesiology

- (١٩٧٢)

ecclesiology.

(\*)

القدس ، ومكانتها تعلق على البابوات الذين أسسوا بلا حياء لهذه السلطات ، ولقد حاول أتباع هوس (٢) ( الهوسيون ) في يوهيميا معن اضطهدهم جبرسون في مجمع كونستانس استعادة الكنيصة الحقة بظبط الممارسات الرسولية ، يعنى الاشتراك العام في عناقلة الخبز والخبز (٣) وإن كانت الكنيصة الرومانية قد مرجت تقليديا على جعل الفبيذ القوياني من نصيب القساوسة .

ويعد هذه المجادلات المتعددة ، جاءت حركة الإصلاح البروتستانتي التي بنت مكانها قد أجملت هذه المحاولات وأعلفت أن الكنيصة الحقة توجد حيقا لرفع كلمة الله ويسود الإيمان بها .

تكاد تتماثل في العراقة المطالبة بكنيصة حقة هي وبه انشاء الكنيصة ذاتها ، وقبل ١٣٠٠ غالبا ما مثل هذا المطلب في الدعوى إلى اصلاح كل شخص لذاته واصلاح المجتمع وجديد الكنيصة . وكان النموذج العالب على محاولات الإصلاح هو نموذج الكنيصة البدائية الأولى (٤٤٤) بصورته التي تربى لها المجتمع المسيحي الأبتكر في صورة مثالية ، وجيمت هذه الصورة بين الحياة البسيطة وتعاليم يسوع وحوازيه وأنجيل الرسل قبل تعرضه للتحريب . في زعمهم - وأخيرا الحياة المشتركة للبردة من الأنانية ، التي اشترك في عيبتها أوائل المسيحيين كما عبرت عنها بعض فقرات العهد الجديد ( بند ٣ ، ٤ ) ، واعتبد على هذا العامل الأخير كأهم أساس للصيغة المثلى للمطلب ، أي الرهبانية . والتي استند اليها الغرب كأهم دعامة لفكرة الإصلاح المسيحي . واتخذت الريادة بعض الأديرة ( كدير كلوني وحرساو ) في حركة التجديد الرهباني في القرن العاشر والقرن الحادي عشر ، والتي تجسست في الإصلاحات القسوسية الصاعدة لمريجوري السابع ، وتفرعت من هذه الحركة بعض الطوائف المتشعبة مثل طائفة المستريشيان (٤٤٥) في القرن الثاني عشر .

وترجع إلى « حركة الإصلاح » على غرار المثال الذي ضربها الرسل أيضا حركة الانشقاق في بواكير الصور الوسطى والتي أشعل برباها

(\*) Hus ( ١٢٦٩ - ١٤١٥ ) المصلح الكندي البوهيمي وقد تعرض للاضطهاد

والهناكة وحكم عليه بالحرق وأتباعه هم الـ Hussites البوهيميين .

(\*\*) مثل الـ Utraquism يعنى الاشتراك في تناول الخبز والخبز .

(\*\*\*) Ecclesia primitiva - وقد ترجمت في السياق إلى كنيصة بدائية .

(\*\*\*\*) Claretians طائفة من الرهبان الكاثوليك تأسسها القديس دوبرت من موليسم ( ١٠٢٧ - ١١١١ ) تعبدت يتفهدما في اتباع المنصب للهنريكي .

احقاق الكنيسة الرومانية في العيش نيعا لمعايير الساطة والرهد التي عرفت عى الصورة الخاية للكنيسة الأولى - ولما ازداد النظام الهيرارشى فى روما رسوخا وصعدا أحسم عى تحقيق مطالب الإصلاح التى فرضها المشقون ، واستبعد هؤلاء المشقى ووصفوا بالهرطقة ، واستعانوا بمعالم التفتيش لقمع حركتهم .

ومع هذا فبدا بالقرن الرابع عشر ، اسعد شكل مطلب الكنيسة الحققة عدة أوجه تمحضت عى ظهور صور كنسية متعددة متباينة الأولاد . أشد تعقيدا من الوصح الذى كان قائما آنس ، على أن المثل الأعلى للكنيسة الأولى لم يستبعد ، ولكن أصبح اله نظريات كنسية شتى ذهبت الى ما هو أبعد من السعة البسيطة للرجوع الى المثل الرسول الأعلى . وبعد أن كانوا قبل ١٣٠٠ قلما يوجهون أى انتباه الى المسائل الكنسية رأيا كتابات المشرعين الكنسيين فى القرنين التالين تحفل بالبحوث التفصيلية التى سمعت الى تعريف الكنيسة الحققة وحل طلاس الامس التى يستند اليها سبطاها . وكان من بين هؤلاء الكتاب نفر من المحافظين وآخرون من أصحاب البدرع ومن الساعين الى التوفيق بين مختلف الرعات بدها بحسب فيترو فى نهاية القرن الرابع عشر الى مارتين لوتر المشقى عن الأنططينية فى نهاية القرون الوسطى .

ورفعت بعض هذه النظريات الكنسية مطلب أواخر القرون الوسطى الخاص بالكنيسة الحققة الى اتفاق أسس . واشتنت حدة هذا المطلب فى صورته الجديدة عندما صبح الى نقد الهيرارشى البابوية التى ظهرت الى الوجود إبان القرن الثالث عشر واتخذ شكل التحدى عى بعض الطوائف الروحانية من العادريان (٥) والفرنسيسكان ، ثم ارتدادا عندما شبع الصراع بين السابوية والفرنسيين والحكام الإمبرياليين ، وأيضاً عندما احتلم الخلاف بين كبار رجال الدين المسيحي أثناء التصدع الكبير فى البابوية ( ١٣٧٨ - ١٤١٧ ) ، وفى أعقاب هذا التصدع ، بدا وكان هذا المطلب قد خفت حدته . غير أنه اشتعل مرة أخرى فى صورة واحدة فى البداية فى حركة المقاومة والتمرد التى قادها مارتين لوتر والتى تصاعدت وأشعلت لهيب حركة الإصلاح البروتستانتى . وفى صبيح مراحل الأزمة ، اقترح نقاد الكنيسة العتيدة القائمة - وخاصة الرافضين للنظام الهيرارشى البابوى - فى نظراتهم للكنيسة استحداث دليل كسبى يحد حوهرها من سلطان البابوية ، وطرح المفكرين المشقون وجماعات المنشقين نمادج للكنيسة كانت فى العديد من الحالات بعيدة تماما عن الواقع الكنسى الفلى .

وهكذا تعرض المطلب الحديد للكيسة الحقة الى عدة اتجاهات كان  
 متفقوا اثناء اواخر القرون الوسطى الاحتياز من بينها - وثمة لذلك - بذت  
 اواخر القرون الوسطى في نظر عدد من المؤرخين الذين تسيهوا الى مدى  
 تعقد الأوضاع الكيسة في هذه الحقبة عصر اضطراب وتقصبات - وحينئذ عند  
 قابل من هؤلاء المؤرخين الى الارتكاز على هذا الخلاف حول طبيعة الكيسة  
 ومساوماتها ليخلص القرون الوسطى مالمقاربة بما سبقتها من قرون - وقاموا  
 بإبصار كيف استعوت الحالة في اواخر القرون الوسطى مصدحي القرن  
 السادس عشر - وكما تنبعى التفرقة بين « الأزمة » و « التدهور » ،  
 كذلك لا يصح مساواة « النعوج » بالاضطراب والاضلال - وليس من  
 شك في أن عهود الأزمات تحدث تمرقا في المل وترعرع حالات الاضطراب  
 والاستقرار ، الا انها تمنحني أيضا عن حلول جديدة ويقعبات جديدة .  
 وبهذا عن الامتشافات بالصور المتنوعة للمطلب الوسيط ككيسة حقة ،  
 واعتبارها دليلا على حدوث تدهور لاهوتي وكائناتى لعل الأفع - تاريخيا -  
 النظر الى مصلو هذه الصور المتنوعة وأهمتها على ضوء الأحداث التي  
 عاصرت هذا المطلب .

ولقد سيرت مظاهر المطلب الجديد في بداية القرن بنصاعه الاحساس  
 بالحاجة اليه ، وبأنه قد أصبح جزءا لا يتجزأ من جو الأزمة العامة التي  
 حدثت في نهاية العصور الوسطى ، وكشفت هذه الأزمة عن كونها أعق من  
 مجرد أزمة ثق في البابوية - إذ اتخذت عدة مظاهر ( اجتماعية واقتصادية  
 وكيسية ) ، ولا يتفق المؤرخون بأى حال على أى العوامل كان له الصدارة  
 في أحداث هذه الأزمة . ومع هذا فقد عرص حديثا جراسوس محاولة لمفسر  
 الأزمة الكيسية في اواخر القرون الوسطى تتميز بحداتها بالانتباه لحدوثها  
 على الرطب بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية .  
 وميشا وما يقوله جراسوس بأن كلمة أزمة تدل على جميع الظواهر التي  
 تسبب عن تفكك أسلوب الحياة في أى مجتمع . وأهم من ذلك شعور الكافة  
 بأن القيم الإنسانية في مجتمعهم قد تعرضت للتهديد الى حد ما مما جعلها  
 على ناعة التفكير . وكشف مجتمع اواخر القرون الوسطى عن هذا الاحساس  
 المتزايد بالفتق في عدة مجالات ، على أن جراسوس يعتقد انه دور القيم  
 الروحية لتفسد حسما من العوامل الاجتماعية والاقتصادية عند تحليل  
 أسباب حدوث الأزمات في المجتمعات . ولقد تعرضت هذه القيم الروحية  
 للتهديد - بوجه خاص - من جراء السلسلة الديسة التي آثارها التصدع  
 الكبير لكنيسة الغربية . وهكذا يضع جراسوس أزمة الثقة في هوية الكنيسة  
 ومصلحة الكنيسة في الصدارة عند تفسيره للأزمة التي ظهرت في أواخر  
 القرون الوسطى .



ونوعى استبصانات جراوس بالأسباب التي دفنت أزمة الثقة في  
 المابوعة إلى المطالبة عن طريق الصف بكنيسة حقة في أواخر العصور  
 الوسطى . ويرمى البحث الراعي إلى فحص شتى التمايز عن هذا المطلب ،  
 كما وردت في منظور خراوس ، يحس النظر في نظريات الكنيسة التي  
 ظهرت لتحقيق هذا المطلب كرد فعل لأواخر القرون الوسطى على حالة  
 القلق التي أحاطت بنسبة الكنيسة وسلطانها . ولما كان من المستحيل  
 تناول جميع نظريات الكنيسة في أواخر القرون الوسطى في بحث واحد لذا  
 قصرنا الكلام على سادج مثلة للمطلب ، تكشف شتى الأول ما جاء في  
 نظريات علماء الكنيسة ، وتبين استمرارية موضوعات النظريات الكنسية ،  
 والتي تم ادراكها بميز أدق في البحوث الحديثة العهد . ومن هذا المنظور ،  
 يبدو الصورة العامة التي شوهها الأزمة في النظريات الوسيطة المتأخرة  
 أقل اضطراباً وخطأ بعد النظر بعين فاحصة إلى الصور المتنوعة لمطالبة  
 بكنيسة حقة كمحاولات لإقامة ركيزة كنسية وسط النظام الاجتماعي  
 والكنسي المفقود . وهكذا عن ذلك ، وكما سنرى في القسم الختامي من  
 البحث ، فإنه يصبح النظر إلى حركة الإصلاح في القرن السادس عشر كمرحلة  
 حتمية للمطلب الذي يرجع إلى أواخر القرون الوسطى . فبقها تكرر ظهور  
 ردود متنوعة على النظريات التي دارت حول تحديد ماهية الكنيسة بالإضافة  
 إلى كيفية مواجهة أزمة أواخر العصر الوسيط التي أثرت حول السلطان  
 البابوي .

## ( ١ )

واصل العديد من العقاد الذين صمخوا من تراء الكنيسة في القرون  
 الثالث عشر ، وسلطانها ، أثناء المقة من صيحة دواكر العصور الوسطى  
 والمطالبة بالإصلاح إلى مطلب أواخر القرون الوسطى بكنيسة حقة ، تقييم  
 هذه الكنيسة بسمبار الكنيسة الأولى (١) . وفي الحق لقد استمر هذا لكل  
 الأعلى في العقاد قويا في أواخر القرون الوسطى مما حدا بوجود دون ليف  
 إلى تسمية المثل الأعلى للكنيسة الرسولية : بالحقيقة الكنسية الحديثة  
 المظلمة في أواخر القرون الوسطى . ومع هذا فقد استمر المثل الرسول  
 الأعلى لمدة قرون موضع رعاية وتضرع فيما لا حصر له من أديرة أوربا  
 العربية دون شعور بالانقياد في شرعية هيراثية الكنيسة . فما الذي  
 طرأ على تنظيمات الأديرة التي صمدت بالاستقرار وعدم التعرضي للتقلبات  
 إبان القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، وجعلها عاجزة عن تصحيح

هذا التل الأعلى الموقر العريق ، والنهوض به ؟ وما الذي استحدثت الجماعات المشقة مثل الفالديريان والفرشيسكان على الطين في محاولتها الحامية لئلا التل ومطالمتها بالكنيسة الحقبة ؟ وعلى الرغم من أن الاستماعه بالنسب الأعلى الرسول في ذاته لم يكن بأي حال مختطفا كسبيا مسموحنا في أواخر القرون الوسطى ، إلا أن حدة النقطة كانت من العلامات المميزة التي سمرت بها أواخر القرون الوسطى على المرحلة الأولى في حيلة المطالبة بالكنيسة الحقبة .

وتنسبا مع ما يذكره « لعب » بالامطاعة بسمية هذه الحقبة الى الأسلوب التوري الذي اتبعه المشفقون في مهاجمة البوراة في أواخر القرون الوسطى ، وجهتوا عن ميررات تاريخية للمطالبة بكنيسة بكنيسة الجنح المسيحي . وقد اتبعت الاسماطة بالتوراة صوريين نفس ناحية . نظر الى كنسبات المسيح وأفعاله على أنها أحداث تاريخية حقبة ، واعتقد عليها في ممارسة الدعوى والفوائيد التي يزعم ريفها للهرارضية القائمة . ومن ناحية ثانية - أصبحت التوراة أداة للسوء التي اكسبت الأحداث الحقبة أهمية أخروية .

ويصور العالمزيان أول مط من أماط الاعمال على البوراة ، ففي البداية ، أصبحت غايتهم على الاكتفاء بحسب التل الأعلى الرسول لوصف والسماطة ، والدعوة له ، وعلى الرغم من التحريم البابوي لمواظعتهم ما لم يصدر صريح بذلك من الكنيسة ، إلا أن فالديس (\*) (بيتر) قد رأى أن الأكثر ضرورة هو اطاعة الأمر الذي دعت إليه الكنيسة بالوعظ (مرقص ١٦ : ١٥) أكثر من الامتنال للأمر بالمصوع للسلطة - وترتب على ذلك اذاعة فراء ليون (فرنسا) بالهرطقة ، وقيام العالمزيان بأشياء همارشيتهم ، مسمعين بالتوراة كدستور لحياتهم المشتركه بمعزل عن الكنيسة الرومانية ، ورفضوا تدخل القديسين ولساتهم ووساطتهم ، ورفضت عدة ممارسات غير توراة باعتبارها ندعا كسبية ، واعتقدوا أنهم وحدهم يمثلون الكنيسة الحقبة ، وأهم محلصون للحياة الرسولية (\*\*).

ولما كانت الكنيسة قد منعت منذ وقت ياكز العالمزيان ، لذا لم يظهروا كمنسدر تهديد خطير للهرارضية مماثل لتهديد الروحانيين الفرشيسكان في أواخر القرون الثالث عشر . وثارت أصعب المجادلات الروحية من داخل الهرارضية ذاتها . وسرعان ما تبلورت في تحلة من

(Peter) Valdes.

Vita apostolica.

(\*)

(\*\*)

أهم محل الكنيسة ، ولقد رأى أصحاب هذه السلطة الأسفار المقدسة بمنظور  
 القديس فرنسيس بيكا لنبوة يواقيم فيوزي . ومن هنا قام بمنشور  
 طريقة الاستعانة الأخرى بالوراة التي وضعها « ليف » ، أي الاستعانة بها  
 كإداة للموت . قنبلا أصابت الشروح التنبؤية (٢) لبيتر أوليغي (١٢٩٨)  
 إضافة ضرورية لقد الروحانيين ، وسرعان ما أدرك أتباع أوليغي الفخائل  
 بين الكنيسة القائمة على ملايات المسيح الدجال والكنيسة الرومانية التي  
 سمسماض عنها في النو بالكنيسة الروحية الحق التي فيها هؤلاء .  
 الانباع - وحولت مثل عدد المسامح الأحرورية للأحداث العارضة الجدل حول  
 الفقر الرسولي إلى مواجهة بين الكنيسة الحق والكنيسة الزائفة - وعلى  
 الرغم من أن المثل الأعلى الرسولي قد كور لب اهتمامات الصحافة الروحية .  
 إلا أن أساس هذا الاهتمام قد احتل مكانا ثانويا . إذ أصبحت القضايا  
 الأولى تدور - كما هو الحال عند المالديريان - حول طبيعة الكنيسة والسلطة  
 صاحبة الحق في تفسير الأسفار المقدسة . وانتهى الأمر بالروحانيين -  
 مثلما حدث في حالة المالديريان - إلى الانحناء للإيمان بأنهم يؤثرون الكنيسة  
 الروحية الحق ، لأنهم وحدهم يمسكون بإخلاص بقاعدة الفقر والزهد  
 الرسولي . ولما كان هذا الإيمان قد سبب في إحلال الحماض مكانة  
 كاثورية ، لذا فانهما أرغمتا على امتلاك نظريات كنسية بمن فلول الكنيسة  
 الكلدانية ، وتبطل الكنيسة الحق وفقا على القلة المؤمنة المعارضة للكثرة من  
 المرندين . وفي مسألة السلطة . أنفى الروحانيون استعدادهم لمنح السلطان  
 الديني لكتبات من خارج الأسفار المقدسة ، وللوظائف التي لا تتخلل في  
 نطاق الوظائف الرسمية للكنيسة .

وإذا سلمنا بأن قراء التوراة قد أضفت ملامح جديده مستحدثة على  
 المثل الأعلى الرسولي في القرون الثاني عشر والثالث عشر ، فبالإل  
 التساؤل بأنها لماذا مرع المسعويون المتحمسون في هذه الحقبة بالذات  
 من القرون الوسطى إلى التشيبت بالمثل الرسولي الأعلى مما أدى إلى محاولتهم  
 تطبيقه على رجال الكنيسة وعامة الناس جميعا ؟ ونبدأ الإجابة عن هذا  
 السؤال بالقول بأن التوراة كانت دوما مصدر المثل الأعلى الرسولي -  
 وتبرز أهمية المؤثرات الحضارية والاجتماعية والاقتصادية في الإجابة عن  
 هذا السؤال ، وإن كان تحديد إلى أي حد حدث ذلك من الأمور التي مارالت  
 لم تصح . وبالمنظور الحصول على دليل إضافي لتفسير هذا السؤال ،  
 إذا قمنا بتحليل التحول الكسي الخامس في أحوال العصور الوسطى في  
 أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر . إذ تخلص هذا التحول

النقلة من اتجاه كسبي يسعى لإصلاح الكنيسة بالامبرشاد بمودج الكنيسة  
البندائية الى نظريات كسبية تقصر الكنيسة الحققة على أقلية اما خارج  
كنيسة روما ( العالزيان ) أو داخلها ( الفرنيشيسكان الرومانيين ) .  
فما الذي جعل هذه النقلة ضرورية ؟ لأول وهلة لم تكن كنيسة روما راضية  
عن السماح بمياوات مثل « المثل الأعلى الرسولي » بالاستمرار في الوجود  
بغير رقابة من الكنيسة . أما اذا تعمقنا هذه الناحية فافنا سنرى أن هذه  
النقلة قد باتت ضرورية للسبب ذاته الذي جعل المثل الأعلى الرسولي يحاطل  
بجندية مستحدثة وبأساع حديد في المقام الأول . يسمى الشعور بازدياد  
دوجة اللائقين في موضع الكنيسة الحققة .

ويساعد تصور الكنيسة البندائية (\*) ذاته على زيادة تنورنا والتعريف  
على مر ما أصاب اليقين من تزعرج . ولقد بين أولسين (\*\*) أن المشرعين  
الكنسيين في القرن الثاني عشر قد استعملوا مصطلح « الكنيسة البندائية »  
للاشارة أولا للكنيسة السابقة لقسطنطين . ويوحى مثل هذا الاستعمال  
بأن الانقسام الأكبر في تاريخ الكنيسة الباكورة قد دب ابلان حكم أول  
امباطور مسيحي : قسطنطين . أما المشرعون الكنسيون أنفسهم فملئ  
الرغم من عدم تبيرهم صراحة عن النفور من تيجاج المسيحية بعد قسطنطين  
الا أنهم كانوا على أية حال مهنيين عناية مضمرة بتكامل المسحة في عالم  
يساعد على انتماش الكنيسة عاديا . ولا يشعر الأخلاقيون من أمثال برنار  
من كايرو بأى تيكيت يحول دون جعل هذا الاعتماد المضمر صريحا  
ودون الرثاء للمظاهر الدنيوية في الكنيسة التي ظهرت بعد قسطنطين .  
والتي خانت المثل الأعلى الرسولي . وفي فقرة كانت سروقة تماما في  
القرن الوسطي ، واستشهد بها حتى مارتين لوتر ووضي عنها ، لاحظ  
برنار الاضطهادات المتحدة التي تعرضت لها الكنيسة السابقة لقسطنطين ،  
وحيث لم فقد حذو ضد الأمان الهش الذي كانت تنعم به الكنيسة المردخرة  
في عصره . إذ يعد هذا النوع من الأمان مصدر تهديد أشد لسلام الكنيسة  
يفوق الاضطهاد الصريح ، لأن انتماع أعداء الكنيسة هم من يظهرون بمظهر  
الأصدقاء .

من هذا يتضح أن تماينا أشد مع دنيوية الكنيسة التي اعتبرت  
القسطنطينية قد قامت باعطاء صيغة خاصة لتصور « الكنيسة البندائية » ،  
وليس من الصبر لهم لماذا تمسحت جماعات معينة داخل الكنيسة بالمثل  
الأعلى للفكر الرسولي للجميع حتى تستعيد الكنيسة الوسيلة التكاملي

الذى تمتعت به كنيسة ما قبل قسطنطين . وحاول الإصلاح الجريجوريانى طبع الكهنة طابع رمولى(\*) . ووسط انعكاس الكنيسة الوسيطة فى عالم نهضة القرن الثانى عشر ، وما عرف عنه من صحوة اقتصادية وفكرية ، كان من الطبيعي فحسب أن يستمد هذا المثل الأعلى من قبل بعض الجماعات الى الكنيسة عن فكرة أيها . وكان الموقف فيما يتعلق بالبروتستانت محتلفا نوعا . إذ تركز اهتمامهم على استعادة نظامهم الذى يؤس بسننه الأصل المجلس المدعى الى الارتداد لحالة الفقر بمعناه الصحيح . وكانت نتيجة هذا التطبيق وهذه الحساسية الملحوظة للمثل الأعلى فى الحالتين واحدة . وتحول تصور الكنيسة البيدائية الى خطاب نظرية كسبية عندما لم يتحقق الاتصال الارعب والتطبيق الحرفى للمثل الأعلى الرمولى . وهكذا وعلى نقىص مكانتهم كأيام الكنيسة الحقبة الوحيدة ، فإن المالدوريان صورو الكنيسة الرومانية على أنها حسمت تحمخ الحاطنين (\*\*) من عهد سلفستر الأول ، وزعم الروحانيون أنهم يمثلون الروحية ضد الكنيسة الحسدية (\*\*\*). التى رفضت انضمام الاحمية المناسبة للمثل الأعلى للفقر .

وأثبت تصور « الكنيسة البيدائية » نفسه لهذه الجماعات عندما ملوا الآمال الواقعية لاصلاح كنيسة روما على أساس الفقر الرسولى . ومع هذا فصعما تحطمت هذه الآمال - وهذه أول أزمة من الأزمات الروحية التى هزت أواخر القرون الوسطى - حدثت أزمة «نفقة» فى هيرارشية الكنيسة على دمر كبير من الخطورة مما أثار المطالبة بكنيسة حقة منفصلة عى هذه الهرارشية . وكانت هذه الأزمة موضع اهتمام « علم الكسبيات » . ففى مرحلتها الأولى ، تسبب علم التيقن من حل تنزع كنيسة روما فى أسلوب عيشها المثل الأعلى للكنيسة الأولى ؟ تسبب فى النظر الى هذا المثل الأعلى بجدية منحدمة - وعندما تبين أن كنيسة روما لن تسمح لهذا المثل بالتعبير عن نفسه الى الحد الذى ترغبه هذه الجماعات انتقلت الأزمة حينذاك الى مرحلتها الثانية . وفيها حدث تحول حاسم فى مدال الاهتمام، فطبق تصور « الكنيسة البدائية » على وحدة من الكنائس التى ظلت باقية . ولم تتوان هذه « البقية » عن النزوع للكشف عن أحد المعايير الأساسية لمطالبة بالمساواة بالكنيسة البدائية . انه معيار الاضطهاد . وأقلق الاضطهاد المالدوريان فى محاكم التفتيش والروحانيين قبل وبعد ادانتهم . وفى هذا التطبيق النظرى والكنسى الجديد المتطرف لمثل أعلى عتيق كان المطلب الوسيط المتأخر بكنيسة حقة قد بدأ يلوح فى الأفق .

Vita apostolica.  
Congregatio Pauperum.  
Ecclesia carnalis.

(2\*)  
\*\*\*  
(3\*)

وازداد جو الأرمه الكنسية ثلثا إبان المصف الأول من القرن الرابع عشر . إذ انتهت المساحنة بين البابا بونيفاتس السابع وقليبي الحميل بالتعجز بعد أن عثت البابوية إلى اتخاذ إجراءات حاسمة لعرض سلطتها ونصودها . ويتجلى ذلك خلال المساحنة عندما أفصح الدعاة قى المجلس البابوى برعامة جيلز عن أشد المطالب بطرقا حتى ذلك الوقت لمؤكيد سلطان البابا . ولما تحول الصراع الكسى من المواجهة بين البابوية وملك فرنسا إلى صراع آخر بين البابوية والإمبراطور ( لويس امبراطور بافاريا ) هب أنصار آخرون للسيادة البابوية لتعزيز الصلة بين أعضاء الكنيسة الحقة والولاء لأحكام البابا . واستعان بعض أتباع المجلس البابوى بالهدف الذى قبله نقاد البابوية فى القرن الثالث عشر . كهيئة من قسطنطين لمساندة البابا ضد مستغديه ( بينما اتبع آخرون تصور « أوليقي » للصحة للسلطان على السيادة البابوية التى كاد فى الية - أصلا - تعيها

وتمت الطبيعة المتطرفة لمطالب أتباع المجلس البابوى عن خطورة الموضع المهدد للبابوية . وكشفت عن خطورة الأزمة أثناء الصراع مع لويس ملك بافاريا أيضا الحماسة والشفقة الذين اصعب بها اصطلاح اثنين من أهم نقاد البابوية بصحتها . هذان الاثنان هما مارسيليوس من نادوا ووليم من أوكام - ولما الاثنان إلى الوسائل المكتسبة التى أعتت بالفعل فى القرن السابق لقياس مدى اقتراب الهيراضية الرومانية من صورها للكنيسة الحقة . واكتشف الاثنان حساسة الانحراف عما يصعب قبوله . واقترحا بعض تعديلات كنسية قد تصبح تتجاوز حدود السلطات الموسوة للبابوية . واعتقد الاثنان - برغم ما بينهما من اختلافات طبيعية - أن اساءة هذه السلطة هى سبب الأزمة التى حلت بالكنيسة .

وفيما يحتلق بمارسيليوس ، فإن عنوان كتابه هو « دفاع عن السلام » (\*) . وقد ادين ١٣٢٧ - ويبيى من العنوان أنه كاد يرى فى نفسه حاربا للسلام والىسية ضد « سبب النزاع الأوجد » والشديد الموصى الذى سبب فى اطلاق الامبراطورية الرومانية طويلا .

ولمى نهاية المبحث الأول ، انتهى مارسيليوس الى الكشف عن هذا السبب الأوجد . الذى أرحه الى الرأى الشاطور « لأساقفة رومانين معينين ، أصدروا التشريعات التى تهدد الحكم الرومانى ، وربما كان وراء ذلك أيضا

تطلبهم المحرف للحكم لها بان الحاكم الروماني مدين لهم به استنادا الى السلطات الوفيرة التي منحت للمسيح . ويرجع أصل هذا الطغيب البابوي بالنسبة على جميع الأساقفة ، بل وعلى الحكام الزعميين الى « مرسوم ومنحة » يقال ان قسطنطين قد وهبها للقديس سلفستر بابا روما .

ونحى الإشارة الى منحة « قسطنطين » باحتساب صحة ما ذكره جوردون ليف عمما رأى ان مارسيلوس قد اتبع تقليد الباحثين عن الكنيسة الحقبة والذين استشهدوا بالمثل الأعلى السابق لقسطنطين كنموذج للإصلاح الكنسي - وعلى الرغم من أنه لم يكن أول من استعان بهذا المثل الأعلى - بالطبع - الا أنه رعم أن مارسيلوس قد صاغه وجعل منه أشد الأسلحة فتكا في العهد السياسي للنظرية الكنسية في أواخر القرون الوسطى . وبما لما ذكره ليف فقد أحدث هذا التأكيد المتكرر للأسلوب الرسول في الحياة أثرا أبلغ على نقد مارسيلوس للهيراودسية الرومانية يعوق استعانتها بالفلسفة السياسية لأوسطو عند صياغته لنظرية سيادة الشعب . وعلى الرغم من ان ليف لم يشك اثباتا قاطعا ما سماه ديجور نقاد الكنيسة في أواخر العصر الوسيط لأوسطو ، الا أنه أشار مرة أخرى الى المشكلة لكنيسة المحورية المثيرة للجدل في أزمة أواخر القرون الوسطى أو للمشكلة الخاصة بوضع الكنيسة الحقبة وسلطاتها . وقد تحدث مارسيلوس عن هذه المسألة في فصل هام جاء في أعقاب حديثه عن الكنيسة المسيحية المأكرة .

وناقش مارسيلوس مسألة اى المتطلبات تمتد ضرورية للخلاص ، وصاحبه السلطة التي يمتد لها تحديد هذه المتطلبات - وجاء رده بضرورة علم ايمان المسيحيين ايمانا جازما بأية كتابات سوى الأسفار المقدسة ، والابتعاد عن شروح هذه الأسفار المشكوك في صحتها . كذلك التي وصفاها المجمع العام للمؤمنين أو للمسيحيين الكاثوليك . فما هو وجه الصحة في هذا الرأي ؟ ، الذي قصد به التنبيه الى حاجة التيقن من الايمان الى عدم الوثوق في أية كتابات وصفتها بشخص آسية . فلا تخفى يوثق به سوى الأسفار المقدسة باعتبارها لا تحتوي الا « على الأحكام التي أصدرها بابا روما أو أقرانه من الكهنة ممن يسمون « بالكرادلة » ، ولا تحتوي أيضا على شرائع من صنع الانسان ، أى من اختراع العقل النحصر عن الأفعال أو المشاحبات الانسانية . ومن الأمثلة المؤيدة لذلك المشهور البابوي (٢٠) لبابا يوحنا الثاني والعشرين الذي ينكر محاولة المسيح لأى أفعال دالة على الفقر المدقع . وهول مارسيلوس : « قلو قليل مثل هذا القرار البابوي سيصبح ايمان المؤمنين جميعا معرضا للخطر » . فالأسفار المقدسة هي

التي، الوحيد الذي يمكن الوثوق فيه • ولا أحد غير الجميع العام المثل  
لجميع المؤمنين المسيحيين يتعدوه أن يدعى المتحدث باسم الوحي عندها  
يسر نقاطا غامضة من الكتب المقدسة مثل مقدار الفقر المطلوب بوافره عند  
اتباع المسيح •

واكتشف مارسيليوس أن نداء الموحى إلى الجميع العمام سيكون  
متوافقا هو والمثل الرسولي الأعلى الذي يستخدم كمقياس للحكم على  
الباوية • على أنه من المعروف أن محاصره ولزم من أوكام لم يكن حسن  
النظر بالجميع العمام بحيث يرضى الاعتراف له بالصحة • والواقع أن تضرع  
أوكام بالنظر الرسولي الأعلى أمر مشكوك فيه ، رغم إثارة لهذا النظر المطلق •  
وبدلا من أن يختار أوكام الكنيسة البائبة كمودج يرجع إليه لإصلاح  
كنيسة روما ، فإنه فضل حلا أكثر واديكالية للكتابة الكنيسة الحق • كما  
تمثلت في آثار المسيحيين المؤمنين التي يلقبونها استمراها في البقاء  
- نظريا - بمعزل عن الهرارثية الرومانية ، إذا اعتقد أن هذه الهرارثية  
قد حادت عن الصواب • والواقع أن هذه النظرية الكنسية البائبة قد  
انحبت أبعادا وجودية في نظر أوكام ، عنما ألقى نفسه مدافعا عن الكنيسة  
التيهة ضد برعية البابوات الهرارثية المضللين الذين تصورهم « أوليفي » من  
أعمال يوحنا الثاني والعشرين • وسعى أوكام لتأييد مزاعم القرائسبسيكان  
الذين أبدوا مبدأ الفقر المدقع ضد يوحنا الثاني والعشرين • وبني ، تمشيا  
مع هذه الماية نظرية أوليفي عن عدم دالية المنشورات البايوية للتنقيح ،  
وتوسع في توضيح رأيه •

والظاهر أن النظرية الكنسية البائية لأوكام وراء اتهام نقاده له  
بالزورح نحو الانحاء الداني المطلق • والحق أنه يبدو وكأن أوكام قد عهد  
بمسؤولية التفرقة بين الحق والباطل إلى كل مسيحي من المسيحيين •

••••• وبلااستطاعة رغم ذلك إقامة صرح أكثر عطاء لدعم نظرية  
الكنيسة البائية لأوكام • وأليات أنه لم يتثنى إلى أخطر درحات الصالح  
الذي • فمثلا لقد حاول ميتنخه(\*) حديثا وقال أن استمرار بقاء الكنيسة  
اعتمادا على عهد فرد واحد لا غير لم يكن انعكاسا لزعة قروية متطرفة  
انبعثت من اليتافيريقا الاسمية لأوكام • وعلى عكس ذلك ، فلقد رأينا  
أوكام يتوسل مستشهدين بتقليد كنسي مأثور عن تهبجد السيدة مريم عند  
الصلب ، ويتوسل أيضا بنظرية الشرعين الكنسيين التي انجذرت إلينا  
ودعت إلى تسكين السلطة في شخص واحد فقط •



وحديثاً أشار أورومت ( وهو أحد جامعي مختارات كتابها ) إلى أحد  
معتقدات النظريات الكنسية المرتبة على تشديد أوكام على الالتزام  
بالكتاب المقدس - فلذا كان الله قد أمر بتحقيق معرفة الذات الإلهية  
ورميته الخلاص عن طريق الكنيسة ، فإن معنى هذا هو تأمين الكنيسة  
من أى فقد في مخطط أوكام لنظرية الخلاص ، وتأميناً أيضاً من أى  
هيرارشة نسبية في المذهب التوماوى ( نسبة إلى توما الأكويني ) ، لأن  
مذهب أوكام قد أدرك دور الكنيسة كوسط بين الرب والصداد ، بناء على  
عهد اتفق عليه المؤمنون . وليس يحكم مكانتها ضمن هيروارشة ميتافيزيقية  
مفترضة . على أنه بالمقاربة بالصوفة وتركيزها على العلاقة التي تتحقق  
بلا وساطة بين الله والإنسان ، سيجد أساس الكنيسة القائم على العهد  
انجناحاً محافظاً يصعب وصفه بأنه سيحطم النظام الكنائى القائم .

وفي هذا المقام ، لم يبد التصريح إلى الكنيسة الحالية في الزمان عند  
أوكام كضرب من الحمايل سبياً وراء الاعتناء إلى مصادر للحقيقة . والواقع  
أنه رأى في ذلك تواضعاً طمعياً مع الفهم الدينامي السائر للكتاب المقدس  
للدور التاريخي له . وعلى الرغم من أن دور الكنيسة لم يعد قاصراً على  
دور المؤسسة الرسمية للدعوة لئلا يسيء أعلى قايها ظلت الحارس الموثوق  
ومفسر الوحي الإلهي .

وفصلاً عن ذلك ، فإن جهود الله عند أوكام لها وجهان . ففي عالم  
الخلاصية ( بفتح الحاء ) يتوجب على الإنسان تقديم أفضل ما عنده  
والاستئصال الأمل لقدراته الطبيعية لكي يجد نفسه لصاية الله . وربما  
كانت هناك فكرة موازية لهذه الفكرة كلفة في نظريات أوكام الكنيسية  
تستخلص من قوله (\*) أن لكل مسيحي الحق ، بل عليه واجب التمسك من  
الحقيقة الكاتوليكية بنفسه على صوة الإجماع التاريخي للمؤمنين . وهذا  
رأى يختلف عما اتهم به مذهب أوكام بأنه قائم على الايمان الأعشى . وعلى  
هذا الأساس فياقتنص تفسير برهان أوكام عن المعصومية البابوية على أنه  
محاولة للحد من سيطرة التحكم البابوى وتضرع للوحي الإلهي بالتدخل  
من أجل المؤمنين الذين تعهدوا له في الماضي بمواجهة الفكر المتلفس في  
الهيرارشية الكنسية المعاصرة .

خلاصة القول فإنه من المتعذر وصف نظريات أوكام الكنسية لا بأنها  
ذات نزعة ذاتية صرفة ولا بأنها مثلت انفصالاً كاملاً بين كتاباته الفلسفية  
- اللاهوتية وكتاباته السياسية - الكنسية . فلكل جاء أوكام بشكل أصيل

الى ابعاد الحدود من النظريات الكنسية الباقية الاولى على كحل نظري لازمة البابوية على عهده . وبذلك تباين هو وماوسيليوس والذي اعتمد على « الكنيسة الدائمة » كنموذج للكنيسة بعد اصلاحها تحت رعاية المجمع العام . وكانت النظريه الكنسية في دور الخبرة العرفانية ، والتي خصت الفهم بدور اسمى من دور المؤسسات الدينية اسهاما قريبا في معالجة اواخر القرون الوسطى بالكنيسة الحقبة .

### ( ٣ )

على أن اسهام أوكام لم يثبت أنه الحل الأفضل علما نشبت أزمات النظريات الكنسية في اواخر القرون الوسطى وما سادها من آثار شديدة التدمير لم تتوهم هي وطبيعة سلطة الكنيسة عند حدوث التصديق الكبير ( ١٣٧٨ - ١٤١٧ ) . حتى مصطفى القرن حاد الساعون لاصلاح الكنيسة عن مهمتهم الأصلية ، ورجعوا بدلا من ذلك الى الحل الذي تصبته النظريات الكنسية التي اقترحها ماوسيليوس ، يحى انشاء مجمع عام . والحق أن النظريه التوفيقية ( أو نظرية المصالحة ) كانت أقدم كثيرا من ماوسيليوس وتمثل استجابة لازمة لآخر القرن الرابع عشر واتصفت بتكاملها كنظرية كنسية . كما ان حدودها تمتد الى وقت يأكبر من القرون الوسطى .

وبدت ضرورة صياغة بعض النظريات الكنسية الواضحة أمرا هاما خصوصا لجان جيرسون ( رجم مجمع كونستانس ١٤١٤ - ١٤١٧ ) . وهو من الكتاب الذين يدين له المفكرون الموقفون في نهاية القرن السادس عشر بأعظم فضل . ويضم تاريخ جيرسون على نحو فعال حياته الأنشطة كمصباح كسبي ودوره في عالم النظريات اللاهوتية مصصوف ومفكر كسبي . وازدادت دراستنا بهذه العلاقة المتبادلة بين الخبرة العملية والدراسة النظرية بعد ظهور الدراسة الحديثة التي أشارت الى النمط العام للإصلاح في اللاهوت المتصوف التي وضعه جيرسون وإلى نظرياته الكنسية . ومداخل الطريق الصوتي(\*) عند جيرسون هو «خبرة الخير التي لا تنطق» ، والتي غرست طبعا في الروح (المسكوبس) (\*\*) . وباعتبار « السندريس » نقطة احتكاك فطرية بين الله والانسان ، فانها غلت ماوى للروح القدس ، حيث ولد المسيح روحيا في النفس . ويتخذ اصلاح النفس « المسكوبس » كمنقطة بدء أصيلة له بفترة الله (\*\*\*) ، التي تحتل موضعا عميقا في بنية

Via mystica.  
Syndresis .  
Semen Del.

(\*)  
(\*\*\*)  
(\*\*\*\*)

الكنيسة ، وتنتشر في هذه البنية باعتبارها الهاء التي ترونها بالحياة ،  
ويستمد انجيم العام من هذه القوة الالهية الكامنة الحق في اصلاح الكنيسة  
إذا اثبت رأسها (البابا) عجزه عن حكمها - إذ لا مستند شرعية الهيرارشية  
الكنسية على البابوية لفاتها ، ولكنها تستند على « البذرة الالهية » ، وهي  
قائمة أصلا في صميم جسد المسيح . ومن ناحية أخرى فإن السلطة التي  
يحصل عليها أي مجمع من بذرة الله لا تمنح هذا للمجمع أية سلطة سيادة  
مطلقة على بابا كنيسة القديس بطرس . انها تنطبق فقط على الحالات التي  
تحدث فيها اسادة لاستعمال السلطة البابوية .

وهكذا يصبح لدينا الى جانب النظرية الكنسية السابقة ( عند أوليوس  
على سبيل المثال ) والنظرية الكنسية للخيرة العرفانية ( عند أوكام )  
نظرية ثالثة هي نظرية كنسية البذرة عند جيرسون ( ان صحت هذه  
التسمية ) ولقد ارسطت هذه النظرية الأخيرة في ناحية واحدة ، وهي في  
تضرعها للكنيسة البغائية بالنظرية التوفيقية(\*) لمارسيلوس ، فهي انبته  
بالروح القدس . لأن القوة الإصلاحية « للبذرة » لا تحدث قاعليتها  
الا عندما تتجمع الكنيسة في صورة مجمع - ووفقا لما ذكره جيرسون فان  
« الكنيسة البدائية » قد عرضت مثلا سابها يمكن الاستشهاد به في هذا  
الشأن . على أنه من ناحية أخرى ، فإن النظرية الكنسية التوفيقية لجرسون  
قد يلت اعظم ارتقاء من نظرية مارسيلوس . فالبذرة المتلقاة من الكنيسة  
في طورها الأول قد وضعت الهيرارشية في مكان أوثق من نظريته الكنسية  
أكثر مما حدث في حالة مارسيلوس . وساعدت القديسة التي صحت  
لهيرارشية على تميز النظرية الكنسية لجرسون على نظرية أوكام ،  
التي ربطت الجوهر الحق للكنيسة بالايان أكثر من ربطها بالبنا الهيرارشى .  
ولا يخفى أنه بالاستطاعة فهم « النظرية التوفيقية » فيها أصح إذا فهمت  
على أنها مجرد نزع عن الاستجابة الكنسية ، فيها يصل المجمع كأداة  
للإصلاح . وعلى الرغم من أن المثال الأعلى « للكنيسة البدائية » قد قام  
- بالتاكيد - بدور في هذه النظريات التوفيقية للإصلاح - إلا أن الاختلافات  
في النظرية الكنسية التي بزغت كاستجابة للتصدع كانت أكثر تنوعا  
وارتقاء تدريجية ملحوظة ، أكثر من كونها دعوة سادحة للرجوع الى بساطة  
حياة الرسل البعيدة عن التعقيد . إذ كان الباحثون عن الكنيسة الحقبة إبان  
أواخر القرون الوسطى يساقرون على طرق أفضل تعبيدا من الطرقات  
الثرية التي سار عليها الرسل . وعلى طرق أكثر تنوعا من الطرق العامة  
الروحية التي سلكتها البابوية ، والنزعات التوفيقية .

وكان الطريق الكنسي الذي شقّه جون هورس واتباعه في معارضة الكنيسة الرومانية أحد هذه الطرق - ووصف جراوس الحركة الهومسية في مصرى كلامه عن الأزمة الروحية التي أحدثها التصدع الكبير بأنها رد فعل للتشديد الذي أحدثته هذا التصدع في القيم الدينية عند الشعب التشيكي . فبعد أن ألم الشعب التشيكي بالنقد المتواصل للكنيسة التي أجبرها الانقسامات والاعتداءات الأخلاقية ، فإنه لم يعد متيقنا من وضع الكنيسة الحقّة وعالية قناتها المقدسة - ويرى جراوس أن الحركة الهومسية قد أسرت لب الجماهير التشيكية التي لم تكن قبل ذلك تكثرث بما يجري في هذا الشأن . بعد أن قمعت لها تصورها مستوحدا للكنيسة أكد لها موضح أنباعها كمسيحيين حقيقيين ، وأثبت لها ( في زمر القديح لمقدس ) صحة الأسرار المقدسة .

وعلى الرغم من أن المنهج الهومسي في الكنيسة ، الذي استند إلى التشديد على « الأسرار المقدسة » قد استطاع أن يستعيد مؤقتا الثقة والأمان لشعب التشيكي الحائر ، إلا أن هذا التركيز على الكنيسة « والكناس المقدسة » لم يتسكن في لدى البعض من أشباع حاجات جماهير أواخر القرون الوسطى ، أو يخفف من هموم الفلق والمخاوف ، في الفاحيتين الاقتصادية والاجتماعية . وبقي دور الحركة الهومسية الجديدة التي وكرت جهودها على دور الأسرار ، وفعل وضع حجر أساس الحل في الكنيسة إلى الإيمان الشخصي : « فاعتمادا على هذه الوسائل يستطيع التغلب على الأزمة الفكرية في أواخر القرون الوسطى ، وإنشاء نظام جديد يحل محل أطالها » - ومن منظور مطلوبة أواخر القرون الوسطى يكتسبة حقة يستحق جانمان من نظرية حراوس التعقيب - أولا - تقيمه لأسباب اخلاق الحركة الهومسية - وثانيا - تقديره القنصم للحل الذي جاء به القرن السادس عشر للأزمة الكنسية في أواخر القرون الوسطى - ومشتاؤل المسألة الأولى فيما تلى من هذا الفصل - وميستعان بالمسألة الثانية كنقطة انطلاق للملاحظات الختامية في الفصل الأخير .

فالولا لماذا لم يساعد التركيز على الكنيسة والأسرار الدينية على أشباع الاحتياجات الدينية للشعب التشيكي ، ولماذا لم يساعد كأساس لمركة اصلاح دائمة ؟ ويستنتج حراوس أن سبب الاختفاق - ضمنا - يكمن في الاتجاه المصلحي الهوميين إلى الاقتفاء بالماضى « ومحاولة إنشاء مجتمع جديد على غرار نموذج مسيحي بدائي » . فما دام الهوميون قد وضروا لصعب أعيمم الكنيسة البدائية كنموذج للإصلاح الكنسي فإنهم لا يكونون قد

حققوا ما هو أكثر من المعتاد أثر العديد من الحركات الأخرى للإصلاح  
الوسطي . وفصلا عن ذلك - فلفند وأصلحت الحركات الإصلاحية الاسمات  
للكنييسة البدائية كميّار للإصلاح طيلة القرن السادس عشر . ولقد شاع  
اتباع هذا النموذج على نطاق واسع قبل الهوسيين وبمفهم ، مما أدى  
إلى إرجاع الاعتناق الواضح في حل مشكلة القرون الوسطى إلى هذا السبب  
وهم ، والأهم من ذلك ، على أي نحو يحل لنا القول بأنهم أخفقوا<sup>١٤</sup> أجل  
لم يصبح يوهيميا نقطة انطلاق لحركة إصلاح القرن السادس عشر ، ولكن  
هذا لا يعنى بالضرورة أن النظريات الكنسية الهوسية لم تترد الشعب  
التشيكي بإحياة حيوية على بحثه عن كنيسة حقة تمثل العصر ، كانوا  
يحتاج إليها . ويكفى أن ينظر إلى النظريات الكنسية الهوسية على أنها  
لم تسمح لأكثر من الإصغاء إلى حل لأزمة التشيك ، وأنها لا تزيد عن كونها  
أزمة واحدة في سلسلة من الأزمات الكنسية في أواخر القرون الوسطى .  
ولا داعي لتوجيه اللوم للمذهب الهوس الكنسي . لأنه لم يحدد لحل لأزمة  
أواخر القرون الوسطى من شتى جوانبها وأبعادها .

على أن الحقيقة تظل باقية وهي أن الهوسيين والأوتراكسيين (\*) لم  
يتحكموا من إنشاء كنيسة تامة الاستقلال عن الهرارضية الرومانية ، ولم  
يتحقق ذلك إلا ١٤٦٧ في صورة نصيب طائفي تزعمه الإخوة المتحدون<sup>(١٥)</sup> ،  
الذين تشابهوا هم والعالمزيان في اتباعهم اتباعا وثيقا للخل الأعلى للكنيسة  
البدائية ، وتتباين مع حركة هؤلاء الإخوة النسيحة المعتدلة لمتد  
الأوتراكسي ، التي يكن إرجاعها للعصبة الحميمية بين الكنيسة والمتمسكات  
التي تمسك بها هوس واتباعه .

وبالاستعانة بمرح المشكلة على النحو الآتي : هل كان المذهب  
الهوسي للكنيسة هدما إلى الحد الذي يفيقه إلى إنشاء أساس نظري لتبرير  
الانفصال عن روما وإقامة كنيسة مستقلة ؟ ويرد كامينسكي على هذا الرأي  
ردا قويا ويقول أن الثورة الكاليكستية ( ١٤١٤ - ١٤١٧ ) فرضت نظريا  
وعليا واحدا بإنشاء كنيسة بديلة قوامها المسيحيون الأقوياء من اتحوا  
شريعة المسيح التي نصت على التآخي في كلنا الناجيتين ويرى كامينسكي  
أيضا أن النظرية الكنسية لهوس قد اتهمت تعاليم ويكلييف ، ومن ثم فإنها  
تكون قد هدنت سلطان الحرمات المقصدة لكنيسة روما .

بيد أنه من المسائل المثيرة للجدل التماؤل حول هل كان هذا الاحتمال  
المحتمل قائما في النظريات الكنسية الهوسية بنفس مقدار وجوده عند بعض

(\*) اتباع جمبع كاليكستوس ( ١٤١٩ - ١٤٥٩ )  
Unites fratrum . ١١٠  
(١٤٣٣)

مصلحي القرن السادس عشر ( في لاهوت مارتن لوتر على سبيل المثال ) - وعلى الرغم من تركيز الهوسيين على مسألة الاسرار الدينية ، الا أنهم اشركوا هم وكنيسة لواخر القرون الوسطى في الاعتقاد بضرورة العناية الالهية . فلم تصف النظرية الكنسية لهوس بالذات ( التي لم يتراجع عن الاعمال بضرورة الفكرة النارجية للكناس للكنيسة للخلاص ) بأية اتجاهات مدعاة . إذ كانت حتى كنيسته المؤمنة بالجبر والقضاء والقدر تؤس بالصاية الالهية التي تماوس دورها من خلال الهيرارشية الكنسية المشروعة .

فلم يكن السبب ادى وراء احفاق الحركة الهوسية لحل أزمة أواخر القرون الوسطى . هو اتباعها نموذجاً عفا عليه الزمان ، يستند الى شعور غير واقعي بالاستهواء نحو الكنيسة الباثية . إذ كان لدى النظرية الكنسية الهوسية ما هو أكثر من ذلك . فصدا انتبه الهوسيون الى ضرورة الصاية الالهية المقدسة حتى في حالة الكنيسة المؤمنة بالجبر والقضاء والقدر ، فاتهم ملوكا ينتهون الى القرون الوسطى ، وظلم جفورهم مبنية فيها . واتصف هوس والتيار الاسامي لخلعائه في اراج بالسطحية في المسائل النظرية . وبمسافة أخرى . فان النظريات الكنسية الهوسية - باستثناء صورتها المثبتة المتطرفة - لم تجيء بأطار تصوري كان يمكن على حديه اشاء كنيسة جديدة مستقلة عن الهيرارشية الرومانية للحركة الهوسية . واستطاعت حركة التوافق ومجمع بلزل نرويض التيار الرئيسي للحركة الهوسية ، وتجنب في التعاميش السلمى هي والكنيسة الرومانية واستندت نظرياتها الكنسية التي لم يمد اليها على أنها أكثر من سبيل من السبل البديلة التي يمكن اختصارها عند البحث عن الكنيسة الحقة في أواخر القرون الوسطى .

## ( ٥ )

فهل مات هذا المطلب بعد أن اشرق فجر القرن السادس عشر ؟ وقد ضمن جراس دعه بالإيجاب على هذا السؤال في معرض توكيده لحتاج التركيز الهيوماني على الاسمان ، وتصور حركة الاصصلاح « للايمان الشخصي » . بينما فشلت النظرية الكنسية الهوسية . ورغم جراس أن هذين التاملين قد اتفقا لاسمان الملائم من الجور المثلث بالإنعوبة في أواخر القرون الوسطى . وساقاه الى الجور المتحرر للعصر الحديث ، الذي أصبح يقدوره الوفوق في إمكان الاستمساك مرة أخرى . فلما كانت سلسلة أزمات النظريات الكنسية مسئولة الى حد بعيد عن حرج موقف انسان أواخر القرون الوسطى . لذا بنا من المناسب البحث عن طريقة خلاصه

بالرجوع الى تصورات لاكنسيه وقوى لاكنسية ، بل ومعارضة أفكاره الكنسية ، وجاء هذا التركيز على إعادة تولد الزعة القردية او الفردانية (٣) والزرعة البدائية كوسيلة مربية لتعريف معنى المستحدث (٤) الذي طرعه القرن السادس عشر لآباء أواخر القرون الوسطى . ولا وجود لتصوير لهذه الحالة أفضل مما ورد في كتاب جوزيف لورنس الذي رأى حلول حركة الإصلاح محل الاتهامات الوسيطة الأمايسية ، كلووضوعية ، والتقليدية ، ، والأكلروسية ، التي استعاض عنها بمقولات مثل الرعة الذاتية والروحية والعلمانية .

ومن المروء الآب أن القرن الخامس عشر - في ألمانيا على أقل تقدير - كان مصرا تميز بالتمسك الديني والتقوى الى حد غير مألوف . وطبقا لما ذكره مولر ، فإنه كان عصر شديدة الولاء للكنيسة أكثر من أية حقبة سابقة في القرون الوسطى . وهزمو مولر هذا التعلق بالكنيسة الى الأرامة الروحية الفكرية المماندة التي وصفها حراوس ، فقد سعى الناس لتحقيق السلام والأمان بالتباع ما هو تقليدي وصفس ، وما أثبتت الرماز معه ، بمعنى بالرجوع الى شرائع الكنيسة ، ولكن مولر يرمع أن المحدث لم يسجه الى الكنيسة بالثبات ، فقد تطلع الناس الى تحقيق الخلاص الذي يملكه الكنيسة .

وعلى الرغم من احتمال إشارة هذا القول الى شعور بعض أبناء القرون الوسطى بالاستهواء نحو الكنيسة ، إلا أنه من المشكوك فيه إمكان تفرقتا على وجه الدقة بين الكنيسة ، في ذاتها ، وكنوز الخلاص التي تملكها . إذ كان هناك ارتباط وثيق بين الكنيسة وفكرة الخلاص في عقول أبناء القرون الوسطى . ففي الشروح التقليدية للبعوث الوسيطة - على سبيل المثال - كانت الخلاصية (٥) وثيقة الصلة بعلم الكنسيات (٥٥٥) ، وكانت نفس فقرات الأمصار القديمة تنطبق على الكنيسة وروح الفرد على حد سواء . فإذا رأينا عديدين من غير أهل العلم في أواخر القرون الوسطى بألمانيا يسعون للمصع عن البقي والمعنى عن طريق الكيسان الوطيد للكنيسة ، فبما يرجع ذلك الى شعورهم بأن كنيسة روما هي الكنيسة الحقبة ، وأنها قادرة على تزويهم بالخلاص الذي يتعلمون إليه . ولا يلزم أن يقودنا الولاء للكنيسة في أواخر القرون الوسطى بألمانيا الى استنتاج

institutions  
Novum  
Eoteriology  
pedeology.

(٣) الفديانية .  
(٤) (٣٠٠)  
(٥) (٣٠٠٠)  
(٥٥٥) (٣٠٠٠٠)

حدثت ترد في الاهتمام بمطلب الكنيسة الحقة . ففي واقع الأمر بمقتورنا أن عصر هذه الأحداث على أنها محاولة لشجرة من قبل عابري السبيل للستور على عاؤهم الأرضى فى هذه البيئة الكنسية ، التى يعرفونها خير معرفة ، يمتنى أحضان الأم روما -

ويلاحظ ملر أن التعلق بالكنيسة لم يحل بآى حال دون توجيه النقد لرجال الدين وغيرهم من رؤوس الكنيسة - ويشير بخاصة الى آراء علماء اللاهوت المتصلة بطريقة السادة الحديثين (١) وباليهيومايين الألمان . ولا يحسى الطابع البعيد عن التورية للنقد الذى رددته جميع هؤلاء الناس أنهم فقدوا الأمل فى الكنيسة ، واتجهوا الى عيش الاشباع الروحى المنحرفة أو المنبذة عن الكنيسة ، وعلى عكس ذلك ، فلقد اعتقدوا أن بقاىهم فى رحاب الكنيسة ، سيحصى احتمال قيامهم بتقديم العمود لهيئة المحو المناسب لعودة ظهور مطلب الكنيسة الحقة عن طريق المصلحين البروتستانت . وبين فى الطريقة التى شدد بها الهيومايون من أئرد مصروف المصلحين اهتمامهم بإعادة توطين الكنيسة لكى تعود محورا لحياة البشرية -

وهكذا يبين علم وجود مبنات كافية لتأييد ما يقال عن أن حركة الإصلاح فى القرن السادس عشر - بما فى ذلك الهيومايون - قد عالجت أزمة أواخر القرون الوسطى بالرجوع الى القيم « الفردانية » والدائية ، وأنهم تخفروا عن الكنيسة باعتبارها الإطار للوضوعى لوسائل الصاية الالهية . وأكثر الأدلة نعتيما لهذا الرأى هو الاهتمام الذى أولاه المصلحون ذاتهم لطبيعة الكنيسة وسلطانها . ولر يستطيع استيفاء هذه النقطة حقها فى حدود هذا البحث . ومع هذا فالاستطاعة الإشارة الى أنه بالإمكان وصف لاهوت لوتر - على سبيل المثال - بأية صفة غير القول بأنه اتعاه ذاتى ، أو بأنه جنح تجاه الايمان الفردى أو الفردانى . اد كانت الاهتمامات الكنسية فى صميم المؤثرات التى أثرت فى تكوين لوتر اللاهوتى ، ولتت نظيرته الى الكنيسة مرتبطة برباط وثيق بعلم الخلاص الجديد . ولم يكن لوتر مهتما بكيف يستطيع الفرد المسيحى اليقاء بمعزل عن الكنيسة ولكنه اعتم بكيف يكون بمقدور الكنيسة اذا تصورت أفضل تصور أن تملئ المسيحى المؤمن بمعنى الحياة ، عنفما يتعرض لأزمة فى إيمانه ويستمد عن اليقين .

كان من الضرورى لكى تتوافر للوتر دوافع الإصلاح ، أن تقسم بعدم نهوض كنيسة روما بهذه المهمة التى لا غنى عنها للكنيسة الحقة ، وعندما روى



لوتر نبا عقابته المحورية هو وعالم اللاهوت الإيطالي الكاردينال كاجيجيان (\*) ( ١٤٦٩ - ١٥٢٤ ) في أوجسبورج ١٥١٨ قال انه شعر بالاهتمام ، ولكنه لم يشعر دهشة بالغة لما حسمه تشويه كاجيجيان للكتاب المقدس . بعد أن صاد الاعتقاد طويلا بأن أي شيء تقولهُ كنيسة روما ، أو قديسه ، أو طالب به ، لابد أن يقوله الصحيح بكلمة آمين ، في نهاية المطاف دون حاجة للاستناد الى أي مبرر آخر خلاف القول بأن قداسة البابا الحبر الأعظم وكنيسة روما قد راوا هذا الرأي ، ومن ثم ويدع التخلي عن الأسفار المقدسة وعدم الرجوع اليها اكتفاء بتقبل كلام الكافة والأعراف ، لذا لم تعد كنيسة روما تسمد قوتها من غلبتها على كلمات المسيح ، ولكنها عادة تتعرض للتضليل من وراء الآراء الرعناء والطائشة لأحد المتلقين الجاهل ولقد وصلنا في مصيبتنا الفادحة الى حالة بدأ فيها هذا البحر يرمعنا على نيد العقيدة المسيحية وانكار الكتب المقدسة ، وواصلت مؤلفات لوتر المناهضة في نظريات الكنيسة التشديد على اعتماد الكنيسة على كلمات الاسفار المقدسة ، والقول بأن تعريف الكنيسة مستمد من هذا المفهوم والمعنى ، وعلى حد التعريف أن موضع الكنيسة الحق لا ينبغي تحديده على أي نص في مدينة بالذات ، أو بالطاعة أية هيرويشية واحدة ( خصوصا روما ) ، لأن الكنيسة الحقة بتقديورها أن توجه حيثما تتردد كلمة الكتاب المقدس بصديق ، وتنفذ بها الكنيسة .

ولن نفهم حركة اصلاح لوتر . ولن نفهم بحق سر الاعتقاد الكامل عن ابداع البابوية في القرون السادس عشر ، ولن نمرك ادراكا صحيحا ، اذا هي فسرت على أنها نتيجة لأزمة روحية وشخصية لأحد الرهبان الانجليسبي الذين غلبهم الحماسة ، والعكس صحيح ، فبالاستطاعة تعمير حركة اصلاح لوتر على أفضل وجه على أنها استجابة كنسية لأخر أزمة وسيطة كبرى تاورت حول هوية الكنيسة ، وملطانها ، وساعدت عوامل أخرى بأدوار هامة في احداث التأييد الشعبي ، وفي غرفة الانعاش ، السياسي افدى ثقافته الكماشي البروتستانتية الوليدة . ومع هذا فان العامل الخامس قد حاسمها من نظرياتها الكنسية التي ارتككت اليها ، وقدره المصلحين على الحفاظ على الثقة في كنائسهم باعتبارها مظاهر جديدة للكنيسة النعمة في مواجهة النابرية والهيرويشية الرومانية . وهوو الدور الحاسم الذي اضطلعت به الكتابات الطرية الكنسية اخفاي القواضين البروتسمانت والبابويين في الاتفاق في المناظرة التي عقدت في ويجسبورج ( ١٥٤١ ) عن طبيعة الكنيسة وملطانها بعد أن اتفقوا على المبررات .

وفي هذا الانشقاق الذي رفع الـ الامبراطور ، ارجع فيليب ميلانتون  
سلطان الكنيسة الحقبة الى الفهم الصحيح وتفسير الكتاب المقدس الذي  
لا يتقيه بأي أشخاص او أماكن ، ولكنه ينبع من « الأعضاء الاحياء  
للكنيسة » .

لم يكن جميع أبناء القرن السادس عشر مقتنعين بتميز كنائس  
المصلحين المتأخرة للحاكم على كنيسة روما بحيث يحق لهم المطالبة بلقب  
اللامعاديين(٢٠) وغيرهم من المصلحين الراديكاليين الذين نقلوا ما هو أكثر  
نقلا مباشرا عن الأنماط الوسيطة للإصلاح مثل الكنيسة الهلانية . وكان  
من بين المساعي التي سمحت لتحقيقها أبحاث حركة الإصلاح الديني القيام  
بإستقصاء مفصل في النظريات الكنسية لكبار المصلحين وصغارهم لتتبع  
التفاعل بين نظراتهم للكنيسة وطريقة التقاء عملياتهم الإصلاحية مع  
واحتياجات البشر ، التي كانت مازالت تتأثر بالأزمات في بيئاتهم الوسيطة  
المتأخرة . ولما كانت هذه البيانات مستقيمة نقيضا كاملا على ضوء النظريات  
الكنيسة الوسيطة المنسوبة ، لذا استوداد صعوبة البداية ، أو التفرقة بين  
النظريات الكنسية في عصر الإصلاح والنظريات الوسيطة ، وكا بهما كيانان  
محتاسران بجذاتنا سببا . والأرجح هو انكار النظر بظرة أكثر تلاؤما  
الى تطور مختلف نظريات الكنيسة خلال عصر الإصلاح باعتبارها استمرارا  
للمطلب الوسيط المتأخر للكنيسة الحقبة . وكما حدث في حالة اللامعاديين ،  
غناه ستصبح أن بعض أصحاب النظريات الكنسية في القرن السادس عشر  
قد كان لهم نظراء في المصور الوسطى - ولو بحثنا بحثا مستوفيا فقد  
تكتشف الردود الكنسية الأخرى على آخر أزمة كبرى في القرون الوسطى  
مع ملامح يقدر كافي من التفرد الذي يساعد على توضيح لماذا يجب التوقف  
عن تسميتها « محيطية » على الإطلاق ، بل يجب اعتبارها علامة على بداية  
عصر جديد . وبعد حدوث الإصلاح الديني ، ربما توقفت أزومات النظريات  
الكنسية الوسيطة ، ولكن المطالبة بكنيسة حرة قد استمرت .

## المراجع

- Franklitz Granz — *The Crisis of the Middle Ages and the Hussites*,  
ed by Ozment. 1971.
- Johann Huizinga — *The Waning of the Middle Ages*, 1982
- Gerhart B. Ladner — *The Idea of Reform*, 1959.
- Gordon Leff — *Heresy in the Later Middle Ages* 2 Vol. 1967
- Gordon Leff — *The Making of the Myth of a True Church in the  
Later Middle Ages — Journal of Medieval and Renaissance  
Studies*, 1971
- Steven Ozment — *The Age of Reform (1250 — 1550)*, 1980.
- John O'Malley — *Giles of Viterbo on Church and Reform* 1968.
- Louis Pascoe — *S. J. Jean Gerson Principles of Church Reform*  
1973.
- Brian Tierney — *Origins of Papal Infallibility 1150-1350* (1972).
- Charles Trinkaus and Heiko A. Oberman (eds), *The Pursuit of  
Holiness in Late Medieval and Renaissance Religion* (1974).



## الطاعون والتعليم العالي في إنجلترا (٢)

وليم • ج • كورتيناى

عندما قام الباحثون باستقصاء الأزمة الديموجرافية الكبرى في منتصف القرن ورأوا العواقب التي جرت بعد قتل الطاعون ما يتصور شخص عند سكان موريا ، فاجهم شعروا بالغيل الى وحدث القرن الرابع عشر بهبة اقتراب العالم من حلقه وتحلله ، على ان مثل هذه الفترة قد تعطلت سريرة شأنه ، للحياة الثقافية والحضارية للعصر ، التي ظلت قوية ، ودرجات اشدائها اقترتد حتى الآن مما ينفي قائلها بالفعل بالموت والجوئى ، واصدق دليل على ذلك هو جملة اكسفورد .

اذ كانت تنمية الوفيات نتيجة للاصابة بالطاعون في اكسفورد ، انزل من سميتها في باقى أنحاء إنجلترا • والظاهر ان شباب الجامعة بحكم حسن تعليمهم ، كانوا اقدر على مقاومة المرض ، عندما انتشر الطاعون • وتمكن كثير من النرويج الى مضاعف متعزلة حيث لا توافى ببيوت القرويين • ولم يترك الطاعون اقرا بالغا ايضا على عهد اصابة الجامعة الذين ضلوا يحثون حينذاك • وكلمه في الخلب بالنظر قد احدث انخفاضاً في مستوى الدارسين المستجدين بعد موت كثيرين من المتكفين في تدريس النصوص واعضاء الاكليروس الذين كانوا يدرسون في المدينة ، وايضا في مدارس الايرشية التي تزود اكسفورد بالطلبة ، وربما ادى ما حدث من نقص في تحصيل اللغة اللاتينية والفكر النقدي الى جعل التعلم العسكري الضمير في غير مقادير جيل جديد من الطلبة ، وساعد على تعجيل اسباب ما طرأ من هبوط في الالتزام بالروح المدرسية (الاسكولائية) في نهاية القرن الرابع عشر • ومع هذا فقد سبق ان حدث بالفعل قبل انتشار الطاعون عذوف عام عن الابدال على الفروع الأكثر جنوحاً للناسية النظرية في الفلسفة واللاهوت •

The Effect of the Black Death on English

(\*) خلاصة مقال

Speculum Higher Education تأليف William J. Courtenay نشر في

الجزء ٥٥ (١٩٨٠) من ٦٩٦ - ٧١٤ •

وإذا كان مستوى الطلبة قد تأثر بانتشار الطاعون ، فإن عدد الطلبة الغربيين لم يتأثر بصفة محددة . والحق فليد زاد عدد المثقفين في كلية اللاهوت زيادة مطردة في العقود التي أعقبت للطاعون . وبعض هذا الزيادة في عدد المثقفين الحاجة الى تعويض اكليروس الإبرشيت والمقسس المنتشرين ( الذين كانوا يقرمون بتفصيل قداست الموتي ) .

وقد شغل هذه الوظائف خويجو الجامعة الذين أمروا ان الفرصة قد اتحت لهم أكثر من ذي قبل للخدمة بالتكنيسة . وشعروا بازدياد جاذبية هذه الوظائف أكثر مما كان عليه الحال قبل تفشي الطاعون . وأيضا هناك نفر من الشباب قد ساعد انتشار الطاعون على حصولهم على الارث بعد وفاة ذويهم فالتوا أنفسهم يتمتعون بقدر أكبر من اليسرة ، وحالفهم الحال وفتحت لهم الفرصة للتعليم بالجامعة .

ليس أثر الطاعون على التعليم في القرن الرابع عشر من الموضوعات المفضلة . وبينما قد لا يوجد بحث عن هذه العلاقة مشابهها للكتاب الاستقصائي (٢) - وإن كان مثيرا للجدل - الذي دلو حول أثر الطاعون على في فلورنسا وفي سينا ، إلا ان الكثيرين من الباحثين قد لاحظوا حدوث تدهور - أو حالة ركود على أقل تقدير - في مختلف الجامعات الوسيطة في العقود التي أعقبت ١٣٤٨ . وهو تدهور نسب الى الطاعون . وهناك كتاب (٣) سيغال المؤلف المام الأواحد الذي تخصص في بحث هذا الموضوع الهام ، ونضن عرسا لعظم البناات المتوافرة منذ قرن من الزمان . ومنذ ذلك الحين ، ظهرت مؤلفات عن علاقة الطاعون بممارس التعليم المام . ولكن على الرغم من ظهور أدلة كمية اضافية عن الجامعات في العصر الوسيط ، إلا أن عددا قليلا من المؤلفات قد ظهر عن علاقة الطاعون بالتعليم العالي سواء في إنجلترا أو في باقي أنحاء أوروبا .

وإذا انتقلنا الى المانبات الاحصائية المقيمة الى تمتد الى بقاع كثيرة في نواحي هذا القرن الى الاختلاف الواضح في الرأي . والميل الى الاستناد في الاستنتاج على بيانات محاصرة ذاتية أو غامضة . لم يكن لها من أثر في أفضل الأحوال أكثر من اعطت تقديرات انطباعة للموقف . وأدى الافتقار الى أنواع أخرى من الأدلة الى قيام كل من بالتشديد بقدر ملحوظ على البيانات التي جمعها باحثون معاصرون أو افصاحات مماثلة مستقاة من السجلات التي جمعت بياناتها الجامعات والكليات التي أشتت

بين ١٣٥٠ و ١٣٨٠ وفيها صانف أسفا على التدهور الحاضر في التعليم  
 إما من ناحية الأعداد ، أو من ناحية مستوى الكيف ، أو في الماديتين معا ،  
 وعلى الرغم من اتخاذ الكثير من هذه البيانات طابع البيانات الرسمية ،  
 وبخاصة تلك المكتبة في السجلات والمستندات ، وعلى امتراض رد هذا  
 التدهور إلى الحرب والرياح « المستجدين » أو أي سبب آخر كالتطاعون  
 أو حدوث نقص في عدد السكان . إلا أن الدكورة كامبل قد شعرت أن  
 معظم هذه البيانات قد أثبتت بساعة تأثير التطاعون على التعليم ، وحتى  
 في الحالات التي اعتمد فيها كامبل على البيانات الإحصائية كالأعداد  
 للثقلية من القوائم المقدمة من الجامعات بناء على طلب البابوية ، أو عند  
 الموتى بين الأساتذة في بادوا خلال ١٣٤٨ وقبلها وبعدها ، أو التدهور  
 في عملية التوثيق للجامعي في المقعد الذي تلا تقصى الطاعون ، أو إغلاق  
 عدد جامعات ، فإن الأدلة إما كانت شحيحة بالنسبة للتقييم الكلي الذي  
 يمكن أن يستنتج منه مصلوحت ذلك بال ، أو كانت تقبل التحويل على  
 اتجاه شتى .

وعندما أدركت كامبل أن نسبة الوفيات وتأثيرها على التعليم قد  
 اختلفت من جامعة لأخرى لجأت إلى تجنب ذكر النسبة المئوية للوفيات  
 أو حتى متوسط البيانات المثلثة لأوروبا ، على أنه باستثناء باريس فإن  
 أنا كامبل قد أجبرصت أن نسبة الوفيات كانت مرتفعة بين العلماء .  
 وهناك آراء أخرى . فلدينا مثلا سولتر<sup>(\*)</sup> الذي أشرف على العديد من  
 الدفاتر الكسبة الرسمية والسجلات في مؤسسه أكسفورد . وقد حدد  
 نسبة الوفيات في أكسفورد بخمسة في المائة ، ففي تقديره أن الأساتذة  
 والطلبة قد لاذوا بالفرار بمجرد ظهور أول بوادر لتقصى الطاعون ، وعادوا  
 عندما خفت حدة الوباء . وتسمى معظم المؤرخين الذين لمسوا تأثير الطاعون  
 على التعليم الوسيط السائح التي إحدت إليها كامبل ، واعترف بعضهم  
 بحولتها بهذه الناحية - وأحيل حي لبتل<sup>(\*\*)</sup> الموقف في أكسفورد بقوله :  
 « مدينة أكسفورد الواقعة على طريق التجارة الذي يصل لندن بيطوسر  
 وبرستول قد أصابها الطاعون . ولكن تأثير ذلك على الجامعة سيظل  
 مسألة تحمل البحث » .

ولقد توافرت لنا في العقود القليلة الأخيرة الأثرلة التي تيسر فهمها  
 لتأثير الطاعون على التعليم ، مما يساعد على الأقل من اعتمادنا على  
 الظنون . ولدينا الآن جملة أدلة إحصائية عن الجامعات تضم ما يكفي من

H. B. Sallter.

Guy Lytle.

{\*}

{\*\*}

البيانات عن عدد الطلبة وأعمارهم ، مما يسمح بإجراء مقارنة باقية  
للموقف ميل ١٣٤٨ وبمقارنتها . فمثلا توأمرت لنا مستندات عن بعض  
البنول تتعلق بكلية الفنون بجامعة باريس . وبها إحصائيات عن الطلبة  
والذين يقدمون مصاريف اندواسة وهي غالوا حطهم عن الترقى ، واحتلفت  
البيانات الجغرافية التي جمعها لجن (٢٦) عن أكسفورد وكيمبردج إبان  
الصور الوسطى ، وإن لم تقل أهمية هي دلالتها ، ولا يد من مراعاة  
الحرص عند الرجوع الى أى مصدر من هذه المصادر ، فلا وجود لمصدر  
يحتوى على الأعداد الكاملة للطلبة الجامعة ، أو أية أدلة لم تتعرض في  
بعض جوانبها للتخريف . يبدو أنه إذا استعين بهذه البيانات مجمعة  
وبحرص ، فإنها ستمثل مجموعة من أولى الأدلة الإحصائية عن السنوات  
التي سبقت ١٣٤٨ . والسنوات التي أعقبها ، مما يساعد على الحصول  
على إجابة وقيمة عن الأسئلة التي كان من العسير توجيهها قبل حين  
من الآن .

ومن أسعد فإن المصادر الجامعية لا موزدنا بجمع الأدلة الإحصائية  
التي يستطيع الاستفادة بها لتحديد النسبة المئوية لما اعتري عدد السكان  
من بعض من أثار الطاعون . فأولا - لم يكن الباحث الوسيط ينعم  
بالاستقرار من الناحية الجغرافية . فلى الرغم من احتمال إقامته بالجامعة  
عقدا من الزمان أو عشرين ، فإن الإقامة لعترات أقصر من ذلك كانت  
الأكثر شيوعا . وقد يمارح الجامعة بمجرد اضطراب بانهاء الحاجة اليه ،  
وهكذا يتضح أن هذه البنات لا تضم أكثر من شدة من المعلومات عن  
الأشخاص المتقلين أو الرحل . وليس عن القيمين إقامة دائمة . ثانيا -  
لم تضم الجامعة إطلاقا يحكم طبيعتها مؤسسة تضم الصفوة ، بالرغم من  
أن هذه المجموعة المخارة من الصفوة في القرن الرابع عشر لم تكن نمسا  
على الروابط العائلية ، أو على طبقة اجتماعيه بالذات ، ولكنها كانت  
تتركز الى من حصلوا على بعض المناسبات التضفيرية في مدارس  
الأبرشية ( اللاتينية ) التي كانت ميسورة على أنحاء شتى . بما في ذلك  
المدارس المجانية بالنس ، وبينما لم تكن الجامعة الوسيطة تحتاج في  
نقلاتها الى الكثير من المال . فإن نفقات الإقامة بأكسفورد وبأوكس  
وبولونيا كانت في حاجة الى بعض الدخل ، خصوصا خارج الجامعة ،  
ثالثا - لم تمثل الجامعة دوما نفس النسبة المئوية من عدد السكان .  
فبجلاف الكثير من نظائرها في العصر الحديث ، لم يكن للجامعة الوسيطة  
سياسة لتيسيق القبول بها ، أو حد أقصى لعدد القبولين ، فلم تعرف



رفض المرشحي والمؤهلين للدراسة - ومن الناحية النظرية ، كان يسفدور الجامعة - يقول جميع من يرغبون الالتحاق بها ، ومن تتوافر لهم الموارد المالية والاعداد الربوي للالتحاق ، ويستثنى من ذلك الكليات والمعاهد الدينية ، التي وصفت حدا أقصى للمنتح واليسيرات ، وان كانت قد ظلت تمثل أقلية بين دور العلم . وبما لذلك لم تكن موقعا ظهور أي آثار يتناقص حاد في وثائق الجامعة من أثر الهبوط الشديد في عدد السكان . إذ كان يسفدور الجامعة - إلى حد ما - شغل فصولها الدراسية بأشخاص من ضلوا على قيد الحياة بمه نفسي أي وباء جسيم ، بقبول طلبة من بين من كان يرفض قبولهم قبل ذلك ببيل من الزمان ، لسبب أو آخر ، أو من بين من تستويهم الدراسة ، ومع الاعتراف بوجود سبل أخرى ، قاهه بالاسنطاعة الارتكان ال البيانات المعدية للتعرف على لحة ع آثار الطاعون على أبناء الجامعة ذاتها ، وان وحب علينا الاستعانة بأدلة أخرى لتقدير بمتلعة آثار الطاعون على المجتمع بوجه عام .

وتمثل اسجلترا بخاصة حالة مثيرة للاهتمام عن العلاقة المحتملة بين الطاعون والعلوم . ففي النصف الأول من القرن الرابع عشر ، اتخذ الاساقفة الاسجلتز الصدارة في علم المنطق والرياضة والعلوم ، بينما تحلفت باريس . وبفدوم ١٣٤٠ بدأ اتجاه لتركيز اهتمام الباحثين في جامعة باريس على تحليل منهجرات الانجلير في الفلسفة والملاوت . ومع حدا على منتصف القرن تغيرت هذه الصور نمرا حذريا . وكما بين من العرض الذي قدمه هوليجر عى هذه المشكلة قبل ذلك بحوالي قرن من الزمان .

• كيف حدث هذا ؟ ففي الحقيقة الواقعة بين منتصف القرن الرابع عشر وحركة احياء التعاليم الكلاسيكية ( يقصد عصر النهضة ) برز في تاريخ جامعا سخته المؤسسي من أبناء الأسر المالكة والنبلاء ، ثم أممييت الحياة الفكرية في كل من اكسفورد وكيمبردج بالشمول بعد ذلك . كما يبين من الاسماء القليلة من الافناذ من أمثال ويكليف وريثالد بيكون . انها ظاهرة تدعو إلى الانتباه .

ولقد أصبحت في موقف أفضل لتقدير الأثر الذي يحتمل أن يكون الطاعون قد أحدثه في هذا التغير الفكري . ولقد ظهرت بعض دراسات أكثر استفاضة عن أثر الطاعون والتدهور في عدد السكان في العصر الوسيط في انجلترا ، ومن ناحية أخرى ، فان لدينا بيانات عن جامعتي اكسفورد وكيمبردج لا تتوافر عن أية جامعة وسيطة أخرى : السجلات البيوجرافية التي تزودنا بامكتشفات عن جميع العلماء الذين يظن أنهم

المتحققات يهذي الصرحي العلمي قبل ١٥٠٠ . ولدينا أيضا معلومات عن عدد مراكز التعليم التخصصي (\*) الأعلى ، التي يتعرف بها كجامعات .

وهناك مصدر متميز يمد أوفر هذه المصادر التطبيقية حلا ، لأنه يضم حوالي ١٥٠٠٠ تعريف مقتضب بشخصيات الطلبة والأساتذة وغيرهم من كانوا يقيمون في أكسفورد . ولهم ارتباطات بالجامعة في ذروة العصور الوسطى وحواشيها . وهذا السجل هو المرجع الأساسي الذي ستنند إليه دراسا الحالية ، وقد ازدادت صلاحية للاستفادة به بعد فهرسه عن طريق الكمبيوتر حديثا ، ويتنح السجل ببعض مميزات تساعد على الانتفاع به كمصدر للمعلومات الرقمية ، وسيسر بها فيما يتعلق بعدد الأساتذة والباحثين المقيمين في أكسفورد في القرن الرابع عشر .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإن الأسماء المذكورة في « السجل » (\*\*) لا تمثل أكثر من حصة من جملة المقيمين بالجامعة .. ولا يستبعد أن يكونوا أقلية - في أية حقة من ذروة العصور الوسطى وحواشيها . ولم يتم تجميع هذا السجل في طائفة من السجلات المتناحية كقوائم الخريجين أو كشهادات صرف الترقيات التي ربما ضمت أسماء جميع الملتحقين أو المقيمين في إحدى السنوات الدراسية . وعندما لم يثر آمدن على مثل هذه الوثائق ، فإنه قام بتجميع مادة منته من مصادر شتى ، وبخاصة سجل الكليات والمجليات (\*\*\*). والمجلات الأسقفية والسجلات البابوية . ولم تكن المشكلة التي تواجه الباحث بآثر هذه الحالة هي مشكلة النقص فيما دون في هذه المصادر يقدر كونها المشكلات الناجمة عن اختلاف الأسماء وتكرارها وتعرضها للزيادة بعد المراجعة وتقديم البحث . ولقد قدر مجموع المقيمين بالجامعة في أي وقت من الأوقات في أواخر القرن الرابع عشر وبواكير القرن الخامس عشر بعدد يتراوح بين الألف والألف ومسمائة . فإذا أضفنا إلى هذا المجموع « النحيتي » البيانات المستمدة من « السجل » وربطنا البيانات في شكل أجيال أكاديمية سيتضح أن مجموع من سيعرف على أسمائهم في أزمنة مختلفة من القرن الرابع عشر لن يتجاوز ١٥٪ أو ٢٠٪ من الأسماء .

ولر يعننا هذا المجموع الكلي بالنسبة للغة التي سمي بها . فلو ثبتنا جميع العوامل المؤثرة الأخرى ، فإن أية زيادة أو نقصان في

Studi paratitularia.

(\*)

The Biographical Register of the University of Oxford.

(\*\*\*)

Calenders of Patent and Close Rolls.

(\*\*\*\*)

المجموع الكلي ( أيا كان ) مستعكس على الرقم المفسررف على أن هذه الحالة لا تمثل أفضل ما يتوقع من نتائج ، فمن عندما نتعرف على أسماء من يبلغ عددهم ١٥٠٠ ، بدلا من نعرفنا على أسماء ١٢٠٠ ، وباردياد الوثائق التي مازالت باقية ، فاما تجد متوقع حدوث انخفاض في نسبة الطلبة الذين لم ترد أسماؤهم ، ومن ثم فإن أية زيادة في المجموعة التي وردت اسماءها لن تمكس بالضرورة النسبة المثوية للزيادة في المجموع الكلي لعدد المقيمين بالجامعة . وبالمثل فإن أي انحراف أو نقصان في عدد المصادر الوثائقية الميسورة عن أي جيل من الأجيال ، لأي سبب من الأسباب سيترتب عليه انخفاض في عدد الطلبة الذين وردت أسماؤهم على أيهم من أبناء ذلك الجيل . ومن حسن الحظ ، فإن البيانات التي استند إليها إحدى في تريب و سجيله ، لم تؤثر تأثيرا كبيرا على صورة القرن الرابع عشر ، ومن ثم فإذا تسنى صط الأرقام بمفضل الوسائل الاحصائية التي تسند على التقم التكنولوجي في رصد البيانات فإنا سرى أن الأعداد المثيلة للقرن الرابع عشر والمنسوبة عن سجل إحدى مستعكس التغيرات الحققة في عدد المقيمين بالجامعة .

#### ١ - عدد المقيمين بجامعة أكسفورد

##### قبل ١٢٨٤ وبطءا - الأثر الرقمي

عدد تقييم أثر الطاعون على أبناء الجامعة ثمة سؤالان متصellan يجب بوجهها . أولا - ما هي النسبة المثوية لطلبة أكسفورد وأساتذتها الذين فارقوا الحياة والعمل عند تعشى الطاعون ١٣٤٨ - ١٣٤٩ ، ثانيا - هل استطاعت أكسفورد استعادة الأعداد المفقودة ، أم أن الانخفاض السريع في عدد السكان الانجليز قد أدى إلى مناقص الأعداد في العقود التي أعقبت الطاعون ؟

والسؤال الأول من الصعب الإجابة عليه بدقة . فلقد ساعد وضع الأساتذة بحكم ارتباطهم بهيئة التدريس وادارة الايرشبة أو بالبعثات القصائية على تسجيل أسمائهم علما كانوا طلبة . ولقد سقطت أسمماء نسبة كبيرة في جميع الأروحة ولم يجر ذكرها في الوثائق التي ظهرت فيما بعد . وليس عن شك أن كثيرا من الأساتذة والمساء ماتوا ، وليس بمقدورنا الزعم بأن الموت هو سبب انخفاض ذكر انصائهمم اللاحق باكسفورد ، ومن ناحية أخرى - علينا أن لا ننسى أن ما ساعدنا على استخلاص وجود هؤلاء الأساتذة العلماء باكسفورد ارتكانا إلى ظهور

أسمائهم من الوظائف التي شغلوها لاحقاً كان استمرار بقائهم على قيد الحياة ، ( ولا يلزم أن يكون القبر الذي استقر في البقعة حياً قد أبلغ عن مصيره على نحو أفضل من الآخرين الذين شهد الحظ ان لا يسمروا على قيد الحياة ) ، وإن كانت هذه الجماعة قد انضمت ميدانياً لممارسة التدريس جليلاً أقرب الى تحديد حالتها عندها كتب لها البقاء ، ولكن أثبت مدى قاعدية هذه المعايير فقد اختارت كلية اللاهوت ، في اعتبارها الكلية الأوفر عدداً في القرن الرابع عشر ، والأوثق ارتباطاً بأكثر الجهات حرصاً على الحفاظ على الوثائق آشد ( يسمى الكنيسة ) فقد أمكنها تزويدها بمينة أكبر وميزت بتسمية عالية من حالات الاضطراب عن الموت فاقت أية جماعة أخرى ، وفضلاً عن ذلك ، فلم يشهد في الوثائق إلا من كانوا بأكسفورد قبل ظهور الطاعون ، ومن ثم فإن إمكان رؤيتهم ، عن طريق من استمروا أحياء ، لن تؤثر في نسبتهم المثوية . ولابد أن يراعى أن كل ما تبينه نتائج الإحصاءات هو الاتجاهات العامة ولا يمكن الوثوق فيها ثقة مطلقة .

ومن بين علماء اللاهوت ( عدهم ٨٧ ) الذين عرفهم كأولاً عقبيين هناك في العقد السابق لظهور الطاعون ثمة واحد وستون عرف أنهم استمروا أحياء إلى ما بعد ١٣٥٠ . وعرف أن أحدهم مات قبل الطاعون ، ولم يبق من السبعة ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ أكثر من خمسة أشخاص . ولما كانت النسبة المثوية لن لا تتوافر لدينا أية معلومات لاحقة عنهم ( ٢٨٧ ) ، وتعد نسبة غير عالية بقدر كبير بالإضافة إلى السعد الأبعد ، ولما كانت نسبة الوفيات العادية خلال عشر سنوات في القرن الرابع عشر لن تدم أعمارهم بين عشرين وثلاثين سنة حوالى ١٠٪ ، كما يحتمل ، لذا فليس هناك دليل يثبت أن الطاعون قد زاد من هذه النسبة ما هو أكثر مما بين ٥٪ و ١٠٪ .

ولا يبرر للرغم أيضاً بأن كلية الآداب وكلية الحقوق قد تعرضنا لإصابة أحد من كلية اللاهوت ، وبالمقدور إثبات صحة هذا الرأي في حالة كلية الآداب لو فحصنا عدد الطلبة الذين واصلوا الدراسة بأحدى التكتليات العليا لكلية اللاهوت ، فبينما كانت كلية الآداب تزود بطلبتها من أولئك الذين درسوا في مناسخ الأروسة المدينة ومن بين من تعلموا لحسابهم الخاص خارج الجامعة ، كانت كلية اللاهوت تحصل على طلبتها إما من بين من سبق لهم الالتحاق بكلية الآداب في العقد السابق ، أو في حالة الطوائف الدينية من بين العدد المحدود الذين تعلموا في معاهد الأديرة ، وإذا استبعدنا طائفة مثل « الرهبان المستجدين » التي كانت

نعرض عائدته قيودا على عدد الطلبة ( بالنسبة الداخلي ) في أكسفورد ، والتي كانت دعم الوباء الأكبر سرود يبرمجها المؤرخين من بينه من بقوا على قيد الحياة من طائفتهم ، فان عدد اللاهوتيين الملبسين ( الذين كانوا يتبعون برنامجا مفتوحا يختارونه بأنفسهم ) لا بد أن ينعكس إلى انخفاض ملموس في أبناء كلية الآداب من تأثير أحداث ١٧٤٨ ، ١٧٤٩ . غير أننا نلاحظ أن عدد طلبة كلية اللاهوت الملبسي قد ازداد بعد الطاعون من ١٧٣٣ إلى ١٧٤٩ ، يعني حدثت زيادة تفوق قليلا نسبة ٢٨٪ -

وتتباين النسبة المنخفضة ظاهريا للوفيات بين طلبة الجامعات تباعا ناددا هي والنسبة التي كثيرا ما تذكر عن العولة في حديثا . وعلى الرغم من أن التقديرات تختلف من إقليم لآخر ، وتختلف في المدن عنها في الريف ، إلا أن النسبة العامة للوفيات في إنجلترا في الستين ١٧٤٨ و ١٧٤٩ قد قدرت على أنها بين ٢٠٪ و ٤٠٪ عند معظم المؤرخين في العهد الحديث من يولموني بالأعداد الضخمة . وكانت نسبة الوفيات بين رجال الدين في مجموعهم هي الأفضل توثيقا . إذ قدرت على أنها تقع بين ٣٥٪ و ٤٠٪ . ومع هذا نلاحظ فيما يتعلق بكبار رجال الأكثوزس الذين كانوا يعيشون في مساكن أقل ازدحاما وأكثر نتمتا بالرعاية الصحية - بالمقارنة بمساكن قسوس الأبرشيات - كانت نسبة الوفيات أقل ، قسلا من بين ٢٣ أمضا في إنجلترا وويلز من شاغل المناصب الدينية العليا في فترة تمشي الطاعون ، لم يمض أكثر من ستة أشخاص بين ١٧٤٨ و ١٧٤٩ ( يعني ٢٦٪ ) مات ثلاثة منهم في لندن .

وليس باستطاعتنا ما هو أكثر من التخمين فيما يخص لمجسابة التساؤل . لماذا لم يترك الطاعون سوى أثر واهن على أبناء جامعة أكسفورد ؟ . فأولا من الناحية الوبائية للطاعون ، يتمتع أبناء الجامعة الذين تنحصر سنهم بين ١٥ سنة و ٣٥ سنة بمقاومة أفضل للمرض ، ولا يستبعد أن تكون تفذجهم وأحوال معيشتهم أعلى من المتوسط . وعلى الرغم من عدم تمتع أحد بالمحصانة ضد الطاعون اعتمادا على السن أو الحلفية الاجتماعية ، إلا أن الوباء كان أشد متكا بين من كانوا يقطنون مناطق أهلة في أبنية أو أحياء تآوى فيها من الحجم الكبير ، وأيضا بين الأطفال والعواجز والمصابين بعملة والمكففين بالاحتلال بالفقراء المرضى والمحتصرين ، ثانيا - كان يتفوق الطلبة والأساتذة التعجيل بعبادة المدينة ، لأن قلائل منهم كانوا يقيمون بصفة دائمة بالجامعة . ويقدمون القرن الخامس عشر ، ارتفع مستوى تخطيط تقاضي الإصابة بالمرض ، أو القرار من الوقوع في برائه بعد تخصيص بعض الدود الرقيقة كما كان

أيوه للراغبين في اتمام الدراسة ، ثالثاً - ارتفاع وسائل الاندثار الميكر -  
 قيتلا ، في أواخر ١٣٤٨ ، أصاب الطاعون ميناء بريستول ( وكامت من  
 أكثر البقاع تعرضاً للاصابة ) وانتقل الوباء الى أكسفورد في ذلك  
 الحريف . ولما كانت حرائيم المرض فتوالد بأعداد أكبر في الحر البدني  
 الرطب ، لذا كان الطاعون أشد حثكا في الصيف في بريستول ثم في  
 بوروش ولندن في الصيف التالي منه في أكسفورد في الشتاء . وإذا  
 افترضنا ان ما نتعامل معه في أكسفورد لم يكن النوع الرئوي من المرض  
 ( واحصائيات الوفيات قد تؤيد ذلك ) فان اصابة الطاعون في الشتاء  
 تكون أكثر صرامة ، فالصيف هو الموسم المفضل للطاعون ، والصيف هو  
 فصل الاجازات الطويلة في أكسفورد ، لأن الطلبة لا يعودون الى دراساتهم  
 قبل منتصف أكتوبر ، وفي ١٣٤٨ ، ربما أثر بعضهم علم العودة ،  
 وأخيرا فان ظلمة أكسفورد كانوا لا يتقنون من بين أهل المناطق المزدحمة ،  
 والأرحح هو أنهم كانوا من المنحدرين من مدن صغيرة ومن عائلات متواضعة .  
 ولعل من سرحوا من الجامعة وشغلوا وظائف في أبرشيات المدن وأقاموا  
 هناك قد ماتوا بأعداد كبيرة ، وربما كتبت الحياة للكثيرين ممن عادوا الى  
 بيوتهم الريفية المنعزلة ، أو الى المدن الصغيرة ، ولكن علينا أن نراعي  
 أن الموت بعد مغادرة الجامعة لم يؤثر على ما كان يجري في أكسفورد .

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني ، يعني مستوى أبناء الجامعة قبل  
 الطاعون وبعد . فلدينا احصائيات استطاع الارتكان اليها بقدر أكبر .  
 كما أنها تكشف المزيد ، فلما كان متوسط مدة الدراسة في دور الجامعة  
 حوالي ثمانى سنوات ، فاننا فيما يتعلق بالمقد ( ١٣٥٠ - ١٣٦٠ ) ،  
 لا نرى بسمية الماتين على قيد الحياة ، وانما ما يهتأ هو نسبة الاحلال .  
 وإذا نحن تمسنا في العدد الكلى لأبناء الجامعة المثبت منرى علم حدوث  
 انخفاض جوهري في عدد طلبة أكسفورد خلال ١٣٤٨ ، أو حولها .  
 وما من شك أن هنا ليس هو ما نتوقه على ضوء الاسفاص المقرس  
 في عدد سكان انجلترا ، وفضلا عن ذلك ، فان ما أوجى به « مولتر »  
 عن حدوث انخفاض عام في القرن الرابع عشر ليس بالمشهور تأييد  
 بالمطويات البيوجرافية التي وردت في « السجل » الذي وضعه « امين »  
 فلقد حدد قبرس الكومبيوتر عدد ١١٢١٢ شخصا للحقبة بين ١٣٠٠  
 و ١٣١٩ و ١١٩٢ بين ١٣٢٠ و ١٣٣٩ ( وهو ما يدل على حدوث زيادة  
 محققة بمقدار ٧/١ ) و ١٠٨٦ للحقبة الواقعة بين ١٣٤٠ و ١٣٥٩  
 ( وهذا يعني حدوث انخفاض محقق لا يقرب من ٩٪ ) و ١١٠٠ ( للحقبة  
 بين ١٣٦٠ - ١٣٧٩ ، بارتفاع يقارب ما يزيد عن ١٪ عن الجيل السابق  
 وان كان يزيد بمقدار ٧/١ أقل من النسبة العالية السابقة ) و ١٥٤٧

( لفترة ما بين ١٣٨٠ و ١٣٩٩ ) وهذا يعني حدوث ارتفاع حقيق لاكثر من ٢٠٪ عن الجيل السابق ، ويتضمن تعديل هذه الأرقام حتى يعكس التغيرات في تقدير الودائع التي استلمت اليها ، من المستبعد ان تمثل الفترة بين ١٣٢٠ و ١٣٣٦ ارتفاعا كبيرا مثل ٧٪ عن الفترة السابقة لانها قد توتيت على ما طرأ من تحسن مؤقت في التوثيق في كلية مونتون .  
ومثل ما الأرقام الخاصة بغيرت ما بعد ١٣٤٠ قد صممت بيانات عن كليات أنشئت حديثا بعضها مثل كلية الملكة قد اصبحرت غرما للداوسين خارج الكنسة ، الذين ربما كانوا من المقيمين بها ، ولكنهم لم يسجلوا في الفترة السابقة . ولا بد من انقاص هذه الأرقام المبتلة لاحتساب الفترات بعض الشيء ، وأجرا فان الارتفاع السريع في نهاية القرن لما يرجع بـ من جانب - الى قوائم التخرج في الكلية الجديدة التي أنشئت ١٣٧٦ ، ومع هذا وحتى بعد اجراء هذه التعديلات ، فان القرن الرابع عشر سيبدو فترة تحسن توقف قليلا لحسب في العقبة بين ١٣٥٠ و ١٣٧٥ .

وإذا أصبحنا هذه البيانات بعضها الى بعض سيكون بوسنا ان نستخلص ان الطاعون كان له اثر هامشي على أبناء جامعة أكسفورد ، بين القيمين فيها ومن حلوا محلهم في الجيل الطلاي التالي ، وهكذا نجى المعلومات الكمية المسجورة لنا مزيدا لاطاعات مولتر ، مما يشك عدم صحة بيانات كامبل فيما يتعلق بأكسفورد على أقل تقدير .

## ٢ - مشكلة حدوث انفطال في « الكيف »

على الرغم من هبوط نسبة الوفيات في جامعة أكسفورد ، ونسبتها من الحفاظ على مستويات القبول بها لمواجهة الطاعون ، الا أنه مازال من المحتمل أن يكون الوباء قد أحدث تأثيرا سالباً على التعليم من حيث الكيف ، بعد أن تأثر برحيل عدد من الأساتذة المهمين ، وما لحقه من صرر عند فقر من العاطلين بالجامعة ممن شاركوا على نحو بارز في الحياة الفكرية ، وتأثر أيضا بما حدث من هبوط عام في مستوى الطلبة الوديين : ويحتاج كل جانب من هذه الجوانب الى البحث .

وكثيرا ما تصادف القول بأن الطاعون قد قتل محاولة الكتاب والمفكرين في الجامعات الإنجليزية مما أدى الى هبوط في مستوى الكيف . نعم نحن نعرف أن عددا من كبار المفكرين قد ماتوا في الحقبة الواقعة

بين ١٣٤٨ و ١٣٤٩ (\*) ولكن لم يكن بين هؤلاء أحد كان مازال مقيما  
ياكسفورد آنذ ، فقد انتهوا من أداء دورهم التعليمي في وقت أبكر .  
كث عاس أو كالم خارج إنجلترا منذ ١٣٢٤ ، وقد استطاعوا جميعا  
الاستمرار في العيش بعد الطاعون ، ومن السبيل تصور كيف يمكن  
للتلاميذ في أكسفورد التحول إلى شيء مختلف بعد تفشي الطاعون فيها .  
ولابد من عقد مقارنة بين هذه الجماعة وذلك البع الذي تعرف أنهم نجوا  
من الموت بالطاعون ، وعاش بعضهم آنذ في أكسفورد ، واستمر يلرس  
هناك (\*\*) . فإذا نظر إلى الطاعون على أنه كان ذا أثر على مستوى  
أكسفورد ، فإن أثره لم يصب على فقدان أصحاب العقول الكبيرة من هذا  
الجيل ، ولكنه سبب على رتب على رتب هذا البع من أثر على أصحاب  
العقول الكبيرة من الجيل التالي .

وربما كان الإحاطة المحتمل لسد الفراغ يواكب مماثلة من العوامل  
التي شعرت بها كليات مثل مريون وغيرها من أصبحت يقتر كبير في  
ذويع صيت أكسفورد كمسار للمعكر في بواكير القرن الرابع عشر ،  
ولعل حدوث أي شعور ساد في المستوى العام للسكان إذا انعكس على  
مستوى القبول بأية وحدة في وحدات الجامعة ، لا يظهر أثره بصفة  
مباشرة . وإذا بعد فترة زمنية تتراوح بين عشر سنوات أو خمس عشرة  
سنة ، وقد صادف الفرانسيسكان أديادا ملعبا بالأمانيد في عشر السوات  
التي أعقبت ١٣٤٩ - واشترك معهم جزئا علماء وأمنون من الخارج ،  
ومعظمهم إيطاليون . وإن كان منهم أيضا اللان وتشييك وواحد من  
الفرنسيين ، وقد حدث هبوط في عددهم ورد ذكره في « سجل » لندن بعد  
١٣٦٠ حتى نهاية القرن . وبالإستطاعة ملاحظة حدوث حالات هبوط  
مماثلة في بعض دور الرهبان المستجدين والأديرة الدينية . ومع هذا  
فقد أدى اختفاء وتائق بعض الطوائف الدينية في إنجلترا إلى عدم معرفتنا  
على أكثر من عدد قليل من أسماء علماء « الرهبان المستجدين » ، وليس  
بمقدورنا الاطنشان إلى دقة الصورة العامة التي تكونها من مثل هذه  
الأحداث المتواشمة .

والدليل المستمد من كلمة مريون أحسن بالاعتماد عليه . فإنا  
أساطنا من حسابنا الارتفاع الحاد في الأعداد المقررة في الحقبة الواقعة

(\*) من ملحق Thomas و John Baconthorpe و William of Okham ،

Bradwardine و Robert Holcot و John Rodington Richard Rolle .

ويحمل أيضا John Went و John Dumbleton .

(\*\*) وتسمى إلى هذه الزمرة أمثال Adam Wodeham ، Richard Fitzralph ،

و Ralph Strode و John Wyclif وغيرهم .



بين ١٣٢٠ و ١٣٤٠ ، لأنها تتضمن وجود وثائق معصلة إلى حد غير  
عادي ، سيكون مستوى القبول الموثق لمثل هذه الوثائق ثابتا طبقا لغير  
الرابع عشر ، بامتناع الفترة ما بين ١٣٦٠ و ١٣٨٠ ، ولما كان  
لم يحدث أى تشييد فى الاستناد إلى الوثائق يساعد على تفسير هذا التدهور  
( من العدد المؤيد بالأسانيد ١٧٠ إلى ١٣٦ ) لذا يوصى أن يدرس  
احتمال تعرض الوثائق إلى انخفاض فى الكم فى هذه الحقبة قبل صيا  
بعض تميرات فى الكيفية .

وأخيرا فإن علينا أن نبحث الآثار المحتملة للطاعون فى مستوى إعداد  
الطلبة الراهدين . إذ تمتزج نوع الفلسفة واللاهوت الذى كان يدرس  
فى أكسفورد فى ثلاثينات القرن الرابع عشر بارتفاعه وشده احتياجه  
للدراسة باللاتينية والمنطق والرياضيات ، وربما تكثرت عقول الدارسين  
فى أكسفورد فى منتهيات وسبعينات القرن الرابع عشر من الاستيعاب ،  
وإن كانت مهارتهم وتدريبهم على الفهم قد ساهموا بارتفاع مستواهم  
وتدريباتهم الباكورة ، وبخاصة تدريبهم على الأخرومية اللاتينية ، فإذا  
افترضنا أن نسبة الوثائق فى السنتين ١٣٤٨ و ١٣٤٩ بين أسانيد  
الأخرومية فى مدارس المنس والكليروس الذين كانوا يدرسون فى مدارس  
الأيرشية كانت مساوية للنسبة التى ذكرت قبل ذلك عن الكليروس  
الأيرشية . فى هذه الحالة سيكون مستوى التعليم الأساسى فى الفترة  
ما بين ١٣٥٠ و ١٣٦٠ قد تعرض للأضرار ، ولدينا عدة إشارات بعد  
١٣٤٨ عن الأمانس الشاغرة ، وعن تعيين مرشحين أقل كفاية ، وربما كان  
التعليم الابتدائى لفترة من الزمان أقل تيسرا ، وأقل انضباطا فى أماكن  
عديده ، وعليها أن لا نعتز هذه الصورة القاسية إلى حد كبير  
مادام قد ظل هناك طوال النصف الثانى من القرن الرابع عشر مدرسون  
للأخرومية يستعدون بالكفاية لى بعض مدارس المدن ، ولكن التعليم  
الابتدائى - مختلفا عن الجامعة - يعتمد عادة على مدرس واحد يؤثر  
وجوده ومستوى تدريبه على المستقبل التعليمى لمعلم الأولاد فى هذه  
المدينة . ولعله كان من البادر أن تبحث الأسرة عن مدرس جيد فى  
مدينة أخرى . فالمعلم المألوف هو أن يختار هذا المدرس محليا .

ولم تظهر آثار هذا الموقف واضحة جلية فى مستوى الجامعة لبعض  
الوقت . وانتقل النظام التعليمى من أسفل إلى أعلى ، وحلت تدريجيا  
واسمفرق ذلك عشرات السنين . ولو كان هذا التدهور هاما على الإطلاق  
لتوقنا مصادفة دلائل عليه بين طلبة كلية الآداب فى الحقبة  
( ١٣٦٠ - ١٣٧٠ ) وبين الطلبة والاسانيد فى الكليات الأعلى بين

١٣٧٠ و ١٣٨٥ - وفي مثل هذه الظروف لن يصعب تصور كيف مرتقي  
 جهارة الطلبة في اللغة اللاتينية والتفكير التقني بدرجة تساعدهم على  
 استيعاب الدقائق النظرية للحجج - ومن هنا وصفوا أرسطو بالاستفلاق ،  
 وتوقعوا عن قراة أركام ودهام وبرادو أردن أو كليجبتون ، وبعض  
 النظر على مقدار هومة أساتذة الجامعة واقتدارهم في مستينات القرن  
 الرابع عشر ، إلا أنه لم يكن بمقدورهم إصلاح ما ألحقه التعليم  
 المتخلف في مرحلة التعليم العام من عطب . ومن ثم وشبنا فشبنا شغل  
 وظائف المعلم في جميع المستويات في الجامعة أولئك الذين علموا  
 في تلك الحقبة بعد انتشار وباء الطاعون .

ويجب أن يظل تقريبا لدى تأثير هذا العامل الأخير ، أو مدى  
 ما أحدث من تغيير لمستوى التعليم في أكسفورد مجرد افتراض - فحين  
 صرف أن كلية الآداب قد ابتضعت بعد ١٣٦٥ عن منطلق الفرصيات  
 النظرية وانتقلت الى مطلق أكثر اقترابا من النواحي العملية ، وما من شك  
 أن الدراسات الفلسفية واللاهوتية في أكسفورد بعد ١٣٦٠ كانت أسهل  
 في تحصيلها ، ولم تكن تحتاج الى تصق في الإلمام بالمطلق والرياضيات .  
 أما إثبات رد هذا التصور الى العجز عن فهم طريقة التعليم السابقة فمسألة  
 أخرى ، كما يبدو في نظر الباحث المحدث صوطا في المستوى ربما بدا في  
 سياق الأحداث راجعا الى حدوث تبدل في الاهتمامات ، وليس هناك  
 سوى أدلة شححة هي وثائق الجامعة تثبت أن من كانوا يدرسون اللاهوت  
 بعد ١٣٥٠ كانوا أقل اقتدارا من أسلافهم في استيعاب اللغة اللاتينية ،  
 وقصلا عن ذلك ، فإن جامعة باريس - التي من المنروف به أنها كانت ملتقى  
 لعلم الفلاسفة من يقصاع حفرافية أبعد اعتقادا لم يظهر فيها سوى  
 آثار واضحة دالة على حدوث تنحور في المستوى بين من تعلموا في المرحلة  
 الابتدائية بعد انتشار الطاعون ، وقد تواصل إنتاج مفكرى أكسفورد في  
 القرن الرابع عشر في باريس (\*) . ومن هنا لابد أن نفترض وجود قوى  
 فعالة أخرى ووله في تنحور حدث في المهارات اللغوية باتت آثاره في  
 الوسط الفكري في أكسفورد وفي عهد الملك ريتشارد الثاني .

وهناك تأثير أكثر مباشرة للطاعون على ما طرأ من تغير في المستوى  
 كمله قد ترتب على المؤسسات التي تقضي الطوائف الدينية - فلقد كان  
 لطائفة المستعدين ( المندمكتبة ) - وكانت لا تفتقر دراسة صلتها

(\*) في مؤلفات Henry Tottling من سنة و Henry of Langenstein

جورجسيليوس من Inghen و Pierre d'Ailly وجون كابريراس

للقسمة بكلية الآداب قبل الالتحاق بكلياتها - كان لها مدارسها الخاصة في كل مقاطعة ، وقام العديد من الأديرة بهام التدريس في الفنون الحرة والمنطق ، وخصصت كل مقاطعة للدراسات العليا لفلسفة الطبيعة واللاهوت على مدارس (\*) . وجرت العادة أن تخصص مدرسة لكل قسم ثانوي من المقاطعة عند الطائفة الفرانكيسكانية والبطريركية اللاتينية (\*\*) . وبعد تخرج الدارسين من طائفة المستعدين كانوا يستكملون دراستهم العامة في الجامعة للحصول على دراسات أعلى في اللاهوت والقانون الكنسي ، ويمود كثيرون من أفضل الخريجين لبعض الوقت للتدريس في هذه المدارس وفي الأديرة المحلية . وجرت العادة في إنجلترا على اختيار المناطق المأهولة بالسكان كلندن وورويش ويورك كمقار للدراسات المتخصصة(\*\*\*) بخلاف المقامات العامة التي كانت تسخدم مقراها في المدن الجامعية الصغرى كأكسفورد وكينيدج-ولو صبح ما يقال عن أن نسبة الوفيات في لندن وورويش ويورك كانت أعلى منها في أكسفورد - وهو ما يبدو صحيحا - فإنا قد نستخلص من ذلك إصابة التعليم عند الرهبان المستجدين بالشلل ، وإن كانت هذه الحقيقة غير مؤيدة من أرقام وبيانات أكسفورد . فبحسب أن طوائف من الرهبان المستجدين قد قضيت عن بكرة أبيها ، وربما أمكننا أن نرغم أنه لو شغلت بعض أديرة الجامعة بنسبة عالية من الطلبة غير المستوفين للشروط لما كان من المستبعد تدنى مستوى التعليم . فعند الفرانكيسكان الذين اعتمد عليهم قدر كبير من مستوى الفكر في أكسفورد ساعد وجود ألقاذ في أديرة أكسفورد ولندن في النصف الأول من القرن الرابع عشر على خلق جو نشط الآخرين وشجع أصحاب المواهب الفتية بين الرضعين على الاقتداء بهم . وربما أدى غياب نظيره لهم ١٣٦٠ إلى حدوث انحلال وتدن . زد التعليم الفرانكيسكاني احتجابا - وأما إلى أي حد كان الطاعون عاملا هاما في انحلال هذا الأثر فأمر غير محقق . ومع هذا فإن النقص في أعداد الفرانكيسكان كان له أثر شديد الأهمية - ونلاحظ ذكره في الوثائق المعاصرة - ( وقد أشار إليه المدن في سجله ) ومن ثم فإنه يعد انكسارا لحدوث تفتح هام .

(\*) اسمها Studi particularia

(\*\*) ويسمى Cuspedes عند طائفة الفرانكيسكانية و Nations, i visitations

عند اللومبيكان .

Studia particularia.

(١٣٣٣)

### ٣ - الجمجمة والتخمر : مواجهة الطاعون

ينظر الى « الموت الأسود » أو الطاعون كمرحلة هامة فيما حدث من انخفاض مستمر في عدد السكان عبر القرن الرابع عشر . ولقد ظهرت ملامح لهذا الانخفاض . وإن كان لا يصح أن ينسب إلى بدء انتشار الطاعون ، أو يعزى إليه ، وعندما حل الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، كان عدد السكان الانجليز لا يزيد أكثر من ٣٠٪ أو ٥٠٪ عما كان عليه ١٣٠٠ ، مما يعنى أن الانخفاض قد بلغ حدا يناهز ٧٠٪ . ولكن وكما رأينا ، فإن هيئة التدريس ياكسفورد لم تتناقص ، ومن المحتمل أن يكون عددها قد ازداد خلال القرن ، ولعله مما يثير الدهشة أكثر من ذلك ازدياد عدد طلبة اللاهوت في العقد الثنائي بعد ١٣٤٩ بمقدار ٢٨٪ ، واستمر هذا العدد في الريادة طيلة النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، فإذا كانت المهارات اللغوية عند الطالب المتوسط القديوات لم تستطع الاتصاف بتدريتها للقيام بمهمتها ، أو إذا كانت مشكلات الفكر المدرسي ( الاسكولاني ) الأيكر وطرائق حلها ، لم تده قادرة على استيعاب أحد ، فهل يصح القول بأن الجامعة كان لها مسر خاص ساعد على إغتناب الطلبة إليها ؟

لقد بينت عدة دراسات حدوث ازدياد بعد ١٣٤٨ في عدد طلبة التعليم العام في إنجلترا ، وتمثلت هذه الزيادة في الاقبال على مدارس القراءة والانتقاد ، وإن كان قد تم انشاء مدارس للأجرومية أيضا ، وقد ربطت مؤلفة انجليزية (\*) هذا التطور في أبرشية يورك بازدياد المطالبة بعد تقشى الطاعون بالتقسيم والتدريس على المستوى المحلي ، بالرغم من الفجوة الواسعة التي تفصل عدد المعينين والزيادة في عدد المدارس . وليس من شك في أن أحد أسباب تجديد هذا الاقبال على التعليم الكنسي المتجدد يرجع إلى ضمور الاكليريوس المحلي بعد تقشى الطاعون . وهناك سبب آخر هو طريقة استثمار الأموال بعد « الموت الأسود » ، فمنه أن تناقص عدد السكان ، تركزت الأموال في أيدي قليلة ، إما بالميراث أو عن طريق وسائل أخرى ، ووجه قدر كبير من القدرة على اتفاق المال إلى أشكال شتى من أعمال البر في أواخر القرن الوسطي ، وبخاصة هبات تشجيع الانشاء في شتى أنحاء إنجلترا .

ولقد تصور من ليندل الوضع في المستوى الجامعي في صورة مختلفة نوعا ، إذ رأى الحقبة بين ١٣٢٥ و ١٤٣٠ كمحنة تازم في الحاحية

بعد انكشاف الموارث التقليدية لدعم الأبرشية ، وما ترتب على ذلك من تضاؤل الهبات والدخل وغرس الفصل داخل الكنيسة لخريجي الجامعات ، ومن ثم فقد افترض أن انخفاض القبول في الجامعة ليس مجرد عجز عن مظاهر تناقص عدد السكان ، ولكنه علامة على حدوث أدراك متزايد لعدم جدوى الدراسة الجامعة ، وعجزها عن إتاحة الفرصة للأفراد لتحقيق حياة آمنة كريمة ، بحيث أصبح أفضل ما ينصح به الشباب بعد انتهائه من مراحل التعليم الباكورة هو الالتجاء إلى الأسرة المالكة أو أية أسرة قروية بتقديرها التحكم في الوظائف الكنسية وغيرها من الوظائف . فللمستقبل قد عانا في أيدي البيروقراطيين من الأسرة المالكة أو من يتساوى معهم من عليا القوم ، ولم تنته أزمة رعاية أهل العلم إلا بعد ظهور أشكال جديدة من الرعاية - وساعدت النقطة التي تحولت من جرائها أكسفورد إلى جامعة تضم جبهة كليات على تحقيق جانب من هذا الحل ، وبينما يصح القول بأن ما يقال عن تناقص الالتحاق بالجامعة في القرن الرابع عشر مثار شك ، فإن الإحصاءات التي جمعها لنيل عن حدوث تحول في رعاية أهل العلم حديثة بالتفسير ، فلقد تأثرت موارد تمويل الطلبة المتقدمين للالتحاق بالجامعة ، وأيضا نوقعت الحصول على وظائف بعد انتهاء الدراسة الجامعية .

وإذا فحصنا دوافع التعلم اعتمادا على ما تنهيا للخريجين من فرص بعد انتهاء الدراسة الجامعية ، فإن علينا أن نراعي التوقعت الواقعية للمخاطر التي يجسبها شغلوا الوظائف الأكاديمية ، أو ما يطرأ على النحل من زيادة من باب أو أكثر من أبواب كرم المحسنيين ، والتي لم تحل لهم ذيلا أية رعاية روحية ولكنها كانت تنشد تطلعات أبعد من ذلك كالمستقبل الذي حظي به الخريجون السابقون من شغلوا وظائف إدارية في خدمة الأسرة المالكة ، في أغلب الأحيان ، ثم كوفئوا فيما بعد باختيارهم لشغل مناصب الأساقفة ، ولعل حدوث أزمة من جراء تطلد حصول خريجي الجامعات على وظائف كنسية عليا . ربما هذا بعيدا عن تصورنا ، وإن كان في بعض المهود كان من بين العوامل التي أدت إلى وقوع مثل هذه الأزمات . فلم يتصرف أحد من دارسي اللاهوت أو القانون الكنسي بالسذاجة التي تدفعه إلى التظلم لتعيينه في الأكادروس حزا ، تقلبه في الدراسة الأكاديمية ، والأمثلة المزدرة لذلك شائعة . وإن كان قد صادف الاعتقاد بسميزات الارتباط بالجامعة - وفي القرن الثالث عشر ، شغل العديد من المفكرين اللاتوسيين ( الإسكولائيين ) الرئيسيين وظائف دينية

هامة (٢٠) . وكانت الحاسة بين زعماء الكنيسة الإنجليزية في أواخر القرن الثالث عشر لزيادته نسبة المرشحين الحاصلي على تدريبات أكاديمية مسيرة جانبيا من حركة أوسع في هذه الحقبة لخلق ألدروس متفهم وكيسة متفحة تتساوى في المستوى الأبرشي هي وما ورد في اللائحة البابوية عن المطانية بفسس أكثر صلحا (٢١) وبالأضاهة الى هؤلاء الأساقفة العلماء الذين عرفناهم بفصل مؤلفاتهم المدرسية (الاسكولائية) كان هناك أيضا آخرون من (٢٢) الذين قامت شهرتهم في الجامعة على شخصياتهم وخضمتهم أكثر من ارتكابها على المجرات المدرسية المتارة .

ويرى باتن حلتوت تغير في العلاقة بين الجامعة والأسقفية إبان القرن الرابع عشر . وعلى الرغم من أن نسبة الأساقفة المدرسين تدريجيا جامعيًا قد ظلت ثابتة خلال القرن ، فلما يقرب من ثلثي جيلة المئينين لشغل وظائف أسقفية والعلماء المبرزين ( وهي الفئة التي أدرج باتن تحت اسمها بعض المستقلين المرموقين في الوظائف الجامعية ومستشاري الجامعات والمؤلفين المفسرين (الاسكولائيين) المتميزين ) ، وقد تخلوا تدريجيا عن العمل في الوظائف الدينية الكبرى مثل كاتدربري واقتصر تعيينهم على المناصب الدينية في البلدان البعيدة أو الثانوية مثل شمسستر وأرماتج . أما الاتجاه الذي رآه باتن فكان التحول التدريجي الى شغل الوظائف المسبة في منتصف القرن بعبارة من شغل وظائف الأساقفة العلماء في بداية القرن الى أن انتهى الأمر باختيار الأساقفة من الطبقة الأرستقراطية ، وما من شك في وجود استثناءات لهذه القاعدة . بيد أنها تعكس - فيما يحتمل - صعود التعيين الخالب للاتباع عند شغل هذه الوظائف . وهكذا فيمتما كان شغل وظائف الأسقفية إبان حكم إدوارد الثالث يحصلون على مرتبات الموطفين الإداريين لو مكافأاتهم ، فأبنا وأبناهم أثناء حكم ريتشارد الثاني يستحقون مكافآت سيامية أو أتمابا ٢

بطبيعة الحال ، ان هذا هو ما يتراح لنا من منظورنا الحديث ، ولكن المشكلة عندما يتعلق الأمر بأهداف أسلوب الاختيار لهذه الوظائف والأنماط التي حدثت لها تتركز حول هل كانت هذه التحولات واضحة لأننا العصر ؟ وإلى أي حد ؟ وكيف أدركت ؟ ، وما هو الأثر الذي كان لأدراكها على وظائف الجامعة ؟ -

(\*) من أمثال Robert Grosseteste في إنكلون و Stephen Langton و Robert Kilwardby و John Peckham في كلنبري .  
 (٢١) John Daldry من أمثال Robert Winchelsey في كلنبري وسيفيد العلى من سلايمبورج و John Daldry من إنكلون .  
 (٢٢) John Daldry من إنكلون .

ويلاحظ أبان حكم الملك إدوارد الثاني غياب العلماء المرموقين بين المخارين لشغل الوظائف الأسقفية . وفي العقد الثاني للقرن لم يبق حتى من تدبروا في الجامعة من هم على شاكله وعظمى (\*) وسيمون الفنسي ، ولاحظ باتين الصعوبات التي واجهها مجلس أساقفة كاتدريري عند انتخاب العالم توماس كوبرام ، فقد رفض ترشيحه لأحد المناصب الكبيرة ، وفضلوا عليه والتر ريبولدر - غير أن هذا الإجراء ، وبغض النظر عما حدث لهذا العالم الكبير ، ربما لم ينظر إليه على هذا النحو ، لأن الكثيرين من الموظفين المدنيين الذين عيسوا بدلا منه كانوا من خريجي الجامعات على أقل تقدير .

وأبان النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ظلت الصلة بين الجامعة والكنيسة العليا واضحة . وعلى الرغم من أن قليلا من العلماء ممن جعلتهم أفكارهم وكتاباتهم أسماء مألوفة في الجامعة قد عيّنوا في وظائف أسقفية ، إلا أن إدوارد الثالث عيّن ريتشارد فيتز رالف في مدينة أرماف وبي توماس برادواردين في كاتدريري - ولا ينبغي بأي حال موت برادواردين بعد أسبوعين من تنصيبه استناد إدوارد الثالث لشغل هذا المنصب المرموق . أتى أسس الوظائف الكنسية بانجلترا يحد العلماء من أصحاب الأهمية ، ويضاف إلى ذلك ما عرف عن بعض الميسين لشغل الوظائف المدنية من مؤازرة للجامعة والعلم . وكان معظمهم من خريجي الجامعات أيضا . ويصح هذا الحكم عن كثيرين (\*\*) وربما كان النفر الذي بنا وأصبحت هو لزيادة بروز الملكية الأرستقراطية والحماية القانونية فيما حدث من شغل للوظائف في الربع الأخير من القرن الرابع عشر .

لما ألقى توماس به الدلائل المستخلصة من أكسفورد بعد أن قلنا ، ينحصرها عن دور الجامعة في المجتمع في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ؟ بمقولنا أن تدور حموات عقلية - تستطيع ، بل وربما انخفاض طفيف في التقيد بأكاديمية اللاهوت أبان الربع الثاني من القرن الرابع عشر . وعلى الرغم من أن الإنجازات المتميزة في اللاهوت التي جرت في أكسفورد حينذاك كانت تتم على غير وجه ، وحازت على لقب السبق في صحتها الدولية . إلا أن أصحاب الفضل الحقيقي في هذا الصيت هم بلا مرء الفرتشيسكانة الفن لم يعتمد عملهم على الرعاية الخارجية .

Winchelsey.

(٤٦)

(\*) من كتاب John Grandison من ألكستر و Richard de Bury

من دورهام William Wykeham في ونشستر و William Courtenay

في كاتدريري .

وقلما كانت الوظيفة الكنسية مطمحا لهم - ويرجع الفضل أيضا إلى « المرويين » (\*) للذين كانوا يكافأون بمقابل متواضع يجمع من هبات الكلية - وفي المستويات المتدنية عن هذا المستوى الممثل للصقورة ، انحدار التقيد في كلية اللاهوت من مستواه الرفيع في مسنوعات بداية القرن الرابع عشر ، وتدهور ذات الوقت الذي كان الأقبال يتزايد فيه للالتحاق بالكلية - وربما قسر بعضنا هذا التدهور على أنه رد فعل لما حدث من تقلب في ماهية النحية الراعية للكلية ، وما شاب صورة من يعرضون من خريجي كلية اللاهوت لتسفل هذه الوظائف - ويرجع جانب كبير من هذا التدهور - في ظني - إلى ما حدث من تحول في الرعاية التي خففت أحد المصادر الرئيسية للتحويل في الجامعة لطلبة الدراسات اللاهوتية - غير أننا إذا قارنا الأعداد المقيمة بالجامعة مسترى إلى مقدار ما نال الطلبة من منح لدى وجودهم بالكلية كان ضئيلا ، ولكن بالمقارنة بالفئة التي ينتمي إليها المستقيمون من المنحة ، يعنى الطلبة المتقدمين في اللاهوت والقانون الكنسي ، والذين لم يكونوا أعضاء في الطوائف الدينية ، بين أن هذه المنح قد مثلت نسبة ضخمة في الإعتمادات المالية للجامعة - ونلاحظ أيضا ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ، حدوث تدهور في عدد المقفدين لدراسة القانون الكنسي ، بينما ارتفع عدد المقفدين لدراسة القانون المدني - وهذا يوحي أيضا بما حدث من تحول في الاتجاه ، ففى الجامعة التي ترغب في تعزيز موارد دخلها من أجل الخريجين قد لا تختلف مشكلة التحويل التي تواجهها في الحاضر عن مواجهةها بالنسبة للمستقبل .

وربما يدان أن « الموت الأسود » قد غير هذا الاتجاه ، ويلاحظ عدم حدوث تبدل في نمط الأحوال المصحية للكنيسة ، وإن كانت قد زادت سوءا بالنسبة لخريجي الجامعة - ويلاحظ أيضا حدوث شيء ما أدى إلى الارتفاع الحاد في عدد المقفدين لدراسة اللاهوت بين المجموعة التي ورنه أسماؤها في السجل في المقعد تلاميذ الموت الأسود - وعلينا أن نراعي هنا أن الجامعة لم تقنع باب القبول مفتحة للمزيد من الطلبة ، لأنه لم يكن هناك حد أقصى لعدد القبولين ، ويتوجب النظر إلى الزيادة على ضوء الرغبة الشخصية للطلبة ، وليس رغبة كلية اللاهوت في زيادة الملتحقين بها - فعل حين غرة أصبح اللاهوت - أو الوظائف التي تنافس لخريجي كلية اللاهوت - مصدر جذب للطلبة المؤهلين الباحثين عن الوظائف -

وهناك احتمال لا يخلو عن العيان ، فلقد تسببت ارتفاع نسبة الوفيات بين طلبة أكليروس الأبرشية ، الذي يظن أنه ارتفع في بعض البقاع إلى



٤٠٪ في يزور الحاجة المباشرة للأكل ومن المتعلم في جميع المستويات .  
 وإذا نظرنا لمسألة مطرة أقل غيرية ، ملاحظ أن الفرصة قد منحت  
 بطريقة مباشرة للمؤهلين لشغل وظائف هامة ذات دخل محترم . فإذا  
 رغبنا الاعتماد الكبيرة من وظائف القوة العاملة والمعد القليل من خريجي  
 الجامعة ، فإننا لن نحبه إذا شملت هذه الوظائف بأناس من غير خريجي  
 الجامعة ، ولعل السعي وراء عيش أفضل قد دفع كثيرين إلى الشعور بأن  
 مستوياتهم منخفضة في الجامعة قد يحقق عالما أعظم في المستقبل .

وفي هذه الأزمة ، ربما رضى المسئولون عن تنفيذ البرنامج اللاهوتي  
 في أكسفورد عن قبول الأقل تأهلا على نحو قات ما حدث في السنوات  
 السابقة ، غير أنهم انصرفوا أنفسهم قادرون الآن على اجتذاب طلبة مؤهلين  
 آخرين اكتشفوا أنهم سيطلبون يتلقى العلم في صهيح طريق وسيتعاصرون  
 عونا ماليا أصغر وامكانيات وظيفية محدودة ، ومن ثم جانيا لم تعد تجديهم  
 كما كان الحال من قبل ، وهناك دليل آخر يثبت ازدياد تقدير التعليم  
 والایسان بمزاياه ، بعد التقدم الوثيد بأن كان مطردا في ازدياد مدارس  
 التعليم العام ابتداء من منتصف القرن الرابع عشر ، إبان فترة الانقاص  
 في السكان .

وثمة عامل آخر لعله يساعد على تفسير هذا التحول ، ويرد إلى مساهم  
 الهيات التي كانت تمنح للانشاد الديني من الهيئات الخيرية والقديسات  
 التي تقام للسوي ولاحيه الذكرى السنوية للوفيات ، والتي تزايدت بدرجة  
 هائلة في إنجلترا في أعقاب الموت الأسود ، وهذا انعكاس لوفرة المال  
 للورود الذي استطاع امتدازه في أعمال غير منتجة ، ( إذا نظر لهذه  
 المسألة من منظور اقتصادي ) وإن كان يمثل أيضا حاجة الأفراد والمجتمعات  
 إلى السلوى والصلاة على أرواح المفقودين الذين ربما اختطفهم الموت بطريقة  
 غادرة . وساعدت هيئات الهيئات الخيرية على منح الوظائف التي  
 أوكل معظمها للنسبي ذوي الخلفية الجامعية .

وأخيرا فإن علينا أن لانسى احتمال أن يكون التعلم الجامعي -  
 وبخاصة في اللاهوت - كان ضمن التطلعات الاجتماعية عند العديد من  
 العائلات التي كانت قبل ١٣٤٨ غير قادرة على الحصول على ترف التعليم  
 الأعلى ، وربما كان السبب هو أن يكون الأثر المفاجيء ، وغير المتوقع قد  
 ساعد على تحقيق حلم طالما ابتغوه بنفس النظر عن مسألة هل تمت الجامعة  
 في نهاية المطاف هي أفضل طريق مباشر للخدمة في الوظائف العليا  
 المرموقة ، للعيش حياة مريحة في وظيفة من وظائف الكنائس ، وسواء  
 عن طريق احتذاب الوظائف الميسورة أو من خلال الإدراك المفاجيء للتعون

المالي ، فإن الكتيبات اللاهوتية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قد استمر في التصاعد رغم عدم حدوث أى تغير ظاهر في أنماط الرعاية الكنسية لصالح الجباسة .

بمقدار الوثوق في تصور « مسجل » ائمن على أنه انعكاس وافي لما كان يجرى في أكسبورج ابان القرن الرابع عشر ، يستطاع القول بأن « الموت الأسود » لم يحدث أثرا على أعلى مراحل التعليم في اسكترا . مثلما يظن في كثير من الأحيان ، ولم تكن نسبة الوفيات عالية بقدر غير مألوف لا بين الملوك النابيجين ، ولا بين من كانوا يعيشون على هامش الحياة ، وحتى بين الأسانف . ولا يبدو أن مستوى القبول خلال العقود القليلة التالية قد تأثر تأثرا خطيرا ، فقد توافق هو وما حدث من تغير في الاحتمالات ، وبلا شك ، في نطاق ميادين الفلسفة والعلم واللاهوت ، يعنى المجالات التي اذاغت صيت الكلية . فلذا كان « الموت الأسود » قد اصطلح بدور العامل المساعد في هذا التغير ، مريضا صح القول بأن هذا المنور كانه ما ألحقه من ضرر لمستوى التعليم العام أساسا ، والتعليم الأعلى بالتميزة لمحسب .

## المراجع

- Auna Campbell — *The Black Death and Men of Learning* (1931).
- Charles Creighton — *A History of Epidemics in Britain* (1965).
- Robert S. Gottfried — *Epidemic Disease in 15th Century England* (1978).
- John Hatcher — *Plague, Population and the English Economy* (1977).
- Gordon Leff — *Paris and Oxford Universities in the 13th and 14th Centuries* (1968).
- Heiko A. Oberman — *Forerunners of the Reformation. The Shape of Late Medieval Thought* 1966.
- Nicholas Orme — *English Schools in the Middle Ages* (1973).
- C. H. Talbot — *English Schools in the Middle Ages* (1967).
- Philip Ziegler — *The Black Death* (1969).



## صورة الإنسان في عصر النهضة (٦)

وليم • ج • بوزما

تميز الهيومانيون في بواكير عصر النهضة بإيطاليا من أمثال بترارك وسالوتاتي وبيروني وقالوا بالتفوق في البلاغة ، يعنى القدرة على الكلام والكتابة على نحو يجمع بين البقة والصفحة والالامية - وبما لهم الشكل والمضمون والأسلوب والجوهر مظاهر لشيء واحد • ويكون الفكر والكلام والعمل وحدة متكاملة • ويعكس هذا الاعتقاد نظرهم الى الطبيعة البشرية • وخلافا لما ذكره المدرسيون (السكولائيون) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، لم يقتضيل الهيومانيون قمع الكائنات البشرية بقدرات روحانية مرتبة ترتيبا هيرارشيا (هرميا) ، قمتها هي العقل ، فالأرجح هو أن الشخص مكون من حزمة مركبة من الإرادة والهوى والذهن • ويضطلع كل عنصر من هذه العناصر بالتناوب بدور حيوي وفعال في مختلف لحظات الحياة • ولم يكتف الهيومانيون بالنظر الى الأشخاص على أنهم كائنات عقلانية لا تحتاج الى غير الأحكام المرتبطة بالحقيقة الجسدية ، فرأوا أن الكدمين أيضا أهواء ومشاعر وإرادة وعقلا يمثلهم • ثم لقد سمحت البلاغة الهيومانية ، الى التعامل مع الشخص في جملة والجمع في شموله • وانجليي الهيومانيون الطابع الشخص على الفكر ، ووجهوا العقل صوب الواقع <sup>رشدانية</sup> <sub>محد</sub>

واتجه مكتروا<sup>١</sup> وأخرون عصر النهضة الى فقدان الإيمان بقدرة البلاغة على التأثير في السلوك الانساني • وباستطلعتنا ادراك حدوث انفصال بين الصورة والمضمون في الفكر أمثال كاسيليوني ويكو ونيتشينو ، وحتى أرازموس ، أى عند من أصبحوا ينظرون الى البلاغة على أنها مجرد زخرف لغضى ، بل وعلى أنها تمثل شرودا عن الواقع • وعنفما حدث ذلك عاد الفكر الجرد يشفع بين الهيومانيين ، وعاونت الأفكار والاستعارات والمجازات الظهور كشكال أو صيغ فكرية لا مباشرة للاتصال بين الأفراد • وابتعد

(٦) من Changing Assumptions in Later Renaissance Culture

تأليف William Bouwsma (١٩٧٦) ص ٤٢ - ٤٤

التشاطر الفكري عن الحياة العملية ، واصطبقت الهيومانية بسبغة أكاديمية تقتصر على النقبة من أجل الفكر . وكما حدث للمدرسين في ذروة العصور الوسطى ، فقد نظر الهيومانيون المتأخرون إلى النقل على أنه جوهر الفرد ، ونظروا إلى الزاوية والامواء مرة أخرى على أنها جوانب هيئة الشأن يتوجب إذاعتها وخضوعها لميطرة قوة أممي .

فلماذا وقع مثل هذا التحول في تصور الطبيعة البشرية ؟ لعل غزو الفرنسيين لإيطاليا ١٤٩٤ أحد الأسباب . فقلدوا أحدثوا تصدعا في الحياة الاجتماعية والسياسية في إيطاليا ، أدى إلى إعلاء شأن النظام على الحرية . وصارت الرغبة الضلعة لإعلاء شأن النظام الاجتماعي والسيطرة السياسية تعبيرا فكريا عنها في أعادة الصورة الهرارشية للامتحان التي ترى أن طبيعته الأدنى تحتاج إلى تحكم من جانب الأممي . على أن بولما يصير أيضا على القول بأن ما حدث من تغير لصورة الامتحان في عصر النهضة سيظل شيئا أقرب إلى المي .

يتراعى لنا التصور المؤلف لصير النهضة في أواخر عهد ، كمحاولة صادقة لترتيب الأحداث ترتيبا زمنيا ، وكعرف أحدثنا الالتزام به عند تحديد العلاقات في الزمان . ولكن ما من شك أن هذا التصور له دلالة أبعد من ذلك ، لأنه يدعو إلى التفرقة بين الحاصلات التي تتميز بها الملاحظات المتعاقبة ، والتي تتبع عملية تطورية من البداية حتى بلوغ النضج ، الذي لا يستبعد أن يتحول إلى انحلال . كما أن هذا التصور يقدم لنا المشكلة المعلقة للعلاقة بين إيطاليا وبلدان الشمال في عصر النهضة . وطكنا يكون هذا التصور وثيق الصلة بأحد الاتجاهات الشديدة الخصوبة في جميع جوانب دراسات النهضة الحديثة . أنه الاتجاه للتفرقة بين المراحل باعتبارها مشتركة في حركة أوسع . ولولا مثل هذا التحليل كباقت غارقة في التيه ، مما يضل أي نقاش نافع يكاد يكون ضئيل . ولعل هذا الاتجاه لا يظهر في أي موضع آخر مثلما يظهر في دراسة الحركة الهيومانية لصير النهضة ، وهو موضوع ، وإن لم يعد بأي حال التعبير الأحدث عن روح هذا المي ، إلا أنه يحقق شعورا بالانفراج في مواجهة الاقتراضات الكائعة وراء ما ظهر في حضارة النهضة من مستحدثات وآيات خلاقة . ووفقا لنفس الشعار ، فإن التركز على الحركة الهيومانية يصد طريقة مناسبة لتناول ما حدث في حضارة النهضة من تطورات عميقة .

وذكرت أكثر المحاولات اقناعا في دراسة مراحل تطور الحركة الهيومانية على أماكن بالكلمات مثلما حدث في دراسة « بارون » لتاريخ

فلورنسا وبرانكا لتاريخ فينيسيا وسميتس(\*) لألانيا- وأنتت هذه الجهود  
 نفعا ، ولكنها لم ترد بحكم طسعتنا عى تليحات عن تطور الهيومانية  
 كظاهرة عامة فى عصر النهضة بإيطاليا ، أو حتى عى عصر النهضة بأوربا  
 وتجاوبه هو وما هو أبعد من المؤمرات المحلية - وإلى جانب ذلك ، فإن  
 ما قيل عن هذا الموضوع لى يساعد بقدر كبير على فهم مشكله أواخر عصر  
 النهضة - إذ عى دارسو الهيومانية أساسا بمراحلها التكوينية الباكرة  
 وكان الحركة اذ بوطنت دعائها لى تمرص لأية صعات ، فها ، كما هو  
 الحال فى كل دراسة من دراسات النهضة أظنا بحس بوجود حوائل تحول  
 دون تطبيق مبدأ التطور الذى يحصف الأطوار بالترتيب الآتى : النضج -  
 التدهور - الانحلال ثم النهاية - ولعل ما يكمن وراء هذا الاتجاه هو الفكرة  
 المتيدة عى النهضة ( الرسامس ) كبداية للعصر الحديث التى تبعا  
 لتمررها ، بلأنت مستمودة على فكرها .

وبوى أن أبدأ اذن بحت مشكلة أواخر عصر النهضة بالنتيه - أولا -  
 الى ما حدث من تغيرات فى معنى « البلاغة » ، الذى يتصور بوجه عام كصور  
 للحركة الهيومانية فى عصر النهضة - فلقد كانت الصفة الأولى للهوماني  
 فى عصر النهضة انه من لرباب البلاغة ، من يصون بالارتقاء عى البلاغة  
 وفق الكلام والكتابة ، ويطبق هذا اللأ على نفسه وعلى الآخرين ، وطبقا  
 لهذا المنطور يكون اهتمامه بالكلاسيكيات أمرا ثانويا - ومن الصعب الزعم  
 بأن هذا الاهتمام كان شيئا مستحدثا - فلفه اكتسبها الآن دراية كاملة  
 بما اتسمت به الحضارة الومبغة من روح كلاسيكية عميقة - وما هذا  
 مشرا للاهتمام عى هومانيى عصر النهضة لى اهتماماتهم الكلاسيكية ،  
 وإنما هو مفضلاتهم المستحدثة من التراث الكلاسيكى - فقد اعتقدوا أن  
 أهم الكتاب الكلاسيكيين هم الخطباء اللاتينيون والمعلمون القديرون ناعتبارهم  
 قسوة وأصحاب أسلوب فى فن البلاغة - وأضح الآن وجوب فهم الهيومانية  
 مبدتيا كحركة فى تاريخ التعليم رلت الاستعاضة عى الفلاسفة الذين أولع  
 بهم الجلبون بمجموعة حديثة من المؤلفين الكلاسيكيين ضم الخطباء وأقرانهم  
 قدامى الشعراء والمؤرخين والدعاة الأخلاقيين ، واتخاذهم محورا لمنهج  
 التعليمى الجديد فى الفنون الحرة (م) -

وفى نظر بعض العلماء ، يبدو هذا التصور للهيومانية أقل جدية .  
 ولعل السبب هو اعتقاد جمهوره القراء فى حضارتنا الماسرة أن البلاغة فن  
 غامض ، ومحاولتنا حماية أنفسنا من أساوا إليها بأن أضافوا لكلمة بلاغة

كلمة « مجرد » أو « فحسب » ، وإن كانت الحاجة لهذه الحماية توحى بمخاوف لا تتناسب وكلمة ومجردة التي نضعها قبل كلمة « بلاغة » . فعبارة « مجرد بلاغة » تعنى القول بأن الشخص البليغ لا يريد في أفضل الأحوال عن فنان تافه من أدباء القاع ، وتنحصر مهمته أولا وأخرا في وحرفة المضمون الجاد بطيات سطحية . ويسمى هذا الشخص في أسوأ الأحوال إلى فئة الخسلسل ، ويكنى وراء عبارته « مجرد بلاغة » أيضا في أغلب الظن انتراص شبه ميتافيزيقي عن إمكان العزقة بين الشكل والجوهر . وهذا تصور يتم عي تأثير لحوح لأحد الاتجاهات الهلمية في المكر القديم عن العقل الغربي ، ولكن يبدو أن ماهية هيوماني الرساس قد عبرت عن اختلافها عن هيومانية المصور الرسطي عندما رفضت هذه النظرة . فلقد نظرت إلى البلاغة بمتظار الجدة بعد ادراكها أن صور الفكر جزء من الفكر ذاته ، وأن للنفس الشقوى عبارة عن وحدة مركبة كالكائن البشرى العسوى ، فكلاهما لا يبقى على قيد الحياة بعد تشريعه . ان هذا في اعتقادي هو ترجمة لونسو فالأ لكلمة لوجوس (كلمة) إلى خطاب (\*) وليس إلى عقل . وهذا تصور لا يقتصر على اشارته إلى الأهمية الدينامية والموسمية للريتوريقا ( البلاغة ) ، ولكنه يقترب إلى عالم التوراة أكثر من اقترابه إلى العالم الفلسفي للفكر . ولا بد أن نفهم على هذا الضوء امتناع فالأ لبلاغة الرسول بولس . فالبلاغة وحدها قادرة على التأثير في الانسان ، أو كل انسان ، وليس المحور الحيوي لوجوده .

وهناك نتيجة تستخلص ضمنا من هذا الموقف . فلقد بذل فالأ جهده كبيرا لإيضاحها ، ولعله كان أعنى العقبات التي ظهرت بين أوائل الهيومانيين . فلما كانت أشكال الفكر بالمقصور ادراكها كاشياء حاضرة للزمس أو التاريخ ، لذا فإن علم قابلية جسيغ أنشطة الفكر للقسمة إلى شكل ومضمون توحى بارتباط هذه الأنشطة بالمصر التي ظهرت فيه . وهكذا قنحت بلاغة عصر النهضة الطريق أمام انكار وجود الصفات المطلقة بعد أن أثرت الانجاء الحضاري النسبي المستحدث ، فالانسان في نظر « البلاغي » ليس الانسان المثل لنوع ، ولكنه الانسان كما هو . أي مرتبطا بزمان بالذات ومكان بالذات ، والذي أصبح مقاييس كل شيء . وهذا تصور يوحي بأصل آخر للريتوريقا ( البلاغة ) ، ويفسر السخرية الكامنة وراء وصف الهيومانيين لأهل العلم بأنهم مفسطايتون .

وهكذا فلم يكن وراء التعلق بالريتوريقا إيمان عصر النهضة أية نزعة شدة ، أو على أقل تقدير في بواكير عصر النهضة بايطاليا ، كما لم تكن



صالحات تعاملات تتعلق بمرايا تطبيقاتها • وبوصفها فن الاتصال المؤثر ، فإن الريتوريقا لم تكن فقط أداة نشر الرأى القاصص ، ولكنها كانت أيضا الوسيلة الأساسية لتحقيق ترابط المجتمع البشرى ، ومن ثم ارتفعت قيمتها فى المجتمعات بعد ازدياد تقدمها ونزوعها لحلق أساط أكثر لماعية للحياة الجماعية • واشتهر النحس للريتوريقا بين أهل المدن الممتولين عن تحقيق الانحام فى خامة الكتل البشرية ، الذين رعتهم الاقتدار يقي جدران المدينة ، احقق مجتمع حق منهم • وهكذا كان للريتوريقا فصل تزويد الصحافة والمثنية الجديدة لمصر النهضة بركيزة ترتكز اليها - وكان لها دورها الفعال فى كل مستوى من مستويات التفاعل البشرى على المستوى الشخصى والمستوى الاجتماعى معا • فرجال الأعمال مضطرون الى اقتناع رباثتهم واقرانهم فيما يجرى بينهم من معاملات • ويحتاج اصحاب الحاجة الى المساعدة فى تنازعهم على المصالح امام المحاكم ، او مسعيا وراء تحقيق الاتفاق بين الرافى فى مسائل السياسة العامة • ويحرص الحكام على الحصول على عور من وعاءهم • وتتراسل الحكومات بعضها مع بعض ، وتوقد البعثات الدبلوماسية ، وتحاول أن تخطب ود الرأى العام الأجنبى •

وهكذا اتيت البلاغة بفضل دورها فى تشكيل كل موضوع من موضوعات الاهتمام الانسانى وجعله صالحا للنقاش ، انها ليست على هامش الوجود الانسانى ، ولكنها تقع فى صميمه • وتبعا لذلك فان النحس البليغ يعتمد على التعصم عند أدله وصالته ، ولا يمكن ان يكون الأمر خلاف ذلك ، ومن ثم اصبح التعليم فى عصر النهضة هو أول تعليم عام بالمصر الحقيقى فى تاريخ أوروبا • وظهر قانون فى فلورنسا على اواخر القرن الرابع عشر • بل وقبل أن يكتشف «بوجيو» كوتيليان(\*) وتبريره تعيين استاذ لفن الريتوريقا على أساس أن هذا الفن ليس مجرد أداة للاقتناع فتناجة جميع العلوم ، ولكنه اعظم حلية للحياة العامة ، وأنه « يضم قواعد الدفاع عن كل ما يرغب فى تأييده او معارضته » • وبذلك ساعدت الريتوريقا على وضع جميع المعارف والتجارب فى بؤرة الاهتمام •

وجز النهوض بالريتوريقا فى ديله أيضا نتائج ايديولوجية كبرى • وهكذا وكما بين كريسار ، لم يكن للريتوريقا أى جوهر فلسفى واضح ، ولكن كان لها أهمية ملحوظة للفلسفة بالمعنى الأوسع • والأهم من ذلك استناد الثقافة الريتوريقية الجديدة الى تصور مستحدث عن الانسان • فلقد رفضت تصور الانسان المجرد فى الاثروبولوجيا الكلاسيكية :

(\*) Marcus Fabius Quintilianus ( ٢٥ م - ١٠١ م ) لما بوجيو نور عالم

عوماني ايطالى Poggia, Bracciolini Giovanni ( ١٢٤٠ - ١٣٠٩ ) •

وما قسمه من ملكات مفصلة يمكن التفرقة بينها . وترتيبها ترتبها هيرارشيا . واستهونها صورة الانسان وقتلتها كما صادفتها في اللغات الفردية من وجوده ، فلم يجد الانسان مجرد حيوان عقلائي ، ولكن أصبح ينظر اليه ككائن مفرد وحزمة من الطاقات النفسية الدينامية ، التي لا يمكن التنبؤ بافعالها . فالانسان يجمع آتيا بين جوانب حسية وهوائية وفكرية وروحية . وبذلك أصبح مشابه للبلغة التي يستعملها (أي وحدة عامه) . وإذا صح أنه يتقنونا نعرفه لأمكننا القول ، أنه حيوان اجتماعي باطن يحتاج إلى مشاركة الآخرين صحيح إبعاد تجربته وخبرته . وكما مال ليون باتيسا البرتي (المع ليواردو) ( ١٤٠٤ - ١٤٧٢ ) ، أن الطبيعة أعظم البنائين لم تضع الانسان في موضع يحصله يحيا مكتشفا وسط الآخرين ولكنها فرضت عليه - فيما يبدو - ضرورة ما للاتصال بالآخرين والكشف عن جميع لهوائه ومشاعره . عن طريق الكلام . وغير ذلك من السبل .

لم يقتصر أثر هذا الموقف على القضاء على الهيروشيبة القديمة للشخصية الانسانية . ولكنه ساعد على استئصال مراتب الترتيب الهرمي المناظر للهيرارشية الشخصية - فهمة الكلام في أوسع معانيه تسمى أن لا تتركز المهمة الأولى للتخاطب على الحاجات الفكرية للأقلية ، وإنما تنصب على الاحتياجات العامة للكثرة . فأول شرط للكلام هو أن يكون مقهورا للكثافة . ولشأن برارك - ولم يكن مولما بالخشود - إلى هذا المعنى منذ وقت يار في تاريخ الحركة ، وعبر عنه بالقول : « الوضوح هو أنفسج دليل يست المبقرية والعلم » . وما يفهمه الانسان بوضوح بمقدوره أن يعبر عنه بوضوح ، وبذلك يتمكن له صعب ما هو كامن داخل تلاقيف صخه في عقل أي مسبح » . وهكذا كان كل ما فعله كاستيليوني ( بيلاط لودفيكو ) هو ترديد القول المناظر القديم عندما حث رجل البلاط على إسبنيجال « كلمات مزال رجل الشوارع يستعملها » فاللغات ملك للجميع » .

ويوحى ميل الريتوريقا إلى تحطيم الجواهر والانقسامات القديمة ، التي نظر اليها فيما سبق على أنها كائنة في طبيعة الانسان والمجتمع والكون بجانب أبعد من عمق أصيبتها . فلقد أثبت قدرتها القسة على تأمل عالم خنق نظامه إلى الاغلات من أي فهم شامل له ، وأتاحت لها طواعيتها وتقدمتها على التكيف بمختلف ظلال التجربة أن تصوغ نفسها بمرونة عند الحديث عن تفاصيل الحياة التي لا نهاية لتنوعها أو تقلبها . وفي ذات الوقت فإنها شجعت الاعتقاد بأن الواقع من المتعدد الاحاطة به بالاعتماد على المقولات المحدودة والعامة للفكر العقلاني النسقي . فلقد التزمت الريتوريقا بنسج الاداريين فيما يتعلق بالقضايا العامة . ففي نظرهما ، ليس بمقدور للانسان أن يأمل في النفاذ إلى أبعد أغوار الأشياء . وكل ما بإمكانه أن

يقوله هو أنهم المرنى لتجربته المباشرة . غير أن التجربة قد أثبتت أن باستطاعة التمسر الملائى التحليق فى آفاق عالية من الساحة الخلافة ، وهو حالا تستطيع اللغة تحقيقه لو أنها اكتمت فى غايتها بنأمل الواقع المبانى المطلق . فاللغة ذاتها من خلق الإنسان . وهذه نقطة أسس إليها فلا عذما لام المدرسين ( السكولائين ) لأنهم نسوا ما جاء فى صغر التكوين ( ٢ - ١٩ ) . واعتقدوا أن الله هو الذى اخترع الكلمات .

وأسمى المظهر للحايد لمذهب البلاغيين فى اللبابة ( الاتيكيت ) ناحية أخرى مما جاء عتصما فى مذهبهم من حواش أخاده . وتعنى اللبابة - بكل بساطة - ما يطلبه فن الخطابى العمال من تكيف بين حديث التكلم وموضوع حديثه ، ومخرجه موق كل ذلك على التكيف هو وجمهور مستمعه . يضى فى نواحي الملامح الخاصة للتكلم ، والظروف الخاصة بالمكان والزمان ، ومراحه الشخصى ، وغايته من الكلام - ويوحى هذا المذهب أيضا بأن اللغة تحدث عن الإنسان . كما هو . فى تقلماته من لحظة لأخرى ، وبحاطبه لا باعتباره مثلا لوح ، وباستعمال لغة تعبر عن الحقائق المطلقة التى لا تنسى الى أى زمان بالذات ، ولكنها تخاطبه كفرد ، صلها أعلن بترارك . « اتى فرد ، ولا أضى أن أكون أكثر من فرد ، أو أكل منه » ؟ . كان مذك يعبر عن أحد أعقق المواقف للكلمة وراء بلاغة عصر النهضة . وفى الوقت نفسه ، فإن اللبابة « تشير الى اتجاه يدعو الى الإحاطة بالكلمات بموضوعات البحث ، عه مواجهة الحياة بتسوعها الذى لا ينتهى » .

وهكذا نسمى لهيوعانيى النهضة فى بواكرها فى إيطاليا انباء هذه الرؤية الجديدة للإنسان المتشغل اشغالا كاملا بجميع أبعاد التجربة ، والتى يسخر كل قواه لحظمتها . ويقعدونها تنبع تقمهم فى هذا التمان بطريقه حيوية . علما نلاحظ ادراكهم المزايد لصور الأهواء والإرادة فى الشخصية الاسائية التى اتخذت الصلابة . بينما مراح دور العقل . واستمر بترارك عاجزا عن مريح رلى على آخر . فرائده يبيع لفقدىس المخططين - ولعله قلته فى إحدى قصائده متحيا فى شخصية حكيم روائى - توجيه اللوم له لتملقه بالحب والمجد رغم أنه أصر على اعتبار مدين الشينين « أرقع الأهواء فى طبيعته » - ولكن ما أن حل العيون التالى حتى رأينا سالوناتي(\*) يعرف عن استمعه للاعتراف بأنه مهما بدا فى قمع المشاعر من نواح موعوبة إلا أنه أمر مستحيل . وكتب يقول : « أجل انسى لا أعرف أحدا من الفنانين قد تماثل هو والمسيح فى بلوغ مثل هذا الكمال » . وفى ١٤٤٤ ، تصادف جامورو عم الرمى يمتد على وجه الدقة الخاصة التى

يتميز بها الاساس . ودرام يعتبر المشاعر هي هذه الخاصة : « فأول هبة هيأت الطبيعة لما حيينا هي الروح المحركة للكاهن فيها ، وعن طريقها نشعر بالرغبة والعصب » . وبلغ قالا بهذه الفكرة ذروتها في كتابه عن الحيز (الحق) (٢٠)، عندما ذكر أنه من غير المتصور الارتقاء حتى بالحياة الاخلاقية والروحانية للاسنان اعتمادا على أي عمل فكري يصير . ولن يتحقق ذلك الا اذا استسلمنا للمتعة الاسمي للحيز الالهي .

وترتبط الإرادة برباط وثيق بالاحواء . فهي تفرح بوازع الهوى الى أقبال . ولم نجد الإرادة في هذه الرؤية الجديدة للاسنان مجرد حادثة للعن ، ولكنها حلت محله - وعلى حد قول فانسى ستروفر (٢١) - انها بمثابة القوة التنفيذية للشخصية . وهكذا لم تعد قيمة الانسان تقدر بكفاية عقده ، ولكنها أصبحت تستند الى قوه ارادته ، وخرجتها . ومن ثم بدت الإرادة - لسألو تاتي : « الملكة التي تتميز بعظم قوتها وبسيادتها على سائر القوى الأخرى للنفس » الى حد اعتقاده أنه رغم اكتساب الاحساس صورها من الأشياء المحسوسة . « الا أنه قلما يستمر أثر هذا الاكتساب - بغير تلقي الأوامر من الإرادة » ، التي تمثل القوة العاملة للنفس .

وتمثل في حل الصفاة للإرادة تصور منقح للوجود الأنسب للاسنان في هذه الحياة . فبعد أن توجه النظر الى الاسنان على أنه كائن مفكر لم يعد بالاستطاعة توقع إمكان تحقيقه لذاته عن طريق التأمل والنظر ، فلي تحقق هذه الغاية الا عن طريق الانشغال الفعالي بمطالب الحياة . وللمجتمع بخاصة - ومن ثم رأينا حتى يتراءى الذي لم يوحى رأيا على آخر في هذا الشأن ورأينا يتعرف بسهم صلاحية الحياة الخالية من الاختيار والكفاح للحياة البشرية - ووقف حائزوه موقفا أوضح من هذه المسألة ، وأكاد والد الفنان المفكر البرتي هذه النقطة عند احتضاره في رسالة الوداع التي كتبها لأولاده قبل رحيله : « انه الشدة والتمسك هي المانة التي تصنع الشخصية » . وأيضا في قوله : « انه من يتمتع بروح ثابتة لا تنزعزع وعقل رصين وراح وبذكاء وقاد وبالقدرة على الاجتهاد بمقدوره أن يكشف عن مزاياه كاملة في المواقف لللائمة والهادئة » . وغير ولم لبرناردو عن هذا المني بلقة أقل التزاما بالاحتشام : « يجب عدم السجاع بالخمول والحياة الأكسنة فتخلوا عن البلادة والمهاترات والاضطجاع على ( الشملت ) كما تفعل العريم » .

لم اتصد بتقديم الاتجاه الفكري الذي حدثت معالته آنما تقديم صورة متوازنة للهيوغمانية في بواكير عصر النهضة - فلا اختلاف بين هذه الصورة وبين المواقف المحيرة للساقصة التي تعرض لها بترارك أيضا من حيث الأهمية ، والتي لم يتمكن حتى خلفاؤه من التغلب عليها كله على الإطلاق . ان كل ما سمعت اليه هو محاوله تقديم « اسكتش » مختصر للمستحدثات الراديكالية المقصورة في الحركة أملا ان يساعد على تقدير مميزات أواخر عصر النهضة - فمتد حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، تعرضت الحركة الهيوغمانية لتغير حاد ، واستمرت النزاع التي تحدثنا عنها في القيام بنور فعال كما نستطيع ان ندرك اذا قارننا شخصيات من أمثال ماكيافيلي ويومبوناتي (٢) وهرتسولدسي (٣) . عد أنه حتى في حالة الكتاب الذي نستطيع ان نصح لديهم استنوار بقاء الاتجاهات الباكزة ، فاننا نلاحظ غلبة تعرض مستحدثات بواكير النهضة عندهم للتمديد .

ومرة أخرى ليتنا نبدأ بالنظر في مشكلة الريتوريقا التي تضررت النظرة إليها ، قلبي من شك ان باستطاعتنا ان نلاحظ الحرص الحماسي لولم بقوة تأثير الكلمات ، قرأنا مثلا قصص يستند في تفوق اللغة في أهميتها للمجتمع على العدالة ذاتها . وسعينا بترارك يقول : « ان الكلمات تكشف مدى تحارب الآخرين ، وتتحكم في أهوائهم ومشاعرهم ، ولا أرى شيئا أوثق ارتباطا بالمجتمع من القدرة على التدفق بكلام بلاغ ، والهاب المشاعر بكلمات متوجهة . واللغة تنير العقل ، وتوجهه . وليست هناك مناسبة في الحياة الخاصة أو العامة . بالنسبة أو الخارج ، استطاع فيها الاستغناء عن الكلمات - ولا يستبعد أن تكون الكلمات سببا لشعور جسيمة ومصلوا لنم لا تضاهي ، ومن ثم فمن المهم للغاية الحرص على استعمال كلمات تناسب المقام والمكان والزمان والأشخاص . وهذا يتبث أن البلاغة أهم حائب من جواب البصيرة » .

بيد أنه بوسنا ان نلاحظ حتى عند أصحاب البلاغة احساسا مترايدا بقصورها . وهذا يتجلى واضحا في الاتجاه مرة أخرى للنظر إلى البلاغة على أنها مجرد تزويق للحقيقة . ولم تبه البلاغة تبدو قادرة على منحنا وسائل تناول الحقائق الوثيقة الصلة بالحياة ، التي ظهرت مرة أخرى بظهور الأشياء التي تتمتع بوجود مستقل مطلق . ومرة أخرى عاودت الظهور مشكلة العلاقة بين البلاغة والمعرفة وبين الصورة والمصنوع بعد أن اعتقد يوما ما أن بين هذه الميود ريجة لا تنقسم .

(٢) Pomponazzi { ١٤٦٢ - ١٥١٢ } فيلسوف إيطالي في عصر النهضة

(٣) Guicciardini { ١٤٨٢ - ١٥٤٠ } مؤرخ إيطالي حاكم لفيافيلي .

ان هذا واضح بوجه خاص في نظرة الهيومانيين للكتاب النفس .  
الذي اعتقد غالبا انه اعظم مثل لقية التعبير الطبع - فلم يعد هناك من  
ينظر الى هذا الرأي بسطار الجذ او يصفه بالحقبة القصوى . فليس  
بالاستطاعة حمل الكتاب النفس يعتمد على افكار قصصة عابرة . وكل  
ما مقدور البلاغة ان يحققه في هذا الشأن هو تقديم بعض العون العابر في  
توسيل رسالة هذا الكتاب . وهكذا رأينا العالم الفرنسي جاحوان(\*) يتصح  
ارازموس الشاب ناباع البلاغة في الرعط متنوعا . بان من يتمتعون  
بذاكرة اشبه بذاكرة السماء المساء في ملحتها (ومحبتها) ليس لديهم  
القدرة على تذكر أي شيء لأكثر من أيام معدودة . - « وأن من جمعوا بين  
البلاغة والمعرفة يتمتعون بالاحرام وحسن الصيت بين الأدباء » ورتب  
على هذا الموقف تراجع أهمية البلاغة ، ولم تعد تريد عن أكثر من عامل  
مساعدة للذاكرة ، أو أحد معومات الصيت الشخصي . وأقر ارازموس  
هذا الرأي ، ورد عليه بقوله : « نعم بالمقدور اضفاء التائق على المسائل  
الدينية وزيادة اشراقها وضاعتها بالاستعانة بالكلاسيكيات شرحة الاكتفاء  
بالحرص على تقاء الأسلوب » فلفه رأى ارازموس ان البلاغة وحدها غير  
قادرة على نقل معاني الكتاب النفس الى القلب . وكل ما يوسمها أن تحقه  
هو نهضة مزاج القارئ للثق . وانكر فيصم أيضا قدرة البلاغة على  
تحقيق جميع الغايات ، كما يستطيع الجميع أن يروا بوضوح . فليس  
الكلام عن السماء والمناظر والملائكة من اختصاص الخطباء ، هكذا قال في  
معرض اعتراضه على كورتيليان .

وكان من الظواهر الطبيعية التي صاحبت هذا الفصل بين الشكل  
والمضمون في التعبيرات الشفهية ازدياد التشديد على قيمة البراعة الأدبية  
التي يسبقونها جميعها لدانها ، أو من أجل اشباع الحاسب الاستطاعي .  
وهكذا يوحى حديث كاسيليوني عن اللغة بوجود اهتمام أكبر بصحة اللغة  
ودقتها أكثر من اهتمامها بصلاحيتها للفترة الأعرق على التخاطب . والحق  
أن كاسيليوني قد خص هذا الموضوع بصياغة فائقة ، وإن كان تأثير كلامه  
ابصب بمقدار أعظم على توكله فاعاة ما كان ينظر اليه قبل ذلك على أنه  
يتعصب باسمى العسق . ونحى لا تضاد أي اهتمام بالفصيلة أو الواجب  
في رؤية الكاتب لودونكو للتربية الأدبية لرحل السلاط . وعندما  
استعرض كاسيليوني(\*\*) المنهج الدراسي القديم قال ان من واجب رجل

(\*) Robert Gagnin ( ١٤٢٢ - ١٥٠١ ) صاحب الحواشي الفرنسية

والدبلوماسي والهيوماني .

(\*\*) في كتابه الشهير Courtline .

البلاط أن يتعرف على الكلاسيكيات الاغريقية واللاتينية ، لا فيها من وفرة متنوعة من الأشياء التي دوت في هذه المصادر على نحو جدير ، وعليه أنه يوجه انتباهها خاصة إلى الشعراء والمخطيئين وللزخرفيين ، غير أن تحليل الكونت كاستيليوني قد جاء مجرداً من الروح الحديدي التي كانت مبهمة قديماً على مثل هذه الكتب فيما مضى . هـ حال بجانب الانتعاش الشخصي الذي سيحصل عليه رجل البلاط من هذه الواجبات ، فإنه إذا اتبع هذه السبل ، لن يجد عشقة في الاهتمام إلى الأحاديث الترفيحية عندما يكون في صحبة سيدات من المولات عادة سبل هذه الجوانب . ولا بد أن الإحاطة بالإسائيات مستتير اصطلاحاً لسانه . وستزيد جرأته ووثوقه من نفسه عندما يحطث مع الكفاة ، غير أن هذا الإسهام فيما تحققه الجاذبية الشخصية لرجل البلاط قد جاء بعد فوات الأوان - كما يبدو ، وكما لاحظ الكونت كاستيليوني - لأنه رأى أن حل السلاح هو المهمة الأساسية لرجل البلاط . أما باقي المقومات الأخرى فلها مكانة ثانوية . ولا نريد من مجرد حذريات يجيء دورها فيما بعده . فرجل البلاط له مهمة خاصة محدودة . وبعد أحد الشخصيتين لل كاستيليوني إلى المحادثة محاولاً ريادة عميق هذه النقطة قرأها هريكو فريجورو وهو من رجال البلاط يقول أن من بين الصفات الهامة لرجل البلاط أن يكون من بين من لا يجوزون عن التصبر على أي شيء . من الطرائف والملح التي تناسب من يتحدث معهم ، ويجب أن يسلم بما يساعد على إغاث عقل مستمعهم وشده انتباههم ، وأن يكون قادراً على ادخال السرور إلى أفئدتهم ، برواية بعض الطرف حتى يكون بوسعه يمرر أن يتمر الملل أو الضجر أن يكون قادراً على مواصلة إقناع الحاضرين .

وباستطاعتنا أن نلاحظ من هنا المثل الأعلى أنه لم يشمل على أية تعرفه في غير صالح السك . والحق أنه يبدو في صالحه بصقة خاصة . ويرودنا النهج المرمي القديم للعلماء بأسلوب تنقيف الأرستقراطيات وتنقيف الرجال أيضاً عندما يكونون بصقة أسلمية في صحبة السفات . وتبعاً لمعايير القرن السادس عشر ، لا وجود شيء ما يحدو لما المكانة المتدنية التي انحلت إليها والإسائيات أفضل من جوح أصول النبافة بعد أن كانت تصفى في بواكير عصر النهضة - أساساً - بالناسب والتواؤم بين اللغة ومستمعها أو أهداف المتكلم . حرمها إلى الماية بدلاً من ذلك يلائمة ما يناسب مكانة المتكلم في الحياة ، ثم نرونها في نهاية المطاف إلى انتقاء ما يناسب الطبقة العليا - فهي ثم تعد أداة طمعة للتفاضل والوجود ، ولكنها تحولت إلى مجرد ميرة من مميزات الصالون . وليس من شك أن الفيلسوف فبشيسبو قد عدى اللياقة قصرها إلى شيء من ذلك ، وإن كان لم يهصد ما هو أكثر من وقفا إلى مربية أسمى من الحياة الإنسانية العادية ،

فقال : « إن اللباقة هي لغة ، بوصفه المصدر الذي تبعت منه كل لباقة .  
وسر من خلاله كل لباقة ، وصدرت عنه جميع الأشياء اللبقة » .

غير أن تصور فينتسو لهذه اللباجة كان استثناء ، ولعله لم يطبق  
على البلاغة إلا سهواً . وعلى العموم لقد برعت البلاغة في أواخر عصر  
النهضة إلى اتحاد مكانة لا تريد عن الحيلة ، وتصلحت مكانها نسما مبعا  
لذلك ، وهكذا تحولت في بعض الدوائر إلى نوع من الألتيتي ومصدر  
للمتعة ، وصورة من صور الاستعراض الدائى ، وإن كانت قد بلغت في  
نظر الحاديين من الأشخاص موضع شك ووسيلة للتبرود عن الإدراك المجرد  
للحقيقة . ويبدو أن هذا الاهتمام يسهل إلى الحلاف الذي استمر حول  
شيشرون في عهد أوريموس الذي قام بنفسه بهياجة أسلوب الكتابة  
المزخرف المتأثر بشيشرون أيناروا للأصلوب البسيط . ويوحى أيناره - من  
حيث المبدأ على أقل تقدير - « للمادة المكثفة ذات الدلالة على الإلتقاط  
الإيقاعية المجلجلة الطابة حلوث تراجع بخطوط واسعة من الريتوريقا  
إلى الفلسفة » . وكتب يقول أن مظاهر المسجبة الدالة على التعاطف قد تسحب  
الآخرين ، « ولكن الأقسام الأكبر - له نظرى - يجب أن ينصب على أن  
يسائر الحديث الموضوع ذاته ، وأن لا نعتنى باستعراض أنفسنا ومبدعاتنا  
بقدر اهتمامنا بمرض الموضوع المطلوب » وهكذا حلت انفصال بين الشكل  
والمضمون .

بطبيعة الحال ، لم يحدث انفصال بين الفصاحة والحكمة في أى مكان  
آخر بطريقة واضحة تائل ما حدث عند الأفلاطونيين الفلوريسيين . فقد  
شعر فينتسبو الذي كان معيا بالحقيقة بالانزعاج من الجنوح نحو البلاغة .  
ومرقد بيكو (٤) تفرقة حادة بين الحقيقة والفصاحة التي اعتقد في احتيال  
أساءتها إلى الحقيقة ومسحها وبحريتها لها . وتمشياً مع نظرائهم فإن المهمة  
الحقة للغة هي مسطرة وصف الحقيقة الموضوعية . وإذا قيل أن الأغلبية  
تقتدر إلى القدرة على فهم المباحث الفلسفية ، فإن هذا لا يدل دائماً على  
تصور الفلسفة . ولعله يشك تميرها . وكتب بيكو ملافاً عن الفلسفة :  
« ما الذي سيجرى إذا ساد الاعتقاد بأننا مصجرون ووقعا وغير مثقفين ؟  
فقد نظرنا أن هذا الاعتقاد يشرفنا ، ولا يعد انتقاصاً من شأننا . فنعن  
لا نكتب للأكثرية ، ولا نختلف عن الأقسام الدين وضعوا الأفكار والحكايات  
المسلعة بضاه من الحجب . من لم يتجاوزوا مرحلة المتدئين بتصوصهم  
المستغلفة ، وربما كنا من أثر ستألقنا قد دأبنا على إبعادهم عن ماديا



لأنهم إذا دعوا لم يفعلوا على فعل أى شيء، عبر اقتصادها بمخبر عاتم  
الكلاسيكية الأكثر تفهوا .

ومن بين نتائج هذه المشاعر الرجوع الى التجريد ، وهناك نتيجة أخرى  
أكثر شيوعا ، ولكنها لم تغلب على مساوية في اجتادها عن الحياة اليومية  
وهي ظهور نوع جديد من التواصل في لغة التخاطب والعنون التشكيلية  
اعتمادا على بعض المتعاب الرمزية كالألمار واللغة المحاذرة والتلمحات ،  
وطقت هذه الفكرة على عالم الفراء والكتابة. وتمثلت من بين مظاهر أخرى  
في العودة للأساليب الوسيطة لدراسة الكلاسيكيات ، وهي تطبيق النصوص  
القديمة لا بحثا عن تفسيرات اقتصادية سامية من الماضي ، وإنما لاكتشاف  
المعاني المختصة في الحقائق الأولية البسيطة . وعبر لاندينو عن هذا المعنى  
في تعليقه على كتاب فن الشعر لهوراس . « نعتنا يفلح على ( الشعر )  
رواية شيء ما ينصف بصعته واحتفاله أو تشدد معنى الحكايات لاحتال  
النتيجة في الأذان المتارعة ، فانه يكون حسنا كما عبر بطريقة خفية عن  
أعظم الأشياء تميرا ، الناحية من أعظم البنائين تشبعا بالروح الانهية .  
وكان اراوموس رغم نوارعه الانحيلية يفضل المعاني المجازية للأشعار المقدسة  
على معانيها الحرفية » .

ثم إن الكلاسيكيات المألوفة التي كانت معروفة بالفصل على نطاق  
واسع لم تكن تحل قدرا كافيا من المعاني الخفية لارضاء التطلع الى الحكمة  
العسيرة المنفردة التي بمقدور أريستقراطي الروح الارتقاء بها فوق طبقة  
الدعام ، وما عرف عنها من فساد واجداد في الذوق . وترتب على ذلك  
العودة الى الكتابات البعيدة عن التداول في اليونانية والعبرانية ، بل وإلى  
لغات سامية أخرى في نهاية المطاف ، وإلى الترانيل الأورقية والكايبالا .  
وكما لاحظ بيكو : ان الأسعار المقدسة وما تتضمنه من التزامات وروادع  
لم تتحارب واحتياحات الفئات التي تملو على مستوى الخياطين والجرارين  
والرعاة والخدم والحامدات . انهم التفر الذين لا تحتل الفؤاد عيونهم  
الأشبه بعيون النجوم . اد يحتاج أصحاب الأرواح السامية الى كشوف روحية  
أسمي من ذلك . كما أن مثل هذه التصورات لم تكن قاصرة على حاشية  
بعض المتطرفين من أهل الفكر . إذ شارك جيلين فيترو - وهو من زعماء  
الرهبان الأعسطيين الموقرين ومن الشخصيات البارزة التأثير بين المشركين  
الكنسيين اعتقاد بكو بأن انجيل عيسى يحتاج الى تفسيرات على طريقة  
« الكابالا » العبرانية . وعلينا أن نلاحظ أيضا ما حدث من اختفاء في  
هذه الاهتمامات للاتجاهات الثقافية التسيية الأولى لبواكير عصر النهضة ،

!

وقى هذا الجو الجديد . تحولت الاتجاهات الكلامية ذاتها الى اتجاه مرادف نحو الروح الاكاديمية . فلم يعد يدعو الى اتباع حياة ملهمة فعالة . ولكنها تحولت الى شكل اقل جديده في الاغلب من الحياة التأملية . وتصادف اقبال الهيوماني على الخطابة . وازداد ميلهم الى الاشتغال بالآداب وعلوم اللغة . ورغم الهيومانيون في اواخر القرن الخامس عشر شخصيات من أمثال بوليسيانو(\*) . الذي اكتشف الميراث الاستطيقية للعصر اللاتسي القضي . وميرولا (\*\*) الذي اشتهر على جميع النصوص وقى طريقة الهجاء واورمولاو باربارو (\*\*\*) الذي استعاد النص اليوناني لأرسطو . واستمرت تسميتنا لهؤلاء الأشخاص بالهيومانيين . أو علماء الانسانيات . وإن تميز أحيانا أن تصورههم - إلا بطريقة أكثر حنونا للسطحية - مشابهاً لبيترارك وسالوتاتي وبيروني أو فاللا . فلقد أحياوا الكلاميات . وعرفوها أكثر من أسلافهم . وكتبوا بلغة لاتينية أفضل . ولكن الهيومانية الأيكر . بما عرف عنها من حمية أشد في فهم مهمه البلاغة قد تبرعت حد انزغال الأدب عن الحياة . وضد فصل الأسلوب عن جوهر الكلام . وتراية النظر الى باربارو ويبيكو - بل وأحيانا بوليسيانو ورازوموس . على أنهم أشخاص أقرب الى صحتري المفكر .

ولكن وكما أوحى هذا البيان عن عصر البلاغة في أواخر عصر النهضة في مواضيع شتى . فإن هذه التوجهات المختلفة نحو اللغة والكلام قد كانت مصحوبة بسلامح أعمق من التغيرات التمامية . فلذا قلنا ان البلاغة بمعناها الأيكر ( أي كفن لمس شغاف قلوب البشر ) قد دفعتهم للمسئل طبعا لهذا المفهوم . فإن يومئذ الآن القول بأنها قد حنصت في أواخر عصر النهضة الى التفهوه . ويرجع هذا الى حدوث نزايده مرة أخرى عند الاصل والفتات نحو قصود التفكير . فلما كانت القدرة على التفكير من المكاتب التي يشترك فيها الانسان مع أقرانه من ملى البشر . لذا بدأ الانسان أيضا وكأنه قد اتجه الى فقدان جانب من فردية مشاعره . ولما كانت موضوعات الفكر تتركز على المعاني العامة والنظام المنقول للواقع ذاته لذا دل تصوره الريوريقا أيضا على استعادة الاحساس القديم بالكون كوحدة متظمة لها دماط محدودة - وإن كانت قد انحللت أشكالاً جديدة نوعا - وإن بمقدور العقل الذي يمتلى قيم الوجود العردي الاجتماعي للسان وقواعده ادراكها . ومن احر أن نكرر علم احتفاء اتجاهات بواكير عصر النهضة بأى حال . بيد

Poietano

(\*)

Merula

(\*\*)

Ermenigo Barbaro

(\*\*\*)

انه يبدو في نظري حدوث تحول كبير في الجو الفكري . وهذه مسألة لا يمكن التحط في تقديرها .

ويلاحظ وسط التميز حدوث تنحور في المبدأ الديوي الكلاسي وراء غاية النهضة في بواكيرها . اد ظهر احساس بأن الانسان يحيا في عالم منقسم ومختلفين ( وقد تمثل هذا الاحساس عند الانسان الانجليزي في عصر النهضة في القرن السابع عشر في أدق صورة ) . ويسبح كل عالم من العالمين مبادئه الخاصة . وصحلت حركة الفكر الآن من النزوع الى التحصيل الى التركيز على التركيب . وحصل المفكرون « الواحد » على « الكثرة » والساحطة على المركب . وهكذا فإذا كنا عند النحت عن فرسيات حصادة بواكير النهضة قد اوقفنا على الداء بأثروبولوجيتها ، فإننا عندما نتناول الكلام عن حضارة اواخر عصر النهضة سنضطر الى البدء برؤياه الكونية . فلقد وحيا الى عالم الفكر الذي تصادف فيه صورة للأفعال الالهية والوجود الانساني بعد أن عادت مرة أخرى الى الرؤى الكونية . وتذكرنا « كوليت » (\*) بلاتنى ووصفه « لاشعاع المسيح القادر على كل شيء » وعلى أحداث وحلة بين جميع الأشياء . . . . . وكان هذه الإشعاعات تطلق وتضع من شمس الحقيقة التي تلم شمل الأشياء الموجودة في حالة كثرة . وتجذبها نحوها وبحر تحقيق الوحدة . وأوما اوازيموس الى اتجاه أقرب الى اتجاه الطيبعية . التي شجبتها الهيومانيون الأوائل عندما وصف تطلع الانسان الى المسكية :

« ما الذي يمكن أن يستخلص من الظاهرة الآتية . في حلة جميع الأشياء . حتى اذا كانت حداثات . فاننا نلاحظ أن كل شيء يجذب الى مستقره أو مأواه الخاص به ؟ ليمجرد سقوط صخرة من عل وتسلسل للأرض فإنها تستقر عليها . وكما يتقلب اللهب الى الانحداب نحو معر » وهل هناك شيء ما يجر الأرض نحو غزا عتيقا الى حد يزيح الجبال والأحجار خلاف الرياح الشمالية التي تصارع لثقب طريقها للوصول الى الموضع الذي ولدت فيه ؟ وهكذا يرى أي جسم كروي مبتلى بالهواء عندما يدفع بقوة في الماء . راء يقفز عائفا من حيث أتى . - - - - - سم ان الروح الانسانية أشبه بهذه متقلبة تشبه حركته متأثر الجسم الممسوح من طين الذي سحق فيه فلا يحب اذا لم تشعر هذه الروح بالراحة الا في اليوم الذي تصعد فيه الى بارها عائنة من حيث أتت . - والحق أن جميع البشر يحكم طبيعتهم يسعون نحو الراحة . يعني يسعون للاعلاء الى شيء تستقر أرواحهم فيه .

ان هذا المنزع الذي يهدف الى إعادة طين الانسان داخل النظام الموضوعي لتكون بعد أن قامت الحركة الهيومانية في بواكير النهضة بتحريره من أسر»

يقدر التعصبة التي حظيت بها الآن فكرة الانسان ككون صغير (ميكروكوسم) - وهو تصور لا يحتاج بروره في أواخر النهضة الى المزيد من الايضاح - وهو وثيق الصلة أيضا بإحياء أشكال تنبؤ من المذهب السحري ، التي سمعت حسب قول بيكون « لمقد ريجيه بين الأرض والسماء » - وعقدت هذه المذاهب المثل الأعلى للتناسخ ( وإن أمكن التعبير عنه في صيغة التناسخ وفي صيغة حطقة أيضا ) وأهم من ذلك إعادة إحياء مبدأ الهرارشيية الذي بدأ فيتشينو يكاد يراصد النظام ذاته - وسببت الآن شكوك فلا في أصله الكتابات المنسوبة لديوبيسوس الأريوماخي ، وأولمت جماعة جديدة من القراء بالايمان به - وهذا ديوبيسوس في نظر فيتشينو منافسا للقدس بولس « كاحكم علماء اللاهوت المسيحي » - وسماه جيئير من فيترو « بالظياء الغد للآهوت اليوناني » وخصص كوليت الجانب الأكبر من حياته لدراسة أعماله وقام ليغر ديناييل (\*) بالاشراف على نشر سفره « مراتب السماء » (\*\*) - ووصف كتاباته بأنها « على جانب كبير من الفلسفة وتميز بروفقا وروعها ولا تفها حقها جميع عبارات الأطراء » - ولم يتردد حتى فوارغوس رغم وصي حماسه عن الاستعانة بالرؤى الهرارشيية في بحثه للنظام الكنسي والسياسي - وهكذا ألقيا أمعا مرة أخرى قد رجعا الى فكرة النظام القنسي الأوحى للواقع والذي تخضع فيه أركان الوجود بأسرها له وتمثل لأمره ، لابد إذن من القول باستمرار ملامح من اتجاهات بواكير النهضة في تصور الأفلاطونيين لفكرة الهرارشيية - فلم تنصف هرارشيه فيتشينو بسكوها ، ولكنها بدت أشبه بسبق ديباهي يمثل طريقة انتقال المؤثرات الحيويه - وصحى بسكو لحماية المرأة الانسانية عمدا أمام للبشر حرية الصعود والهبوط في « السلسلة الكونية للوجود » وحرية تشكيل أنفسهم - غير أن الأهم هنا في نظري ليس التواريخ التي استبقت من بواكير النهضة ، وإنما هو الوجود المهيمن للهرارشيية ذاتها - فقد اعتقد بيكون أن من واجب الانسان التصاعد على سلم الوجود بدلا من الهبوط عليه ، لأن وجوده يوعز له بطريقة استعماله لحرية »

غير أن الأهم هو قدرتنا عند تطبيق هذه التصورات على فهم الانسان على ادراك الاختلاف بين الموقف الحديدي والموقف في أوائل عصر النهضة - فلقد عاد للظهور تصور الشخصبة الانسانية لا كوحدة دينامية ، ولكن كإمكانات لبناء الكون ، وكمجموعة من الملكات المتنايزة المتدرجة التي يتحكمها العقل ، أما بوساطة النفس أو الروح ، فقد اختلف المصطلح من مفكر لآخر ، تبعا لموقفه الى حد ما ، وعلى كان مثاقير أبارسطو أم بأفلاطون

أم بالرواقين ؟ وقال : « هذا هو النظام الذي فرضته الطبيعة ، وهي أن يكون الكل محكوما بالحكمة ، وأن تخضع جميع انكاسات للآسان . وفي حالة الآسان - يلتزم الجسم بأمر النفس ، والنفس ذاتها متخضع لآرادة الله . وكل من يهلك هذه الآوامر يرتكب خطيئة » . وأجلت البشر تدريبات شتى على التصور العام . ولاحظ أوبايو مريجورو (٢) : « فكما أن غلدا شئ - وحسنا شئ آخر ، فإن الأمر بالمثل في حالة النفس ، التي تنقسم إلى حريين : يحتوى أحدهما على العقل ويحتوى الجزء الآخر على الشهوات » . ويرى أرازموس « أن الجسم يمثل أخطر أجراء كيائنا » . ويمثل الروح شيئا أشبه بالطبيعة الالهية . « وأخيرا فلفه خلق الله النفس كملكة تتوسط الملكتين الأخريين لكي تكيح جماع الأساس والتوازن للطبيعة » .

غير أن سيادة الجوانب العليا للآسان قد عتت عودة النظر إلى ماهية الآسان على أنها كلمة في عقله . أو كما قال فيثشيون أحيانا في شئ ما اسمي من العقل ، ولكنه يمثل دائما ملكة عليا ومعصلة . وهكذا يرى في أحد كتب كاستيليوني ( الذي يستطيع مقارنته في هذه النقطة ببيترارك أو فلا ) المعرفة أسبق من الحب . فتنبا لتطويع الحكما القديس . الحب لا يريد عى رغبة ما للاستمتاع بالجمال ، ولما كانت رغبتنا لا نصب الا على الأشياء التي نعرفها ، لكه يضمن أن تسبق المعرفة الرغبة التي هي بحكم الطبيعة تنجه إلى الخير ، ولكنها عمياء في ذاتها ، ولا تعرف الخير . وصحبت هذه الرؤية الفكرية للآسان نمة متفائلة ملحوظة ، توافقت هي والتقاليد الكلاسيكية التي اصعدت منها والفائلة أن معرفة الخير هي فعل الخير . وهكذا لاحظ أرازموس أنه مما يليق بالجميع « أدراك حركة العقل ، ومعرفة عدم اتصاف أحد منهم بشدة العنف ، لأنه بالتقدير إما كيح جماعهم عن طريق العقل ، أو إعادة هدايتهم إلى الفضيلة » . ويردف أرازموس فيقول : « هذا هو الطريق الوحيد للسمادة . أولا اعرف نفسك . ثانيا - لا تخضع شيئا ما للهوى ، وإنما عليك الخضاع لجميع الأشياء لحكم العقل » . وتذكر العذراء ماريا بحبيبتها بلهجة متعاطفة نوعا (٣) : « إن ما تفرضه المشاعر مؤقت وزائل . أما اختيارات العقل فآثارها المتعة دائمة بوجه عام إلى الأبد . ويقر عاشقها قولها في لهجة أقرب إلى الاستغراب ربما أمكن تفسيرها على أنها تحتوى على شئ من السخرية على طريقة أرازموس : « حقا أنك تفلسفين على حبر وجه . ومن ثم قررت العمل بنصيحتك » . ولا ينبغي أن الآرادة قد ظلت عنصرا هاما في التصور . فكل استحداث على اختيار

(\*) Ottaviano Fregoso . جاء ذكرها في كتاب Courtier

(\*\*) في محاوراة كتاب The Woper and the Maiden

طريق العقل يحلل ضمنا الاعراف بوجودها (الارادة) والاعتراف بقوتها .  
غير ان الارادة لم تعد محور الشخصية الانسانية ، بل اصحست مرتبتها  
الى دور العبودية للعقل ، اذا اصبحت بالفضل ، وبخضوعها للمهوى اذا كانت  
شريرة . ولقد اعتمد فكر كبير من الفكر التربوي في أواخر النهضة على هذا  
المحس .

وغدا نعرض النظرة للمشاعر للتمتع أمرا لا محاسن منه . فبعد انه  
كانت تنسب الى الجسم أو الجانب الأسفل من النفس ، فانها عادت تتخذ  
مظهر المشكلة أكثر من ظهورها بمظهر مسخ النجوم والشر على السواء .  
فحسب ارازموس الذي اتخذ موقفا متوازجا حيالها الى حد ما ، فإنه لم يستبعد  
كثيرا . فلا نسي أنه هلل لأشعاره لجعلها من المشاعر فكنت يقول .  
« انها لا تحتوي على عاصفة واحدة » . « ولا وجود لسيول عالية تنقض  
على شاطئها » ، وحلت خالية من أية مبالغة . « وكان يؤثر الشعر الذي  
يبدو أقرب الى الشر ويخص الفقرات الكورالية في الدراما الاغريقية لما فيها  
من روح انفعالية عميقة . وبالتل كان قبح لا يثق بالمشاعر ، وان كان  
من الناحية التعمية قد اعترف بحدتها اخلاقيا ، فقال . « كلما ازداد الحكم  
نقل وسموا » قل حصية من المشاعر التي يسمح بها . ان مثل هذا الحكم  
يعحص بمسايه شديدة الجوانب الخيرة الكاشنة في الاشياء . ولا يقل  
الاتاة الا في حالات مدمرة وباعتدال رصبي . « كما كتب أيضا : « في  
الحالات التي تشر فيها المشاعر بكل ما تسمح به من قوة طمعية . فان  
الحكيم يسيطر عليها بعقله ، ويرغبها على التراجع امام أي حكم  
حصيل » .

ولم يخامر أواخر عصر النهضة الضلك كثيرا في الحكم على الجسم  
بحقارة . فنظر اليه مرة أخرى . كما حدث عند هيتشينو . كسبح أرضي ،  
وماوى مظلم للنفس « واستبعد هيتشينو الجسم من تعريفه للانسان الذي  
اعتبره « مرادفا للجسد ذاتها » فكل ما يقال عن أن الانسان قد فعله تكون  
الجسد وحدها قد فعلته . ولا بد أن تكون قد سخرت الجسم الشرى  
أفعله . « وكل مقدور ارازموس طرح هذه النقطة فتلما حدث عندما رأينا  
الحسين عنده يتفان على أن النفس قد ارتفعت ان تكون محيطة للجسد .  
« كصغور صغير في قصص » . ولكنه أحيانا كانت تتأبه بوبات شديدة  
المراس كما حدث في كتابه « تربية حاكم مسيحي » (\*) : « لو ظهرت أية  
امارات للشر في العقل ، فلاند أن يعزى ذلك الى اصابته بملوى من الجسم ،  
أو النجاس به . باعتباره خاضعا للأهواء والمشاعر » وما ينسب من خير لصورة

الجسم مستمد من العقل يبرع كل حين . وكم يبدو بعيدا عن المصادقية ومتناقضا والطبيعة القول ما للساوي، تمشي من العقل الى الجسم او تعرض صحة الجسم للفساد من تأثير العادات الشريرة للعقل . « ومرة أخرى رأينا من يدكر ما يعتمد الوجود الانساني على النظام الارحب للطبيعة، ورايا عيى يرداد عما عصفما يعول . « ان عومسا تحبل الحب، العيل للاحسام بشعور كبير من الشقاء والالم - فالاحسام هي سبب احضار المعوس في اطار الحدود الضيقة للأوس حيث نجتمع شئى أشكال العناية والدنس . « وبمقدورنا ان نلمح في هذا الامر ان على الفصل - بل التحاصم - بين الآخرة الملبأ والأخراء المبعلى للانسان . وبين المعنى العاقبة ( أو الروح ) والجسم ومشاعره . تدرك تقابلا ذا معنى للفرقة بين الجوهري والصورة في الاحاديث المتداولة . أو بين مقسونها العقلاني وحرقتها البلاغية ، وبين النفس ، وجسم الفكر .

وترنبت على هذه النظرة الى الجسم نبيعة موجبة هي التشديد على -جادد النفس - وقد رفض آباء الكنيسة أحيانا هذا المذهب ، لأنه يظهر وكأنه يتعارض هو والاعتقاد المسيحي في بحث الجسم ، ودافع المشلون الصحيحون لأواخر النهضة من حين آخر عن الصمت . وتحدث فيتشتينو عن رغبة النفس الطبيعية في الوحدة للاتحاد بالجسم - وهي رغبة لابد من اشباعها لأنها هي نهاية المطاف في طبيعة الأشياء . بيد ان الاهتمامات الخفية لهيومانيين للتأخير قد انجحت اتجها آخر . فعلى عندما بالتقوى هذا الموضوع فانهم لم يتنددوا كثيرا على تجديد بحث الجسم ، بقدر تشديدهم على تحويله الى شئ أقل حساسية وأكثر روحانية ، اذ كانوا مهومين بخلود الروح . وخصص فيتشتينو الجواب الأكبر من كتابه عن « اللاهوت الاملاطوتي » لاثبات ذلك . وهناك اصلاء للفكرة على نحو أكثر دسوية في رسالة جارحانتوا ( للأديب الفرنسي رابليه ) يستحدث فيها على اتباع التفصيلة بقوله : « اذا لم تحطت لروحى - بحاسب هورتي الحسانية - اشباعا مماثلا داخلك ، فانك لن تحسب حديرا بحراسه الخلود النفس لاسمى ، ولن يتحقق الا أقل قدر من الاشباع اذا تعرض للصمحلان أفضل عز - ( يعنى روحى الذى يقسم اليها الحفاط على معنى مكرما بين الناس ) وستكون قد تعرضت لأشنع اهانة » - ولعل اعلان خلود الروح رسميا في عقيدة الكنيسة في مجمع لانيرلان الخامس ١٥١٣ كان صدى لهذا الاهتمام الذى عاود الظهور في أواخر عصر النهضة .

وساعد هذا الاتجاه الحديث في فكرة الانسان على تفسير أسسه، إعادة احياء مثل الأعلى للإشادة بدور التأمل واسترجاع الاهتمام بالفلسفة .

وعبر عن هذا المعنى أفضل بعبارة يكون معناها كتيب . لقد كنت دوما شغوقا ومفرما (بالفلسفة) ، حتى اننى تخليت عن كل اهتمام بالمسائل الخاصة والعامه ، واضلعت تماما للتأمل . واعتقد جيلز من فيتنبرو على نحو عريب أن يسوع كفى انسانا يتجنب الملل والأسواق وصحبة الآخرين ، وكتب لصديقه « الاساس السعيد هو الذى يمنى مدى قصر الحياة ، ويساعد لتقصه بعيدا عن صخب الشر » . وحتى كاستيليوى فقد رأيناه يدفع اوبافابو عندما واجه المشكلة المادية عن المقاضلة بين الحياة العملية والنظرية عند الحاكم ، فانه اكتفى بالزوع الى الانتاورة غير المتوقعة « ياه يبعى على الاحكام ان يتبعوا الانجاليين » ولكن عليهم ان يهتموا بالساحية النظرية بوجه خاص الذى يجب ان تصبح هدفا للتأحية العملية ، مثلما يظهر الى السلام على انه هيبس للحرب والسكسة كهدف للحد والاحتداد . ولا يصد تطاع اراموس الدائم للسلام الذى يتمتع شغله بالدوس والتحصين مجرد مزاج شخصى ، ولكنه كان مثالا أعلى لجبل كامل . ولم تكن حركة السلام فى نظر المتكبرين فى عهده مجرد استجابة للموقف السياسى ، مثلما لم يصح كتيب ذاتى لنفس هذا الهدف (٢٠) .

وفى مثل هذا افتناخ ، لم تعد الروح المدوسية تظهر بمظهر منفرد . ولقد اعتدنا أن ننظر نظرة أكثر جديفة الى اعتراضات اراموس وقوله انه لم يهاجم المذاهب الفلسفية ، ولكنه هاجم أوصالها . وادا رأيناه يسجر عن ارقام نفسه على امتداد المدوسين (الاسكولانيين) الا أنه سعيد بما فيه الكفاية فكرة الفلسفة واعاده وبطها باللاهوت فى أحد كتبه (٢١) . واعتبر بىكو رسالته فى الحياة هي اعاده تجديد الفلسفة بعد تعرضها للهجوم لعشرات السنين ، ولحمس فيتشيتو ولبقو وفيفس لاعداء الفلسفة مرة أخرى لخدمة الايمان ، ولم تعد أسماء أرسطو وأفلاطون والرواقبين مجرد أسماء يرفع عليها - فقد صادفت هذه الأسماء جميعا اعجابا مترايفا ، وتشعلت الدراسات المجادة لأفكارها . وتمعنمت حتى مكانة توما الاكويسى على نحو لم يخطر به خارج طائفة الدومنيكان . واعترف اراموس ذاته بأن توما الاكويسى يسحو « نحو المداينة فى كتاباته » . وهكذا اننى حينذاك تياران حضاريان كانا متفصلين لى بواكير النهضة . وتعد احدي لوحات رافائيلو العظيمة (٢٢) بمحاولتها الجمع بين حضارتين : الحضارة القديمة والحضارة الإنسانية فى ظل الرعاية المشتركة لللاهوت والفلسفة تسرة من تملك هذه الحركة .

De monarchia  
Philosophia Christi  
Stanza della Segnatura

{\*}  
{\*\*}  
{\*\*\*}



ومره أخرى لابد أن أشهد على القول بأنه لم يحدث هنا أى تغير  
 مطبى ، أو أى وضع كامل للنيل العليا لىواكير عصر النهضة ، غير أننا  
 نلجج بوارد لنحول عيسى فى طريقه للظهور . وبعد مسألة تستاهل  
 التوضيح . وفى المحتمل الإعداد إلى جانب من الإصحاح إذا أرحمنا ذلك  
 إلى نوع من الديباجية الكافية داخل الهيومانة دائما . فصدما حاول البشر  
 أنيه فخرانهم على المعبر بالكليات بمحاكاة الكلاسيكى فأنهم اكتشفوا  
 أصول التعمير الكلاسيكى واكتشفوا أيضا إمكانات جديدة لم يحدوا  
 بالمتور عليها فدخل أنفسهم . ولكن بعد أن برأيد اكتشاف علم فقه اللغة  
 الكلاسيكى ( الفيلولوجيا ) رثى انه بالإمكان الاحاطة بالترات الكلاسيكى  
 احاطة موضوعيه ، وبالقدور انصاعه لقواعد عامة . وبذلك لم تعد  
 « الكلاسيكية » مصغرا للتححر بقدر كونها عاملا حقيقيا . وساعدت  
 أيضا على انماء الشعور باستعمال اللغة استعمالا لائقا للطبقة  
 التى تعد من أعظم مبتكرات هذا العصر . فقد ساعدت على تسيط  
 كل جانب من جوانب التعبير الشعري . وبعد أن تدفقت الكتب  
 المطبوعة باللائين ، فأنها فرضت قبضا على الجماهير المتزايدة للتعلمين .  
 غير أنه حتى إذا لم يطر إلى ما وراء الحركة الهجومية دائما ، فأننى أظن  
 أن باستطاعتنا ادراك وجود مزوع فعال أعقق دفع الحركة فى الاتجاه ذاته .  
 فقلد صاد شعور مضمر بالتححر فى اتجاهات البلقاء كما بين من رفضهم  
 النظام الكرنى الموضوعى الذى يستمرته به الامممان فى مساره ، وبين  
 أيضا من الاحساس بتطورة القوضى الشمالة والفضلال . وشعر أكثر  
 الهيومانين حساسية من البداية بهذه المشكلة . وحاولوا الاهتمام إلى حل  
 لها بالتمادة بوجدة البلاغة والحكمة . غير أنه لم يكن هناك سنده ضرورى  
 مثل هذا التحالف فى غياب نظام موضوعى تستطيع الفلسفة الاحاطة به .  
 أو غياب ارشاد روحى معزز بالإيمان . وفى الحق لقد كان الهيومانيون  
 الأوائل أنفسهم نهين فى الاستمتاع بالحرية الفردية والملكة الخلافة ، أى  
 الباحثين التى اكتشفنا حديثا . وفى كان شعورهم بالقلق قد تزايد أيضا  
 فيما يتعلق بأوجه النفع التى يمكن أن يجنيها الفرد من هذه المنحة . وأباح  
 بترارك لأغسطس توجيه اللوم للارانسيمكوس لأنه تساهى بفصاحته .  
 وأزعجت مالفوناتى خيفة اقتتار معظم الخطباء إلى الخلق الفاضل . وتزايد  
 شعور يوجيو بالاكنتاب لأن الريتوريقا ( البلاغة ) بلغت أقرب إلى وسيلة  
 للتححر أكثر من كونها قصب لتدعيم المجتمع البشرى . وهكذا فرغم محرم  
 أوائل الهيومانين على الفلسفة ، فأنهم قد أدركوا هم بالذات الحاجة إلى شىء  
 أعظم من قوة الريتوريقا . ومن هذا المنظور هذا وكان مفكرى أواخر النهضة  
 قد اتجهوا للبحث عن أوجه نفس خفلة بواكير عصر النهضة . وفى ذات

الوقت ، علينا أن نسأل : ألا يصح القول بأن هذا النقص كان في الواقع من ضرورات هويتها ؟

عمر أنتنى اعتقد انه يجب علينا في نهاية الامر النظر فيما وراء الهيمانية ذلكها ، يعنى الى التغيرات التي طرأت على العالم السياسي والعالم الاجتماعي ، ونوسعا أن نشير اشاره مباشرة الى ما حدث من تطور في إيطاليا ، فلقد حلق المهود الطويلة للمباحثات فاحل مدن إيطاليا في السنوات التي تتوسط القرن الخامس عشر حوا لا يطاق من عدم التسامح ، تفاقم من جراء الحقبة الطويلة من الحروب التي دارت على نطاق واسع ، وهي السعار الذي مرت على المرو العرسى ١٤٩٤ ، والذي دمر بالفعل حرية الدول الإيطالية ، وذلك لم تعد الحرية هي الضرورة الملحة لهذا العصر الجديد ، وبدلا من ذلك أصبح «قروضه النظام هو المطلب الأول» وتزايد اقتناع المجتمع بالهيراوشة ( أو التكوين الهرمى ) لمجتمع ، وازدادت الحكومات سلطا ، واستفحل الشعور بالقزع من أى تغير يجرى ، وفي نفس هذا العصر أيضا ، وبعد أن استمدت قوتها بعد محنة والمصالحة مرتعت الى إعادة توكيد سلطتها التي اصبحت الرؤيا الوسيطة للوابع ، ولم تظهر أية مفارقة في هذه الظروف في التصور الذي يرى جميع الأشياء مظاهر شتى لنظام مقدس واحد ، يجمع في ذات الوقت بين الموسوعية والعقلية والنظيم الهريراشى والمقصوع لسيطرة قوة أسمى ، فلقد اعتبر هذه النظرية مخرجا للحلاص من المخاطر المباشرة للعصر ، وتكأة يتكئ عليها سلطان الأمراء ( الحكام ) الذين أعربت اليابوكة الآن عن استمدادها لمقد اتفاقيات مصالحة مهم ، وفي إيطاليا - وباستثناء فينسيا - كان حكام الولايات في الصعود ، ونفى النظر عن اختلافاتهم الخاصة والبايا ، بعد أن اكتشفوا توافق الرؤية الهيراوشية للنظام هي واغراضهم - وفي مثل هذه الظروف فقتت الريتوريكا الكثير من قائلها العامة ، ولم يعد خلق التماسك الاجتماعي والنظام الاجتماعي يبدأ من أسفل اعتمادا على الإقناع ، ولكنه أصبح يبرس من عل بالقوة ، وبعد وهن المورد الاجتماعي للمستفيدين ، ازداد احتقادهم لعامة الناس الذين يتناظرون ، على مستوى المجتمع ، الاغواء والمثاعير في « جسم » السياسة ، التي غمت مشار شك ، وتبعا لشعار ذاته ، أصبح ينظر لعن الكلام على أنه سمة اجتماعية ، ومن المميزات التي تتميز بها الأمستغرافية السياسية المتلفة حول الحكام ، وسرة أخرى انعكست صورة الاسان في النظام العام للأشياء بعد أن كان انقلابون قد وبك يثبها وبين المجتمع -

لا يخفى أن هذا السان عن الفرعيات المتغيرة في حضارة أواخر عصر النهضة لا يعد وصفنا متوارنا أو بياصا مانما لهذه الحقبة الزمنية - فالى

جانب ما استحدثته بواكير النهضة ، فانها استمرت تحتفظ برواسب من حضارة المصور الوسطى - التي لم تكن محتاسنة تماما معها - وظل الكثير من مخلفات بواكير النهضة باقيا في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وفي حالة نور في أغلب الأحيان مع الاتجاهات التي تحدثت عنها . وفي هذه النقطة من عرضنا ، يتحتم علينا أن نلاحظ العلاقة بين النهضة الإيطالية والتطورات الحضارية في مناطق أخرى ، إذ تسمح بقصر التأمل حقيقة اقتنيات الألمان والعنسيين والاسبان في هذه الفترة الرجعية على المستحدثات الأبركر - وهكذا فلربما ساعدت الاتجاهات الكوكبية في أواخر عصر النهضة على حمل الساذج الفكرية الإيطالية أكثر تحاسبا هي وحال الأوروبيين في شتى الاتجاه ، ولو أنها اتخذت صورة أخرى ، لاختلفت النتيجة في أغلب الظن - ولعلها كانت ستصيب الظن لو حدث هذا التأثير قبل أن تتحفظ مستحدثات بواكير النهضة من جيبها - وليس من شك أن التمديلات التي تعرضت لها حضارة بواكير النهضة بعد نقلها من الجمهوريات - المدن التي ولدت ليها ال قصور الحكام قد ساعدت على تكيفها هي والدوائر الأوستقراطية للأنظمة الملكية في الشمال ، وإن كانت هذه التغيرات قد بدت أشد غروما في مئاما في مظر المدن الحرة للامبراطورية ، التي أصبحت الآن خاضعة لمسطوط متزايدة من حكام الأقاليم .

ولكن وكما آكدت بين الفنية والأخرى ، فإن التوازن الأكثر حيوية لبواكير النهضة لم تختف تماما من حضارة أواخر النهضة حتى في إيطاليا ورغم ما تعرضت له من أساة - وكانت هذه التوازن معروفة أيضا وراء الألب (في وسط أوروبا وشمالها) حيث بعدت وإن لم تحقق هذه المستحدثات ما جرت العادة على تسميته « بنهضة الشمال » بالرغم مما يحمله هذا المصطلح من غموض - فلقد أعجب أوروبيو الشمال - بنظر النظر عن مشاعرهم نحو إيطاليا - بانتظام مجزات نهضتها بأعصارها مثلت انقطعا عن الماضي الوسيط - كما صادفت الفرضيات الأعق لحضارة الهيوماتيين صدى لها في عالم اللاهوت في حركة الإصلاح الديني البروتستانتية - وهكذا فإذا قلنا إن بواكير النهضة كانت مسألة إيطالية بحتة ، وإن اتجاهات أواخر النهضة قد أحدثت تغيرات في الاتجاهات الأولى للنهضة ، بأن أثرها في كل من إيطاليا والشمال ، سيضع لنا مدى أهميتها المبنية الاختلاف خارج إيطاليا حيث تشكلت كبنائة لطور جديد في تاريخ الحضارة ، أكثر من ظهورها بظهور تكمور حركة توطلت على خير وجه ( كما جرى في إيطاليا ) - ومن هذا يتضح أن بوصفنا أن نلصق في الشمال - وربما في صورة أوضح في إنجلترا - بوضوح متزايد الكثير من نفس الاحساس بإمكانات الحرية الإنسانية ، ونفس مشاعر القلق والكشف العلاق لامكانات

الوجود الفردي ، على نحو شبيه بما جرى في بواكير النهضة في إيطاليا .  
وتحتاج هذه الكلمات الى شيء من الشرح .

وبالاستطاعة - كما ارى - ارجاع السبب الاساسى لمواصلة التوازع  
الحوية لحركة النهضة في شمال أوروبا بعد العقود الاولى من القرن السادس  
عشر الى تعددتها السياسية . وادى هذا العامل بالاضافة الى الاعتداد  
الجغرافى والروحى من روما - رمز العالمية وتصورتها - الى اقامة عقبة كاداه  
امام البرء من أى تصور لوجود نظام كونى مفسى واحد . والفارق بين  
الكاثوليكية والبروتستانتية في هذه النقطة غير دى موضوع . ففرنسا  
وامبانيا - رغم ما عرف عن الملك فيليب من تقوى - قد قاوما التأثير  
البابوى بنجاح مما يه لتجاح انجلترا ومختاره (٣) (مكسوييا) في ألمانيا .  
ومثلت هذه السلطان جسما للمبدأ العلماني للاعتراف بوجود عالمين متقسمين  
وممايزين مما جعل أى تصور لهرارشية موحدة كلفنة في التكوين  
الموضوعي للواقع غير مستصوب في نهاية المطاف . وساعدت التجزئة  
السياسية بالاتيان بأساس قامت على اكتافه المضاربات القومية ، التي  
أفسحت المجال بحكم علمائيتها لتتبع من الفردية الشخصية كذلك النور  
تميزت بها إيطاليا في بواكير النهضة . ولا وجود لموضع آخر تمثل فيه  
هذا التطور واضحا أفضل من الآداب الطرجة التي اكتشف فيها أوريو  
الشمال لانفسهم الاثر الخلاق والتمردى للغة مثلما فعل اهل البلاغة في  
إيطاليا قبل ذلك بقرنين من الزمان .

## المراجع

- Hans Baron — *The Crisis of the Early Italian Renaissance* (1966).
- Johann Heziaga — *Erasmus and the Age of Reformation* (1933).
- Paul Oskar Kristeller — *Renaissance Thought : The Classic, Scholastic and Humanist Strains* (1961).
- James K. McConica — *English Humanists and Reformation Politics under Henry VIII and Edward VI* (1965).
- James H. Overfield — *Humanism and Scholasticism in Late Medieval Germany* (1984).
- Gerald Strauss — *Luther's House of Learning : Indoctrination of the Young in the German Reformation* (1978).
- Nancy Struener — *The Language of History in the Renaissance Rhetoric and Historical Consciousness* (1979).
- Charles Trinkaus — *In our Image and Likeness : Humanity and Divinity in Italian Humanist Thought* (1970).



## ثانياً

### عصر الإصلاح الدينى

حركة الإصلاح الدينى هى اول الثورات الكبرى التى غيرت شكل العالم الحديث . وعلى الرغم من أنها لم تخلق فى التو أنظمة جديدة من الحكومة لقلب صرح الطبقة الحاكمة فى المجتمع ، إلا أن تأثيرها على السياسة للممارسة والمجتمع المعاصر كان عميقاً ومستمراً . وفى الكثير من البلدان أنهت حركة الإصلاح النزاع الطويل المدى بين الحكومات العلمانية والحكومات الكنسية على التحكم فى السياسة . وبين دوبرت ماكنجدون كيف ساعد البروتستانت وحرسوا على نقل السلطة من الحكومة الأسقفية إلى حكومة عموم الشعب فى جنيف . وبذلك انتهت سيطرة الكليروس السياسية والاقتصادية والأيدولوجية على المدينة .

وفى الكفاح من أجل الاستحواذ على قلوب عامة الناس وعقولهم ، استعان البروتستانت بسلاح قوى هو الطباعة . ونهت حركة الإصلاح الدينى أول مثل تاريخى للعناية الناجحة بين جموع الشعب باستعمال الكلمة المطبوعة . إذ ظهرت النشرات العامة فى أعداد تجاوزت عشرات الألوف فى عشرينات وثلاثينات القرن السادس عشر . فلما كانت الأكثرية الساحقة من الشعب عاجزة عن القراءة ، فقد صممت هذه العناية بحيث تقرأ عليهم بصوت مرتفع . وتحولت المطابع إلى نشرات احتوت فى الأغلب على تصاور . وعند التقسام بالعناية بين الكتل البشرية ، استعمل البروتستانت أيضاً فروغاً مفرد من الورق الماير كانت مرصعة بالصور الفنية برموزها ومصحوبة بنص مبسط كثيراً ما كان مسجوعاً ، حتى يسهل استعماله على الألباب . ويغور موضوع طالع دوبرت سكرينر حول الاستعمال الأرم لل تصاور التقليدية لأغراض العناية بالرغم مما تعرض له هذا الاستعمال من إساءة .

لقد كان عصر الإصلاح الديني عصر فطاحل الحكام - انه العصر الذي نزع فيه أشخاص ذوو عزيمة وتصميم على تعديل مسار التاريخ في نطاق المجال المباشر لتأثيرهم ، كما حدث في حالة الملك الانجليزى هنري الثامن الذي ساعد طموحه السياسي المسند الى فكر شخص واحد على تعديل السياسة الانتطيرية ونوع الديانة الشائعة في انجلترا . ولا يلزم ان يكون هذا التغيير قد اوجبه للأفضل ، تبعاً لما يقوله سكاريسبرك . الذي يخصص قصصاً تعدياً لشخصيه الملك ، وما أمجره اياه فترة حكمه .

وحيثما تبصرت حركة الإصلاح الديني ، فانها قلعت اما بتصفية أديرة الرهبان دكورا وامانا ، أو تهيلها بقيود صارمة . وكان هذا التغيير من بين التغييرات الجبارة التي ألحقها حركة الإصلاح بالمؤسسات المعاصرة ، ورفض البروتستانت رفضاً باتاً احكام رجال الدين عن الزواج ، وما زعم عن تمثيلهم للصعوبة المثلى من المسيحيين الأفضل من عامة الناس مما أدى الى ازدهار نظام الزواج وشجوا الرهبان المبعدين والراهبات المبعولات في المناطق البروتستانتية على الزواج . فاقبلوا على ذلك باعداد غيرة - وصور الزواج على أنه أكثر المظاهر الأساسية ارضاء لله . ويلور موضوع جيد دعوى دوجلاس حول النتائج التي عادت على النساء من تقدير البروتستانت لنظام الزواج والحياة الأسرية .



## هل كانت حركة الإصلاح الديني ثورة ؟ المثل الخاص بجنيف

### روبرت كنجتون

هل كانت حركة الإصلاح الديني ثورة اجتماعية وسياسية حقاً ، أم أنها لم تزد عن ثورة وتمرد على المذهب اللاهوتي والممارسة الدينية ؟  
فإن معظم المدن والأقاليم التي حقق فيها الإصلاح الديني غايته بدأ وكأنه لم يحدث تأثيراً عميقاً على تكوين الصفوة النخبوية الحاكمة ، كما أنه لم يثير أوضاع البناء الاجتماعي تغيراً جذرياً . فلم يتبدل حال من كانوا يتمتعون بالثراء ومن كانوا يعانون من الفقر . على أننا عندما نتذكر أن الكليروس روماً كانوا أيضاً فئة حاكمة قوية ، فإننا سندرك بوضوح الطبيعة التودية لحركة الإصلاح .

وفي جنيف تمتع الكليروس بسلطة سياسية عاتية ، وكانوا يسيطرون على ممتلكات واسعة ، ويديرون نفق الحكم في المناطق الخاضعة لسلطانهم - فضلاً عن ذلك ، فإنهم جمعوا الأسطورة الاجتماعية السائدة واتخذوها تبريراً لهم في تنظيم المجتمع ، فجعلوا الكليروس يحتل أرفع مكانة في قمة مجتمع الصالحين . ولقد تركزت الحكومة الكنسية والزعمية طويلاً تحت رئاسة أسقف كونسانس ، السيد الأعظم - تقليدياً - للمدينة . وعندما نجحت حركة الإصلاح في مهاجمة روما ، فإنها تمكنت من تحقيق تغير كاسح في التنظيم السياسي والبناء الاجتماعي والسيطرة الاقتصادية على الممتلكات والأسطورة الاجتماعية السائدة . وعندما فعل البروتستانت ذلك ، فإنهم تحالفوا هم والمحاوالت العلمانية المستقلة للحد من تحكم الكنيسة في الحياة المدنية ، وتسليم عامة الناس مقاليد الأمور . وتعد حركة الإصلاح في علم المجالات ثورة حقيقية .

(\*) نقل عن كتاب Robert M. Kingdon Transition and Revolution  
Problems and Issues of European Renaissance and Reformation  
History.

هل كانت حركة الإصلاح البروتستانتي ثورة ؟ • يعني أن يكون لهذا السؤال أهمية عند عدد من مختلف المذاهب • فبينما أن لهم من تجذبهم حقبة الإصلاح من يودون لهم ما حدث فيها فهنا كاملا بقدر الاستطاعة ، ومعرفة ما فيه أهميتها كاملا • ولابد أن تهم المنهجين لحركة طبيعة التأثير الاجتماعي العنيف ، ومن يرغبون الألام بما هو أكثر من أصل الحركة التي كانت من الجوانب الهامة في تاريخ العالم القريب العهد • وربما كانت موضع اهتمام حتى من يعتبرون أنفسهم الأخلاف الروحانيين للمصلحين البروتستانت ، ويغريون الإحاطة بالطبيعة الدقيقة لآرائهم •

وقبل أن نتمنى لنا الإجابة عن السؤال ، علينا أن نضع تعريفا لمصطلح « ثورة » • ويا لها من مهمة عسيرة 1 • فلقد استعملت الكلمة على أنحاء شتى ، وجاءت أغلب هذه الاستعمالات عند أشخاص ملتزمين التزاما عاطفيا إما بالانتصار الجيد للثورة ، أو من قبل أشخاص راغبيين لها رفضا بآنا • وهكذا أصبح مفهوم لمصطلح مفسا بتمسحة عاطفية قوية ، ترتب عليها صعوبة التحدث موضوعيا عن « الثورة » وتعريفها على نحو يقبله أغلب الناس • ومع هذا فلنحاول ٢

نحل ثلاث في الفترة التي حدثت فيها حركة الإصلاح البروتستانتي يثرون تسميتها بالثورة • ففي تلك الأيام ، لم يكن لمصطلح أي دلالة سياسية أو اجتماعية • لذا كان أساسا مصطلحا عذيا يستخضعه علماء الفلك • وأفضل استعمال معروف له جاء في لمبحث الهام الذي قلم فيه عالم الفلك البولندي نيكولاس كوبرنيكوس نظريته الراديكالية الجديدة التي اعتبرت الشمس - وليس الأرض - مركز النظام الشمسي • وقد نشر هذا البحث لأول مرة ١٥٤٣ (٢) • وثمة جانبان لهذه الحركات علينا أن نراعيهما • فهنا إعلان على انتظام الرجوع إلى نفس الموضع لأن كل حرم مساوي يعود بعد دوراته إلى المكان الذي كان يحتله قبل الدورة • ويدلان

---

(\*) عنوان هذا البحث On the Revolutions of the Heavenly Bodies  
 رعبت "revolution" في هذا السياق حركات الأجرام السماوية في مسارات  
 حول الأرض والشمس وصفتها إلى نفس الموضع الذي احتله عن قبل •

أيضا على « اللابدية » لأن كل جرم سماوي يتحرك بلا انقطاع أو اضطراب في مسار بمقدور عالم الفلك المحارب الوثوق التام في التنبؤ بمساره .

وهناك سبيل بينة بومنا استعمال هذا المصطلح الفلكي فيها تشبها بما يجري في عالم الفلك . أي في وصف التغيرات السياسية والاجتماعية . ونستطيع مصادفة أمثلة قليلة لمثل هذه الاستعمالات إبان القرن السادس عشر . فمثلا وصف أحد المراقبين ترمفا في إسبانيا بثورة الشعب . ولكن هذا الاستعمال نادر ، ومعاد الدقيق غالبا ما لا يكون مؤكفا . وباستعنا المتور على أمثلة أكثر من ذلك في القرن السابع عشر . فمثلا لقد أسس مؤرخ إنجليزي هرموق ١٦٧٤ قلب البرلمان الطويل (الأجل\*) المأجز عن أدبه مهاد ، واستعادة النظام الملكي لستيوارت ١٦٦٠ « بالثورة » وبقترب استعمال المصطلح على هذا الوجه هو والمعنى الأصلي الذي وضعه له علماء الفلك . إذ شهدت ١٦٦٠ عودة صورة من صور الحكم تحطها الانجليز ١٦٤٠ في اجتماع طويل للبرلمان اليسورامي ، الذي ألقى بعد سنوات قليلة في أعقاب الحرب الأهلية الإنجليزية . ويختلف هذا الاستعمال عن الاستعمال الحديث للمصطلح .

ولم يستعمل مصطلح « ثورة » إلا في القرن الثامن عشر استعمالا عاما على نحو تستي لنا التعرف عليه . وطبق آنئذ على حزمتي كبيرتين نعرفهما باسم الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية . وقد ظل المصطلح يحتل بعض أصداء من صباه الأصلي عند علماء الفلك . فلقد ظنت الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية أنهما قد أعادتتا حكومتيهما إلى حوزة السبيل ، وإلى النقاد الذي اتسمت به الطبيعة في بواكير تاريخها ، أو إلى صورة بعض الحكومات في العصر الكلاسيكي القديم . وكانت معرفتهما بالفكر السياسي القديم معنية بالدقائق إلى حد مثير . كما أنه تقديرهما للأنظمة السياسية الكلاسيكية - خصوصا في جمهورية روما - يدعو إلى الدهشة . وانعكس ذلك على سبيل المثال في اتساع المصطلح الروماني « سبات » عند تسمية المجلس الأعلى في النظام التشريعي الأمريكي . واعتُقلت مجموعة الثوار الأمريكيين ومجموعة الثوار الفرنسيين أن عودتهما إلى مثل هذه الأنظمة العريقة لا متوقعة منه ، ولا يمكن أن يصد . وتساؤل حائبا من عملة وطيلة شامت الاقتدار أن تمهد لهما بتزعمها .

---

(\*) The Runny مصطلح يطلق على البرلمان الذي شكله شارل الأول ملك إنجلترا بعد هزيمته في حرب الأهلية الثانية . وتوفي على رأسه شارل لمصاليه الإصلاحية للدفاع للمذهب الأممية الإنجليزية .

وتصور اتباع هاتين التورتين أيضا أن لتورتينها غاية سياسية أصلا ، وكانت المشكلة الرئيسية التي اعتقدوا أنها تواجه مجتمعها هي مصلك نوع من أنواع الحكومة هو الماركسية طورا أنه طفايا وعفا عليه الزمن - واحسوا قلقهم على حل معظم مشكلات المجتمع بخلق شكل جديد من الحكومة يسمى النظام الجمهوري الذي ساد الطن داه أكثر إحساسا صاحباحت الكافة من أهل البلاد وقطاعاتهم - على أن بعض المحللين قد رأوا فيما بعد اتجاه هاتين التورتين بالذات أساسا نحو غاية اجتماعية ، فلفقد رتب على التورتين انصافا طيبة حكاه صاعدة حديثة هي البورجوازية ، حلب محل طقة حاكمة عمقة متواحدة على طقة الإشراف والاقطاعيين - وطبقا لهذه الظرة هان التورت السياسية التي ظهرت حديثة للعلن تمتد مسطحة سسما ، ونظر إلى نوعي الحكومة ( الموناركية والجمهورية ) على أنهما من الكيانات التي أنشأتها الطقتان الحاكمتان لتثبيت سيطرتهما - وكان أفضل تحليل معروف ومؤثر ظهر في هذا الشأن هو التحليل الذي جاء به كارل ماركسي - اد أصبحت نظرتة إلى الثورة ( التي تضمنت القول بحدوث صراع متعبر بين الطبقات الاجتماعية ، وما يقبب ذلك من انشاء أنظمة اقتصادية سياسية هي النظرة التي يميل القرن العشرون للأخذ بها - كما أن الثورات التي تكهى بها عن قيام طيقة صاعدة حديثة أخرى ( البروليتاريا ) بقلب البورجوازية التي سبق أن انتصرت في انقلابي القرن الثامن عشر ، والطول محلها - قد أصبحت تصور الفكر الحديث في هذا الموضوع ، وبالأستطاعة القول بوجه خاص بأن الثورتين الماركسيتين اللتين تمحيا في إعادة تشكيل روسيا والصين تمثلان النمى الذي يرتكن إليه أغلب الاستعمال الحديث لمصطلح « الثورة » .

واتجه كثيرون من المفكرين المعاصرين إلى تحليل عمق النظرة الحديثة إلى معنى الثورة باستفاضة ، واختصر بعض آخر تحليلهم في تعريف مجمل . وجاء زيجولند نويمان أحد علماء الاجتماع البارزين ، وقد مات منذ عهد قريب ، بأحد التعاريف المقيمة ، فلفقد عرف الثورة على أنها نصى حدوث تغير أساسى كاسخ في التنظيم السياسى والبناء الاجتماعى ، والسيطرة على الملكية الاقتصادية ، والأستطاعة المهيمنة على النظام الاجتماعى ، ولذلك تدل كلمة ثورة على حدوث اقتطاع سياسى فى مجرى الأحداث . وفى اعتقادى لفة بحت هذه الصيغة فى تلخيص الراى الحديث بما فيه الكفاية بحيث يات بقدورنا الاعداد عليها - وبعد أن نسلحا بتعريف نويمان باستطاعتنا العودة إلى سؤالنا الأصلى -

فهل كانت حركة الإصلاح الدينى ثورة بالمعنى الذى قصده نويمان بالكلمة ؟ وفى هذه النقطة ، قد يعترض بعض العلماء بأن استعمال كلمة

ثورة عند الحديث عن عصر الحركة البروسنتانية يعني الوقوع في مغارقة ، لأنها تجمع ظواهر تسمى الى حقبة ما على الاضواء تحت تصور مشترك من عصر آخر . ويؤدى مثل هذا الإجراء الى مسخ الظواهر والتصور ، ومن ثم فانه يمد أكبر خطيئة لمقدور المؤرخ ارتكابها . واعتقد أن هذا الاعتراض خداع - فكى تفهم عصر ما لسانا بحاجة الى الاقتصاد على استعمال لغة ذلك العصر . ولا يحصى أنه كيرا ما ينسب لنا فهم بعض جوانب من عصر ما فى الساربع على نحو أفضل من فهم حتى من عاشوا فيه له ، بالاستعانة بتصورات ارتقت وتهذبت عند فارقوا الحياة ، فنملا نلاحظ تعوق المؤرخين الاقتصاديين للحدثين فى فهم تطور الاقتصاد الأوربي ايام القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر على رجال الأعمال الذين شاركوا فى هذا التطور ، ويرجع نقوقهم فى الفهم أولا الى استعمال تصورات مستمدة من الاقتصاد الحديث والرياضيات الحديثة التى لم تحرقها النهضة أو عصر الإصلاح الدينى . فنملا بمقدور العلماء المحدثين انشاء أدلة وجداول تبين على وجه الدقة ماهية الأسطر التى ارتفعت أو انخفضت أثناء القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وأين ؟ ومتى ؟ وتسمم هذه الأدلة غالبا من دفاتر الحسابات التى كانت مستعملة فى الاديرة والمستشفيات وغير ذلك من المرافق العامة التى تصمم جماعات من الناس . وتحوى هذه الدفاتر على بيانات عن الأسعار التى كانت تدفعها هذه المرافق نملا للغلال والتبذ وغير ذلك من الضرورات التى كانت تحرم على شرائها بلا انقطاع سبة بعد الأخرى . وكثيرا ما ضج أبناء ذلك العصر بالشكوى من ارتفاع الأسعار ، ولكن لم يكن بمقدور حتى أفضلهم تعلم انشاء أدلة للأسعار . فهل هذا يحول دون اقدام العلماء المحدثين على انشاء أدلة للأسعار ثم الاستعانة بها لتفسير الألوه المتعددة للتطور الاقتصادى والاجتماعى للعصر الذى لم يفهم معاصروه على الوجه الأكمل ؟ ان هذه الأدلة تساعد على حصيل المثال على تفسير العديد من أحداث المصيان والشغب التى ثارت عظالية بالغذاء فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر أكثر مما حدث حينذاك . ويوصى الحاجة بالقول بأن تصور الثورة لا يختلف عن تصور أدلة الأسعار ، فلذا استعمل المصطلح بحصر من قبل من يعرف ما يعنيه أو ما حدث فى المصور الأكثر فانه سيساعد على التتوير .

ويرد البنا من المتخصصين فى العصر ذاته اعتراض أكثر تعلا على القول بأن الحركة البروسنتانية كانت حركة ينطبق عليها مصطلح الثورة . فلرما جادل كثيرون بالقول بأن عصر الإصلاح الدينى لم يشتمل على أية تغيرات فى التنظيم السياسى والبناء الاجتماعى والتحكم فى الملكية الاقتصادية والأساطير السياسية ، وأن هذه الموقبل لم تقم بدور أساسى

بما فيه الكفاية يجيز تسمية الحركة بالثورة . ومن ثم فإنها لا تعد « ثورة » بمعنى تومسان . وبلاستطاعة الاعتناء الى تمثيل بصير عن عدم النظرة في كتابات الأستاذ اليوت . فقد أجعل حجه في هذه الكلمات :

« لقد شهد القرن السادس عشر والقرن السابع عشر تغيرات هامة في صيغ الحياة الأوروبية . ولكن هذه السمات حدثت داخل الإطار الطبع للدولة الموناركية الدستورية . وحدثت محاولات عنيفة من الفئات الدنيا - أحيانا - لتزيق هذا الإطار ، ولكنها لم تحرز أي نجاح باق . وليس مستبعدا أن يدلع النحوي المؤثر الأوجد لسلطان الدولة وطريقة ممارسة السلطة من داخل أية أمة تمتع بالوعي السياسي . يبقى من داخل إحدى الطبقات الحاكمة التي فلما إجمعت رؤاها السياسية بما هو أبعد من فكرة المجتمع التقليدي الذي يملك الحريات التقليدية » -

وليس من شك أن الأستاذ اليوت قد استند في عرصة لهذه الحجة على معنى الانتفاضات السياسية الباكرة في القرن السابع عشر . فهو من كبار الثقات في انتفاضات إسبانيا ، وبخاصة التمرد الذي وقع ضد الحكومة الإسبانية بين ١٥٩٨ و ١٦٤٠ ، ولكنه لم يقصص معاناة معاناة الانتفاضات التي صاحبت بدايات الحركة البروتستانتية وبواكير القرن السادس عشر - ومع هذا فالظاهر أنه يعتقد أن نتائجه تنطبق على كل ما حدث في بواكير العصر الحديث في تاريخ أوروبا .

وبوسعني أن أجادل بالقول بأن النتيجة التي اهتمت إليها الأستاذ اليوت وآخرون من يشاركونه هذه النظرة قد اتسمت بالقصص عنهما حاولت تفسير تغيرات حركة الإصلاح الديني ، لأنها أغفلت حقيقة هامة ، فلقد تجاهلت دور الأكلروس في المجتمع الأوروبي قبل حركة الإصلاح الديني . فلا يلزم أية ثورة أن تكون موجهة ضد سلطان الملوك والامستقراط لكي تصبح ثورة حق . فليس هناك ما يحول دون اتجاهها أيضا عند أية فئات مهيمنة أخرى . وكانت الفئة التي وجهت حركة الإصلاح الديني ضمتها ضمتها هي الأكلروس الكاثوليكي الروماني . ففي معظم أنحاء أوروبا قبل الإصلاح الديني ، مثل الأكلروس الكاثوليكي عتصرا هاما في أغلب التتطلمات السياسية والساء الاجتماعي ، وكانوا يسيطرون على قسم كبير من الممتلكات ، كما حضعت الأسطورة الاجتماعية السائدة لتفكيرهم . ومن ثم يعد أي تحد للأكلروس تحديا راديكاليا يجر في أذباله قفرا توريا في المجتمع الأوروبي . وفي نظري أن حركة الإصلاح البروتستانتية مثلت هذا التحدي .

وتكشف سلطان الاكليروس الكاثوليكي في أوروبا قبل الإصلاح الديني على آباء تسمى - اجتماعي السياسة - اد راول عدد لا بأس به من رجال الدين السلطة السياسية المباشرة - وكان البابا حاكما للدولة كبرى في وسط إيطاليا عاصمتها روما - وكانت هذه الدولة واحدة من أصحح القوى الخمس وأعظمها سلطانا في شبه الجزيرة الإيطالية . وللحفاظ على هذه الدولة ، وحمايتها ، تحدى البابا في جميع الانياب التي كانت تحت امره أي حاكم من الحكام الشرعيين لفنصر ، يقدم بأعداد جيش واسع ، وأشرف على واحدة من أصحح وأصلب الهبات الدبلوماسية في أوروبا ، وجمع الصراخ ، وأقام المندلة - وفي أجزاء أخرى من أوروبا ، مارس الحكام - الأساقفة سلطات ماثلة - ويصح هذا القول عن ألمانيا بآيات ، فهناك لم يكتب الحكام الأساقفة الثلاثة ميلاد الرايخ بحكم إماراتهم ، ولكنهم اشتركوا في المجلس الأعلى للإراضةستاج الإمبريالي ( البرلمان ) أي الجهاز التشريعي الذي ساعد الإمبراطور على حكم ألمانيا بمرتها ، وتوافرت للحكام الأساقفة سلطات ماثلة ، وإن كانت أقل اتساعا في أجزاء أخرى من ألمانيا ، وبالإضافة إلى ذلك ، مارس العديد من الاكليروس سلطات غير مباشرة كبيرة ، غصمت مجالس كل ملك من ملوك غرب أوروبا - من الناحية العملية - أساقفة وكاردينالات أتوا ، وهكذا رأينا أحد الكرندلة (\*) يعمل روسيا على عرش اسبانيا قبل بلوغ الملك شارل الخامس الرشيد ، وهناك كاردينال آخر (\*\*) كانت له اليد العليا في تفسير الأمور في حكومات قرسيبي الثاني وشاول الخامس وهنري الثالث في فرنسا . ولا نسى الكاردينال وولسي وكيف سيطر على حكومة الملك هنري الثامن في إنجلترا قبل بدء الحركة البروتستانتية .

وتكشفت في النظام القضائي سلطة الكنيسة لمى صورة أخرى في أوروبا ما قبل الإصلاح الديني ، فبعد القرون سنت الكنيسة الكاثوليكية بروما مجموعة قانونية كبرى أسمتها بالقانون الكنسي(\*\*\*) وفرض هذا القانون على محاكم أوروبا على نطاق واسع ، واعتد أثره حتى شمل كل ربوع القارة الأوروبية ، ويبلغ دورته في محاكم الاستئناف البابوية في روما ذاتها ، وعلى جانب من هذا القانون إلى التحكم فيما يجري داخلها حتى الكنيسة ، وإن كانت أغلب هذه القوانين قد اتسع على تطبيقها إلى حد المساس بحياة الأشخاص من غير رجال الدين ، فمثلا أختصت محاكم الكنيسة بالنظر في معظم الحالات التي تتعرض للمشكلات الزوجية ، واعتبار الزواج من القسوس في نظر الكنيسة ، بل لقد تعرضت للكثير

(\*) الكاردينال Ximenes de Cisneros (م.د.) Charles de Guise

Canon law.

(\*\*\*)

من المشكلات التي لا يخطر على بالنا اقحام رجال الدين أنفسهم فيها ، فقد اضمعننا هي الأخرى لسيطرة هذه المحاكم - وعلى سبيل المثال - كانت عمود القروض توضع بالأكراه في إحدى المقاطعات في صدام الكيسة - فكان المديون الذين يستمعون عن السداد يستدعون أمام المحاكم الأسقفية بدلا من استناعتهم أمام المحاكم المدنية ، وليس هناك ما يحول دون توقيع عقوبات روحانية عليهم كالحرام الكسبي الى جانب دفع الغرامة والسجن .

ولقد استبعت هذه السلطات السياسية والقضائية الواسعة على سيطرة اقتصادية هائلة - وكان اقتصاد أوروبا ما زال راعيا أساسا ، والأرض الخصبة هي المدخل الأساسي للإنتاج - ويملك الإكليروس أعظم نصيب من مساحات الأراضي في أوروبا - وباستطاعة قس الأبرشية التحكم في الأرض التي يدر عائدا يمشون عليه أو يستحسونه لصيانة أبنية الكنيسة - ومن حق الكنيسة والأديرة وغيرها من المؤسسات الكنسية فرض أولادتها على انطاعات كبيرة لدعم أعمال طوائفهم ، ويتسنع بهذا الحق أيضا الأساقفة وأعوانهم من أصحاب الشخصيات الهامة .

وقيل في تبرير هذه القوة الاقتصادية الرهيبة انها مقابل للخدمات الاجتماعية الواسعة التي تضطلع بها الكنيسة ، التي اشتركت أيضا التعليم - ففي العديده من أنصاء أوروبا كانت جميع المدارس ابتداء من مدارس الأبرومة الإعلادية حتى الجامعات تحت سيطرة رجال الدين ، الذين رددوا هذه المدارس بطلد كبير من المعلمين ، وجمعت الكنيسة أيضا الى احتكار جميع الأعمال الخيرية - ونمارس المستشفيات هذه النواحي عادة في لندن ، وتولى الاشراف على جميع الأعمال الخيرية عن طريق مؤسسات يشغل وظائفها رجال الدين - ونخصص للقلمس أو الرهبان دور للأقامة - ولم يقتصر دور هذه المستشفيات على مجرد رعاية المرضى ، وتلزم الإشارة الى أن المصابين بأمراض معدية كانوا يهالجون أحيانا في منازلهم ، أو يمزلون في مستشفيات وبائية خاصة - وتمتلى المستشفيات العادية بالإحاط والمسنين والعاجزين عن رعاية أنفسهم ، وبالمصابين بأمراض مزمنة وبالمفوقين . وكثيرا ما كانت تساعد على إيلاء الرافدين والرواد ، وتقدم الخدمات إليهم ، وحضمت بعض مؤسسات الأديرة . لهذا الغرض .

واستبعت جميع هذه السلطات لمي تبرير وجودها على أسطورة اجتماعية مقبولة على نطاق واسع ، تمتد جذورها الى تفسير من تقاسير اللاهوت المسيحي . هلقد اعتقد أن لدى كل انسان روحا أبدية لن تستطيع التخلص من النعمة والمصالح على الحركة السرمدية إلا بمعاونه الإكليروس .



وليس في عقول أحد قديم هذا اللون إلا إذا كان من المتبعين إلى الأكليروس الذين تميزوا تميزاً صحيحاً ، وسموا ، وقبلوا توجه البابا والكهنين من قبله في رحاب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ولحق الأكليروس حتى هذه الأسطورة ذاتها ، ووثق أن من حق المفكرين الكهنين ، ولهم نهديب معانيها ولا يحق لغير الوعاظ الكهنين الكشف عن رسالتها الأصلية .

طبيعة الحال ، لم يقتصر الهداء الموجهة ضد السلطة الكنسية على البروتستانت وحدهم ، فالحق أن جالياً كبيراً من سلطات الأكليروس قد تعرضت للتصفع والهجوم في أنحاء شتى من أوروبا منذ عصر النهضة قبل ظهور الحركة البروتستانتية ، وربما قبل ذلك ، فلقد تحدى الإمبراطور والمؤيد ما طالب به البابوات من سلطات واسعة ، وتحدى الأرستقراط الأثرياء السلطات الأقل اكتساحاً التي طالب بها الأساقفة ، بل وتحدى صفراء النبلاء السلطات المحلية التي طالب بها القسيس ، وفضلاً عن ذلك ، فإن السلطة الكنسية قد استطاعت الاستمرار في البقاء بعد ظهور الحركة البروتستانتية في بقاع كثيرة وعلى أنحاء شتى ، وفي بعض الحالات قائماً ربما بزيادة قوة وناسا . ومع هذا فحينما نشطت البروتستانت فاتهم لم يكفوا عن معارضة الأكليروس الكاثوليكين بحجة شديدة ، وباصرار كبير ، مما يجيز تسمية حركة الإصلاح البروتستانتية بالثورة المضادة للكنيسة .

وربما احتاج توثيق هذه النتيجة توثيقاً كاملاً إلى دراسة تجريبية مكثفة لتفاهم وتصاعد الاتجاه المادي للكنيسة ، وطبيعتها في مآثر أنحاء أوروبا الغربية خلال عصر الإصلاح ، ولا يخفى أن هذه المهمة تتجاوز مقدرة أي باحث بمفرده أو مجموعة من الباحثين . وأود أن أعرض هنا إحدى الدراسات ، ويتركز المثال الذي أحضرته على طائفة لوردية عاشقتها وأعرف تاريخها بحركة حبيبة ، أنها ، كاتون ، جيتيف .

فقبل عهد الإصلاح الديني ، كانت جيتيف مدينة أسقفية ضمن إحدى الامارات الأسقفية . وكان حاكمها الزماني والروسي أسقفاً ، وبين القبية والأخرى ، وبخاصة في بواكير القرون الوسطى ، زعمت أنها جزء من الامبراطورية المقدسة المركزة في ألمانيا ، بصفتها امارة كنيسية ، وليس باعتبارها مدينة إمبريالية حرة . والأهم من ذلك هو أنه في القرن السادس عشر كانت جيتيف تحتل موضعاً آمناً في المجال الحيوي لنوعية مافويا ، الدوقية التي تضم بجبل الألب ، وتضم أجزاء من إيطاليا الحديثة وفرنسا وسويسرا ، وكانت أقوى امارة في المنطقة . إذ كانت جميع الأراضي والقرى الزراعية المحيطة بجيتيف تتبع مافويا تبعاً مباشرة ، وتخضع لهم ادائها للنظام الإقطاعي المألوف ، وتخضع لأشراف قديمون في قلاع

أو دور محصنة للدفاع عن المنطقة ، ويرفضون الولاء لنوق سافويا ،  
 وأسس أسقف حسب لعمد عمود قبل الحركة الدروسسانية وثيق الصلة  
 بملائك سافويا - وكثيرا ما شغل منصب الأسقف الابن الأصغر للنوق  
 أو سقيفة - وأحيانا كان يرسم لهذه الوظيفة وهو ما زال طفلا ويبارس  
 حوزي من الكنيسة جميع سلطاته ، وحتى هذا الإجراء معنا لجنيف وصين  
 لها المصروف على مساواة سافويا ، والخطالية بدعاج جيش النوق عنها .  
 وتتمتع تجار جيف بحق حرية الاتجار في شتى أنحاء الدوقية ، وإن كان  
 هذا قد عني أيضا بدمرة الاتامه الضمنية للأسقف داخل المدينة . إذ كان  
 حضيرا الى مصبة فترات طويلة في بلاط الدوقية للإشراف على الممتلكات  
 الأخرى . أو للاضطلاع بمسئوليات نوع آخر من الدنيويات ، وللمهام  
 الكنسية داخل الدوقية . وكلف بعض الأساقفة بالهوض بمهام أخرى  
 خارج سافويا ، فقد استدعى بعض منهم الى روما للعمل في الإدارة المركزية  
 للكنيسة الكاثوليكية ، وحصل كثيرون منهم على بعض الممتلكات الكنسية ،  
 بالإضافة الى مسئولية الإشراف على بعض الأراضي التي يمتلكها الكنيسة  
 في فرنسا خارج الدوقية ، ومع هذا فقد ظل الجميع يدينون بالولاء لسلطة  
 الأسقف . وعمر التي صيرا دمرها عن هذه السلطة في الكاتدرائية الكبرى  
 المشيدة فوق تل كيو في عرة المدينة القديمة ، وفي القرن الخامس عشر ،  
 أعيد بناء هذه الكاتدرائية في صورة ضخمة ، وأصبحت زخرفتها عندما  
 تدمرت الحياة في هذه البقعة من أوربا ، وذاع صيت المدينة . وكانت  
 الكاتدرائية ترقى على بعد أميال في جميع الاتجاهات ، ولا تحجبها حتى  
 الجبال الشاهقة التي تحيط من بعيد بثلاثة من أضلاع المدينة ، وبذلك  
 تكون قد سيطرت على المدينة جغرافيا .

ويارس السلطة الأسقفية داخل جنيفد مجلس أسقفى يضم بين  
 أعضائه واحدا يحصل لقب الخوري ، ويرأس المجلس عند تنصيب الأسقف .  
 ويضم هذا المجلس أيضا مأمورا من رجال القانون مسئولوا عن الإشراف  
 على سير العدالة في الناحيتين المدنية والجنائية . ويشارك في المجلس  
 الأسقفى معاونون آخرون . ويضع هذا المجلس بين المهام الإدارية والمهام  
 الأسقفية . واعتمد الأسقف فيما بعد في حكم جنيف على فريق من رجال  
 الدين يشكلون مجلسا يضم ٣٦ فردا جميعهم يحضرون على وجه التقريب  
 من العائلات البارزة من إشراف سافويا . وبناء هذا الفريق كأنه صورة  
 متمثلة من الطبقة الحاكمة في سافويا التي كان يرأسها أحد أبناء أعظم  
 العائلات مكانة ، ويشارك في العضوية كثيرون من أبناء العائلات الأقل  
 شأنًا من الأشراف . وحصى لكل واحد من هذا الفريق بيت فاخر بالقرب  
 من كاتدرائية جيفد . وعندما يخلو مكان فاته يشغل بوساطة رجال  
 الدين النسبهم عن طريق الانتخاب . وتتركز مهمة هذا المجلس على اختيار

أسقف جديد عند وفاة ساعل هذه الوظيفة أو استقاله . على أن هذا المجلس كثيرا ما رأى اختياره ضرب بها عرص الحائط عند عرضها على البابا الذي كان يتمتع بحق التصديق على اصحاب الأسقف ، وفي حالة حيف ، فقد احفظ البابا بحق الاحيار النهائي له . وتمكس انتحاب مجلس الأسقفة وأعضا الاحبار النائية للبابا المضبوط الساسية الجديدة التي كانوا يتعرضون لها من السلطات العلمانية المخاورة - وجاء هذا الضبط أساسا من دوافع ساقويا ، ولم يكن من المسمد التعرض للضبط أيضا من الباب المالك في فرنسا ، ومن كاثوليك سويسرا .

ويتمند الأسقف في ممارسة مسئولياته الروحية على قس مرسين . وكان هناك مئات منهم في حيف في الحقبة السابقة للإصلاح الديني من بين عدد السكان الذين تجاوز عددهم عشرة آلاف نسمة ، ويسم هؤلاء القسس دتيوبس معظمهم ملحق بأحدى الأبرشيات السبع في المدينة . ومن بينهم أيضا الكلروس نظامي أغلبهم من طوائف الاسجدائين ( المذكيين ) يقيمون في سعة أديرة تقريبا - ولقد شيد أحدث هذه الأديرة في القرن السابق لحركة الإصلاح لايوه طوائف السلك الأسطيني وراهبات « كلير » القديرات .

وسمح الأسقف بعض سلطاته العامة الشعب حتى تسمى له ممارسة مسئولياته الروحية . ويشرف أحد المسئولين على أطلق عليهم اسما غير مألوف (٤) على تحقيق العدالة لعامة الناس في القضايا المدنية والجناية على النسوة . وفي الفترة التي سبقت الإصلاح الديني . تدارل أساقفه حيف عن حق اختيار هذا الموظف المسئول لحكومة دوقية ساقويا . وكان « العدوس » وماويوه يعيشون في قلعة على جزيرة وسط نهر الرون تقسم حيف إلى قسمين ، وترمر هذه القلعة في مسوره واضحة للمبان الى سلطة ساقويا داخل المدينة . وسمح الأسقف بعد ذلك لعامة الناس في حيف بانتخاب ممثلين لهم للمساوكة في الحكومة المحلية ، وأهم هؤلاء الممثلين المختارين أربعة من « السنديك » يخارون كل عام من قبل المواطنين المذكور لحماية تدعى « بالمصح العام » . ولهؤلاء السنديك الحق في شغل وظائف القضاة في المحاكمات الجنائية التي تدسم بالأهمية ، والتي يحبلها القندوس اليهم للنظر في أمرها . وسجل هذا الحق كتابة الى جانب حقوق عديدة أخرى في ميثاق حر بات حيف وأعلنه أحد الأساقفة ١٣٨٧ . وكانوا يتوقعون قيام كل أسقف لاحق بالتعهد بالحفاظ على هذه الحريات عند توليه مهام منصبه . ويختار السنديك

أيضا مجلسا يدعى « المجلس العادي » أو « المجلس الصغير » ، ويألف من خمسة وعشرين شخصا ، يلتقون اسبوعيا على الأقل للظفر في المسائل المحلية . ويضم هذا المجلس سديكا وتجارا من حيف من ينتمون بالصفة الحرة ، وبعضهم من اصحاب الجرف ، وحرر العادة على اختراعهم من بين كبار السن . ومن الشخصيات والصفة القدم ، حتى ينسب لصانع الس من أبناء العائلة والمساعدون من غير أشغالهم . ويحال الى هؤلاء الأشخاص مسائل من ذات حصة محلية صرفة ، ويكلفون بالسير على سلامة أبواب المدينة وخنادقها وصيانتها ، ومراعاة وصولها بكفى من أمانة لتدوير المدينة ، وبحريتها بحايه ، ونظافة الطرقات . وعليهم أيضا الاشراف على حياة الضرائب المسحقة وصرفها ، الى جانب الاشراف على مؤسسات مختلفة ، تعليمية وصحية .

وفي هذه النقطة الأخيرة ، يجب تفاعل مرة أخرى من السلطة المدينة والسلطة الرسمية ، لأن معظم من كانوا يشغلون المؤسسات التعليمية والخيرية كانوا من رجال الدين . ولقد مارست الكاندينة هذه اعداد رجال الدين لفترة طويلة . وفي القرن الخامس عشر ، أنشئت مدرسه مستقلة لتعليم عامة الشعب ، وكان مجلس المدينة يمولها ويشرف عليها ، ولكن المعلمين بها كانوا يختارون عادة من الاكليروس . ولقد سحت المدينة حتى اشد حاسة ، ولكنها لم تقدم على ذلك منذ عهد المستشفيات السبعة بالمهام الخيرية . ولقد أتى معظمها بفضل عبات الأثرياء وتركاتهم التي وهوها للتكفير عن ذنوبهم ولتقديم العون للفقراء . والواقع المالي للمستشفى هو بيت أحد الناس الى الله ، وقد يختار لها أحيانا احدى الأمور التي تبيع ممتلكات الوعد الحرة ، ويتولى احد القسيس الميسون فيها مهمة ادارتها . وقد يكلف بأقامة مداس على روح صاحب قبل تشييد هذه الدار وعلى لرواح أبناء أسرته . وقد يعاونه أحد الأشخاص (\*) ويكلف بتقديم العون للفقراء . وحررت العادة أن يعين بالدار عشرة أو يزيد من الفقراء ولصيف من المتأمن والموقوفين وكبار المسنين . وامتداه من منتصف القرن الخامس عشر ، أثرت على هذه المستشفيات مؤسسة تتبع مجلس المدينة ، وتولت عملية الاشراف عليها وتزويدها بالاحتياجات من موقوف اعماداتها لمعاونة الفقراء الذين قد يسمح لهم بالإقامة في دورهم . وإلى جانب ذلك ، كان المدينة مستشفى للأمراس الوبائية مقلدة خارج أسوار المدينة ، وبالقرب من المدافن للمصابين بأمراض معدية خطيرة . ويعمل بهذا المستشفى كاهن وطبيب والمعيد من الختم .

(\*) Hospitaller لها معنى الشيف .

وتضم المدينة أيضا مصحين لمرضى البرص خارج أسوارها لضحايا هذا المرض .

وكأن من الواجب أن يكون الأسقف مسئولاً عن رعاية الأخلاق العامة . ولكنه كان نادراً ما يهتد بهذه الناحية . فلو كانت جميع في عهد ما قبل الإصلاح الديني بعض دأبنا بالمعاصرات قدسوه عن الحار الراترين والاكندروس الماحرين عن الوقف بعهد البنتل . . . وناددا ما يدل أى جهد لإزالة المومسات من المدينة . وبدلاً من ذلك رثى تكلف مجلس المدينة بالإشراف عليهن ، وطلب منهن في بعض حالات بالانظام دى شكل نهارة وانتخاب من يدعى « بالملكة » لتمثيلهن في المعاملات الرسمية . وطلب من المومسات أيضاً العيش في موقع مخصوص من المدينة . وإرباء دى مسر ، والاقتصار في تمثيلهن على الأوقات مخصصة وأماكن محددة ، وبطبعة الحال ، إذا تطلبت إحدى المشكلات الحسية أو الروحية تحسلاً قانونيا . كانت المحاكم تدعى اسمها « للاصطلاح بإواجهها » وتحتض محكمة الأسقف بالنظر في مثل هذه الحالات .

وتمول منشآت الكنيسة في حسب من مصادر شتى . فكانت ممتلكات الكنيسة والصرايب داخل المدينة تزود بجانب من الدخل ، ويرد قدر كبير من الدخل الإضافي من إيرادات الممتلكات المنتشرة وسط الأراضي الزراعية المحيطة بخنيف والتي تنتمى انتماء مباشراً للأسقف . ويشرف على جميع هذه الجوانب موظفون أسقفيون يراعون انتظام الأحوال في كل قرية من قرى الريف ، ويراعون أيضاً بعض التماسوسة المحليين بمراعاة الاحتياجات الروحية للقرويين وانتظام سداد مستحقات الأيثار والصرايب للأسقف .

وفي أعقاب حركة الإصلاح الديني ، تحولت حسب إلى « مدينة - دولة » علمانية وطرد الأسقف وجميع موظفيه ، بما في ذلك المليون بمعرفة دوقات سافويا . وأرغم رجال الدين جميعاً على الرحل ومتأدرة المدينة أو اعتناق الروتستانتيه ، والتخل عن الوظائف الكنسية ، وحررت الحكومة الجديدة الكنيسة مما يكاد يقرب من كل ممتلكاتها داخل المدينة وفي الريف . ووضع الكثير من الخدمات الاجتماعية التي كان يتولاها رجال الدين لانتظام العلماني ، وأنشئت كنيسة حديثة تتبع حركة الإصلاح الديني للإشراف على الاحتياجات الروحية للأهالي . ولكنها خصصت خضوعاً تاماً لحكومة المدينة . وتولى عملية تسيق جميع هذه الإجراءات تحار من عامة الشعب وبعض أصحاب الحرف في جنيف بإقامة السنديك المنتخبين وأعضاء المجلس . وبدأت هذه التغييرات في عشرينات القرن السادس

عشر بعد عملية صوبت اشترك فيها جميع الدكوير من المواطنين هس ابلوا  
وامهم في مسألة اتباع حركة الاصلاح الديني الروسي ساسي . ولم نمرز  
قوتهم الا بعد سنة ١٥٥٥ عندما حوّل كالفان المدير الجديد للحياة  
الروحانية نصف نهرًا حاسيًا ومعلب على المعارضة المحلية .

وبدأت حركة الاصلاح في حنف كنسرد صد حكومة الاسقف وحلفائه  
الساكنين . وسنًا فسنا ، اسبولى السديك ومجلس المدينة على  
السلطان الذي كاسب حتى ذلك العيد خاصته للحكومة الاسقفية كحائب  
من حوّل مبادئها ، قل أن سبى الأمر بتحويل الاسقف من جميع  
سلطانه . وكانت أول السلطان التي اترعت منه هي الانراف على  
المباشرة الخارجية ، وسطعة الحال - طالب الاسقف بهذا الحق البالغ  
البدقة من حقوق سيادته ، فمضت تمنه بالمسادة على حنف كان يشرف  
يصفه مباشرة على علاقة المدينة بالحكومات الأخرى . وعندما تحالف هو  
وبنت سافويا ، اكتسبت حكومتها حق السجدة باسم حنف . أما الآن ،  
فقد بدر السديك ومجلس المدينة بفتح باب المفاوضات مع الحكومات  
الأخرى . خصوصًا حكومات « المين - الدول » الجرة في الكونفدرالية  
السويسرية ، وكانت من بينها دول أقامت علاقات تجارية بينها وبين  
حنيف منذ أمد بعيد . وكان التجار الذين يتعاملون هم والسويسريين  
أصبحوا اهتمامات محللة على احتمالات من يتعاملون مع سافويا .  
وساعتت هذه الحقيقة على أحداث انقسام في الرأي ، فكان هناك فريق  
مؤيد لسافويا وفريق آخر مؤيد لسويسرا . وعبد هذان الفريقان الى  
التشاحن من أجل السيطرة على المجلس . وعندما انتصر الجناح المؤيد  
لسويسرا في الحركة سعى لتعريف سلطانه بالتفاوض من أجل عقد تحالف  
مع دولتيه من أقوى « الدول - المين » المحاورة لسويسرا . فرابورج  
وبرن . وبعد عدة مبادرات زائفة ، وقعت مع هاتين المدينتين في نهاية المطاف  
معاهدة ١٥٢٦ ، واستجبت فرايبورج من التحالف بعد ذلك بعدة سنوات  
أثر نزوع برن الى اعتناق البروتستانتية ، وبحثت حنف موقفها من  
البروتستانتية . غير أن برن استمرت خليفة مؤازرة لحنيف ، وحقق  
هذا التحالف أهمية ملحوظة لأن برن كانت من أقوى القوى العسكرية في  
المنطقة . هذا هو العهد الذي ارتفعت فيه قوة سويسرا الى أوجها . وكانت  
القوات من مشاة المرتزقة السويسريين يستأجرون من قبل الحكومات  
الملكية في شتى أنحاء أوروبا لسد القصور في جيوش هذه الدول عندما  
يشعل أوار الحملات العسكرية . وكانت برن من أهم مراكز التعميد  
لتشكيل هذه الجيوش . وسبارة أخرى ، كانت برن قادرة على تعييد  
جيش قوى لأغراضها الخاصة . يتمتع بقوة تكفي لهزيمة جيوش ثوقية  
سافويا إذا اقتضى الأمر ذلك .

واحج أهل مافوقا احتجاجا شديدا ضد هذا التحالف . ووصفوه  
 باغتياب السلطة السيادية التي يحض الأسقف . بيد أن صر دي لايرم (١)  
 الأسقف المرفوض على هذا التصب لم يساعد احتجاج مافوقا . فقد  
 احتلف هو والقبول في هذه المسئلة رغم المواق التي أصابها في  
 حاسنة . وحاول أن ياسب لجنة مستقلة . ففي أثناء ساحة بصفه منصبه  
 مع مجلس المدينة . سارل ليدا للجلس عن حق توقيع معاهدات التحالف .  
 وحسب ذلك ١٥٢٧ . وحاول أيضا الانحياز لأحد طرفي المعاهدة . ورفض  
 أهل برن تصام الأسقف للتحالف . فاضطر إلى محاولة إبطال تناوله .  
 ولكن الوقت كان قد فات .

وكانت السلطات الأسقفية الاله التي اسوئ عليها مجلس المدينة  
 هي حق الحكم في الاحداث القضائية . وهذه ميز ذات أهمية خاصة  
 للسيادة . وكان السميديك قد كسبوا بالعمل منه وقت يأكو بحكم متنا  
 ١٢٨٧ حتى العمل كقصة في بعض محاكمات جنائية خاصة . غير أن القبط  
 على المحرمين من عامة الناس . وتنفيذ محاكمتهم ظل في أيدي القديسين .  
 وموظفيه . وكان الاكليرومي المتميزون بارتكاب جرائم يعاقبون بواسطة  
 الموظفين الرسميين . وفي محكمة الأسقف أيضا . أما جميع القضايا المدنية  
 فتنتظر أمام القديسين أو أمام الموظفين الرسميين . ويتعين الرجوع في  
 جميع القرارات إلى الأسقف . وأول هذه السلطات التي انتقلت من  
 الأسقف إلى مجلس المدينة هي حق الحكم في القضايا المدنية . وأقع  
 المجلس الأسقف بالتنازل طوعا عن هذا الحق . عندما كان يسمى حاهدا  
 لتهديته المدينة وبيل مسابقة المجلس . وبصورة أخرى . لقد تنازل الأسقف  
 عن بعض سلطاته التي كانت مارس من قبل سكره القديسين والرسميين .  
 وأثار سارل القديسين عن سلطاته عاصفة من الاحتجاج من أهل مافوقا .  
 بالنظر إلى أن الأسقف كان معينا من قبل حكومتهم . وعدل الأسقف عن  
 رأيه مرة أخرى . وحاول انكار تناوله . ولكن الوقت كان قد فات هنا  
 أيضا . وبدلا من ذلك اتجه مجلس المدينة إلى الحصول على المريد من  
 السلطات القضائية . ومنعت جميع التماسات امتثال الأحكام أمام  
 المحاكم العليا خارج حيف . وعهد إلى السميديك تنميط الأحكام الجنائية .  
 وأخيرا أُنشئت محاكم مسابقة منتجة حديثة للإشراف على الاحداث  
 ائتمانية والمطر في جميع الجبايات . وما أن حانت سنة ١٥٣٠ . الا وكانت  
 جميع السلطات القضائية التي سبق أن تبعت الأسقف واعوانه . قد  
 انتقلت إلى الحكومة المنتخبة للمدينة . وربما يكون يبردي لايرم قد سعي  
 لاستعادة هذه السلطات ١٥٣٣ . عندما حاول الرجوع إلى المدينة شخصه

بعد عيسى بن دويحي قس. قبل فيه قس مرقوق يدعى قرقي ( يوصف ثلاث  
نقاط فوق الفاء ، وأبدي المجلس استعداده للمدعي القابل للمحاكمة  
ولكنه وقضى مديحاً آخرين ممن ظن الأسقف أنهم يستحقون العقوبة .  
ثم عادر المدينة ولم يعد إليها ثانية ، ولم يمض وقت طويل حتى قتل  
محتسبه كلها إلى المدينة المجاورة ، لحكس ، وعادر قس من القسس أيضاً  
حسب حلال هذه السواب التي ثارت فيها الاضطرابات ضد المشرعات  
المناصرة من السلطات القسائية .

وفي ذات الوقت ، بدأت البروتستانتية تنقل في جيف ، ودخلت  
هناك بعد تصحيح قوى من برن ، التي كانت قد اعتصمت المذهب  
البروتستانتي ( الناصح لمصطفى ) ( ٢ ) قبل ذلك ١٥٢٨ - ورغم حملة  
دفع جيف لاعتناق البروتستانتية واعطى قس من مذهب الحساس يدعى  
حيوم فازيل ( ٣ ) ، الذي رار جيف حملة مرات حلال هذه السواب رغم  
المعارضة الشرسية من زعماء الدين المحليي . وأحدثت موانع فازيل  
النوفاة ويوسلانه لرأى السلام مرحاً ومرحاً بالمدينة ، وشاع العصيان  
ضد الرموز الكنسية ، وحطم الموعظة من الصبية والعصان مداخل الكنائس  
والنماثيل الدينية والمخططات المقدسة ، ورجاج النواقد العلوية وكرزت  
حوادث مفاطمة الضعائر المدنية الكاثوليكية ، وأحراج الوعاظ أثناء الفاء  
عظائهم بإتارة عدة تساؤلات دقيقة في تفسير الكتاب المقدس ، واستعمل  
البروتستانت على بعض الآبية السكية وبخاصة الغير العرستسكي ،  
وأقاموا فيها شعائهم ، وأشرافوا على النواحي المقدسة فيها لمناصرة  
القسس المحليي . وأجرا أقيمت ١٥٢٣ مناظرة بين مجموعة من القسس  
البروتستانت ( الرعاة ) وقلة من القسس المحليي ( ودافع كنبرون من  
الاكليموس الكاثوليكي هذه المناظرات ) ، وزعم البروتستانت أن المناظرة  
أصغرت عن انتصار ساحق لصالحهم ، وأن أهل المدينة قد بانوا مقسمين  
الآن بصفة نظرائهم ، وطالبوا بأن تنبع المدينة نظاماً شرعياً يساعد على  
توطيد نظام للشعائر يمثل حركة الإصلاح . وبدأ وكان كثيرين من أعضاء  
المجلس ميالون للأحد بهذا الاقتراح . غير أن المجلس في حملته لم يرغب  
في اتباع مثل هذا الاتجاه المانع ، وأمر محليي القدامات الكاثوليكية  
لحين حل المشكلة حلاً كاملاً .

واقترعت هذه الخطوة معظم الاكليموس الكاثوليكي الذين استمروا  
في البقاء بالمدينة بأنه لم يعد باستطاعتهم مواصلة البش في مثل هذه

(\*) Ulrich Zwingli ( ١٤٨٤ - ١٥٢٩ ) معلم ديني بروتستانتي سويسري .

(\*\*) Guillaume Farel ( ١٤٨٩ - ١٥٦٥ ) معلم ديني بروتستانتي فرنسي .



الظروف ، وعاد عدد منهم جثث بالفصل بعد استمرار الاضطرابات السبعية والاربعاء او بعد القس على كثيرين في مؤامرات وجهه ضد الأسقف . وبحل فلول منهم على وظائفهم الطماسة ، بل وأقعدوا على الزواج ، وفي ١٥٣٥ ، بعد مساحبات طاحنة ، غادر رجال الدين الكاثوليك حبيب ، وكان بينهم حوري الأسقف وأغلب الماعلين بالكليسيه وقس الأبرشية الرهبان والراهبات - وأمر حجة من القس على أنصروا على القسا بصارحة المدينة ، أو مسائره عاليم التروسمات وحضور المواقف البروتستانتية بانتظام ، وأعلنت القلة التي ظلت نافية من جميع الواجبات الكنسية .

وما أن غادر معظم أعضاء الكالروس المدينة حتى استولى المجلس على جميع محضات الكنيسة في أحياء المدينة والريف التي سبق توطئها الأسقف إدارتها . ومنغل وبيع بعض الممتلكات لدفع الديون المستحقة لمر نظير أعمال الدفاع ضد ساقويا . وحضره الباقي للأعمال البحرية وأشبه مستشفى عظام جديد في النار التي كانت مخصصة قبل ذلك كدير للرهبانيات الموزات (٤) . وتجمع للاقامة في هذه الدار موظفون من بينهم المدير الإداري والمدرس والطبيب وبعض الحدم . وعنت الحكومة لحنه حاسة للإشراف على أعمال هؤلاء الموظفين . وهكذا اضطبطت أعمال البحر في حصة بالصيغة الطماسة القلاية ، وفيها بعد ، عهد كالغان هؤلاء العلماء بمسئولية إدارة المستشفى العام ، ومراقبة أعمال اللجنة الاستشارية ومكتب المدير العام . ومع كل شيء لقب شعاع ، ولكنهم ظلوا علمانيين لم يرسوا كنس أو يتدبروا على أعمال القس .

وتول المجلس عملية صك العقود والإشراف على عملة تبادل العملات ، توكيدا للسيادة التي حصل عليها . وحمل البعد الجديد شعاعا حري فيه بعض المعدل ما حملا محملا عن الشعاع القديم الذي كان سائدا في ظل الحكومة الأسقفية . فقد مثل هذا الشعاع البعد الذي دعمت إليه حركة الإصلاح لضم الصغرى : « البور بعد الطمات » (٥٥) .

وبطبيعة الحال ، أدت هذه التحولات إلى برايد الشعور بالامراعج عند الأسقف والحكومة الدوقية لساقويا وعائلات الإشراف بها وفي المنطقة المحيطة بجيب . ورأى الأسقف سلطانه وثرواته وهي تنهد ، كما رأى الدوق طماته في المدينة تنأثر في هيب الريح . ورأى الأشراف اقرباسهم من رجال الدين وهم يتعرضون للأمانة أو البنى . وحدثت

From Clara.

(٥٥)

From Ambrosius Jure.

(٥٥)

صفوط عسكرية كثره على جيب لايفاف ما بحرى من أحداث ، وبعثت جماعات مسلحة من اسراف ساقويا بسنجح من القوى والإسقف إلى بيت الريب وتحرير الامجار بالسلم الحيوية لاقتصاد المدينه . مما صب بجميع الهدا ، ووضع قواعد تنظيميه ليوومه . وفى ١٥٣٥ . كاتب المدينه محاصره بالعمل . وتوسلت حسب طالبه المساعدة من جيشه جهابذ واحيرا أقبعت سلطات حلفتها وبرزه بانقاذ احرارها فعاله ، وتقيم حشر صمم عددا لا يأس به من الرجال من السبل الكبير الى التماس . ولم يكن بمقدور أهل ساقويا القيام الا بالقليل لصلده ، وتجمع جيش برون فى الاستيلاء على جميع اراضي ساقويا ، والاقليم المستغل المحيط بجيب ، بل وحاولوا الاستيلاء على المدينه معها . ولكن سلطات جيب نجحت فى ردهم على أعقابهم .

وبعد أن فرغتم يرونه صايتها على حنيب مكنت من البحر وشق طريقها نحو الإصلاح الدينى . وفي اجتماع خاص للمجلس العام عقد فى مايو ١٥٣٦ ، احدث الخطوة الأخيرة ، فبعد عملية الاقتراع ، تقرر أن تسبح المدينه عند ذلك الحين فصاعدا الكتاب للقدس وكله الله كما كانت تتردد بعد توقف إقامة الهداس . وفى اقتراف مال ، صفوط قرارات بالوقوف عن السباح فى المدينه بالهداسات وتطبيق الصور أو نصب الاوتان ، وغير ذلك من البدع البابوية .

وأنهى هذا القرار سلطه رجال الدين من جيب ، ولكنه لم يؤد فى الحق الى اضمه كسمة يروستانية . وبدلا من ذلك ظهر فراغ اسم بالاضطراب والخطوره فى حقه شعر فيها جميع الاوربيين بروح الهافهم وحصح صفوفهم حول شكل ما من الايديولوجية الدينيه . وحاول ه فازيل ، ابرز الوعاظ الدين اقنوا جيب بالتحلى عن الكاثوليكية بانسا على هذا القراع ، وشاء حظه الموفق أن يختار كمساعد رئيس له أحد الهيومايين من شباب الفرسيين السابقين ، الذى كان يشغل مكانا . وتصادف موزره عبر جيب بعد بضع شهور فحسب من القرار المصيرى للتحول نحو البروتستانتية ، انه جون كالفان . وكان حديث العهد باعتناق البروتستانتية ، وهرب من الاضطهاد الدينى فى موطنه الى بازيل . وهناك ألف وتشر كتاب مؤسسان الديانة المسيحية . وبعد هذا الكتاب فى طبعاته الأخيرة المزيد أهم خلاصة للمذهب البروتستانتى ظهر فى هذا القرن . ولم يكن كالفان قد أعد المدة للإقامة فى جيب ، ولكن فازيل حاول اقناعه بأن ارادة الله هي التى شامت اقامته هناك والمساعدة فى انشاء كنيسة بروتستانتية بها . وعين كالفان محاصرا عاما فى اللاهوت - وبالرغم من هذه المقاومة ، فقد اكتشف فازيل صعوبة تنظيم

كنيسة برونسمايه . وامريك فاريل وكالفان رهاه سبي في الدعوة  
 لفقده المسجدة ، كما رأت لهما ، وحاولا بجهديهما - وقتما - في  
 المنحصر بوضع شعائر وحناب طقوسيه تمثل الإصلاح الديني والمؤسسات  
 الكنسية . واكتسبا صبوة السيطرة على السلوك ، باعتبار هذه الساحة  
 أصعب من اقناع الكاهن ببعض معتقداتهم . وقال كالفان فيما بعد انه  
 عندما وصل لأول مرة الى حيف - كان الكتاب المقدس يثني في المطالب .  
 ولكن الأحوال كانت شديدة الاضطراب . او كان الكتاب المقدس يعتمد  
 في الأغلب على ما ذكر فيه عن تحطيم الأوثان . وكان هناك شرار  
 عدديون . وسعر فاريل وكالفان بالاحباط من تصرفات أهل حيف  
 لرقصهم الاجتماعي عما اعتبروه طغيانا كسبا كاثوليكيا بأصفاد  
 البرونسماسيه . وأخيرا انتهى الأمر بإيجاد فاريل وكالفان من المدينة غير  
 مأسوفه عليهما .

وهكذا أصبحت حيف تترسح الآن بلا أي زعامة كمية تستطيع  
 احرامها . واعتقد بعض في أحمال عودة المدينة الى الكاثوليكية . وكتب  
 الكاردينال المنحصر مادلينو (٩) من كتاب رجال الدين بروما ويشعل  
 رئيسا لاحدى أموشات جنوب فرنسا بسبب أهل حيف على الحرص  
 قبل قول هذه الإمكانيات . واعتقد آخرون أن المدينة قد تحررت بحر  
 أحد الانحساب الدينية المريبة . وأصبحت هذه الحقبة التي سادها  
 الاضطراب عندما دعي كالفان وحده لتولي الزمام . ولقد أفام في  
 استراسبورج ( الألمانية حينئذ ) حيث نصب راعيا مقدما للأحياء  
 العرسين ، وعرف عن الرجوع الى حيف ، وطرح شروطا صارمة ، وطلب  
 هذه الشروط . وأخيرا في ١٥٤٩ ، عاد مرة أخرى وبقي في حيف حتى  
 وفاته ١٥٦٤ . وهناك أنشأ كنيسة برونسماسية ، أثبتت أنها نموذج  
 للبرونسماسية في معظم أنحاء أوروبا وأمريكا .

وحقق كالفان وحده هذه الخطوة البارعة اعتمادا على الانسحاب  
 المحسوس . فلم يعرف عنه أي المام بالقانون أو الممارسة القانونية . كما كان  
 الحال في عهد الأسقف الكاثوليكي المحنوق . ولم يكن يتحكم حتى في  
 فلس واحد من الموارد المالية التي يملكها أي من من القمم الكاثوليك  
 في الكاتدرائية . وظلت السلطة السياسية في يد المجلس المنتخب  
 والسيدك . ولم يرد كالفان والرعاة الآخرون عن موظفين في الحكومة  
 البلدية . ومورد ردتهم الأربعة هو للرسائل التي يتفاوضونها من المدينة  
 وأغلبهم يفهم في دور تملكها المدينة . وكان عددهم أقل كثيرا من عدد

(\*) Sadleira (١٤٧٧ - ١٥١٧) - ( جاكوبو دي جاك ) .

الكهنة الذين حازوا محبتهم قام بروء عاندهم جميعاً عن سعة رعاة في  
 تأمل ١٩٤٥ من الكهنة . وأنهم يرفع هذا العلم إلا بعد تسع عشرة سنة  
 ( ١٥١٢ ) وهي السنة التي باب فيها كالماء . وبالإضافة إلى ذلك ، فم  
 سجن - وفي ملازم من يتبرعوا في اللاهوت البروستانتى وطائفت هنل  
 الرعد والمحدثين والبريين . ولكن المذبح الكلى لتهولاد الأشخاص كان يهن  
 على مناب حال الدين الكاثوليك الذين سئموا في حيف في عهد الأسقف .  
 رائى بجانب ذلك ، قام يسوع بأحد من الأكثروس البروستانتى بالمصنول  
 على المراكبة الكاملة في حيف ، فبعد برايد ارباب المدينة في الصفوف  
 الإيجابية هنا دونهما إلى عدم معج المواطنة بجميع حقوقها ( كحق التصويت  
 وحق - كل الوظائف ) إلا للرعايا البولودى في المدينة . وكان جميع الرعاة  
 من ليماجرين . وأنماهم من الماجرين من فرنسا ، كما حلب في حاله  
 كالماء . فلا أحد من أهل حيف قد تمكن من يحصل نوع التعليم  
 المتقدم الذى قرر المجلس اعباره شرطاً أساسياً لشغل هذه الوظيفة .  
 وحصل قلائل من الرعاة على لعب « بورجوارى » في حيف . وهى من  
 المراتب « المتوسطة » التى يسمح الصحن بوجها الكثير من الحقوق  
 السياسية والعبارة . ولكنه لا يسمح المواطنة الكاملة - واعترف يكافان  
 كأحد البورجوازيين . وإن كان هذا لم يتم إلا مرابة انتهاء حياته .

إن هذا لا يعنى أى كالمسان وغيره من الرعاة لم يتمتعوا بسلطات  
 سياسية ذاتية بل فى حيف . ولكن مثل هذه السلطات كانت تمارس  
 دائماً على نحو غير مباشر بالعمل - عادة - فى مجال الرعايا أو الاستشارة .  
 واستعان كالمسان بالمناجحين لكسب أعظم سلطة لنفسه . فبعد غذا واعطا  
 بلنفا ، دفع الجميع لاحترامه . حتى إذا لم يل محبة مستمعته دوماً .  
 وتساين هذه الصفات تبايناً ملحوظاً وصفت عديدين من أسلافه من  
 الكهنة الكاثوليك وأوائل الرعايا البروستانتى - كما أنه غذا من  
 المشياريين النسطم الأعداد لحكومة المدينة . واكتسف المجلس التبع  
 الكبير لتصلعه كمحام متمرس ودرائته العائقة بالمسائل السياسية الدولية  
 الكبرى . وكثيراً ما كان يستدعى للاستشارة ويؤخذ غالباً برأيه .

ومن أول محزاته لدى عودته إلى حيف ١٥٤١ . إصدار شريعات  
 بمنح الكنيسة البروستانتية الجديدة صفة الشرعية . وكان حقه فى  
 تحقيق ذلك شرطاً من شروط الصفقة التى أدت إلى عودته . وبعد بعض  
 مشاورات وبعد أن أجرى حصص التعديلات تحولت هذه المشروعات إلى  
 قوانين تتولى الحكومة تنفيذها . وفى النظيم الذى وضع لكنيسة حيف ،  
 صنف القسوس فى أربع فئات . وأنشئت أربع مؤسسات تختص كل منها  
 بجانب من أعمال الكنيسة وهذه الفئات هى : أولاً - الرعاة الذين يدعون

الى كلمة الله والاستراخ في القربان القدس ، ثانياً - الدكتوراه الذين يدرسون  
كلمة الله ، ويمارسون التدريس - ثالثاً - آيالة الكنيسة الذين يحافظون  
على الانضباط في آيالة الطائفة ، وأيضاً - النسماسون المسئولون عن نظم  
أعمال الخير .

وورع الرعاة على الأبرشيات التي أسست قبل عهد الإصلاح الديني ،  
داخل المدينة وقرى الريف التي تديرها ، وقلها وحده عند كافي من  
الأمخاص وما يكفي من الثلث للاملاك على هذه الأبرشيات واليوماء  
بأشخاصاتها . غير ان بعض الاحراقات قد انتخب لسمس تيرغ جميع  
الأفراد بما يجودون به للرعي . الذي يركز مهمه على اعلان كلمة الله .  
كما عر عنها كالماء من قوى مابر الأبرشية . وطولب الرعاة أيضاً  
بممارسة الطموس التي اعرفت بها وبصحتها كيهه الإصلاح . وافرت  
بستقامتها للمعيد والقربان القدس . ونظم الرعاة في مجموعات ،  
وسمي كل مجموعة بالمسرة (أو الصفحة ٢٠) . ورنى النقائرها اسوعيا  
لتصريف شئون الكنيسة الروميه وللنشاط في اللاهوت وتبادل  
الاستعدادات في أيام المعتبة . وكان كالماء بصططع بدور الوسيط في  
جلسات الصفحة حتى يوم وفاته . ولعلها أسمى مرسة حظي بها في  
صيف . بالإضافة الى تجوذه بدور أحد الرعاة في أبرشية كاتدرائية  
القدس بيم . وكان يخطب بين القسة والأحرى في أقرب كنيسة وهي كنيسة  
انادلي . حيث كان يحضر الشعائر كنوع من تجار المدينة . ويحتار  
الرعاة جميعاً بالانتخاب . وتصلح حياطة الصفحة على التسمات الحديثة  
غير أن الاحياز لا يعد نهائياً الا اذا أقره مجلس المدينة . وبعد عرضه  
على الأبرشية التي يمين فيها . واحتفظ المجلس لنفسه بحق رقت الراعي  
دون ماين اذار . اذا رنى عدم وصاء المجلس عنه . ولقد رقت عند مهم  
وعرى ذلك الى تهجمهم على أعضاء المجلس ببعض عبارات نفوهوا بها أثناء  
الخطبات .

وفي البداية لم يكن هناك أكثر من واحد يحمل لقب الدكتوراه .  
وهو كالماء . الذي كان الى حاسب واجباته الرعوية . يمين وعنا لا بأس  
به في الكتابة والقراء المحاسرات على الكتاب المقدس . واحتذيت محاضراته  
مثات من صبار المنقفين للمحسسين من شتى أنحاء أوروبا . ولم تحذ هذه  
التعاليم طامعا رسميا حتى ١٥٥٩ . أي في وقت مفانز تسميا من حياة  
كالمان . وفي هذه السنة . أنشأت حنيف أكاديميه حديثة لتدريس  
اللاهوت في المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية . ولم نحم كالأقان بالطبع  
في هذه الكلية . واطم اليه عدد من حواريه الذين كانوا يدرسون في

مدينة لوزان المجاورة ، ومن طردتهم حكومة برن حديثا منها - فامد اعترض لعل برن الذين كانوا يحكمون بصفة مباشرة في لوزان على بعض الافكار الهندسية والدوجماطيه ( العقائدية ) التي يدرسها هؤلاء الأشخاص - وكانت الدعوة المادية التي نزلت بها أكاديمية جيف تدبر أساما من ايراد المتكلمات التي اصرتها المجلس من مواطني جيف من طردوا من المدينة بعد اندلاع بعض الانتفاضات الداخليه التي اسبب ١٥٥٥ ، وأدى هذا الطرد الى الخلاص من كل معارضة لكالفان داخل جيفيه ، مما عزز من سلطانه تميزا كاملا .

أما الطائفتان الأخرى من القسم من شيوخ وشمامسة فكانتا مؤلفين من العوام - ومعظمهم من عمر المتفرغين ، الذين هطلعون بهذا الدور الى جانب ممارستهم لأعمال أخرى - وكانوا يجارون من نفس المصادر التي تضم التجار الأثرياء والمهنيين ، الذين يخدمون في مجلس المدينة ومختلف أمان الحكومة ، وعندما تقترب بداية كل عام يستدعي المجلس العام للاجتماع واستخاب السيديك وأعضاء المجمع للأشهر الاثني عشر القاصية ، وفي ذات الوقت ، يسمحب أعضاء اللجان الحكومية من قوائم المرشحين التي قامت الحكومة السابقة بأعدادها ، وتضم هذه اللجان لجانا لصيانة المدينة والاسراف على مخزون الحلال والحفاظ على نظافة الطرقات ، واليت في بعض الحالات القابويه ، وأضاحت التشريعات الكنسية لكالفان ليس مستحدثين الى القائمة : لجنة الحفاظ على الانضباط في السلوكيات للمسيحية ، ويشترك في عضويتها آباء الكنيسة - ولجنة أخرى لتقديم الدعوى للفرار وبهم السياسي .

وسميت اللجنة التي يشترك فيها آباء الكنيسة بمجمع الكرادلة ، ويشترك فيها أيضا الرعاة ، وكانت أئمة المحكمة الكنسية ، وتجتمع أسبوعيا ، ويرأسها أحد أعضاء السيديك - ويصار آباء الكنيسة بحيث يمثلون أقسام المدينة «المقررات» (٤) ويتولون إبلاغ جميع الكرادلة أسماء المواطنين المشتبه في آرائهم الدينية ، والذين عا زالت تقبوت تصرفاتهم بعض التواضع الكاثوليكية ، ومن يسلكون سلوكا مهيما - وانتهت نسبة كيوم من هذه الحالات باقتراح جرائم حسمية كالدعارة والزنا والموافق والاغتصاب - ومن مهامهم أيضا فحص كل حالة من الحالات الآتية الذكر ، وفي حالة المخالفات البسيطة وبوية الختم ، ربما أطلق مراحه بعد تأنيبه ، أما في حالة ارتكاب الكيائير وعباد الختم ، فلا يستمد حرمانه من رعاية الكنيسة - وتعد هذه العقوبة لمرا بالغ الخطورة عند الأشخاص الذين ينظرون الى مقدساتهم نظرة جادة ، وقد سمب لهم حيقا كبيرا ، وفي

الحالات التي يرتكب فيها المتهم شيئاً له طبيعة إجرامية يتطلب عقوبته أكبر ، فإنه ربما يحال إلى مجلس المدينة .

وكانت هذه الناحية هي أكثر التشنجات إثارة للجدل في حركة الإصلاح الذي في حيف . وصدم كالغان على سكتينا عندما عام ١٥٤١ . وصدم بالإستقالة عندما تعرضت سكتينا الخاصة بالحرمان من رعاية الكنيسة للتهديد في السنوات الأخيرة . ولم يعرب مستوى حكومات بروسمانفة قليلة في دفاع أخرى من أوروبا عن استعمالها لمح سطات قضائية من هذا القليل لهئة كسة من هذا النوع . غير أن كالغان استطاع في نهاية المطاف شق طريقه . فقد فصع أمر خصوم مجمع الكرادلة ، وتحلص منهم . وضع ذلك إعلان حكم الرعب باسم الدفاع عن الأخلاقيات ، وأدب جميع هذه الأحداث إلى ظهور نمط السلوك الذي تسمى بصرامته ، وأصبح يعرف بالسلوك التطهيري ( السيورناتي ) .

ريماون الشماسون في إدارة المستشفى العام . وكانت وظائفهم معروفة من قبل ظهور كالغان . يعنى أثناء الأحداث الملاحظة التي أدت إلى القطيعة الكبرى بينهم وبين الكاثوليك ، وأصبح كالغان لهم مكاناً في تشريعات الكنيسة . وأهدى في الكتاب الفلسفي إلى نص يبرر تعيينهم وليس من شك أنه صبح هذه الوظيفة بصحة مقدمة ، وطعنها بظام ديبى حاصي ، وعندما فعل ذلك ، رفع من قسمها وحلّى منها دعامة محترمة لجميع حيف .

وتحتاج التشريعات الكنسية إلى إمشارة المجلس الرعاة عند وضع لوائح الترشيح لوظائف آباء الكنيسة والشماسين قبل الانتخابات السوية . على أن هذه القاعدة لم تكن تراعى بدقة ، إذ كانت تتبع في أحيان كثيرة عند اختيار آباء الكنيسة أكثر من إبعاعها في اختيار الشماسين . ولم تتبع اتباعاً دقيقاً إلا بعد أن تعرضت سلطة كالغان إلى أقصى حد قرب نهاية حياته .

وحقق هذا التشكيل الكسبي نجاحاً تاماً ، وصاعد على تعزيز حركة الإصلاح في حيف ، وما زال حاش منه عندما في هذه المدينة حتى وقباً الحاضر . وبفضله اكتسبت حنيف صبة دولية كبرى كحركة الإصلاح البروتستانتى . ويرجع إلى هذا التشكيل الفصل الكبير بتميز هذه المدينة بظامها الخاص خلال القرون .

فإذا تمعنا في هذه المظاهر مجتمعة منسج لنا واصدا أن التغيرات التي حدثت في حيف من ١٥٢٦ إلى ١٥٥٩ قد مثلت ثورة حقبة .

تتجاوب هي وجميع احبياحات تعرف النور الذي طرحه نومان ، والذي اتبعه فيما سبق . فلقد حدث بعد في النظام السياسي لاحتطاه في الانقلاب الذي جرى للحكومة التي كانت تحت امرة الأسقف والتي كان يساعد في تسيير شؤونها من في القسوس . وحلت محلها حكومة جديدة يدبرها مجلس من علماء الباس المحليين المسيحيين من قبل الشعب . وحدث أيضا بعد أساسي في الساء الاجتماعي . اد ألقى من المدينة بضع مئات من الاكليروس الكاثوليكى ورهط من اشراف سافودا ، وبعض العوام من الميردين في اتساع الكاثائية ، وحل محلهم مئات من المهاجرين معظمهم من المرفعين والتجار ، وأعليهم وفد من فرنسا سلبا قبل كالعان . وحدث تغير أساسي في اقتصاديات الرقابة على المكناس ، بعد أن حردت الكنيسة القديمة من أعداد كبيرة من ممتلكاتها وممتلكات اعيانها ، أو تم تأميمها بعبارة أخرى ، ووصفت تحت تصرف المجتمع بأسره ، كما تمثلت الحكومة بدلا من توزيعها على الأفراد وتقبل ملكيتها اليهم . وبرزت جميع هذه الأفعال ، وسبب اليها القديمة اعتمادا على أعظم تغير حدث في الأسطورة المهمة على النظام الاجتماعي ، ورفض اللاهوت الكاثوليكى الروماني رفضا باتا ، وامتدع نوع جديد من اللاهوت البروتستانتي الجديد ليحل محله .

وينطلب فهم هذه المشكلة دراسات مقارنة واسعة ، وإن كان بمقدور حتى من الدوايات الأولية الاجتهادية من هذا القليل توضيح شيء واحد . فلا يخفى أن حركة الإصلاح الديني بحيث كانت أكثر تطرفا مما حدث في الكثير من المجتمعات . فلقد لوحظ عدم استمطاعة الاكليروس الكاثوليكى الحفاظ على قوته الا في مواضع قليلة ، وعدم تعلقه في هذه المجتمعات على نحو مماثل لما كان عليه الحال في حيث ما قبل الإصلاح . إذ كانت المدن في شتى أنحاء أوروبا في وقت من الأوقات تخضع للحكم المباشر للأساقفة . فمثلا في ألمانيا ، كانت معظم المدن محكومة من قبل الأساقفة ، منذ أمد نسب يرجع الى القرن العاشر - ولكن منذ ذلك الحين ، أنشئت مدن علمانية جديدة ، ومحررت مدن قديمة كثيرة من ثمر السيطرة الأسقفية . وعلى عهد الإصلاح الديني ، لم تبق غير مدن قليلة تحت السيطرة الفعلية المباشرة للأساقفة . وتحولت معظم المدن الهامة الى مدن لبريالية حرة لا تعترف بالولاء الا لسيده واحد : الامبراطور الروماني المقدس ، وامتدعت مغلطات السلطة الأسقفية في أغلب هذه المدن ، ولكن معظم السلطة الزمنية تركزت في مجالس المدن المنتخبة ، كما حدث في بروج .

علاوة على ذلك ، فلقد حدث تحول في الخدمات الدينية في مدن عديدة ، التي كان الاكليروس يؤديها الى خدمات تتولاها مؤسسة دنيوية



قبل الحركة البروتستانتية - وتبع هذا الدال مؤلفه جاس في الجدل التعليمي والحرية - وهذا هذا الاتجاه لجميع الخدمات بالصفة الدسوية واضحا بخاصة في « المدن - القوي » الاطالقة الكبرى في أواخر الثرون الروسلي ، ويصح نقصد هذا الرأي والقول بأن المفضلوه الشهيرة لايدي الاطالقة لم ييسر تحقيقها الا بفضل اساءة مدارس الكاثوليك بمدادهم تعينها الحكومات البلدية والأتريكة في عامه الساس . كما حدث في مجتعات كمتجم فلورنسا ، ويكفل فقد اصطلحت ادارة الأعمال التجارية بالصحة العلامة العلانية في مجتعات مثل مجتمعات ملايو الذي اساء ليدا الفرنسي مؤسسات كبيرة تنبع البلدية ، وقام بنميطها . واستمر رجال الاكليروس يشغلون بعض وظائف هذه المؤسسات - غير أن الادارة الكنسية وفي عهدها ، وقلصت المشاركة الكنسية ، ان لم يصح القول بأنها انتهت . وهكذا فحور القول ان حنفي في القرن السادس عشر كانت متخلفة اجتماعا ، وأنها استعانت بحركة الاصلاح لبحوص ما خافها ، وادخال مميزات قد حوت بالفعل في مجتعات أخرى -

ومن الواضح أيضا ، أن حركة الاصلاح الديني لم تتغفل متاما حدث في حنفي الا في أماكن قليلة - فلم يكن شانها في أي مجتمع اسعاد الكلب الاكليروس بأكمله أو تحته ، وانما كان الأكثر شوعا هو اعتناق قسم الأبرشيات الكاثوليكية للبروتستانتية مع تقسم عقائرت في قفوه لا يحسه هذا الاجراء . ويسمح لهذا القسم بالاستمرار في عملهم ، ولم يظهر جماعة من الاكليروس المدربة تدريجا كاملا على ممارسة العقيدة البروتستانتية الا بعد لاي . والظاهر أن هذا التحول كان ما حدث في أغلب الامارات اللوترية في ألمانيا وملكة انجلترا . ولابد أن تكون التعديرات في انجلترا قد تمت مطقة - لا كان المتوقع هناك أن يتحل القسم عن البابا ، وأن يطولوا في ذات الوقت حنفي للكاتوليكية في ظل حكم هنري الثامن ، وان يعثفوا البروتستانتية بعد التصريح لهم بذلك للرواج في عهد ادوارد السادس . ثم يرمفون الى روما عطفها يرمفون التخلي عن روحانيتهم امان عهد الملكة ماري ، وحدث ارتداد مرة أخرى الى البروتستانتية لفرض الرواج ابان حكم الملكة المزابت الأولى ، والظاهر أن عددا لا بأس به من القسم في انجلترا جد مارس هذه الملة و« بالكتير من هذه التحولات »

على أنه حتى اذا صح أن التعديرات التي صبحت عصر الاصلاح كانت نادرا ما تنصب سباعتها وبعد أثرها . كما حدث في حنفي الا أنه قد حدثت دوما بعض التعديرات ، ففي كل مثل من الأمثلة أمة الذكر ، قام مجتمع باعتماد البروتستانتية ، ورفض اتباع سلطة البابا ، وقطع صلته

بروما • ولم يصعب هذه التحولات بوهتها • فلقد وعرت البابوية أمدا طويلا في شكل نظميات مسخصة الى وحدة الحصاره الأوربة الغربية • وعى رضى سلطان البابوية غالبا نزوعا صوب نوع من التحريره • يعنى الى نوع من الرعه القومه • ومن هذا الاتجاه تحولا هاما للعابة في أهم القمم الأساسية التي اعتنقها الأوروبيون • فقلد حدثت نقلة من أسله المرضيات الأساسية عن المجتمع • الى مرضيه أخرى • انه تحول سمعود يعواقبه هائله على تاريخ أوروبا رهله أربعة قرون حتى مصعب القرن العشرين على أقل تقدير •

وهناك نعر آخر يكاد يلزم دوما حركة الإصلاح الديني • وهو اغلاق جميع الأديرة • ومصادرة أملاكها • التي كبرا ما كانت تسير بإساعتها وصحاتها • وفي مناسبات نادرة • كانت الأديرة بسور • ولا يسمح لها بحبيبه أعضاء جدد • وبذلك ينتهى أمرها عندما يموت نراه الدير الندين ما زالوا على قدم الحاة • ولكن الأكثر شيوعا كان مطالبة جميع الرهبان والراهبات اما بمصادره الدير أو البحث عن أعمال جديدة • وفقدان كل ما يملكون من ممتلكات على الخضاع • وهناك قدر كبير من الخلاف حول تقدير أهمية التحولات الهائلة في ظاهرة الملكية التي سجمت عن ذلك • ففي بقاء كثيرة • استطاع السلا الأثرياء والدين كانوا يهيمون بالفعل على الكثير من أنشطة الدير • بمسألة - التحكم في ممتلكاتهم • ولكن كان لا مفر من حدوث تغيرات في نوع لم يعطر ببال • وكثيرا ما اتسم دو حشيته ونتائجه البعده الأثر •

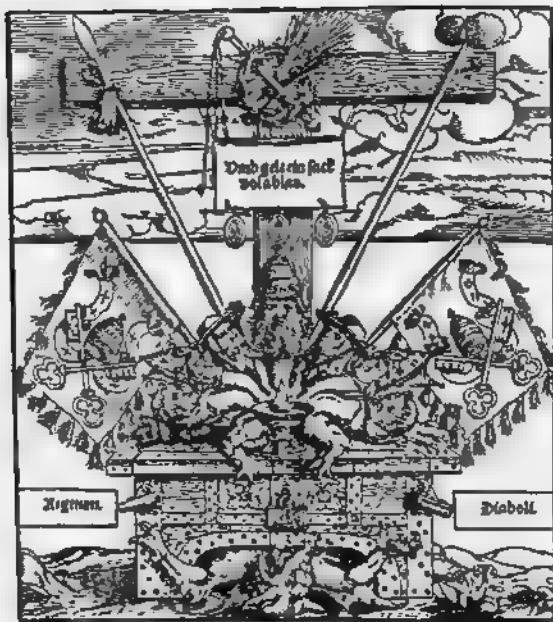
يبد أن هناك تغيرا آخر يكاد يصحب حركة الإصلاح الديني على الدوام • انه نداعى نظام القانون الكنسي والمحاكم الكنسية • فليس من شك بأنه في جميع الحالات صدرت بحرييات برسال التضرعات والتوسلات الى روما • وهكذا يكون هذا الجانب من النظام القضائي الكاثوليكي قد احتفى احتفاء مطلقا • ولكن ثمة سموت عديدة أسد قد بيئت ذلك • واما حدث استبعاد تام للمحاكم الكنسية • أو نقلص صفى سلطاتها وعدمى تطبيق تشريعاتها تفصلصا حادا • وماذا ما عيد الى الهيئات الكنسية البروتستانتية الحديثة بالتهوضي بمهام قابوية عديدة • وفي جانب واحد على الأكل من جوانب الممارسة القانونية • ذهبت أغلبية الهيئات البروتستانتية الى ما هو أبعد من جيف • فقلد عصر الإصلاح • كانت القضايا التي تمس الممتلكات الروحية والحسنة تعال عادة على المحاكم الكنسية • وأحالت جيف هذه القضايا الى محكمة شبه كنسية هي مجمع الكرادلة • وليس من شك أن هذه للمحكمة لم تستعن بالقانون الكنسي الكاثوليكي لمبت لحي هذه القضايا • ولكنها استصابت بدلا من ذلك

بالقانون المدني . ورجعت الى بعض فقرات من الكتاب المقدس القريبة  
الصلة بهذا القانون . كما فسرهما كالغاي - ولكن رجال الاكبيروس كانوا  
يشاكرون على أية حال في هذا الجانب من الاجراءات القضائية في حينه ،  
أما في معظم المجتمعات البروتستانتية ، فلم يمسحوا هذا الحق ، وعهد  
بحق النظر في مخالفات الزواج والجرس الى محاكم علمانية - وبذلك  
من التخلي عن القانون الكاثوليكي وروع الحاكم الكاثوليكية على السواء .

فإذا نظرنا الى هذه التحولات مجتمعة ، فسنرى ان التخلي عن الخضوع  
للسلطة البابوية واعلاق الأديرة وتصفية النظام القضائي الكاثوليكي  
خطوات هامة للغاية . وتطلبت أحداث عصر الخير في التنظيم السياسي  
والبناء الاجتماعي والسياسي الاقتصادي من الملكية . وعكست هذه التحولات  
تغيرا عميقا في الأسطورة الغالبة على المجتمع - ويلوح لي انه من المناسب  
وصف هذه التغيرات بالثورات الثورية - وليس من شك ان ما ترمز عليها  
من محالب لا يتضح الا اذا فحصنا حاله متطرفة مثل حيف ، ولكنها كانت  
واردة دائما - وعلى هذا يصح في استخلاص القول بأن الإصلاح الديني  
كان ثورة حقاً ،

## المراجع

- Lorna Jane Adray — *The People's Reformation . Magistrates  
Clergy and Commons in Strasbourg 1500-1598*, (1985).
- L. F. Buck and J. W. Zophy (ed.). *The Social History of the Reformation*, (1972).
- Miriam Cherman — *Strasbourg and the Reform* (1967).
- John T. McNeill, *The History and Character of Calvinism* 1957
- Wolfgang J. Mommsen et al (eds) — *The Urban Classes, the Nobility  
and the Reformation* 1979.
- E. W. Monter, *Calvin's Geneva*, (1967).
- Rondir Po-chia Hsia-Society and Religion in Munster 1535-1618  
(1984).
- Francois Wendel — *Calvin The Origins and Development of  
His Religious Thought*.



٤ - الحيوان البايوى فو الرزوس السبع



## الطباعة والدعاية في ألمانيا أثناء عهد الإصلاح

د . و . سكريبفر

في بدايات القرن السادس عشر ، كانت الكتيرية الساحقة من الألمان عاجزة عن القراءة - وعلى الرغم من أن نسبة القراءة والكتابة قد ارتفعت في المدن الكبرى إلى ٢٥ ٪ ، إلا أن ٩٥ ٪ من العدد الكلي للسكان - في أغلب الظن - كان من الأميين ، وهذا لا يعني أن المصطلح المطبوعة كانت غير ميسورة لهؤلاء الناس ، إذ كان بالمقدور - على سبيل المثال - قراءة المنشورات البروتستانتية بصوت مرتفع للأخوين ، مثلما يقرأها أي شخص لنفسه ، وبعبارة أخرى استمرت ثقافة بداية القرن السادس عشر لتتأصل بالصياغ .

وكان عصر الإصلاح يوجه للأميين عقائد خاصة ودعايات مرئية في القديسات ، وصياغ الطارحات البروتستانتية بهارة بلغة الصور بحيث ينسحب البسطاء فهمها . وركز البروتستانت جهودهم عند نشر رسائلهم على معتقدات العوام ، وعلى المخاوف والتزمت المساند بين أفراد الشعب . وأقاموا تشكيل التصاوير القلبية بحيث تقدم أغراضهم . واستعلن في الحفل على احتشيب بتصوير موضوعات معروفة للكافة كالأواب الدينية وآلام السيد المسيح ، وسفينة الكنيسة للكشف عن تجاوزات الكنيسة الرومانية ، ولكي يعلموا البديل الإنجيلي للآل .

والتبنت مثل هذه التصاوير قاعاتها ، لأن عامة الناس مهمومون بوجه عام بمصيرهم الأبلى ، وليس لتتصاؤون البروتستانت من ابتداء الشعب أحاسيس ممتدة البطور في نفوسهم ، كانوا يشادكون فيها أيضا . وقد اشتركوا معهم في الإيمان بالقضاء والقدر ومخاض التجمين وبشادتهم ، وفي الثقة بالنسبوات التقليدية وقدرتها على تسخير مثل هذه العمليات . واستعانوا الدعاية البروتستانتية المرئية بجميع هذه

For the Sake of the Simple Folk

(\*) نقل عن كتاب

تليف R. W. Scribner ( كبرودج ١٩٨١ )

الوسائل ، وعلى الرغم من مهاجمة المصلحين « المخزعات » ، إلا أن دعايتهم قد استغلت الإيمان الشعبي لكسب ود البسطاء - وهذا يعني أنها ستغرت المصادقية كخاتمة المصادقية . وكانت حركة الإصلاح في هذه العملية بعض ملامح من الاعتقاد الشعبي ، وعدت نطاق البعض الآخر ، بينما نزعت للي الكشف عن معتقدات أخرى أو قلبت عليها .

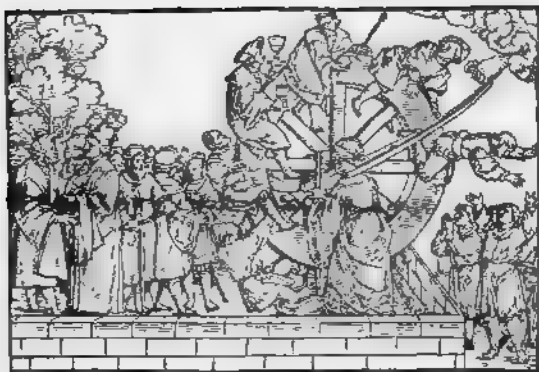


بوجه عام ، يمكن مبرر المعتقدات الشعبية بأنها المعتقدات التي يؤمن بها ككل الشعب ، بالقرابة « بالاعتقاد » الذي يمنحه الصفوة الدينية التي تتألف منها المبرورونية الكسبية ، أي «المترفين من رجال الدين» - وليس لابد أن تتخذ هذه التفرقة شكل التمييز الصارم - بل ربما شارك مثلا الكاهن الريفي أو الرهبان المحول العوام في معتقداتها ، أو اتبع - على أقل تقدير - بعض اتجاهاتها بدلا من أن يتبع المعتقدات التي أقرها الكنيسة رسميا . وغير عن هذا الصور للاعتقاد الشعبي تعبيرا واضحا الفديسون في العصر الوسيط ، والعلو بالمحركات . مع أن مثل هذا التعريف لا يعرف أكثر من أين يمكن العثور على الاعتقاد الشعبي ؟ ولكنه لا يعرفنا إلا القليل عن طبيعته ، ومن بين المصطلحات الدائمة في دراسة الدين مسألة عن ينظر إلى الدين كمجموعة من الاعتقادات السارية المفعول ، أم ينظر إليه على أنه مجموعة من الممارسات ؟ وتزداد المسألة حسنة في حاله الاعتقاد الشعبي ، حيث ولما تصاع المعتقدات الكلامية وراء الممارسات الدينية بوضوح ودقة في أي صيغة نظرية صورية . وغالبا ما لا تتكشف إلا من خلال الممارسات وحسب ، وإن كانت تكسبها معنى أيضا . فلابد إذن من دراسة الجانبين باعتبارهما متصلين اتصالا متشابكا . . .

ولما كان التعلق الشعبي أقل تحديدا وأكثر مرونة ، فإنه يتسم بأية والحال عند حافة الوعي والأحاسيس اللاواعية حيث تصنف الاعتقادات يتطابقها وبقيائيتها لتعمل الأيحاء والمؤثرات الجديدة . كما أنها تصمم بصيغ فردية وجماعية عن الإيمان جيدك لعل أفضل ما يمثلها هو فريضة الحجيج - وهذا ما جعلها أفضل أساس مثال للعبادة التي تسعى لتأثير على الرأي والسلوك . وسواء يتناول مقالنا كيف استمر الاعتقاد الشعبي وسفته في نشر رسالة عصر الإصلاح ، وبخاصة كيف أعيد تشكيل النخلة التعبدية الشعبية لتحقيق هذه الغاية .

وكان من بين الأشكال الأكثر شيوعا للاشتراك في العبادات ، المركب الديني الذي كان يقام بانتظام طيلة شهور السنة ، بحيث أصبح من العلامات المميزة للمجتمعات الصغرى في القرن السادس عشر - وإلى





٥ - عجلة السحر



٧ - عجل داهب فرايبورج



٦ - كاريكاتير يسخر من البابوية في روما

جانب المواقف والمبادئ الكبرى (٢) . ثلث هناك أيضا أسواق أو موالد للكنيسة عام حتى في القرى الصغيرة . وفي فترات الشتاء الاستثنائية كالحرب والوباء أو المجاعة ، نظم الطائفة الدينية حوزا دينيا للتوصل إلى الله في يتدخل للتخفيف من وطأة مصائبهم ، وتمتد مثل هذه المساعي تبعا عن التضامن المشترك . ومظهرا للملاعات الاجتماعية والروحية داخل الطائفة . ولقد تمت هذه الأحداث في طقس العقيدة الإنجليكانية قد أصبحت الدائريكية في أبعد صورها خصوصا للخرعيلات ، يعني توصفها تدخل الله في الأحداث الجارية كاستجابة لمخاوف الإنسان ، ويزداد في ظروهم ما في هذه الظاهرة من تبجح لفيلم المواقف بتقديم عروض للأسفار المقدسة وإشاد ترايم ولورة وإتهالات للتضرع للقدسي وعروضا للميراثية الكنسية .

وما يثير الدهشة أن تظهر صور المواقف الدينية في الدعاية الإنجليكانية ! والفصل مثل لها هو السخري من موكب سوى الكنيسة الذي رسمه بيتر فلتر . وفي هذه الصورة يظهر موكب من الرهبان والراهبات والفلسس وهو يمر عبر أرض فضاء متصل بين كنيسةتين لتذكرا بأن المواقف الدينية تنسق طريقها أثناء عروقتها من كنيسة أخرى وتتيح الفرصة لإقامة الصلاة أثناء توقفها بين القينة والأخرى . ولقد بنت هذه المواقف قليلة الاوتباط بالدين ، وكم تشابهت هي والاحتفالات الفخرية الوثنية أو الكرفالات ، ( الحملات التنكرية ) ويتصدر هذه المواقف خبرير وقس مغرط في السنة يحمل مبخرة يهزها يمينا ويسارا ويمشي خلفه كاهن يرش الماء المقدس من اناء تحمله امرأة ترتدي ربا بعيدا عن الاحتشام والري الديني . وغالبا ما تختار من بين محظيات الفلسس . وهنا يتوقف التشابه والموكب الديني ، وإذا تأمنا ما يجري في الموكب سنرى بعد ذلك كاهنين يستقرغان كل ما يجوفهما ، ويسير وراهما قسان يشربان الحبة من الإشتين ( وعاء خزفي ) وبذلك يتكشف سر عدم ارتياح الكاهنين اللذين يتصدران الموكب .

ويتوسط مسيرة الموكب راهب سمين محمولا على حفاة ، ويسبقه أطفال في زي الرهبان يحملون الشمعدانات التي ستساعد منها السنة من الفاظ أولية الشكل ( والياذ باله ) عروضا عن الشمعة التي يعترض حلها . ويتولى متوهان حمل الراعب على اكتافهما . وتيسيل من أنب من يتخذ الصلادة من يسميا الخرازات غزيرة مقرفة ، وترى إحدى الراهبات



خلف المحبة يحمل مصيعة مشحونة بالسحق ، وخلفها راهبتان تحملان شوكة للتبنّ سبل منها قطع من سبك الباكالا كمشاكاة لرايات التي تحصل في المواكب الدينية ، واستهراء بحلّاعة القسوس واسرافهم في العلاقات الجنسية ، ثم يرى راهبتان أخريان كترين بكلمات وقرعة مدونه على لافه من اللامعات التي تستعمل في تسجيل نتائج المسابقات الرياضية بدلاً من كتاب الترايم - وتحمل أحدهما غالباً أداة محجرة كبيرة ، وتسير في مؤخرة الموكب واصفاً . أحدهما يحمل رجاءه بيده وكأنما . وتحمل الأخرى طفلاً ملفوفاً بقمط ، وهو ابن غير شرعي لأحدى الراهبات ١٠

ويعد هذا الموكب عرضاً كرنفاليا متلفاً للشعير بإفراط الإكليروس في مخاري السلوك الداعر ، ويمثل هذا العرض اصحاباً عمادياً للإكليروس ، تسمى الدماية الايجليكانية من وراثة للتشديد بحصوم الكتاب المقدس بالاستعانة بتلميحات مسرعة من الثقافة الشعبية ومن السخرية من « المفجوعين » الذين يسرقون في المأكّل والمشرّب ومن الحماقات عن طريق التندر بالمروحي الكرنفالية ١١٠

والى هذا الحد البعيد يكون هنا النموذج قد كتف عن تأثير الثقافة الشعبية . واستعملت الأسواق ، والموائد ، الكنسية كمناسبات ملائمة للمأدب الجماعية والمهرجانات الى جانب الاحتفال بها كمناسبة دينية ، ومع هذا لمهناك عدة ملامح توجه انتباهنا الى مقومات الاعتقاد في نظر أبناء الشعب ، فأولاً يلاحظ الاستمرار بالموضوعات الدينية ذاتها كما بين من اتحام أدوات ترمز الى الشراة والمهم محل كتب التراتيل والمشمعات والرايات . ثانياً الأدوات التي تحمل عادة في المواكب ، ويلاحظ أيضاً استنقاء البحور ولله المقدس على رأس الموكب ، وبذلك يكون قد تم الربط بين هذه الأشياء والابتعاد عن روح الدين . ثانياً - الربط بين الحماقة والرهيلة ، وهذه فكرة مألوفة عند العامة الأخلاقيين في أواخر القرون الوسطى (١٢) ، ولم تعد الحماقة تظهر بمظهر الماء الخثر للضحك أو مجرد الوحشية ، ولكنها اتخذت مظهر الاسراف في الخطيئة .

وإذا انتقلنا من المشاهد المرئية الى التصووس المقرونة ، سنصادف تشديداً أعظم على الفكرة الدينية ، عندما نقرأ في أول بيت شعري دعوة لنا بزيارة سوق الكيسة أو مولد أحد القديسين ، حتى نستمتع بالترور التي تنقل بها حياة الرهبان . وسيكون بوضعك أن تنوص في دس القديسات ، وإذا عطيت من قنور الراهب ستعطر دنوبك ، ١٣ ولقد أشارت

هذه الكلمات الى احدى وسائل الاجتهاد الدينية الكبرى في الأسس  
او المبادئ الدينية - - - الى المستلزمات المرتبطة بموضوع الأنشطة الدينية  
التي كانت تجري هناك - ويشيع البيت الثاني من نفس القصيدة الى  
اسرار الراهب في الرديلة - غير أن البيت الثالث يسيدها الى غاية  
الاعتقاد الكاثوليكي -

ولعل هذه القصيدة قد لعبت للتندو بالأوراد التنسيه - ونجد بها  
هذا الاكثيوس ، الذين يمتد بهم في الحياة الدينية بوصفهم مصادر  
اشعاع الصفاء في العالم - وقصد بها أيضا - المعساري - الى الابنوع  
الصميمون للمسيح - يفصل المستورات البابوية لم يعد هناك محرمات  
للاكثيوس ، باعتبارهم يتمتعون بالقداسة ( وهكذا ينتهي هذا البيت من  
القصيدة ) ويشير البيت الرابع أيضا الى المشهد للرثي - فليس من شك  
أن مشهد الرحيل وهم يسلمون وتتصاعد النغمات من حلوهم قد ظهر  
جليا في صورة الراهبين الذين ادرنا كل ما يحوقها ، وان كان بالاستطاعة  
ارادة آثار الثقي - باستعمال لثاء المقدس وأشيائه أخرى محتلة بآله -

لعل أهم ما يلحظ الانتباه في هذا المركب هو ما احتصر منه ، لأنه  
لا يضم أحدا غير الاكثيوس - والشخصية الدارجة الوحيدة هي شخصية  
الموس التي تحمل ابريق الماء المقدس ، وهكذا يكون المركب الديني قد مثل  
- في بصرهم - الرديلة والاكثيوس بعد الجمع بينهما -

وظهرت صورة شهيرة (لوحة رقم ٢) تحمل عنوان الوش البابوي  
في الرؤوس السبع ( ١٥٤٣ ) وفيها يظهر ذراعا المسيح وأدوات تدبيره  
وصليبه واستشهاده كالصليب والمساطر والصور وناج الضوئ المثبت في  
راس الصليب والرمح والاستنجة - ووضعت جميع هذه الأشياء على عارضه  
خشبية - ولم ينس الرسام التبر على بعض الحروف اللاتينية التي  
تغشى عادة على الصليب (\*) فاصلاها عنها عبارة وحدة جاء فيها : زكيه من  
التبر مقابل الذبح فورا - \* وبدلا من المذبح الذي ترتبط به عادة اللوحات  
الدينية وصعد حرفة لفرقة القود لتلقى ، الى فيه القصة ، مقابل  
صكوك الغفران - وهكذا تحول المذبح المقدس الى مذبح الشيطان واعتل  
المكان الذي يتبوأه عادة المسيح وحش ذو مسبح رؤوس تحيط به اعلام  
تعمل رموز البابوية كالمفتاحين المتقاطعين على شكل صليب والتاج البابوي -  
وهكذا تكون ذراعا البابا ( الذي يقال عنه انه نائب المسيح على الأرض )  
قد أساءنا للمعبدة وجعلناها موضع سخريه - أما الرؤوس السبع للوش

في رأس البابا ورأسا أخرى من الكرادلة . وأثنى من الأساقفة وأثنى من الرعيان . ويظهر تحت خزانة صرف القود شيطان أو عهرت . وأسمى المصور لوحته صلكه الشيطان (٣) ، وألصق عنوانها على جانيب اللوحة .

ويساوى النص المطبوع بين عين الوحش والصورة الوحشية ليوحى المعتقدان ، وإن كان الوصف لا يطابق الصورة . فكما يصنف الوحش اليهوى برؤوسه السبع غير المتساوية ، فإن الأمر يائشل فيما يتعلق بالوحش التي يمثل المعتقدان . ولقد وضع تاج على رأس الوحش لدلاله على تجمع الأكثريوس . ولكل منهما عشرة قرون للدلالة على القوة الروحية، ويتسمى باسم يسر من الربعة ويصره النص على أنه يسمى أساس البابا في التوازي . ويتشابه الوحش هو والفهد الذي يرمز إلى طبعان الحكم البابوي . فله محلل مماثل لمحلل اللب التي يسحق بها الكتاب المقدس ، وله ثم أسد للدلالة على اتساع بلوم البابا . وإن كان لا يشيع أبداً فيها امتلاك كرشه بصكوك المعرك والأوشحة والهدايا . وهناك طب حرج قائل على أحد الرؤوس السبع لللب يرمز إلى الصربة العاصية التي وجهها لوتر بكتابات إلى البابوية .

ومن لقائنا التي شاع استعمالها في العبارات التعمية ، صورة السفينة . وهذا التصور مستلهم بلا جدال من اسجل لوقا ( ٣٠٥ ) وفيه يرى المسيح يدعو ويعطى من فوق سفينة ويتحدث عن مميزة سرب الأساك ووعده الرسل بأنهم بمثابة صيادين للنسرية - وربما أسهمت لوحه سفينة سيدنا نوح أيضاً ، التي مثلت الدور الذي ستقوم به الكنيسة مستقبلاً - بجانب من مفهوم هذه اللوحة . وما أن بلغنا القرن الخامس عشر حتى أصبحت من مسلمات كل كنيسة . وأضافت أخطار السعر في البحار في ذلك العهد - مفهوم آخر إلى معنى الصورة ، كالتفيمه المتوالية والخطرة لرحلات السفينة التي بالاستطاعة تكييها للحدث على الساحة . وهناك مطمة فنية محفورة على الخشب ترجع إلى حوالي ١٥١٢ «سوان» مركب الخلاصه وتشتمل على عرض يبلغ للفكرة آفة الذكر فالركب تجر على بحر الحياة إلى مواضع الخلاص كالورشليم مثلاً ، وهذا يوحي بوجود مؤثر أبعد لا نرمر إليه هذه الاستعارة : الرحلات البحره التي تعرض لها العبيج إلى الأراضي المقدسة . فالول سقية للحياة صمها الله . ولكن أول ملاحظها ( يسمى آدم وحواء ) قد تسميا في ارتطامها بصخرة العصيان . وحاء « التعميد » بمعنى أخرى ، ولكن هذه السفينة



٩ - البابا الاسكندر الثامن

قد شجعت أيضا بكل سهولة وغرنت في الله من أثر الخطئة . والسفينة الثالثة هي « الكفارة » وبقدور كل شخص أن يصنع لنفسه مثل هذه السفينة بحونه « عسى » البحار ، ويبحر هذه السفينة في بحار العالم وما فيه من وحوش الرذيلة المترصة والتي لا حصر لها ، وهؤلاء البحارون كثيرا ما تغلب سفتهم أو ترق ، ولكن الملاح يزرع المياه عندما « يعترف » وما أشبه الإيمان بؤشر النوصلة ، التي تسائل في تصورها « بالاعتقاد » كما تتماثل الدعة « والسفن الالهية » ويرمر الثدى إلى صليب المسيح والشراع يمثل الإرادة الحرة التي لم يتيسر تسيرها للسفينة في كل ربح . وأسب الرياح هي ربح التقوى والمرسات أشبه بالأمل وبمثل رافعة الشراع الملائكة التي برعي السفينة بقداستها -

وتم الجمع بين هاتين التصويرتين ( صورة السفينة وصورة المؤمر ) في صورة ثالثة للسفينة في القرن السادس عشر في اللوحة المسماة سفينة الحقيقى . فلو قد صوّر مسيحيان بران مبراة فائقة إحدى السفن المنقلة بالحمولة ، والتي عهد بسلامتها إلى ملاحين من الحقيقى . وفى الفصل ١٠٣ من كتاب « سفينة الحقيقى » يبين بران بين سفينة القديس بطرس وسفينة المسيح الحال . ويصف السفينة الأخيرة بالهشاشة مما سهل ارتطامها وبمريض ركابها الحقيقى للخطر . وساق التعاؤل بران إلى التمييز عن الخوف من حطوت ارتطام مائت لسفينة القديس بطرس . . . . . « سفينة بطرس تترجع كالحجوة » وقد تصاب بطلب أو تلف يرمسها لتتهلكة . . . . . ولقد توطلت بصورة السفينة كرمز شعبى للانقطاع للميادة في مشارف عصر الإصلاح . فلا عجب بعد ذلك إذا رأيناها تكيف كى تناسب الدعاية الانجيدكانية . . . . .

وأستعين بالمعينة بفكرة سفينة البايوية في عمل فنى محضور على الختمب يرجع إلى القرن السادس عشر ( لوحة رقم ١٩ ) . وفى هذا السبل الفنى تشاهد السفينة البايوية وأسية على البر . ويتشابه شكل جسمها هو وشكل حجرة المغار عند استلقائها على ظهرها . وتصور الفنان منه من أطرافها كركاثر الكنيسة ، تمثل القرعة على جبهة الجسم الشبيه بالحشرة الدقة التى يمتعملها البايأ على إدارة سفينته التى يتولى السجديف فيها ست مجموعات من الكهنة . أما علق المجداف الذى يحركه هؤلاء المجدفون فمجهر يصف أسنان على جانب هذا القارب جعلها يبدو كاتفا فك وحش هائل ، وبذلك اتصلت اتصالا إيقووسرافيا بتصاوير البايأ الحالس على العرش في فك جهنم . ولا يخفى أن السفينة البايوية من عيشدعات الشيطان ، مما جعلها تتحرك بمساعدة عقاريت مجحة . وتشرق علب المياه اعتمادا على مروحة وزوج من المناقب وتروميث .



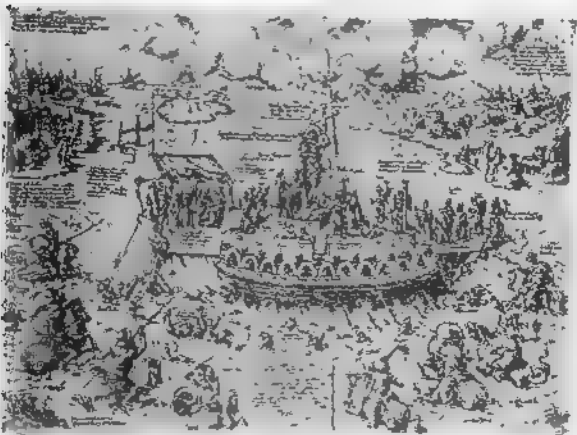


٦٠ - البابا الإسكندر السادس

في صورة شيطان



١١ - سفينة الكنيسة البابوية



١٢ - سفينة الرسل

ولا تمثل هذه السعفة الاكليروس البابوي وحده ، ولكنها تمثل أيضا معتققي المذهب الكاثوليكي . فالكنيسة بمعاونه اطراف الوحى لها ثلاثة اوتان ، وترى اذرع البابوية فوق منبتها . ولعل المقصود بها فى اللوحة هو كنيسة الحجاج ، لانه بالاستطاعة لمح الثغرى ( أو المخصص بجمع التدوير ) من خلال النواذ الجانبة . ويرى فى مقدمة السفينة طواف ، ييسا وقف المضيف معروضا فى المشهدة (٣) . وقف احلى الراحيات على الساعلى ، بعد ابعاد السفينة ملوحة بقطعه من القماش تمثل بيود العبيدة الكاثوليكيه ، وتحمل الراحبة أيضا بين ذراعها طفلا فى القماط ، ثمرة لصدته حسنة مخطورة ، وأخيرا ترى بومتان على السراع قمران بالهابة للشعومة ، التى تستظر الكنيسة الكاثوليكية .

والى جانب مصورة السعفة وما تثيره من خلاف حول تفسير معناها ، بمقدورنا ان نشاهد أيضا تحويرا لها ، ظهر فى أواخر الإصلاح الدينى ، فى صورة مباية فى معناها للمبى الأول ، ففى تصورة نسخة الرسل لاثياس تسولمت (٣٤) (-١٥٧) [لوحة ١٢] نشاهد مركب الكنيسة واقفة أمام مرسى الايمان ، وهناك اختلاف بين هذه النسخة من الصورة والنسخة التى ترجع الى ١٥١٢ . ويرى فى المقدمة أربعة من الانجيليين ، كما يرى باقى الرسل فى مؤخرة السفينة - ويدير السعفة القديسان بطرس وبولس ، ويشاهد يوحنا المعمدان واقفا فى برج لراقية بالمقدمة ، ويقف المسيح على منطح السفينة حاملا الصليب وبجواره المقدسات البروتستانتية « التعميد » والعشاء الأخير والمعمران ويحمل أربعة من الملائكة الأدوات التى استعملت لصلب المسيح تذكرة ببيته لصلامى البشرية - ويصطف السفينة الأباطرة المسيحيون ابتداء من قسطنطين . وهى فكرة صاممة لصور الكنيسة البروتستانتية الاقليمية . وفى البحر المحيط بالسفينة نشاهد القوى المعادية أو المهرطقة تسبح أو تركب خيول البحر : قرون وبلاط ومبرجوس وقسطوريوس وبيلابوس وآريوس وصعد (والجميع يسبحون) وأنتيخوس وآتيل وجنريريش ، وهيرود والترك والتاو وجيزيل وغواني نابل ( والجميع فوق صفوة الجباد ) ، وبلاط أن المصور قد اختار شخصيات هرقت بلغظهاها للكنيسة ومخاصمتها . وقد صورت هذه الفكرة فى شهددين على الأرض . ففى اليسار نشاهد ثلاثة أطفال زج بهم فى فرق محبوم ، واقفهما تدخل السيد المسيح من

الاصطلاحات • ويرى القديس بولس أو من اصطهدهم الكنيسة على اليمين .  
 بعد أن ضربوا أنساب زوجهم إلى دمشق • وهكذا صورت الكنيسة  
 الروسستانية على أنها الكنيسة الحقبة القادرة على الصمود في وجه  
 أعدائها ٢٠

ويركز دور التصوير المرتبة في اللوحات التي تنشد حث آباء  
 الشعب على الإيمان ، على مدبرة أهل الصلاح والتقوى من المؤمنين بالمحافق  
 الروحية وتركيز انسابهم عليها • وتتمدد نماذج الدعابة الانجيليكية التي  
 تحدثنا عنها على هذا المبدأ أكثر من اعتمادها على أي فكرة أخرى •  
 وغالباً ما تلجأ إلى المسحورية أو التنذر ، إلا أنها تحرص على التنبية إلى  
 ما وراء كل من الاعتقاد القديم والاعتقاد الجديد من حقائق • وما يتبع في  
 هذه الحالة هو عرض التصاوير المألوفة في سياق جديد ، أو دعمها للتعبير  
 عن مفهوم جديد • وبذلك يساق المشاهد إلى التصرف على غير المألوف من  
 صورة ما هو مألوف له ، ويطلب منه البعض فيها وراء هذه الكشوف من  
 معان • ويدور مضمون هذه التصاوير حول وقوع الاكليروس الكاثوليكي  
 والبابوية في الخطيئة والرذيلة المتمازجة هي والمسيح والمناقضة لفكره  
 الخلاص • وهذه رسالة تضيء على التقوى وتستند استناداً كبيراً إلى مخاطبة  
 المشاعر المتمازجة للكنيسة ، حتى يصبح القاري والمتشاهد أكثر استعداداً  
 لتقبل الدعوة والحجج المتضمنة ، بيد أننا ربما ساءلنا : هل يستطيع هذا  
 الاجراء في ذاته اقادة المشاعر الدينية العميقة التي تدفع الشلقى إلى الاعراض  
 عن الكاثوليكية ، والاقبال على الاعتقاد الجديد ، فإلى أي حد حاولت الدعابة  
 البروستانتية البحث عن وسائل للمسي شفاف المشاعر الدينية الأقوى ،  
 يصنى النوازع التي دفعت الناس على هذا العهد إلى الإيمان الشعبي من أي  
 نوع كان ؟ ٢١

وكان من بين الأمور التي شغلت بال المؤس للمسيحي على ذلك العهد  
 خلاص الروح ، ومتى سيتحقق ذلك ؟ • ومن ثم كانت «الأشرويات» من  
 الموضوعات الغالبة على الدين في القرن السادس عشر للتذكرة بأحر أحداث  
 ستقع في الحياة ، وبالأيام الأخيرة ، واتخذ هذا الموضوع مظهرين : محاسبة  
 الكافة على أعمالهم في نهاية العالم ، ومحاسبة النفس ، ولقد لازمت فكرة  
 الأشرويات العناية الإنجيليكية •

ومتلت عملية محاسبة النفس اجراء موازنة توضع فيها أعماله  
 الشخص في إحدى الكفتين ، وترجح كفة الشخص إلى استطاع النبذة  
 من الشر المثل في الكفة الأخرى في صورة شيطان أو أرواح شريرة

وحظايا ورذائل متشعبة وظلت عملية هوارية الأرواح حرة لا يتجزأ من تصاوير يوم الحساب حتى القرن السادس عشر . وبني لنا عنوان ملحوظ الاسم (١) ميرانا على من السماء محمله اليد الخفية لله . ويجس للشيخ في إحدى النسخ ، ويرى كفته هي الأرجح على حصوله الكفة الأخرى التي يصم السما والكاردينال . مما جعل كفتيهما تتطابق في السماء ، ويمسك اليابا بقبضته صكوك الفئران المختومة بالخاتم اليابوي ، ولكنها تثبت عدم جدولها بالمقارنة بالعمران الحق للخطيئة الذي يمنحه المسيح ، الذي يرى وهو يسمح العمران لثلاثة من بسطاء الصوم . فرسالة العمران الطابع الحق للمسامحة . أي صورة « المجلس » يسوع ، ويرى حلف البسبا شيطانان يحصان الصكوك الممنوعة لها من روح عارية . ويومئ أجسد الشيطانين برأسه علامة دالة على الرقص . لأن السماح اليابوي لم يتقد أحد من سعيد حتم ، ويحيط الشيطان الآخر بدراعه الشخص المتضرع للدلالة على استحوذته عليه . ويتعثر من فوق إحدى الاستسجار القوية حيوانا لهما قط وسنجاب . وأغلب النشأ أنهما يرمزان إلى الثرباني وموت (٢) لانعاط صكوك الفئران بعد أن سقطت من يدى اليابا . وتجمع هذه القطعة المية المحورة على الحشيب بقطعة بين فكرة يوم الحساب ، ويثنه وضع اليابا في إحدى الكفتين ووضع الأيمان المسيحي في الكفة الأخرى . وبين فكرة الحساب الشخصي من خلال المحنة التي تتعرض لها روح الفرد . واتسمت رسالتها بالمباشرة والبساطة في تعبيرها عن صوم المؤمن المنقول بفكرة الخلاص .

ولن يسهل فهم التقاري لتأثير الاشارات الأخوية على المشاعر خلال القرن السادس عشر الا اذا تخيل ما ساد هذا القرن من احساس شديد بالاهتمام بالآخرة وتوقع حدوثها . فلقد تعاصرت حركة الاصلاح في عصر الرؤى ( الأبوكاليسى ) الحضر الفنى كان يتوقع حدوث تحول كبير في العالم ، وشاؤكت حملة عناصر شتى لم يخلق هذه الحماسة الرؤيوية ، وعمر كل عصر منها باقي العناصر ، وساعد على تراكمها ومضاعفة تأثيرها . واذا نظر اليها مجتمع سمين أنها تمثل أكثر المظاهر تشبها للاعتقاد الفخسي أثناء عصر الاصلاح الديني ، فأولا - كان هناك احساس قوى بالتشاؤم والقدرية . ثانيا - وجود تأثير عارم للتنجيم . ثالثا - شيوع الايمان بالاشادات والتذو وتغلغل في النفوس . رابعا - التقلب الدائم للايمان بالتنبؤات النبوية ، وألقى قدم تقسيرا روحيا مقتضا لاهل الأحداث - وأخيرا - كان هناك تار وحيث لنوع خاص من التنبؤ المتأثر بيواقيم (٣) يسر لكناش

المترجم:

(٣٤)

(★★) Touchien ملك يهوذا والابن الثالث ليرشع - حكم من ٦٠٨ لى

١٧٩٠ ق م - وسقطت مملكته أثناء حكمه في يد البابليين .

محدد موعد هذا التجمع الكبير تاريخيا والربط بينه وبين الأمل في حلول ارتقاء روجي وديوي . وفي المقام الحالي ، فإن أفضل وسيلة لهم هذه العناصر هو فهمها من خلال تمثيلاتها في الفن الديني .

وتتمثل فكرة القديري في « عجلة الحظ » . وتنتظر هذه الفكرة من أصل كلاسيكي . وسعت العرون الوسطى للتوفيق بينها وبين الفكرة المسيحية عن الصناية الإلهية . « وهي ملصق » عجلة الحظ » ، تحديرها من الكبرياء والتعالي الذي يشعر به الأموياء . فلا مناص من دوران عجلته القدر ، وإسقاطها من يتوهمون استحالة قهرهم . وهكذا رأينا جميع تصاوير القرن الخامس عشر لعجلة الحظ تصور ملكا يركب في مكان مرتفع من العجلة . بينما يسقط آخر من موقعه المتشامخ الذي يزهر به . وغالت يصعد عندما تدور العجلة ، وسرعان ما يحتل لفترة ما مكانة مثيرة . وفكرة القدر فكرة لا مسيحية بالضرورة ، ولكن حلول توفيق بينها وبين التصاوير الدينية والاعتقاد المسيحي قد اقتضى تصويرها في شكل زمام أو طليسان منبت على معض عجلته أو على رداء الفحص المثل للحظ التي يديرها ، وتسلك يد الله بهذا الزمام ، مما يجعله يبدو في نهاية المطاف كانه هو الذي أدار العجلة ، وتتحكم غنايسه في خطوط البش . .

ومن هنا رأينا قطعه من الحجر على الخشب ترجع إلى ١٥٥٠ ( لوحة رقم ٥ ) تجمع بين فكرة قديرية العجلة ، وفكرة الأمل عند صهي الظلم الاجتماعي . وترى فيها ملكا وأميرين يجلسون في أعلى العجلة . ويرى الأمير في اليسار ممسكا بكأسين من البسه للدلالة على الحياة المرفهة . وهناك حرفتان يتسلقان العجلة ، بينما يرى أحد الأشراف في اليمين قد ارتقى إلى موضع يحتم تعرضه للسقوط منه . وتدير العجلة امرأة مصوبة العيبي تثل الحظ ، ويلتفت زمام حول عنقها لتحريكها وتسلك يد يد الله القابع خلف السحب ، وهناك شخصان يربدان ثيابا رثة يمثلان الفقر ، ويصيان في حشود داعين الله لإدارة العجلة . وفي اليسار جمع من أهل المدينة والكليروس يرتدون أفخر ثياب ، وتراهم منهمكين في الحديث ، ولا يدرون - كما يظهر - ما يحرق وراء ظهورهم . وهناك شخص ملصق يقف بمفرده ممسكا بفصا ، ولعله من القرويين ، وبلغت انتباه القاري إلى المشهد بإيماءة محايدة ، أنها تعطي لمشترحي الصدر . والمنصين من غلر القدر الذي سيدير لهم ظهر المجن ، أن عاجلا وإن آحلا .

ويالتدور الرمز بين عجلة الحظ والنظمة المتشائمة على محورين ، ميان العجلة كمثلة لأعوار الانسيان ، التي تصور تعرضه المحتوم للاضمحلال .

والمرت في صورة جثة ساخرة تصبكت أثناء ادوارها للمجلة ، وفي صورة أخرى ،  
 هم الربط بين عجلة الحظ وبين فكرة زيارة الموت لكل البشر ، بازفاق  
 صورة لجثة في القبر ، وإذا كانت هذه العكزة قد دلت على التشاؤم ، فقد  
 قصد بها أيضا معنى الصرا ، فللوقت هو أعظم محقق للمساواة بين البشر  
 لأنه يحط من قدر الجميع ويعاملهم على قدم المساواة ، على أن هذه الفكرة  
 قد استغلبت أيضا اثارة تطيق يفيض بالمرارة كما يبين من القطعة الغنية  
 من الخشب المحفور حوالي ١٤٨٠ ، وفيها يرى ، تمليا (٢) جالسا والنتاج  
 البابوي يعلو رأسه ، ويقف على كلا جانبيه راهب ، تعلو يمينه يرى أحد  
 الفرائشيكيين في هيئة دب للدلالة على التسول والجشع ، وعلى يساره  
 واحد من الفوسيك في شكل ذئب يمثل الشح ، وعلى حاسي هذين  
 الراهبين يرى شخصان منتظيان لجوادين : الكريه على اليسار ، والنص  
 على اليمين ، وهناك رجل يجلس على الرقن الألقى للمجلة يحمل متجلا يرمز  
 الى الرب ، وقس ومصيف وقدح لتثليل عشق الذات ، ويرقد الوفاء  
 تحت المجلة ، بعد أن سطم أثر سعطته ، وبراء عاريا ، لا يرتدي سوى  
 مشزور ، وخلف المجلة عملاي يمثل العصر الذي سيصلح الأمور في الوقت  
 المناسب بمساواة أشخاص يجلسون في أسفل الصورة في اليسار واليمين :  
 راهب سامري يرمز الى الحب وراهبة من راهبات الشمال تمثل المذلة .

وتسرع في هذه اللوحة الابتهاه لما خضعت من تليحات عديدة .  
 فاعتمادا على الرمز والتشبيه الذي استعملت فيه تشبيهات ببعض  
 الحيوانات المعروفة ، هوجمت الادعاءات الخالية والسماسة للناس وطوائف  
 الرهبان . وتعرض للهجوم أيضا الأشراف والكهنة ، يسا عبر الفنان على  
 بساطفه على مخاللة الانساي المائل المطمون تحت المجلة . فاللوحة تعادي  
 النظام الكنسي والساي وتنسى ، بالهجوم الأحاد الذي منتهى حركة الإصلاح  
 صد المايوية ، ويبدو ذلك في نظر الرجل العادي عزاء ، لأنه لو لاد بالصبر  
 فمن يدري قد تفور المجلة ويجه الوقت الذي يرتقي فيه الى أسمى مكانة

ولعل النزعة القديرية كانت من بين نتائج دبور الاهتمام بالنجوم  
 الذي صاد العصر . ويسمى ذلك الاعتقاد بأن مصر الانسان يخضع للأجرام  
 السماوية ، وأن مستقبل الأحداث يمكن أن يعرف - تبعا لذلك - من حركة  
 هذه الاجرام . وهناك نوعان من الأحداث السماوية تتسم بأهمية خاصة :  
 النوع الأول - هو المسار المنتظم للكواكب الذي يمكن التكهّن به ، والنوع

(٢) اللعاب ويشار بطل أكثر ملحم الميوانات في المعصور الوسطى وبكثرة  
 شعبية وعرفه هذا اللعاب بالخيث والفكر وعشق الذات وهم الميانية ، وميراثه من أين  
 تشكل الكلب -

الثاني - الأحداث القليلة مثل حركة الشهب أو النيازك والرجم - ومن بين الحركات المنظمة للكواكب ، امتدحت أعظم انبعاث حالات كسوف الشمس والاقتران ( العلكي ) .

ولما شاعت أبحاث العرب في التنجيم في أوروبا الغربية في نهاية القرن الخامس عشر ، ازدهر الاهتمام بأحداث الاقتران العلكي - وابتدأ من حوالي ١٩٧٠ ، أصبح هذا الموضوع للنشر في المكتبيات ذات الغاية العملية (٥) ، أو التحذيرية التي تمكن بالأحداث الآتية في السنة القادمة ، أو السنوات القادمة ، استنادا إلى الحركات المتوقعة للكواكب ، واقترااناتها - وعلى بداية القرن السادس عشر ، تركر هذا الاعتقاد على سنة ١٥٤٤ ، حيث توقعوا حدوث ما لا يقل عن اقتران عشرين كوكبا ، ستة عشر منها مستطع شكل السمكة ، وترجع أول نبوءة عن هذه الاقترانات إلى ١٤٩٩ ، وتنسب إلى العالم الفلكي شتوفلر (٥٥) من توبنجن - فقلد فيه إلى وجود عدد كبير من الاقترانات ، وإلى الآثار البعيدة الأثر التي تترتب عليها وعلى أحوال العالم .

وفي ١٥١٧ ، سجلت الأحداث المتداولة أوعاما حول هذه النبوءة ، ولقبت الأسماء إلى ما تدر به علامة السمكة في عدد ، وتنبأوا بطوف طوعان كبير كما يستدل من اقتران بعض الكواكب - وتسبب هذا الخبر في دانه في تدفق سيل من الكتب عن الاقترانات ، بلغ عدد مؤلفيها سنة وخمسين ، ناقشوا هذه القضية في ١٤٣ كتابا في ست لغات مختلفة - ومن الطبيعي أن تصل الأمور إلى ذروتها ١٥٢٣ - ١٥٢٤ بعد نشر واحد وخمسين مؤلفا (١٥٢٣) وستة عشر مؤلفا حتى فبراير ١٥٢٤ . وبعد استشارة الألمان العبري ١٥٢٦ عندما نشر أول كتاب باللغة الألمانية - وبوقضت مسألة الاقترانات كثيرا في البرلمان الألماني حيث نشرت صفحات من الورق الجائر مصورة وطُرحت للبيع . والحق أن أوج الاهتمام بهذه القضية قد ظهر في ألمانيا حيث حدث ربط بين آثار الاقترانات وحالة القلق الاجتماعي واندلاع الحركة الانجليكانية ، وفي معرض السكهن بالكارثة الوشيكة التي ستحل بالاكليروس والهرطقة اليسوعية بوجه خاص ، استعان المنذرون الذين تناولوا مسألة الاقترانات بتصوراتهم كسافة للدعاية للحركة الدينية الجديدة ، وساعدت العناوين الكبيرة والصور الحية على رؤية الناس لهذه الاقترانات بميوتهم .

واعتقد أن الشهب والنيازك باعتبارها أحداثا غير عادية في السماء نذر مشنومة - فلا بد أن يكون وراءها بواعث أدت إلى وقوعها - فلا غرو إذا



نظر الى معرطة النيرك المعلق في امريسيهام في الازناس ١٤٩٢ على انه مدير بالتغيرات الكبرى التي مستطرا على سياسة الامبراطورية الرومانية المتفصصة بدءا بموت الملك هردريك الثاني ، واستغلال عصر ذهبي جديد . واعتبرها سمبستيان برانت كلامه رضا عن اقدام ماكسيميليان ملك النمسا على عمل جرى ضد أعدائه - وهذا يعني ان الاقدار في صفه . عليه ان يمسك بمرافق عجلة الحظ ، وان يوجه حركتها لصالحه ، وحسن التآوير التي تلاالاف في سماء فيينا لمدة خمسة ايام ابان الاسبوع الاول من يناير ١٥٢٠ . بلغفيلوس جييجنباج (٥) - وكان من المحادلين البارزين في نشر الدعوة الاتجليكانية - على نشر صفحة من الورق الحايو لتفسير مهمة هذا الحدث ، وذكر جييجنباج بحدث مماثل عندما شوهدت الأنوار ١٥١٤ ، وتلاحقت بعدها المصائب كالأوبئة والسيول والحركة الكبرى التي دارت في هلاكو . فلعل أنوار هينا تكون بمثابة نذير للملك شارل الخامس بتعرض الكنيسة للخطر ، وبأن لوثر قد اتبع الطريق الصحيح ، وعليها أن تنضمه واضين ، ونوه بحتجاج بوجه خاص بالأخطار المتوقعة ١٥٢٤ ودعا طوائفه الرعيان - محظرا - بالاستعداد للأصلاح الديني ، وبأحتمال مواتية خطر حركة هوسية جديدة ( نسبة الى جون هوس ) .

وصيبت الى الوحوش والمواليد الموقفة أهمية خاصة في لائحته الانشازات والفرد . واعتد النظر اليها كاشارات تنبه بوقوع حلول كاثولة ، وان كان بالاستطاعة اعتبارها ذات دلالات مجازية سياسية . ونشر سمبستيان برانت ١٥٩٦ صفحتين كبيرتين لحادثي مواليد موقفة : أحدهما لتوأم سيامي ولد بالقرب من فورمز ( بوضوح ثلاث ثقافات فوق القاء ) . ويخص الآخر خنيرة ولدت في بلدة لاندورز في زوتفاهو ، ولها جسمان ورأس واحدة وقدر مرات الحادتين على أنهما نذيران سياسيان - فمن ناحية - فسرت حادثة ولادة إحدى الراميات الموقفات في فلورنسا ، والتي ذاع صيتها ١٥١٢ بأنها عقوبة الهية لانكار هذه المرأة الحمل ، وأسهمت صحيفة أخرى في شرح حادث ولادة موقفة بالقرب من روما ١٥١٣ بفرضها لودولف فريس قرأت فيها الدليل على غضب الله الذي تمثل في مظاهر كثيرة كتفشي الطاعون وتفكك المسيحيين وزحف الأتراك ، وما سلب من البلاد من ثروات . وقد أنعم الله عليهم فوهبهم واحدا من أقوى البايوات القادريين على إعادة الأحوال الى الصراط المستقيم - وهكذا تحولت حادثة مولد أحد الموقفات ١٥١٣ الى اشارة الى الآمال المعلقة على اعتلاء البابا ليون العاشر لعرش البابوية في العاشر من مارس من تلك السنة .

ويحدث الناشرون المعتاة استغلال معظم أحداث الولادة المعوقة . فلا عجب إذا تلقت الدعاية البروستاتية بلهفة مثل هذه العرض . ففي ١٥٢٣ ساعدت فكره الوحشية أحدها حرافى أشبه بالأسطورة والآمر وحش حقيقى ولد مموقا بالفعل على إتاحة الفرصة للدعاية الإصحليكانية . إذ كان الرأى العام مهتما فى تلك المسة بالعات للنبوءات المنترة - وتروى لنا فى النسل حكاية وحش حرافى وعم أبه ظهر فى مهر اليسر بالقرب من روما . أما المثل الأول فيخص عجلا ولد بالقصر ب من فرابيسورج فى سكسويا فى ٨ ديسمبر ١٥٢٢ . ورغم وجود بقعة سلعاء تنوسط رأس العجل المورق ، ويرز منها تتومان ملتويان على شكل قرنئ ، وله لسان طويل يشمل من فكه وعين واحدة - ( انظر اللوحة رقم ٨ ) - وكان أول من قسر هذه الظاهره أحد أفراد حاشية المرجير جروج من يرانديورج ( الحاكم المسكرى للمنطقة ) فقال ان هذه الأوصاف تنطبق على لوتر ، وإن كانت ستفسر على أنها ترمز الى الكليروس الكاثوليكي . وقسرت إحدى الثغرات هذه الحادثة ، بأنفسا من المحتمل ان ترمز الى الكليروس . ولكنها لم تذكر اسم لوتر ، ورات أنه من المرجح أن تكون نذيرا للكليروس الكاثوليكي لشراهم وحياتهم المترفة ، ومصحهم الكتابيات باتباع للبادية الانجليكانية . ولايبد هذا الموقف استشه فى طريقة النظر الى الشاهين ، ولا اختلاف بين عدلوله الأخلاقى والبدلول الذى هدفت اليه الصفحة الكبيرة التى نشرت فى فلورنسا ، ١٥١٢ عن الشاهين .

وهناك عجل آخر احتلت قصته صفحة كبيرة نشرت قبل سبتمبر ١٥٢٣ ، واعتبر فيها العجل ممثلا للوتر . وقيل فى هذه القصة ان صورة الوحش قد عرضت على البابا من قبل عدد من الكهنة - وذكر التفسير بحدافيه عن النص المسجوع ، واشتمل على تفسيرين قدم الكليروس أحدهما وقدم المصنوع المرائق للبابا التفسير الآخر . قاولا حصل تفسير الكليروس نديرا بالرغم بان العجل يمثل لوتر ، كما تمثل التؤلولتيمان اللتان فوق رأسه سيقى الياباوية اللذين يسوى لوتر انتزاعهما من البابا . ولفسر صخر الوحش عن الرؤية على أنه يعنى ما أصاب العالم عن بكرة أبيه من فقدان للتصبر من جراء التعاليم التى جله بها لوتر . ويمتى اللسان الطويل المتاعب الكبرى التى حلت بالبابوية بعد التشهير بها . ولست القدسوة شمتا آخر غير ما سبق أن نسيا به واينهارت منذ أمد بعيد عن ظهور راعب سبتسميپ فى حفوت حركة هرطقة كبرى ، وهكذا رسلوا بين الوحش والأدب النبوى الشصى فى القرن الخامس عشر ، وتؤكد القصة صديق هذه النبوءة من ناحيتى الوحش ولوتر - وتحذر البابا حتى لا يسلم من سلطانة . فلقد ثبتت صحة عوالب هذه الولادات الشاهنة لهما مضى .

عندما ظهر محمد الذي سلبه من العالم المسيحي اميرالمويز و ٢٤  
ملكته (١) .

ويتكلم المخبول خطوات لمأرضه هذا التفسير ، ويذكرهم بما شب  
من اضطرابات من وراء الانظمة الرهبانية . هم مصدر كل شر . ويسم  
بتمثيل الوحش لشخصية لوتر ، وان وجب تفسير هذه الباطنية على نحو  
معتب ، والتؤلؤلان تدلان على الكبرياء والشح المعروفين عن الرهبان  
الدير لم يكف لوتر عن مهاجمتهم ، وليس للوحش سوى عين واحدة تمثل  
المقيسة الانجليكانية ، أي العقيدة الوحيدة التي يدعو لها لوتر . أما اللسان  
الطويل فيبني الى أي حد انتشرت تعاليمه الالهية في العالم المسيحي .  
وحرز القنصوة الى الرهبان والراهبات الذين قند لوتر سيشاتهم  
وسياتهم . واما لماذا يشبه « الوحش » النور ، قال هذا يرجع الى دلالة  
النور على القوة التي يسمع بها لوتر وقدمته على الحرب حتى النهاية  
عشما يفعل النور (١) . وينتهي المخبول تفسيره بأد يدعو البابا أدريانو  
باتباع السلوك المسيحي . ودعوة الرهبان الى التحرر من التعصب  
الطاغي ، حتى يتسنى تحقيق الإصلاح الديني . وعلى الرغم من تجاوب  
تفسير المخبول هو والحركة الدينية الجديدة . الا انه جاء بعيدا عن  
الموتورية . فكما ورد في النشرة للمبار إليها آفنا لقد رأى المجلد بديرا  
للاكليروس الكاثوليكي واستغل هذه الفكرة للمعبر عن مشاعر المصادمة  
لرهبنة ، ولكنه اقرب من نظرة الإصلاح عند الكاثوليك ، والتي عكست  
روحا متعائلة عن إمكان حقوت حركة اصلاح داخلية . به ارتقاء أدريانو  
السابع عرش البابوية ١٥٢٢ . وبالرغم من تماثلها هي والحركة  
اللونيه ، الا أنها لاكتشف عن اية علامة من علامات العداء المتصلب ضد  
البابوية في مجلتها .

واسمعان لوتر وميلانتون (٢) بفكرة «الراهب المجلد» في احدى  
النشرات التي ظهرت ١٥٢٣ . وكان ميلانتون قد بدأ بنشر تفسير  
لا يهر اليه الوحش الذي سماه المجلد البابوي ( لوحة رقم ٩ ) ، ثم عمد  
بعد ذلك . بتحريض من لوتر - الى إعادة النشر ، مصححاً بتفسير لوتر  
و الراهب المجلد . ثم تبع ذلك ينشر تفسيرين ، وشهد تفسير لوتر على  
تعددية العلامات أو الاشارات التي ظهرت حينذاك . وعلى الرغم من تجنبه

(١) Philip Melancthon ( ١٤٩٧ - ١٥٦٠ ) مصطلح بنيت بروتستانتية .

خليفة لوتر كزعيم لحركة الإصلاح الديني اليرمني . ومن اللاهوتيين الذين تأثروا  
باراموس .

صراحة أي تعمير ميوني، إلا أنه كان حقيقيا بدلالة هذه الاشارات على اقرار حدوث تغير كبير في أمور العالم . وموه بوجه خاص الى حالة مماثلة من حالات الشائهي سماها « الكاوس المحل » لتشابهها وصورة القسوس ، ورأى فيها تلميحا اليهم ، لن يحاول تفسيره ، ولكنه سيقنع بدلا من ذلك بانتملك عما يسمى الكهوت . ورأى أن « الشائهي » يكشفون لناهيه الحق لهؤلاء الرهبان ، ويوع البشر الذي يسمونه إليه . واستطرد ذاكرا بعض التصورات المجازية التي تناول فيها علاج الشائهي على المتعاقب .

علاولا يجب أن لا ينظر الى الوحش على أنه مجرد نكتة ، لأنه يكشف المظهر الزائف للحياة الروحانية والدينية القائمة على الرهبنة ، فالكاوس المحل هو الوثني الرافق القابع في قلوبهم الخيلاء المختلفة ، ولقد صور المحل في شكل قريب من شكل الانسان ، واقفا على قسيه الحلفتين . والقدم المتقدمة معلقة على حائنها ، والآخرى ممتدة كأنها يد ، ويفسر لوبر هذا الملعق بأنه يذكرنا بإيسات الواعظ عندما يحيي رأسه للخلف ، ويخرج لسانه من حوفه ، بينما يلوح مومنا بيده . . . وهكذا يكون الراهب المحل قد صور نوعية الوثاق الذي كان العالم مضطرا الى الاصغاء اليهم حينذاك رضى تلاميذ البابا ومبعوثيه - فهل يستغرب أن يكون للبابا رسول أو مبعوث له رأس عجل ١٧ ودعى في جبل المحل ضريرا تدكرتنا بتحرير القديس متى (٢٣ : ١٦) : « الويل لكم أيها المرشدون العميان » . وتدل القلنسوة بشكلها الأقرب الى شكل الأذن على طيفين الاعتراف . ويرمز المسان الى كون التعاليم الرهبانية ، لاتزيد عن مهارات وتوراة فارغة .

ويشير التواء فوق الرأس الى العلاقة المظهرية السطحية بين الكتاب المقدس والرهبان ، ويرمز القربان الى الانجيل وعطائه ، وان كان المحل لا يمي ما هو أكثر من اشارات واهنة منه . أما وضع التتويج فوق صلصة الياقوت - فقد قصد به وجوبه توافق الانجيل وما في باطن الياقوت . يسمى واداة الرهبان - ويدل وشوق ربط القلنسوة بالتمسك على - ما تصصف به الرهبنة من عتاد وقفا عريض ، ويتضح من انغلاق القلنسوة من الخلف وانفتاحها في الأمام ، عدم كشف الرهبان عن أية نظيرة روحانية الا أن يتصورون أنهم أتباع لهم . ويتشابه الفك السفلي وفك أحد الأدميين . أما الفك العلوي فأشبهه بمنخار خنزير ، وهذا يدل على طبيعة دعوتهم للقانون الالهي ، إذ كان من المفروض أن تدل الشفتان على نوعتي اللغات باعتبار الشفة العليا تمثل الإنجيل ، والشفة السفلى تمثل القانون الالهي . ولكن الشفتين بدلا من دعوتها لكلية الله أثرتا الصورة

ليخار البحر ، يصي لصالحتهم • ويلاحظ انصاب السجل بالعموم • وهذا دليل بحدته واجبرا فلما كان السجل قد خرج من بطن البقرة • فاني هذا يدل على انقضاخ امرهم امام الصالحم بأمره • وأنه لم يعد يصعدوهم ستر أنفسهم -

ولذا سمنا في قسم لوتري بالغات للسجل الرابع سبيدو لنا كانه تمبير مجازي روي عن ظاهرة طبيعية تعانى فيه عن حرص التمسح بالحز عيلات الشعبية • ومع هذا فقد نشر هذا التفسير مصحوبا بتفسير ميلامون للحمار الياپوى وهو مخلوق أبيض منقرا • ولين يستخلص منه الا سبر أبيض • فحين ترى هذا الوحش العجيب هكذا من رأس حمار وجدع اثنى ويد بشرية • ومحلل غاية وتنتهي احلى القمن بعافر والاخرى يخلط • والجسم مغطى بعراشف • وله ذيل يشبه ذيل النمل • والظاهر أن هذا التجميع الخراس لأجراء من الانسان وأجراء أخرى من الحيوان اختراع ايطالى يرجع الى نهاية القرن الخامس عشر • ويمثل الاسماحة بالاشارات والسفر فى التباحات السياسية • ورياحه فى التخصصي يعتقد أن تصوير الوحش على هذا النحو كان موجعا لهجاء البابا الكسندر السادس • أما الياه الذى وجدت فوقه الراية الياپوية فى خلفية الصورة فهو بناء قلعة القديس انطو التى بنيت كحصن لحماية الكسندر السادس • وعلا برج مربع فى يمين الصورة (\*) فى مخترق نهر التير • واستقبله الكسندو كسجن يابوى • والرسمان مستحقان طبق الاصل من أصل ايطالى • فى القرن السادس عشر • وهناك مجموعة من الصور والاشادات ترجع الى عهد الكسندو • وفشرت تقريبا موانا لطريقة حكمه • ولعل الاكتشاف المزعم للوحش فى نهر التير بعد فيضان ١٤٩٦ قد قصد به أيضا الدلالة على أنه • نذير • لما سيحل بهذا البابا • ولقد استقلت صورة الوحش فى مهاجمة السلطة الياپوية • وربما اعتبر هذا الهجوم حائبا من السخرية والهزاء من ادعائات روما أنها • رأس العالم • بينما كانت الياپوية تترجح اثر عزيمتها من القوتل الفرنسية •

وفسر ميلانخوت • الحمار البابوى • تفسيراً مماثلاً للتفسيرات التى ذكرها لوتر عن الراهب السجل • فالقطر يرمز الى الياپوية • بينما تدل رأس الحمار على البابا • ولم يعد هناك أى وجه للفرابة لوضع رأس الحمار فوق جسم بشرى • مادام البابا يتراأس الكنيسة • واليد اليمنى عبارة عن قدم قبل ( للدلالة على السلطان الروحى للبابا ) ويدوس بها جميع

الغمماثر ، لأن اليد اليمنى تدل عادة على المواطن كالروح والضمير وما يتوجب من خصوصهما لسيطرة حكم رفيق كحكم المسيح ، لا لرأس حمار ، وترمز اليه الآدمية اليسرى الى السلطة الزمنية لبنيانبا ، التي لا تكتسب الا ماناع سبل بشرية . والقسم اليسرى قدم نور للدلالة على ما يقفه خدام السلطة الروحية علما يسطيدون الروح - وعصه بهزله الخدام اساندة البابوية ووعاظها وكهنتها وكهنة الاعتراف - وبالأحرار علماء اللاهوت المدرسيون . والقسم اليسرى أشبه بمخطب عقده يرمز الى خدام السلطة الرسمية للبابا وكبار رجال الدين الذين يزدح العالم بأسره تحت نيرهم - وترمز البطن الأنتوية والتنديان للجسم البابوي والكرادلة والأساقفة والقسيس والرهبان وغيرهم من يحجون حياة داعرة كالحمار البابوي . فالمعروف أن الحمار يكتشف عن بطنه الأنتوية العارية .

وترمز الجراشفت التي تغطي الفروعين والرقعة الى الحكام الزمانيين . وهم يتلقون بحضهم ببعض . وعلى الرغم من عدم تجرؤهم على حماية الشهوات السافرة والرغبات المكشوفة التي تمثلها أعضاء الجسم التي لم يسروها ، الا أنهم يوفرون لها الحماية عن طريق سلطتهم الروحية ومصلطتهم الزمئية ، وتمثل رأس العجوز خلف النبي تدهور البابوية ونهايتها ، وما مستعرض له من تحطم وانتهاء أجل ، أما التنين الذي ينمط النار من مؤخرة الحمار البابوي فهو ليس شيئا آخر غير المنشورات البابوية المسممة والكتب الفاجنة للبابوية - وأخيرا فإن الوحش الذي مثر عليه ميثا من نهر التيبر ما هو الا نذير بهاية البابوية . ويؤكد العثور عليه في روما صفة التفسيرات آتفة الذكر ، ويربط ميلانتون من خلال تفسيراته أيضا بين الوحش وصفات المسيح البجبال ( دانييل ) . ويدكر ميلانتون أن الحمار البابوي قد أثبت صحة ما يقال عن وجود هوية بين البابوية والوحش المسيحية الزائفة الموسوقة في الرؤى الدينية -

ولا يستبعد أن يرجع الاهتمام الواسع النطاق بهذا النوع من الدعاية الى ظهور الوحوش بالقل ، وربما دجع أيضا الى ملذكر عن دلالتها المجازية على أن هذا الاهتمام لم يكن مجرد حب استطلاع فارغ ، أو تمطش للأنارة . والأصح هو رده الى الاعتقاد بأن الطبيعة تنفكس حكمة الله . فالوحش عبادة عن صبح للطبيعة ، ومن ثم فإنها تعد تشويها لخللاق الله - ولقد سمح الله بها لكي تكون اشعارات تنمرف منها على معنى القوضى ، وان كانت

ماهيتهما قد جاءت معاكسة لهذا المعنى ، وبعبارة ذلك ، يمكن القول بوجود علامة وثيقة بين الوحوش والخطيئة ، فالخطيئة عبارة عن صورة مصورة التي عند الإنسان ، والذي حولها الى وحش ، وهكذا يكون الوحش قد بلغ قريب الصلة بأصل خطيئته ، يسمى الشيطان - وصح انخاد الوحش كتميم مرئي عن الشر ، وهكذا من المباح استعمال فكرة الوحش ليربط بين البابوية واعوانها والشيطان .

ويمقدورا أن نلمح هذا التصور معبرا عنه في لوحة أحسرى (\*) (اللوحة ٨) وفيها يرى الشيطان يعرف شتماته داخل إحدى الراهب ومجابهة الأشبه بمختار حزير - غير أن فكرة هذه اللوحة ليست تصوير الشيطان حائسا على كتمين راهب ، ولكنها تمثل الراهب كوحش براسي ، بعد أن أقمع الشيطان والراهب والفا كيما واحدا ، واستغل الشيطان الراهب كاداة له . ولقد ضاعت فكرة الوحش كممثل للهوية بين الشيطان والراهب في دعاية الإصلاح الديني . وأمكن التعبير عنها في صورة بسيطة كمردن لأحد الكتب التي ألفها بافيلومس جييجياح ( ١٥٢٢ ) - ومنها يظهر راهب بمخالب كبيرة تحت ودائه الرهباني . ويرجع هذا النوع من التصاوير بالذات - فيما يحتمل - الى المثل الشعبي الذي ظهر قبل حركة الإصلاح ، ويربط بين الرهبان والشيطان ، عندما قال القروي : « قلة البخت لها ثمان برصتان » لدى رؤيته الراهب قادما ، وتنقلنا صورة الراهب كمشيطان متخفي الى ملمح آخر للوحوش في الدعاية ، فليت فيه الفكرة راسما على عقب ، واعتبر الطابع الانساني للمخضم قتلعا يستتر وحش وراءه . وكانت هذه الفكرة هي التي نشرت في صحيفة كبيرة من ورق الحابر وصورت الكسندر السادس وله ذيل عندما يرفع يكشف البابا على حقيقته . ( شكل ١٠ - )

وهي بين أشد الكتب إثارة للاهتمام من بين المؤلفات المثيرة للخلاف والتي ضمت بعض الرؤى ، كتيب صغير نشره قس بورتيج ( ١٥٢٧ ) : « النبوة العجيبة للبابوية » ، وقد استند الكتاب على مؤلف ينسب زفا الى يواقيم (م) وقد اكتشف الراعي أوزياندر (م) نسختين منه في مكتبات تورسج ، ويؤلف الكتاب من مجموعتين من النبوءات المصورة ، وتحتوي كل مجموعة على ١٥ صورة ، وتطل كل منها البابا مصحوبا بمباراة مقلدة

The Devil's baggage.

(١٤)

(\*) اسم الكتاب النبوة العجيبة للبابوية للفرانس اوزياندر

(\*) اسم الكتاب النبوة العجيبة للبابوية للفرانس اوزياندر

Vaticinia de stragis pontificibus.

لجانب من شخصيته على شكل مزورة . وتركزت هذه النبوءات على البايوات  
العهسي والمدهسي . كما أشارت الى بايوات المستقبل الذين ينظر فيهم  
بمور المسيح الفجال ١٠

والظاهر ان أورياندر (\*) لم يكتف بالتمقيب الذي ورد في السبعة  
التي اكتشفها ، فلقد صرعا تيمنا للصطور اللوتري ، فكيف نبوءاتها حتى  
تتواءم واحتياجات الدعاية الانجليكانية . ولم يحتفظ كأساس لطبيعته بأكثر  
من ثلاثي صورة ، وأضاف لكل صورة معقبا مقتضيا ، مصحوبا بآيات  
من الشعر لهنسي وأكس . ويشير هذا الاجراء التناؤل عن مدى الجدية  
التي نسبها أورياندر للطبيعة النبوية للأصل ، ومن المؤكد ان تهليله  
لطبعة ١٥٢٧ قد حمل طابع التشكيك كما يبين من قوله : « على المسيحيين أن  
يتلقوا العلم من الأسعار المقدسة فيما يتعلق بالاشياء التي ينظر حدودها .  
أما فيما يخص الأحداث اقريبة العهد ما الآن فاننا نلاحظ انتباه الناس  
الى الكليات والنبوءات الأدهة بقدر أكبر من اهتمامهم بكلمات الله ١٠٠٠ » .

وتصور أورياندر مؤلفه كنسوة مصورة . فلم يعبر عنها بالكلمات ،  
والتقى بالصورة وحدها ، واستغنى عن النص المكتوب باعتبار الصور أقدر  
مه ، كما حدث في كثير من الأحيان ، ومن هنا جاءت اسلمة تفسير النبوة .  
ولتقديم الفوق لليسطة أضاف أورياندر بعض الشروح ، وان كان صحيح  
العقلاء سيرون أن الصور لا تحتاج لأية إضافة . وقصارى القول فقد بينت  
هذه الصور خط سير البايوية منذ تحولت الى طليان الى نهاية العالم .

وتعد الفترة التي ألفها أورياندر محاولة تثير الانتباه لابرار الأصل  
الزائف الذي ينسب ليواقيم وتحويله الى نبوة عن الحركة الانجليكانية ،  
والرابط بينها وبين الأحداث ، واصفاه طابع الشرعية على السومة ، وهناك  
وهران لهذا الاحراء . وتمثل الوجه الأول في القول بأن النبوة القديمة  
قد صلتت عندما ظهر لوتر ، وما تلا ذلك هي أحداث في عشرينات القرن  
المينيس عشر ، وما الحركة الانجليكانية الا وعد اتخذ شكل الرؤية باعتبار  
الحو قد أصبح ملائما لبلوغ العصر الأخير قبل ظهور المسيح ، وتشترك  
النبوة الحصة هي الأعمال الدعائية الأخرى في توصيلها الى روح الذي  
التي سادت العصر ، ولقد حار المفكرون والكتاب مسووا تناولوا الكلام  
عن الشهب أو الاثرائات والقو والوحوش والرؤى والنبوءات في تنسم  
مقدار المصادقية التي تنسب لهذه الظواهر ، وأدى تفوز حركة الإصلاح

(\*) Oulander (١٤٩٨ - ١٥٥٢) من علماء اللاهوت الاثان ، ولد في  
مؤلفاته كتابات عديدة ، وكان رئيسها فيلثنتون .



من الخزعبلات التي تظهر محاولات للتفسير الروحي ، ليس أنها اعتمدت اعتمادا كبيرا على الايمان الحرفي باحتمال تقبل مثل هذه الاشارات لاكثر من تفسير ، وهكذا لم تقطع العناية الانجيليكانيه عن مواصلة الشعور السابق للاصلاح ، ولعل الأرجح هو أنها استغلته ، وعلى ضوء المشاعر الدينية التي أثارها ، يمكن القول بأن العناية قد آكلت معومات الاعتقاد الشعبي ، ومنحت نطقه •

## المراجع

- Peter Huckle, *The Revolution of 1525 . The German Peasants' War From a New Perspective* (1981).
- Peter Burke, *Popular Culture in Early Modern Europe* 1578.
- Natalie Z Davis, *Society and Culture in Early Modern France* 1978.
- Roland C. Finucane, *Miracles and Pilgrims Popular Belief in Medieval England* 1977.
- A. N. Galpern, *The Religions of the People in Sixteenth Century Champagne* 1976.
- Carlo Ginzburg, *The Cheese and the Worms . The Cosmos of a Sixteenth Century Miller* 1980.
- Emmanuel Le Roy Ladurie, *The Peasants of Languedoc* 1974.
- James Obolkevich (ed.) *Religion and the People 800-1700* (1979).
- Steven Ozment, *The Reformation in the Cities* 1975.

## عهد الملك هنري الثامن

### ج • ج سكاريعبريك

حدث حكم هنري الثامن قصيرا في وجه انجلترا فاق ما حدثته  
ايه حادثة. وقعت بين الغزو النورماندي والثورة الصناعية ، فقد استهل  
هنري الاحداث التي غيرت بدرجة عميقة وباقية السياسة الخارجية  
الانجليزية والحكومة الداخلية والعدالة والدين ، وقد احبه شعبه ، ولكنه  
لم يحرص دائما على تحقيق افضل مصالح هذا الشعب ، واثبت  
مستشاروه بالمعصية . فمن دان لهم بالكبر قرر من نجاحه انهم كانوا اكثر  
ولاء له . من ولاته لهم ، ويقض بعد التمكن في البحث احتمال الاختلاف  
حول الحكم على متجزاته . فلك وعدد باكثر مما اعطى ، وبمر بمقدار  
ما اتقنا وتحت سياسته النجبة الى احداث تصدع في الامة ، وتعرضت  
الموارد المخصصة للتعليم والخير للنفق الشديد ، والمحق بانجلترا  
خسائر جمة في عظماء شخصياتها من رجال ونساء ، وبدد نقاش نفقة  
ومعمارية ، واستولى على ما يند واضافه الى ثروته الخاصة ، وعاد حل  
الانيرة الانجليزية بمواقف عكسية وخيمة على نحل الكليات والكنائس  
والكاثدرائيات والجامعات . واستغل هنري الكثير من ثرواته المقتضية  
في الانفاق على الحرب مع فرنسا وتعميد اسمه ، وزاد من معاناة  
الشعب الانجليزي ، وينتو الحكام البروتستانت في القارة الأوروبية  
بالمقارنة به اكثر سخاء وانصافا بالروح البناءة . وعن آيات تلك قيامهم  
بمصاد حقابل ما صادروا من ممتلكات وارضى تملكها الكنيسة .

وكان قد بلغ السادسة والخمسين من عمره عندما فارق الحياة ،  
وحكم رماه سبع وثلاثين سنة وثلاثة شهور . واستطاع الاستمرار على  
قيد الحياة رغم ما صادف من اعداء ومحتالين وحمران من الرعاية  
البابوية وتبرد وتهديد بالعرز . فلقد مات في فراشه ، ونقل مرش  
ملكه بكل اطمئنان وسلام الى وريثه . واكتسب لقب « حامي الايمان »

---

نقله من كتاب Henry VIII تأليف J. J. Scarisbrick (١٩٩٨)

الذي مازال ملوك إنجلترا يزعمون به . والف كتابا مازال يقرأ بين  
الفنية والاسرى . وأبدع لحنا غنائيا ما زال يلقى ، وشن الحرب على أعداء  
انجلترا القداس . وقاد بنفسه هجومين على فرنسا ، واستمر رها  
اربعين سنة من الشخصيات التي يدعى اسمها كالطبل في شتى أنحاء  
أوروبا . ويحسب لها كل حساب عند النظر في أمورها ، ويستطلي  
بديناميته كل عبة تتعرضه مثلما لم يفعل أكثر من قلائل من أسلافه  
إن وحدا . ولقد نحى البابا والإمبراطور ، وأسس كنيسة قومية في  
انجلترا وأيرلندة خاضعة لسلطانه . ومما من الوجود ألب دار من دور  
العبادة عن موطنه . ومي بقاع أيرلندة الخاصة له . وصحب الملكية  
الانجليزية بصفة وقور عميقة . ورغم تعطيه الكنيسة العسابة في  
انجلترا ، وارهائه أرواح الرهبان والكهنة . وتحكمه في المشيدين ،  
إلا أنه بشر الأسعار الشعبية المخفضة - بعد تردد - باللغة الدارحة .  
ولعل هذا قد حدث دون قصد ، وإن كان قد صمم على ذلك ، وقاد بلاده  
نحو حركة الإصلاح الديني الأوربي . واتبع هذه الحركة اتباعا كاملا  
أثناء حكم ابنه وابنته الثانية . كما أشعر شعبه بأحاسيس حديد بالوحدة  
الانجليزية القومية عوضا عن الشعور بالتبعية للبابا والخضوع  
لرعائه . بعد أن حرر الانجليز من الخضوع للبابا . وعلى حد قول هيري  
الثاني : « لقد امتدت إنجلترا بعد اعادتها للسياسة الأوروبية وتمتعها  
للتوى الخلاقة الهائلة للإسحاء البروتستانتى الأوربي ، والتي أعلنت في  
ذات الوقت عن تنكرها للولاء لأي سلطة خارجية ، بعد حكمة - وبلا مراة -  
إلى تحقيق وحدة كلية سياسية حديثة بفضل القضاء على الكنيسة المستعنة ،  
والنجاح في تجميع ويلز في نهاية المطاف ، وتهديد حريات عديدة ، وإحياء  
المجالس المحلية في الشمال والغرب التي بشرف عليها المجلس الخاص الذي  
استطاع في أربعينات القرن السادس عشر توطيد نفسه ككيان علوى  
متففى قادر على كل شيء . ويتميز أولا الاضادة بفضل توماس  
كرومويل الذي زود حكم انجلترا بالكثير من « القفزة على إدارة دفة  
الحكم » . فلقد انصف الجهار الادارى بمظم كفايته وقدرته التي  
حانت قلوته إلى أى عهد مضى . وتميز أيضا النظام القضائى  
( بفضل ولزى إلى حد كبير ) وقد يدل - في أغلب الظن - جهه كبير  
لتهذيب المجتمع ، بعد أن ساد العنف . وأمكن كبح صياح الذهباء  
ومرغمهم في الشمال والغرب ، إلى في المناطق البائسة من البلاد .  
وساعد الوجود القياى لهنرى والمكانة المرموقة لامله والسلطان المتزايد  
لاتبئنه في الحكومة المركزية والحكومة المحلية - إلى حد كبير - على  
ندعيم صفوفه قوته ، التي كانت تبرز صلتها برعيته ، والتي

كثيرا ما مرت بجهود كانت فيها شبه المستنقع ، دائمة الطقح ، وعندما اقتضت الضرورة كان هنرى يتصدى للولايات المحلية ويرتفعها معه جدا . وبمرّة أخرى يقول ان انجلترا لم تشهد امتدادا لسلطة السيادة وتماسكها تائل ما حدث في ثلاثينات وأربعينات القرن السادس عشر ولم تظهر من قبل مؤلفات هذه الموسوعة التى أمر بتجميعها (\*) وعرض أنظمة خاصة بتعيين الرؤساء ، وطريقة تعاملهم لشغل الوظائف العامة . وقد برز صناديد دور المصادرة وتوزيع مستلكناتها ، وحرص مراتب باعطة على اراضى عامة الناس والكنيسة ، وحشد قوات كبيرة لشن عمليات بحرية وبرية . ومنلت جميع هذه الخطوات هي والثورة الكسبية والعقائدية التى حققتها ، عرضا مركزا للسلطة وتجميعها تحت قبضة شخص واحد على نحو لم يحدث حتى ذلك الحين ، ولو صح وصف المستحدثات الادارية في سنوات حكم كرومويل ( وبعد ذلك ) فانها كانت رجعة الى الممارسة الوسيطة للحكم على الطريقة البيروقراطية خارج البيت المالك ، - بعد تركيزها الشديد في ايدي هذا البيت سنوات طويلا - بدلا من تسميتها بالحادث المصرى . الا أنه سيطر من الحقيقي القول بأن انشاء اربع محاكم مالية جديدة قد دعم قبضة الحكومة المركزية وسيطرتها على المملكة ، واخيرا فانه لم يسبق أن اضطلع البرلمان من قبل بمهمة تنفيذ مثل هذا البرنامج الرحيب واصدار تشريعات سائلة في اتساع مداها وآثارها ، كذلك التى صدرت في لائحة القوانين الصادرة بين ١٥٢٩ و ١٥٤٥ ، ولقد تضمن هذا البرنامج لوائح الاستشفاء القضائى ولوائح ميادية كحل الاديرة ومساعد الانشاد الدينى ، وقوانين الخلافة على العرش ، والخبانة ولائحة البنود الممتدة وأول قانون للفقر . وهكذا يتضح مدى الأثر البعيد الذى تركه حكم هنرى في شتى الأنحاء على العقلية الانجليزية والوطن الانجليزى، ولقدى فاق أثر كل حادث آخر في تاريخ انجلترا في الحقبة التى تقع بين قدوم النورماندين وظهور النهضة الصاعدة .

### \*\*\*

كان هنرى شخصية عاقبة مهية الطلعة بعيدة الأثر ، وبدا على الأقل لبعضهم ممثلا لكل ما يتطلعون اليه : ملكا شامسا فظا ، وطنيا واثقا من نفسه ، يسود بلاده ولا يخشى أحدا ، وعلى نهاية حكمه اللديد ، ورغم كل شيء ، فانه ظل يتمتع دون ريب بوالى الاحترام و المحبة ، التى رسا بلىثيرة للعشيرة حقا ، ولقد ربح النظام الملكى لى ما يدنو من عبادة الأوثان . فنظر اليه على أنه خلاصة للروح

الانجليزية (\*) ، وبذرة تجمع روح القومية المنتفضة . وبعد أن رحل .  
لم تتكرر سنوات حكمه بتدرجة ماثلة قط .

ولكن ورغم كل قدراته المهيمة ، ورغم ما أظهره بلا شك - أحيانا -  
من سحر ومسامحة ووداعة ، ورغم كل ما كان يوسعه منحه وبقيته من  
مشاعر ، إلا أنه من الصعب تصور اقتدائه على أي قبل دال على الكرم  
الحق والخيرية الحقة . ويصعب أيضا أن نعرض تسمع حتى من سموا  
بتقديره وإطمانوا طاهريا مثل جان سيمور أو توماس كريس يخصصانة  
بحول دون إزاحهم لو بدا له أي دفع وراء مثل هذا الإجراء . ولم يند  
مسميها تعرض المديدين ممن اقتنوه بأدراجهم ومحوه الكثير ، ولكنهم  
مارحوا حاسا ، لعنصر المصير ، وفي بعض الأحيان استخذ صورة الشخص  
الذي يحسن احساسا صحيحا بمزاج شعبه وعقليته - رغم جميع الصفات  
التي اتصف بها ورغم ما فعله للمقربين منه - وأنه اضطر كملاذ أحسن  
إلى عدم التناهي عن أعمال يعض الأشخاص رغم اتفاقه غريزيا معها على  
الدوام ، غير أنه ليس من اليسر تجسيم هذه الصورة الحية . والقول  
بأن كبح جماح هنري عن طريق مشاعر رعاياه كان أمرا ميسورا قوله  
صحيح ، ( وجدت ذلك في السنوات ما بين ١٥٣٠ و ١٥٣٢ ) ولكن  
الرغم بأنه كان يرى السياسة بمنظور عقلية شعبية ، أو أنه كان يتوقع  
أن تمرق مثل هذه المخطرات إرادته ، على نحو جنى . ولفترة طويلة ،  
يحتمل التشكك . ولربما كان صلوفا عندما قال أمام البرلمان ١٥٤٣

« أنا لن نقف في أية لحظة وقعة متعالية بحكم منصبنا الملكي مثلنا  
سنت في عهد البرلمان . فأنا بمثابة الرأس وأنتم الجسد ونحن شركاء  
في جسم سياسي واحد » . بيد أن تشبيه الرأس والجسد كذلك يحمل  
معاني متضادة ، فنحن إذا نظرنا إلى مخططاته لن نستبعد فضلا أن تكون  
الرأس هي المهيمنة والجسم هو الذي يطيع ، وإن كان علينا أن لاننسى  
أن « الزئبان » يوجد في الرأس ، وليس من شك أنه كان يستعين بالبرلمان  
لا اعتماد تترميزات برناصحه الخطير ، وما كان ليخطر بباله قط أن يصل  
غير ذلك ، ولكنه ما كان ليتوقع قيام البرلمان - مهما بدا في ذلك من  
صعوبات من حين لآخر - بحزماته ما يرغبه جديا ، مثلما لا يتصور  
اقتلام أية هيئة قضائية على رفض ادانة شخصية سياسية هامة .

لقد دفع هنري انجلترا ثلاث مرات لمحاولة فرنسا ، حروبا لم تعج

مها الا القليل ، اى مالا يريد من ماري كلب پولنوج (\*) كما يقول  
الانجليز ، وجاء دولي هاستي ، وترك عسلافة اجسرا باستخمس ،  
التي لم يتناولها بصدق ، في حالة اضطراب دعوى ، حتى اغلب سبواب  
حكمه تجاهل تماما العوالم الجديدة وروا البحار مفضلا عليها بدلا من  
ذلك متابعة طموحاته المتيقة عبر الفضال ( بحر الماش ) مما عرض  
القوة البحرية للوهي لاكثر من جيل - حقا لقد حاول في احدى المرات  
( ١٥٢٦ ) تحريك شعبه لاتباع الرحلات الرائدة للمكتشف كايوت (\*)  
ولكنه فشل - ولم يحطى، سوى عندما تركت التجارة الاميليرية الخارجية  
على تقدير للتسويات غير المكتملة الى انفرنس ( يهولاندة ) مما ساعد  
على اتمام هذه التجارة بسرعة فائقة ، واذي ذلك الى اتمام التجار من  
المخاطرة في اى مكان آخر ، غير ان الرحلات الانجليزية ١٥٧٩ و ١٥٢٧  
و ١٥٣٦ ، ودفاع روبرت ثون عنها توحى بامتداد انشطت يافانكل  
و كايوت ، او كايوتو ، ولو تذب هنرى لهذا الامر لما كان من المستبعد -  
بالتاكيد - ان ينهض بهذه المهمة ويجمع ثوبا .

ونقد برود القبول بأنه اسماء تناولى قضية طلاقه ، وهذه مسألة  
تحتل الخلاف في الراى ايضا ، لأنه بالرغم من وضوح تلغفه لاسباب  
ولى عهد ، كما اثبتت الأيام ، الا ان هنرى قد عرس اجسرا لمخطر سياسي  
دامم عندما انكر رواجه الاول ، وربما تعاضد ذلك لو انه رضى بالأمر  
الواقع ، واكتفى بترك وريثة لخسجة قادوة على حمل رسالته بعد رحيله ،  
ولو أنه مات خلال السنوات الواقعة بين ١٥٢٧ و ١٥٣٧ ، يعنى في الفترة  
التي تقع بين اعلان الطلاق ومولد ادوارد ، لما كان من المستبعد حدوث  
أزمة شديدة مع ماري ، لعل اليراث ذوقه ريشموند بعد ١٥٣٣ كانت  
سنتهى هي وآخرون بعد ذلك على أنصار لهم وخصوم ، ولو أنه مات في  
الحقة التي تفصل بين موت آد مولين ومولد ادوارد ، يعنى في اللحظة  
التي لم يكن له فيها ولى عهد شرعي ، لما كان من المستبعد أن لا يترك  
موراغا كبيرا ، فلقد ظلت مسألة الخلافة زهاء عشر سنوات غير مستقرة  
لدوحة خطيرة ، ومع هذا فقد شعر هنرى بالارتياح بعد أن استخلف وريثا  
صغيرا ، وأدت الاضطرابات الشرسة التي صاحبت حكم ابنه والتجاذب  
السياسي الملحوظ لابتته الصغرى الى ظهور موقف يدعو الى السخيرية من

The princely doghouse.

(١٢)

John Cabot (★★) - من اصل ايطالى اسمه الاصلى Giovanni Caboto

اشتره تيان حكم هنرى السابع في اكتشاف جزيرة داس بريتوت ١٤٩٧ أو عن أنفاه  
اسميا -

ويجانه المتشرة . ولو أن ماري كانت الطفلة الوحيدة واعتلت العرش ١٥١٧ بعد أن أمضت فترات صباهما وبنوتيتها على نحو طبيعي ، وتزوجت روجا سفيدا ، يقول « مثلا لما تزوجت ماري في بعض اسابيع التصرف مع شخصه ، وليس من الصعب تقدير لماذا شعر ماري بالهم ١٥٢٧ ؟ لقد كان الملك موهوبا أشد بمتسكلة الخلافة على العرش ، وأقصد بذلك أنه حاول حلها ولكنه فشل فشلا ذريعا زهاء عشر سنوات . ولم تحل هذه المشكلة حلا موفقا فيما بعد -

لقد شهد الحكم الذي حقق تكاملا سياسيا واضحا للمملكة تصدعا ديبيا متآخرا من نوع لم يعرفه من قبل المجتمع الانجليزي ، وما لبث أن اشتدت موارته ولزاد تمقيده ، ويجر في ذيله تصدعا في جميع مستويات هذا المجتمع . وفرق بين الجار وجاره وبين الأب وابنه ، وخلق حالة من التفكك لم يتمكن من المرء عنها تماما حتى الآن . ولم يكن مستبعدا حدوث ذلك على أية حال ، على نحو أو آخر ، فليس هناك أي شيء يفقده عزل انجلترا عرلا دائما عن أوروبا ، بعد فتحها إلى البروتستانتية ، ولكن تبلى هناك إحدى الخيوط التي لا تحتمل المزاج ، وهي يد امداد التمرق إبان حكم ماري ورغم محاولاته خلق وحدة قومية تلتف حول رئاسته العظمى أن هذا الملك ، الذي كان أغنى ملوك العالم المسيحي ، وهذا وكأنه قد أتقد التاج إلى الأبد من تكرار الضائقة المالية التي ألمت به في القرن السالف ، قد ترك بلاده ترزح في براثن الدين . أن هذا الملك الذي أبدى استعدادا الدائم لاستعراض رعايته الأيوية للكونولث قد أدب عندما تحرش تحرشا خطيرا وعيث بأرغف أعصاب المجتمع وأشدح حساسية ، يعني عملة البلاد ، فاقدم على تخفيض قيمة العملة الانجليزية على نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد ، حتى يحصل على تمويل سريع لحرويه ، وليس هناك من ينكر أثر محاولة بخس العملة الفضية في تشييط التجارة مع أنقرس ، أو ينكر إرجاج ما حدث من ارتفاع في الأسعار في القرون السادس عشر ، وهذه ظاهرة أوروبية — إلى زيادة عدد السكان وازدياد سرعة تداول النقود — وهذه العوامل في ذاتها كانت نتيجة لمؤثرات شتى كالمصائب الباهظة والاتفاق الحكومي والأثر الفعال السريع لارتفاع ثمن الأرض بعد التهافت على شرائها ، وانساع نطاق التجارة ، ومع هذا فإن الريادة المفاجنة في مجموع الأصناف المتداولة في الدورة الاقتصادية والتي ترتبت على الانحلال كان لابد أن تعجل بتورط انجلترا في فح التضييق وقفرائه ، واتضح على طول المدى أن الميت بالعملة مخاطرة جسيمة .



لقد وصف هنرى نفسه بالتخصص القادر على تحليل الكنيسة الانجليكانية من أى ارتباط ، غير أن أسرافه فى التسيد كان أشد وطأة من صرامه الباباوية ، ويكشف ما تضمنته يسود القيود عن العيب غير المحتمل والذي ينوء عنه أى كاهل للضرائب التي فرضتها البابوية ، إلا أن اللائحة الضريبية التي صدرت ١٥٣٤ قد ملقت فى أغلب الظن عشرة أمثال ما كان يدفع من ضرائب سرية من رجال الكنيسة لروما قبل أن يحرهم هنرى ، وبلغت حوالى ثلاثة أضعاف المبلغ الكلى الذى دفعوه حتى ذلك الوقت ، أى ما دفعوه من قبل لملك والبابا معا ، وبذلك يصبح القول بأن البابوية كانت أهون القسرس فيما يتعلق بالضرائب ، أن جار القول بأنها لم تستعج بأية مميزات أخرى .

لقد أزهق هنرى أرواح أفئذ من الرجال والنساء من أمثال كاترين الأرجونية وتوماس مور وآسك (\*) وكرومويل ، وساق الكاردينال الأكبر فيشر إلى الترحيب . وكما كان يشتكى تكرار هذه الحرية آخرون مثل بول ، ولوى حصون حصوات قليلة لمحتضت مشات الأبنية الرائعة ومن بينها أروغ آيات الجمال فى هذه للملكة على حد قول آسك ، واختفى أيضا العديد من المدن القليلة المربعة والتي ما زالت آثارها شامخة ، اختفت من على ظهر البسيطة بعد أن مساعدتها وزينتها طويلا ، على أن هذا الحق الكامل فى الحاق الدمار الذى أشعل هنرى فتيله لم يقتصر على توشيم الأحجار والعقود والأبراج والمناورات والمسلات ، ولكنه طال أيضا الزجاج الملون والمائيل ومقاعد الكوروس والستائر والأطباق والآلوية الكهنوتية ، وجميع المنتمات الفنية التي تمتد من مخاضر هذا العصر ، ولعلنا لن نستطيع حصر الفانس التي فقدتها كل مدينة فى إنجلترا وكل ركن من أركان الريف فى السنوات الثلاث ، أو الأربع التالية لسنة ١٥٣٦ ، وليس بمعذونا أيضا تصور شعور العمال من رأوا أو سمعوا عن انقراض إحدى الكاتدرائيات الكبرى بعد أن تحولت إلى آكوام من الرصاص والأحجار والآتية . ولعلنا سنحجز أيضا عن تخيل ثورات الصحاح للمجانب والمبهرات التي ستبهر أعينهم عند زيارة الأضرحة والنصب التذكارية التاريخية التي أقيمت لأمنال القديس تومس الأكريسى في كانتربري ، وللقديس موزين (\*\*) فى ونشستر وللقديس ريتشارد فى ششستر وللقديس كاتبرت فى دورهام بعد أن

(\*) من أمثال Fountains و Evesham و Winchester  
Tewkesbury و

(\*\*) ومع جميعا على وجه التقريب من مشاهير رجال الدين الانجليكان الأراى

أصر هنري بولانتها من الوجود ، أن الرجل الذي يز الآخريين من ملوك تيودور عينا سيد وبني من آيات ( وأن لم يبق منها الا العليل ) هو نفسه الذي صر أحمل الصور وأبهاها ، وغير ذلك من الأعمال الفنية ، والتي فاق عددها ما عدده البيوتان . ولم يتكرر منذ عرا المدارس كيون اجلنرا أن تعرض للتدمير الكثير من المزارب المقدسة والعديد من أحداث تهشيم النحاس مثلما حدث على عهد هنري الذي ضرب الرقم القياسي في هذا المصمار .

وما من شك أن كثيرين قد شغروا بالنسطة عندما شهدوا هذه الأحداث ، وروا كيف دخلت الإمة الانجليزية عن حاصب كبر من ماضيها . فلابد أن يكون أصار اليرموس قد صادفوا أمثها كثيرة تستحق تدهم والأثر بالمثل فيما يتعلق بالتحقق على وضع اليد على الأراضي المتزعة من الرهبان . ونسب بعضهم الحطوات التي قطعتها استحلرا في سبيل الامتناء الى دين بالمس الصحيح ، والتي انسست بالتردد والميرة مما أدنى الى تدمير مصدقتنا بده اقلاع الكثير من الشرور العتيقة الا فيما بدر . وتعرضت التعددية الكنسية وعدم الالتزام بالاقامة في مكان العمل لحاصب يسير من الاضطباط وكبح الحياح ، مما صعب القضاء عليها . وترايد عدد الجهال من القسس ، الذين لا يعرفون كيف يظنون ، واتخذت المصدارة مظاهر أخرى كمصادرة الأمثة الشخصية وسقط المتاح وانسراع الألقاب التي صنعها الانسان لتتريق من يشغلون الوظائف العليا بالكنيسة كاتب رئيس التسامسة ورؤساء الأبرشيات ، وبهت قصور الاساقفة والمضرين في الكنائس ، والخلص من القانون الكنسي القمي ( كما كانوا يقولون ) بالاضافة الى باقي المحتلات اليابوية التي خلقتها الكنيسة الرومانية كضرائب العشورية وصكوك الحرمان من الفجران ، والمجموعات الثلاثينية لخليط القداميات والمراثيات والزيت المقدسة والتبريكات والشموع المقدسة . ولم تبد حركة الإصلاح في تظسر الكافة قد بدأت حقا . وشكنا أصحاب حقائق الكروم من عدم وجود عمال لحصصاد محاصيلهم . فلم يتبق من العمال الأمناء المخلصين الا قلائل ، ولم يظهر \* الرأس الأعظم \* ، يعني هنري ، الا اليسير من الاحساس بما يتطلبه العمل المراد ايجازه في سبيل الله . فقد اتخذت الأولوية ازالة مخلفات أعمال عبادة من الاصرافات التي خلقتها روما . ثم انضح في آخر الأمر أن هناك شعبا جاهلا جائعا يتحتم اصلاحه .

غير أن ثمة اتهامات أخرى بنا لبعضهم أكثر خطورة ، ولابد من توجيهه للملك . فليس من شك أن هنري قد أيقظ الآمال ، عندما ركز جهوده

الانتقامية على الكنيسة الإنجليزية . وبخاصة ضد نظام الرهبنة الإنجليزية . أقلم يكن من واجبه أن يستثمر الثروات التي كانت في خزانة أدبيرها آتية لأغراض جادة ، يهي للغايات الربوية والاجتماعية . فلم يسبق إطلاقا أن اتبحت الفرصة لأحد الإنجليز لكي يستمتع بسلطة كبرى تساعد على توجيه مثل هذه الميراثات الكبرى - والتي مستخدم طويلا - لصالح الأمة مثلما حدث لهذا العامل عندما وقفت بين أيديه مثل هذه الثروة الضخمة والأراضي الشاسعة التي كانت تحت إمرة الرهبنة الإنجليزية ، ولم يسبق قط أن تمتع أي ملك بحق التصرف في هذه الأسماء تبعا لمشيئته . ألم يكن باستطاعته الاستفادة من مصادر ثروات الأديرة لبناء أعداد كبيرة من المدارس والمستشفيات ، ومع الجامعات هبات سخية ، وإنشاء طرق علوية ودور حيوية ، وربما شن حملة كبرى ضد الفسق ، ألم يتمكن ولزي ذاته وجون فيشر وريتشارد توكس - مع الاكتفاء بذكر كبار معاصري الملك هنري - من استثمار هبات الأديرة في أهداف طليمية ؟ ولو صح أن هنري كان يرغب في اتباعهم ، لكان بوسعهم الانتفاء بهم والتامس بهم . فلا ، حتى أن الحركة الهيومانية في عصر النهضة كانت معنية بالتعليم ( في مختلف مستوياته ) وبالعادلة الاجتماعية . فقد عاش هنري في عالم كان كسار أعلامه من أمثال براونموس وهور وحلفائهما يتنادون بإصلاح التعليم ، ويحتجون بفضب ضد المماراة من الفقر الذي تسبب الأثرياء الهمون في حدوثه ، وعلى الرغم مما زعم عن اتصاف المجتمع التهودوي بالمادية ، فإنه طالما كشف عن حماسة ملحوظة للخير ، ولا يناقسه في هذا المقام غير القرن التاسع عشر والقرن العشرون من حيث الأهمية في تاريخ التعليم الإنجليزي . وفضلا عن ذلك ، فيبدو واضحا أن الإصلاح المبني في أوروبا قد خشي أغراض الخير بصيب أكبر من الثروات ( المصادرة ) من الرهبان التي استغلت في إنشاء المدارس والمستشفيات . فتفوقوا في هذا الشأن على ما فعله هنري الثامن .

وفي ١٥٣٣ ، طالب توماس ستوركي بالاستماتة بشأن مصول الثمار الأولى للكنيسة وصرية العشوريات التي تفرضها ، للتعفيف عن الفقراء ، واقترح تخصيص جانب من دخل الكنيسة لهذا الهدف ولعلم الكهنة ، وبعد ذلك سنوات ثلاث ، استحدث ستوركي كرومويل لتحويل الأديرة التي كانت ما زالت في حالة سليمة إلى جامعات صغيرة ، واقترح إقامة بعض المشروعات الحيوية ، الجليظة الأثر من عائد الكنيسة الديوية والأراضي المصادرة للمملكة للأديرة ، وصاحب هذا الاقتراح كاتب غير

مفروغ ، وطرح وايرسلي (\*) قائمة بالمشروعات التي باستطاعة هليكه  
 الهويس بها اعتمادا على ثروات الأديرة ، مع ترك عشرة آلاف مارك جانبا  
 لإنشاء مستشفيات جديدة ، وإعادة ترميم المستشفيات القديمة ، وتخصيص  
 عشرين ألف مارك كمون لتجيش ، وخمسة آلاف مارك لانقسام طرق  
 علوية ، وما أشبه ، وبذلك تتوافر ممرص عمل للفقراء ، ومما لا ينكر  
 استحابة هنرى بالذات لهذه الأهداف السامية ، وبعد حل الأديرة الصغرى  
 ١٥٣٦ ، اعتقد بعضهم أن الأمر سينتهي عند هذا الحد ، وأن الدور الباقي  
 في تمس بسوء ، خصوصا بعد أن نص قرار الحل على أن هناك أديرة  
 كبيرة ومتنوعة في هذه المملكة تدير بالوقار والجلال ، ومن نعم الله أن  
 الدين يراعى فيها مربعة حق ، وربما كان هنرى آنذا يوى محتسبا أن  
 لا ينهب أحد من ذلك ، كما يبين من قبله في يناير ١٥٣٨ للثامنة التي  
 سمها في كيردج عن مصادرة جميع الأديرة ووصفه لها ، بأنها قارعة  
 ولغو رسي إلى صورة الملك ، ولقد كذب هذه الثامنة في صحيفة رسمية  
 صدرت بعد ذلك ببض شهور ، وفي يوليو ١٥٣٧ أعاد هنرى بنفسه إنشاء  
 بعض الأديرة ، ودار الرهبانيات التي زارها للصلاة من أجله ومن أجل  
 الملكة ، وفي وقت متأخر عن ذلك ( مايو ١٥٣٨ ) أنشئت دار أخرى  
 للرهبانيات ، وعلى الرغم من أن تكديس لايون للثامنة كان قريبا من الرياء  
 لأنه حتى عندما حاصر بذلك ، كان قد أقدم على استنجات رؤسا  
 الأديرة على الاستسلام ، إلا أن ما قام به هنرى من تصرف غريب بإعادته  
 إنشاء الأديرة بعد أن قرر إغلاقها ، قد جاء دليلا آخر على مدى تخبطه ،  
 وعلى أن حالته لم تستطع إلى أي قدر من التروى ، وعلى أية حال ، ففي  
 يواكير ١٥٣٨ ، كانت المرحلة الأخيرة في عملية الإزالة للأديرة في طريقها  
 للتنفيذ ، وكانت بصعوبة بعملية قمع للرهبان ، وقبل ذلك لم تمتنع  
 هذه الأديرة الانقسام ، وفي مايو ١٥٣٨ ، أقر البرلمان القرار التالي  
 للحل ، وتضمن أيذولة جميع ممتلكات الأديرة المصادرة منذ ١٥٣٦ ،  
 لوجا سيحاجر باستقلا ، للتاج .

وهكذا حدث التصديق بكل وقار على ما زعم هنرى وأعوافه أنه في  
 يحدث أبدا ، ولكن البرلمان لم يستسلم بسهولة ، ففي ٢٠ مايو ،  
 أرسل ماريك لفرنسيس يتطرح بمناقشة مسألة مصادرة الأديرة  
 الباقية ، وبأن الأعضاء يرغبون تحويل « أديرة بالذات » إلى أسقفيات  
 وإنشاء مدارس ومستشفيات ، ومن هنا قرر البرلمان اهتمامه المطلق  
 بما تمتلكه الأديرة الانجليزية من أموال ، ويوجب عدم تبذرها ، وبدا

من المؤكد أن لاسر مثل هذه الأوامر المتخلطة بسلام دون تعرض للاضداد . وربما القمح ، ومن ثم ففي ذات اليوم الذي أتم فيه المشروع الأكبر لحل الأديرة رحلته عبر مجلس البرلمان ، تم تمرير حائط لم يستمر أكثر من يوم واحد لتشريع يبدأ للوهلة الأولى ومن لهجة استهلاله المتحدثة ، كتمهيد للملك سعيد ما يريده وعيابه . وما يثير الاهتمام أن هنري الثامن نفسه هو الذي كتب هذه الديباجة بخط يده .

وهست المذكورة التفسيرية للقرار الذي ظهر على نحو مفاجئ ، على ميع الملك سلطة اشياء العديد من الأسقفيات الجديدة طبقا لما يراه ضروريا ، باتباع البرنامج الإصلاحى المعد سلفا ، والذي كان ولوى قد أعد المدة لاتمامه قبل سقوطه بوقت قصير ، وهست أيضا على الصرف على هذه المشروعات من إيرادات الأديرة المزاله . وفي ديباجة القرار ، كتب الرأس الأعظم يهرب عن رغبته بعد استئصال هذه الاعتمادات من الأموال المصادرة من الأديرة : « في زيادة توصيح كلمة الله ، وشرها ، والاستفادة بها في تعليم النسي ، والأطفال ، ورعاية القسيس في الجامعات ، وتهيئة سبل المعيش للنسبي ودور الإحسان لعامة الفقراء ، ويراعى تخصيص مبلغ من المال لتعليم قراءة اليونانية ، والبربرية واللاتينية ، وتوزيع الصلوة يوميا على الفقراء ، وإصلاح الطرق العليا وإعطاء منح لقسيس الكنيسة » . وبذلك لا تكون الاستفادة بقرار حل الأديرة لتحقيق منافع للمجتمع مجرد صيغة لحنه من حالي البعثة . فلقد أعلن الملك علنا جملة غايات يوجه لها دخل الأديرة ، ودعا أمين بيت المال بمتبها ما يلزم .

وبعد أن اتخذ المشروع صورة القانون بفترة قصيرة ، شرع جمع من الأساقفة (\*) في وضع خطة محكمة لتخصيب زمرة كبيرة من الأساقفة الجدد . ووصح هنري بنفسه خطة لبرويد ثلاثة عشر كرسيًا أسقفيا بفصل ما يقرب من العشرين ديرا كبيرا . وبذلك يكون قد أعاد تخطيط الخريطة الأسقفية لاجلئرا بحيث تصبح كل مقاطعة كبرى مقرا لأسقفية كبرى . وفي حالة المقاطعات الأصغر ، تخصص الأسقفية لكل مجموعة منها ، غير أن هذه الخطة لم تنفذ . وانتهى الأمر بإنشاء ست أسقفيات جديدة ، ومنحت كل أسقفية دورا خاصة بها ، وبنى قيام الرعيان أو القسيس بالإشراف على الكاتدرائيات السابقة للإصلاح ، ويخصص راهب لكل نساى كاتدرائيات . وهذا إجراء ينفو غريبا في إنجلترا ، وبخاصة بعد حل منشآت الأديرة . وورث المسئولون الدينيون عن الكاتدرائيات التي أصبحت دينوية الآن اعتمادات الأديرة الماسوف عليها . وتقول

(\*) من بينه Richard Soper, Stephen Gardiner

ديران آخره الى كليتين علميتين . وبذلك تكون الحصيلة النهائية هي حصول ستة عشر من البيوت الدينية السابقة الى شكل أو آخر . فاما طلت مرافقة للكنيسة الدنيوية ، أو مستوعبتها هذه الكنيسة - وتضم هذه البيوت الدينية بعض الدور الأثرية ، والتي كان صافي دخلها ، يعبر من ١٥ / من الدخل الكل لجميع البيوت . بيد أن عرى لم يتصف بقدر كبير من الكرم ، كما توحي مثل هذه الأرقام . فلم تعلق المصاحف الدينية الجديدة في الكاتدرائيات الدرية السابقة الا نسبة ضئيلة من دخل الأبرشية التي حلت محلها . وتعدت مكانة الكاتدرائيات الست الجديدة لسالة المبالغ المتواضعة التي خصصت لها . وكانت تقرب من حال أصغر الكاتدرائيات العلمانية القديمة وافقرها . وترتب على ذلك عدم قيام العرش بإعادة ما هو أكثر من ربع ثروة هذه الدور الست عشرة الى الكنيسة . لقد كانت عطايا هنري شحيحة ، وازدادت شحاً بمرور الزمن . وسكن عرى بإرغله الأساقفة على بيع الأرض ومبادلها بده برنامج لنهب الكنيسة العلمانية . وسمرى كيف سيواصل خلفاؤه الاعتداء به والتعوق عليه في هذا السبيل . هذا يعني أن يسترد واحد الدين بعض القليل الذي منحه باليد الأخرى ! . وبالإضافة الى ذلك ، فهي منى ١٥٤٤ و ١٥٤٦ على التوالي وصفت الكليتان اللتان أعاد انشاحهما ( يوتون وثورنتون ) ، بالسلطحية . ، وبذلك اضممتا الى باقى الكليات التي تمت التضمين بها حينذاك .

إن كل ما توكله عرى للكنيسة التي يتبوا فيها - برعاية الله - مكانة « الراس الأعظم » عناية من ستة مناصب للأسقفية - وثماني قاعات للاجتماع في كاتدرائية دنيوية . لم يتفق عليها أكثر من نفقة من دخلها الأصلي . وفي بعض المواقع ، استمر نفا بعض كنائس كبيرة برغم صدور قرار الحل . وواصلت خدمة المذبح القريبة ، إما خدمة كاعلة ، أو اقتصر دورها على تقديم حفلات جرتية للأبرشية . وفي مواضع أخرى (٥٥) ، كاد أن يؤدي اختفاء دور العبادة المحلية الى خلق مصاعب جمة لأهل المدينة ، مما شجعهم على استرداد الكنيسة بعد دفع ثمنها للمسل للكنيسة أبرشية ، وفي موقع آخر (٥٥٥) ، أمكن انقاذ الكنيسة باتباع هذه الوسيلة ، ولكن ربما تعدر في أماكن أخرى توافر الجزاء التي تساعد على القيام بأجزاء مماثل . وفي هذه الحالة تعرضت الحياة الدينية العامة للكافة للاضطراب من جراء احتفاء الكنائس الدرية التي كانوا يتميلون فيها فيما مضى .

Canon's church.

(\*)

Malvern, Malmesbury, Bolton كما هو الحال في

(\*\*\*) في Tewkesbury .

وما من شك أن دور العبادة الدينية لم تكن دورا سمعة تسبح  
 بالانحياز اليها ، أو الإحشاء بها طلبا للمصانعة ، كما يظن في الحكايات  
 الخرافية - ولكن لا إحلال على الاعتراض بدورها في المساعدة البائسة  
 أو غير المباشرة لعدد كبير من المؤسسات أو المرافق التي يطمح عليها  
 أممنا جامعا كالمستشفيات والملاجئ ، والرلاب والعيادات ومبوت الصدقة  
 والمستوصفات ، والمستشفيات بالمعنى الحديث ومستشفيات الأمراض العقلية  
 والجنان . واستمر عدد لا بأس به من هذه المؤسسات - وبخاصة مبوت  
 الصدقة - تلحق بدور الطوائف القديمة . ولقد خصصت مدينة بريسبول  
 تسعة أو يزيد من الدور من بين الأحدى عشرة دارا لأيوه المسنين والمرضى ،  
 وخصصت اكسترا أربعة من سبعة وثيوكاسل ثلاث عشرة دارا وبورويش  
 أربع عشرة كما يساب الظن . الخ . ولكن إلى جانب ما بقي منها أتت  
 تعرض للندم أحراء متفرقة منتشرة في شتى الأقطار ، وأحيانا ، كانت  
 الدور التي تعرضت للقمع هي أقل المؤسسات امتلاء . وفي أحضان  
 أخرى ، كما حدث في سان تيقولاس في بورتغراكت ، كان الزلاء يحصلون  
 على معاشات . أما في المواقع الأخرى ، فلا بد أن تكون أحوال القمع قد  
 تمرت آثارا أليمة وموجعة (\*) . ولقد تعرضت للقمع أسماء كثيرة رغم  
 التماسات المعهدة ، ورجائه أن يباد فتح الدور التي أغلقت ، واسبقاء الدور  
 التي تسمى لها الصمود ، واستسلم جرى في نهاية حياتها للرجاء ، وكما  
 ينبئ من رسائله : « لقد ألهمتنا الرحمة الإلهية بإعادة سنان بارمولوميو  
 لسابق عهدها ، ووعيدنا دخلا يقدّر بخمسمائة صارك سنويا - وهو مبلغ  
 يعتمد المواطنون أنه أقل مما ينبغي ، ولا يكفي لمد احتياجات المستشفى ،  
 ولذا قمنا بمضاعفته » . وبعد سنتين اشترى المواطنون « سنان ماري »  
 وأعادوا فتحها . وتحتاج قصة المستشفيات الانجليزية وصيرتها في عهد  
 الإصلاح الديني إلى دراسة مطبوعة ، وعندما أكم هذه الدراسة ، سيمضي  
 أن الملك الذي تقدم له آيات التحول بوصفه مؤسس كلية علماء الطبيعة  
 ( ١٥١٨ ) ، والذي شهد عهده ( ١٥٤٠ ) مولد نقابة حلاقى الصدقة  
 والجراحين في لندن ، والذي كان يهتم اهتماما شغصا علما بالعلوم  
 الطبيعية ، وبصحته بوجه خاص ! ، سيبي علم استحقاقه احتلال أية  
 مكانة مشرفة في هذا التاريخ .

ولا يستحق أيضا احتلال مكانة مشرفة في تاريخ التعليم . ففي  
 بولكبر عهده ، كاشح حوث قيسر كفاحا مريرا للحصول على ربح كاف من

---

(\*) لابد مسمحت من الرجوع للمستشفيات التابعة لكليسة **Hermondsey**  
 و **Bury St Edmunds** و **Herham** والمستشفى الكبير في **Walsingham**  
 . ولقد يورده مستشفانا الكبير سان لويارد . الخ الثالثة الكبيرة . . .

أرض المرحومة اللىلى مرحريت يوفورت لاستكمال البناء وتجهيز كلية سان جون التى أنشأتها فى كيمبريدج ، ولكنه ألفى نفسه قد تعرض لصيق شديد وأمهله طويلا واشتد به واشتد به بالياس ، حتى اضطر آخر الأمر الى الاستسلام ، وسمح للملك بوصفه وريثا لللىلى مرحريت - بحكم القانون - بالاشتراك فى الميراث . وعلى هذا العهد تعهد هنرى ظاهريا بدفع مبلغ ٢٨٠٠ جنيه لاستكمال البناء ، ولكن الملك لم يتنازل عن أكثر من ١٢٠ جنيه أو ١٠٠٠ جنيه ، لو توجسا الدقة ، مما أدى أن اضطرار هنرى الى التخلي عن ثلاثة أذيرة عشرة ومحجورة لتعويض هذا القصر ، وبألفها من بداية مشنومة للتصريف بكيف تعامل هنرى فى قضية التعليم وعلاقته بعيشه ، وبالإضافة الى ذلك ، ورغم البناء الذى أعده اواندوس وآخرون على هذا الحاكم الفهيم ( يسمى هنرى ) ووجود بعض المتحمسين القويوس على التعليم عن أمثال كانونير الأراخوية ، فإن ديتشارد نوكنس ونهر من القريبى به . ورغم المثل الذى صر به ولزى . فإن الملك لم يظهر أكثر من قدر هين من الاهتمام بالحياة الأكاديمية . فلم يهب أى عالم ما هو أكثر من الرعاية التقليدية ( وأطبا لم يسي انه تراس بلاطا من حملة نواح أهل امتاحا وأقل اتصافا بالروح العالمية من بلاط أبيه ) نعم لم يرث هنرى ولو درة واحدة من اهتمام جدته بالتعليم الاسمى . فلم يمس بأية حامية الى أن اضطر الى اللجوء اليها لمؤازرته فى طلب الطلاق ، والظاهر انه لم ير عبر جامعة واحدة لا غير ( أكسفورد ) . وبعد أيام قليلة من سقوط ولزى ، هدد المشائين التعليميين الذين أنشأها الكاردينال ( يعنى كلية الكاردينال فى أكسفورد ومدرسة الاجرومية فى ايريش ) - وفى ٢٢ نوفمبر ١٥٢٩ ، هرع عماله الملك الى المدرسة المفكورة آنفا ، وتظاهروا بالبحث عن كتب مدفون ، وحردوا المدرسة من تحتها المقدمة ( من صحن وأردية وأوعية ) ثم شرعوا فى عملية قمهم . وهكذا احتفت مدرسة الأرومية التى أعدها عليها مشيؤها الكثير ، اعتيادا على مخيلته الخصيبة ورحابة نبواته ، انها مدرسة ، لو أنها لم تزال لما كان من المستبعد أن تنافس مدرسة سان بول ، وهى من العالم الهامة فى تاريخ التعليم فى عصر التيودور . وبدلا من ذلك ، نقلت أستاذها الى لندن للاستقامة بها فى بناء أحد القصور الملكية فى وايندويل . على أنه بعد العديد من شعور القلق ، أمكن انتقاد الكلية القائمة فى أكسفورد ، وكتب ولزى من منفاه الى هنرى يرحوه أن يتذكر خدماته المتواصلة الموحدة ، وأن يترك المنشآت التى شيدها بلا حساب ، وكتب الى مور وتورنولك وأوردنك (٤) وآخرين يرجوهم ضم صواتهم الى صوته . وفى أغسطس ١٥٣٠ ، حضر وفد من الطلبة



برئاسة الصيد المشاور والملك ، فقال مري لرؤسائه بقدر غشيل جدا من الاخلاص : « بالتاكيد . فحس برمي الى امتناء كلية مشرقه ، ولكن لا يلزم ان تصنف بمثل هذه الصحافة . وبمثل هذه الفحشاء ، كما يربع مولاي الكاروديسال » . واداع بورفوك خيرا جوداه اجمال قيام الملك بتصفية الكلية . وعلم السماح لما هو أكثر من الأرض التي عثر أكثر مصادر الهبات الموقوفة لها . ولكن الأمر انتهى - وكما قيل - فحصل دماغ الدوق . كتب للكلمة المقاء على قبة الحساء . وان كان هذا قد تم بعد احتشاك بعض منشأتها ، وتغيير اسمها القبيح .

لم استطع الأديرة التزويد بشبكة مسمدة من المدارس في طول البلاد وعرضها . ولكن الكثير من هذه المنشآت قد أثبتت بعضها في تهيئة مكان لتلقي العلم - قس على سبيل المثال ، قطعت إيشام وودج وجلامتوبيري العيون لبعض المدارس ذات الحجم الكبير . فالقحت « سان ماري » ووثمسترت حنبا وعشرين تجمعا من ينات السلاء . وقامت بعض الراعيات لتعليم صغار القبيان، وآوت دور عديدة قصولا عديدة للدراسة بمسكنيات شتى للأغراب - وحنسما وقعت الواقعة ، قام هر كير بالعيش كيفما اتفق . ومن ثم قبلت سلا عنة كاتدرائيات ذات صبغة علمانية مثل كاتدريري وورشستر والي(\*) . طلبه مدارس الملك التابعة لها . وأكثرها تقريبا من المنشآت المجددة . ولست من ثمار الخاصة الملكية . وحلت في شكلها الجديد أصغر من أصلها الأول ، وفي غير هذه الحالات . استمرت المدارس في البقاء . أو بدت وكأنها من ثمار جهود ذاتة محلية - وفي شيربورن ، لم يقتصر الأمر على شراء المدينة كنيسة الدير من هذه الملك ، ولكنها أحررت داور المدرسة ، وعهد إلى ناظرها السابق بالتدريس فيها . وبالمثل استبقى أهل المدينة « ابينجتون » ، وهي من المدارس التي كانت تتبع الرهبان فيما سلف . وفي ميرستر ، وبعد أن اختفت من المدينة إحدى المدارس التي كانت تعتمد على دير ويشكومب ( وأحدث ذلك مرورا بالعا بالمدينة ) ظهرت للوجود بمدايسولت قلده مدرسة أخرى تحت رعاية دير ويشكومب تنزود بما تحتاج اليه من الهبة المخصصة لمعهد الانساء الديني . بعد تعمير الثاية التي خضعت من أهلها . واستمر ظهور المدارس - لاعترة على الأمل - في رندج وبرابتون . وفي وارويك ولوتفري سان ماري ، اشترى أهل المدينة بعض الأراضي التي كانت في حوزة الكليات المصادرة لاعاده إنشاء مدارس الارشدية ، مما ساعد على تقادى أكبر كارثة حلت بالنظام التعليمي بالمدينة ، واستقلت فيما هو أقصا . ومع هذا فقد ترتب على هبيات حل الأديرة الكثير من الخسائر والازعاج . وبالمثل

فقد أدى أقول نظام الأديرة الانجليزية ، وما صحبه ، الى تعرض الجامعات لأوقات عصيبة عاصفة ، ولم تفلح كلية الملكة بكمبريدج في تجنب هذه الحالة المضطربة . وبسبب الانهيار الذي قلعه الى كرومويل في سجنها الدير الكرمل (٢) - وفي ١٥٤٦ ، أنشأ هنري كلية تريينتي ، وبذلك جمع ثلاث مشاهد قائمه في كلية جديدة واحدة معها ما لا يقل عن دخل ست وعشرين داراً من الدور الدينية للنحلة . وأعيد إنشاء كلية بكنجهام ، وسبست كلية أبحاث - وفيما بعد قام سر والتر ريمسلي بإعطائه موقع الدير الدومينيكي للكلية الجديدة اسم « إيمانويل » ، وانتقل جزء من دير الرهباني الراديي ( والذي عملت أبحاثه لإنشاء كلية تريينتي التي أنشأها هنري ) الى ملكية سيدني سوسكس (٣) وبالمثل اكتسبت أكسفورد - بطريق مباشر أو غير مباشر - بعض المخلفات كدعاة السرمسيان ، والتي كانت أصلاً في دير سان برنار ، وآلت بعد ذلك الى كلية الملك ( كلية الكاردينال قبل ذلك ) وتحولت في نهاية المطاف الى كنيسة المسيح ، وأخيراً وفي سنة ١٥٤٠ ، وهب هنري وظائف الأستاذية ذات الكرسي في كيمبريدج جانبا من دخل كاتدرائية وستمنستر لتدريس مواد اللغة الإغريقية والعمارة والقانون المدني والألبيات والطب . غير أن جميع هذه الميزات لم تزد عن مأثر هيئة لا تقاوم سالحى التعليم لأعلى من لطومات على يديه ، فلقد أطرح بمصدين من عداد الكليات ، وقطعت رقاب اثنين من مستشاري كيمبريدج ( فيشر وكرومويل ) وتسميت الأوامر الملكية في الحاق الولاية بالمهاج بعد أن استبعد تعليم اللاهوت المدرسي والقانون الكنسي ، كما أطلق ويتشاور لايتون ورفاقه الصان لتيار القوضوي والمهجي عندها داروا أكسفورد « لتقبض على الفيلسوف دانس سكوت » وأودعو « السحق المحلى ثم نفوه في نهاية الأمر بلا رحمة » حتى يكون عبرة لم من على شاكلته من فاقدي المصيرة ، لتلقى اللطومات من كل من عب ودنه ، ولتخريف القيمين بجميع المراتب العامة بما حل به حتى يكون عبرة لهم . - وبعد قليل فعما بعد أتيا لايتون بسنة سبعتها بأنه رأى باحة الكلية الجديدة معروشة بأوراق متترعة من مؤلفات سكوس وآخرين ، وأنه راقب الريح وهي تهب الى جميع الأركان حاملة أوراثة التي تناثرت في كل حطب وصوب . ولقدت الجامعات رعاياها وقاعاتها الرهبانية ، وكان من بينها اثنتا عشرة في أكسفورد ، وغانت

Sydney Sussex.

(\*) Carmelite (\*\*) (\*)

(\*\*\*) هذه المنشآت هي Michael house و King's Hall

، Phrywick Hostel.

الكنيسة من بعض الأعداء بعد أن توجب تزويدها بالطبقة النايمن للطوائف الدينية . وعلى الرغم من أن كتاب كرومويل (\*) قد هدف على نحو جاد لتمهيد الحياة الجامعية والتعليم ، كما أثرت دياورة الدكتور لي (\*\*) لكيسيردج وانفتح بالكنية من وصاياه ، إلا أن فلاثيات القرن السادس عشر قد حصلت في طياتها الكثير من الاضطرابات ، وتفسخت الجلسات ، وبلغ السيل الزبي ، مما دفع جامعة كيسيردج الى ابلاغ كرومويل ١٥٣٦ . بانخفاض عدد طلبة الكلية الى النصف ، وإلى جانب ذلك ، فما كانت الكليات مراً من السنوات الماضية لاحتلال المعاهد الدينية ، حتى واجهت لائحة الخدمات الكنسية ١٥٤٥ ، والتي منحت الملك حق حل كل مؤسسة في جميع الجامعات ، ومصادرة أملاكها . وكما قال ماثيو باركر - وكان يشغل آنئذ وظيفة مساعد المستشار - في التهديد الحقيقي إذا يأتي . فما يحصل - من الرمرة المحبطة بالملك ، الذين كانوا يملكون عنه ويفسحونه لمصادرة أراضي الجامعات ، وممتلكاتها ، وكانوا يقصدون بذلك استبدال ما لديهم من أراض وممتلكات بما هو أفضل منها . أن هؤلاء الذئاب المفترسة من القريين من الملك . والذين سرعان ما حذر من ضمانتهم الدكتور كوكس الراجح العقل بلجيت (\*\*\* ) - قادرون على اتهام هبات الكليات ومعاهد الانشاد الديني والكنائس والجامعات . قالاتهم بالنهب يجب أن يوجه اليهم بصفة خاصة .

وحلت مسج للأراضي الزراعية التابعة للجامعة ، وتولى هذه العملية بعض المسئولين تحت اشراف رجال الجامعة . وحشية مما قد يحل بهم بعد تطبيق اللائحة الجديدة ، فقد لاذ باركر وجامعة كيسيردج بالملك هري وباجبت على الفور لحمايتهم . وكندوا لهما رسالة بهذا المعنى ، وطلبوا العون أيضاً من كاترين مار التي كانت قبل ذلك بفترة قد ناشدتهم تزويد هدمسها المخصصة لأطفال الأسرة المالكة بمصائب للائحة . وأئنتت كاترين أنها صديقة كرية ، عاشت خلال الملك المتطلف ، لا لقرينها ( الملك ) من ميل ، للارتقاء بالتعليم ، وإزالة القرص الجديدة لذلك بدلاً من تشوب القوض في مؤسساته المحبلة العريقة ، وعندما قدمت الجامعة الكلفة تقريرها الى هنري في قصر هامبتون في ربيع ١٥٤٦ ، أصعب الملك بحسن تدبير الكليات . ودعتي لفضالة المنع المخصصة لها ، وأرفق قائلاً : « من لأوسع أن تسي هذه الأراضي على أي نحو يزيد الوسخ سوءاً . وهكذا شعر بعض الذئاب الشرهين (\*\*\*\* ) بغية الأمل

Dejmoficars.

Dr. Leigh.

Page.

Lupus quo data libellus.

(٣)

(٣٣)

(\*\*\*)

(\*\*\*\*)

عنما أقدم الملك بعد أن تفرغ سير بوعاصي جميعاً أوله أستاذ لكرسي  
القانون المدني لاقتضاء الجامعات من التسليمه والتهب بعد أن كان متوقفاً  
تعليمه لأطراف كليات كمبودج .

ويتعذر أن يصدق أن هنري قد قصد أحداث أية إساءة للجامعات .  
والحق أن هباته السخية للكلية ترينتي واستحداثه لوظائف أساتذة  
لكراسي بعض المواد بالجامعات قد سجلته يحتل مكانة سامية بين أعظم  
ملوك الذين رعوا وكرموا كيمبردج في تاريخها الحافل . وبوجه عام ،  
كان يقبلوه الزعم بأنه وهب التعليم ما هو أكثر مما فعله أي ملك آخر  
لا يتجترا ، ولكن ورغم صحة هذا الرأي ، ورغم استمرار الكثير من  
المستغنيات التي يرجع تاريخها للعصور الوسطى في البقاء ، ورغم  
ما أحرراه من إصلاحات وتحسينات لعشيقتيه قليلة غيرها ، ورغم اعتادته  
لإنشاء معاهد الأديرة ( إلى جانب اقتداءه بعض الأفراد به في هذا الشأن )  
لليهود الشخصية لأهل المدن ، ورغم اسروداد الأديرة قدرها كبيرا من  
الأموال التي انتزعت منها ( إن عاجلا وإن آجلا ) لتمويل المشروعات  
التعليمية والمدنية والفخرية ، إلا أن هذا كله لن ينفي الحقيقة الثابتة بأن  
هنري قد حصر وفسخ عشرات المسببات التي كانت عظيمة القيمة للمجتمع ،  
بالصل لو بالقوة . وإلى جانب ذلك ، فإن أخطر اتهام نزع البعض إلى  
توجيهه إليه قد انصب ليس على ما فعل ، وإنما على ما أحق في فعله .  
وبالرغم من أن بعض المنجزات كانت لها مزايا استغنية وخسة مناصب  
لأساتذة بعض المواد وحتى الكليات في كيمبردج ، بالإضافة إلى ما أضفاه  
من هبات أخرى ، ترك انطبعا آمادها في ذاتها ، إلا أنها لا تعد كثيرة  
إذا راعينا ما تحجم بين يديه من مال وفير كلل بوسمه استثماره لإنشاء  
سرح قد لتتوزر أبدا مملكته .

وارتفعت أصوات عديده حينذاك تطالبه بأن يفعل ذلك . فقد التمس عبثا احد أصحاب الشخصيات الرقيقه ( الدكتور جون لسن (بالذات) - وهو من الزائرين الملكيين لبيوت الدين - تسخير دير الفريسيين كإقامة في ريدج الى مجلس المدينة لاستخدامه دارا للبلدية ( قاعة للحرفيين ) . وبعد ذلك بقليل قدم وجاء يطلب فيه تخصيص دخل بيوت نورهمتون لمساعدة ( الفقراء والعاطلين في المدينة التي كانت تمر بفترة ضيق اقتصادي - وطالب الأسقف لإتمام - جون جوي - تخصيص دخل ديرى ورشستر للحفاظ على مدرسة المدينة وجسرها ومورها . كما طالب ( جون جوي أيضا ) بالحفاظ على بقايا النوير (الدير الصغير) في مالفري الكبرى ( لا لكي يستعمل ديرا - معاذ الله - وإنما لكي يتعلم - أهداف التعليم والروح - والدراسات والاحتشاد ،

وطالب عبدة بلدية لندن استخدام ديرى الكيثستين كحصن عزل للمرضى أثناء تفشى الطاعون ، وتعمل المصلح روبرت فيوار (\*) - عينا - مطالبا بالمدار التي خصصت له بوعقه رئيسا للدير فى سان اوروالد لكي تصبح كلية لرعاية الشباب وبوجيهم نحو القصبه والحلم ، وتعمل راهب إيشام وأهل البلده بالمثل للسماح لهم بإنشاء كلية تقدم نوعا من التعليم الحاجة ماسة اليه . واقامة دار بالفصواحى لايراهم ، وقول هذا المطلب بالمثل بالرغم من - وتندمت جامعة كيمبردج بطلب مسائل الى هيرى ترحوه تحويل الجامعات الفارقة - أنشد - فى الخزيعلات الى كلياته للدراسات العلمية . وفى ذات الوقت ، رأينا شخصية مرموقة كاللورد أودل الذي جنى الكثير من وراء غنائم الأديرة يتفرغ لكروموويل لاقاد ديرين عظيمين فى اسكس (\*\*). لا لاستخلفهما فى عرصهما الأصل . وإنما لتحويلهما الى كليتين لتعليم الفقراء عملا يسد وعيقهم مع شخصى ماوى أهم ديهانين الكليتين ، ورغم أن أودل عرض مبلغ مائتى جنيه لكروموويل بطر المون للحصول على الموافقة الا أن الناحية ذهب فى مهب الريح ، فلقد صودر دير كوكستسرى (ويشتق رئيسه) واستولى كروموويل على أحد الديرين لنفسه الى غنائمه من الأديرة المصادرة .

وكتب الميجل دكتور كوكس فيما بعد الى جابيت « سيلاهش إحقاديا لما قلناه » وذلك بعد أن رأى الذئاب تلتهم فرائسها ، ولم ير حوله غير علم الاكرات بالتعليم والتجزات الجيدة ، وضرب هنرى بالثلاث مثلا مؤيدا لذلك ، فقد قام بتشيد قصر سان جيمس فى نفس الموقع الذى كانت تحتله دار لازار ، كما حول إحدى المصليات بعد أن طهر الماعلين فيها فى مذبحه تموية الى مخزن للخيام وأدوات البستنة ، واستعمل الأحجار التي تخلفت عن علم بعض الأديرة فى بناء قصر جلجيه (\*\*\*) الذى شيد فى موقع كانت تشغله إحدى الكنائس الأبرشية « وتحول بيت الله فى بورتسموث الى دار للأسلحة والذخائر . أما بيت الله فى دولر فتحول الى حوش لتخزين الأغذية ، فلا عجب اذا قليل وعاية على هذه الأسلاب راضين مبتهجين »

وليس من شك أن الذئاب كانوا يبتلون أكثرية عبدة الثأور ، وليس من شك أنهم استقبلوا بالتهليل والترحيب ودموع الفرح الأموال الطائلة والغنائم التي كانت تملكها الأديرة الانجليزية فى العصر الوسيط

Robert Ferrar.

(١٠)

Et John Calchester دير Et Oryth دير (\*\*)

Warrack قصر (\*\*\*)

والتي هطلت عليهم اما كهدايا او بحت لهم او استأجروها . فلم يكتف  
هنرى بالانسلاخ للشهوات الشائعة ، ولكنه اصطبغ اعتماها لم يسبق  
له مثيل بالنظام الجديد . ولو أنه حرص على مراعاة صيحات الاتجاه  
الوجب الحلاق المعادى للاكليروسية ، ولو أنه أقضى بما حلت قبل ذلك  
في تاريخ إنجلترا ، ولو أنه وقف موقفا مشرفا وبقد وعوده المتشاهعة ،  
لامكن أنخذ استثمار نسبة كبيرة من ثروات الأديرة في أوجه مماثلة لما  
فعله أمثال فشر وولرى ، ولما النمى أشخاص مثل ستاركى والدكتور  
لنزن والأسقف لاتيمر تخصيصها له . ولو أن الملك سابه بكل قواه مبدأ  
الاستقامة والتعفف في البواحي المالية ، لهلل له السعيب الذى كان يشعر  
بامتتهوا كبير نحو الهيومانيين ورجال الكومونلث ، والذى أبدى  
استعدادا - رغم شرهة الملك - لمساعدته في العضايا الكبرى . غير أن  
هنرى تجاهل بالفعل هذه الناحية ، فهو لم يك واحدا من المشورين ،  
ولم يمتنع الا القليل مما آمنت به الهيومانية ابلى العهد النيودورى .  
ولم يشعر بالحوارة التى كانت تضطلع في أفتنة أمثال ارازموس أو  
لانسر . قلعه حرى التصرف في أراضي الأديرة - وبخاصة ما بيع منها -  
بسرعة فائقة . ودفع من مباح هذه الأراضي ثلثا عجزيا . إذ كانت الأرض  
التي انتقلت اليهم تصمم لضرورة المشوريات التي كان يحصلها أحد  
المقرين من الملك ، وزاد الطين بلة المستغلت ذات الأثر الرخص المستحقة  
لمجلس النحي ، فلا عجب إذا ترتب على السيل المنهر من المبيعات خلال  
أربعينيات القرن السادس عشر والذى أطاح بشئى ممتلكات الكنائس  
والأديرة ، وبموت هنرى ( ١٥٤٧ ) أبولة جانب من الدخل المتاح  
بالرغم من اضطرابه من أثر الحاجة الى مال سريع إلى المخاطرة بالتنازل  
عن جانب من رأس المال الأصلى . غير أن الناحية التكتيكية في العملية  
شيء ، والناحية الاستراتيجية شيء آخر . فلم تقتصر الأمر على إطلاق  
هنرى في الاستماعة للمال الذى وقع في أيديه لتلقيم خفلات مسخية  
لنقضية التلميم والمدالة الاجتماعية أو الدين ، وانما حلت ما هو أسوأ .  
فلقد بدد هنرى المال في الصرف على نفس القضية التي كان يبقها أمثال  
ارازموس ومور أشد الحقت . يعنى على الحرب العقيمة من أجل الجاه  
والظهوريات ، أى في جواب المهادنة التي عرفت عن الأنظمة الملكية . فقد  
استترفت ثروات حقبة الصلاح والتقوى ( أو معظمتها ) - وكل ما تعمر  
به إنجلترا - في ميادين الحرب في شمال فرنسا . ولعل أحد الرعايا  
الأحراب من أصحابه الألمية هو الذى كتب ( ربما في خصميناته القرن  
السادس عشر ) : ألم يكن الأفضل هو تحويل ايراد الأديرة لبناء المدن  
وتحقيق لعمر أكبر من المدالة ، بدلا من ترك هذا الدخل لكي يتصرف  
فيه الملك وفقا لمشيئته .

ولم يمض وقت طويل حتى تصاعدت الصيحات المريضة وليدة  
الشعور بالأحباط من شقاء الصامعي فيما هو أكثر واسطفت في نهاية  
الامر من المناير والصحف الأكثر تحورا في السنوات الأولى من حكم  
ادوارد أصوات غاضبة من يدعون « رجال الكومونولث » من أمثال  
هيو لانمر الذي لا يكل ولا يمل ، ومن الراحب السابق هنري برنكو  
( المعروف باسم دودويك مورس ) والناقد الاحتجاجي روبرت كروتي ،  
ومن الوعاظ وعلماء اللاهيات مثل توماس ليفر وبوماس بيكون وجون  
هيلر - الذي كان مجرد قس في هانابر - ولما كان هؤلاء الأشخاص قد  
عرفوا بولمهم بتقصيدهم عن الآخرين بحثا عما فعلوا من أعمال تقصيص  
الآلية ، وتبنته عن الإنسانية ، وعرفوا بتقصيهم لمن ضربوا عرض الحائط  
واستهزأوا بالأجحاف ابتداء من طاقة اللوردات التي عرقت بشرائيتها  
وانشأها للفقراء وارتغامهم على دفع ما يطلب منهم من مال بعد تمزيقهم  
وتجريدتهم من أملاكهم وجسمهم في الحظائر ، إلى الأساقفة وطيستهم  
وزلائهم بالقانون وأسرارهم وعوائلهم ، فانهم عرفوا أيضا بتديلمهم ينصب  
يخلع حركة الإصلاح الديني والآمال المريضة التي عقدوها على هذه  
الحركة ، وفي الماضي رأينا كتابا ابتداء بلاجلاند قصاصا يسدون رجال الدين  
والقسس الشرعيين والحقى من رجال الدين ، والرحبان بوجه خاص ، لأنه  
كثيرين منهم قد نأوا بعيدا عن الآباء المؤسسين لمقائدهم التي تدعو للمثل  
الأيلى للفقير والتواضع ، أما الآن فقد اتضح أن النهم البشع ضد هؤلاء الملوك  
والأعيان والعمام الذين انتقلت إليهم ممتلكات الكلدوس أشد لخصا من  
مصاصي الدماء الذين حلوا محظهم ، وتفاضل متقو العهد المهد القديم (البائس)  
ضد المستجيدات بعنف أشد ، بل ولتلات قلوبهم بالحسرة على أيام الأديرة  
واستعملوا في التصيير عن ضيقهم نفس الصبارت التي جاهر بها فيما مضى  
ووبرت أسك - كما نحب ليكون (\*) في كتابه عملية حل الأديرة ، لأنها  
أناحت الفرصة للأغنياء لأضطهاد الفقراء على نطاق أوسع مما جرى فيما  
مضى - ووصفوا باليساريين ( جمع يسروع ) لأنهم دحلوا أراضي الأديرة ،  
وأظهروا بفضهم لاسم الرهبان والراحيات والأساقفة ، الخ ، ولكنهم  
استحوذوا لأنفسهم على ما كان عندهم من خيرات - ولكن ييسما كذا  
العمالون بالأديرة يهضون بواجبات أباء الأغراب وكانوا يؤرخون مزادهم  
بأثمان مقبولة ، وروعا المدارس وعلموا الشباب القراءة والكتابة ، فأنما  
رأيا محدثي اللعبة من المتصبي لم يفعلوا أى شئ من هذا القبيل -  
وصاح توماس ليفر راجرا الملاك الجديد لأن « حال اجبثرا لم يبلغ إلى أى  
قمة من القمات مثل هذه الحالة السائنة في الحاضر - ولقد شعر الملك  
بقدر كبير من الاحباط ، فجدد أن اخترع كل هذه الأراضي وهذه الأموال

الولع من الرهبان والراصات والكليبات والأديرة ، وكان يوصي الاستعانة بها في خفمة صبح الضرورات والهام - وبخاصة اغاثة الفقراء ونشر التعليم - . تعرض كل شيء للفساد ، واضطرب التعليم وانكشبت محصلاته ، ولم يبق أحد غيركم . - وقد أخذ من استطاعوا النجاة من العوام أن الفقراء من عامة الناس كانوا يوقنون الخلاص من ممانتهم ، ولكنهم رأوا أسفاهم لقد أخفقوا في تحقيق ذلك ، وهم يبايرون الآن من النجاة والفقر أكثر مما مضى . ففي الأيام العسايرة - كانوا يلبسون عناية في المستشفيات والملاجئ عندما يأتون إليها . أما الآن فانهم يرقضون في الطرقات حيث يموتون جوعاً - ومن واجبنا أن لا ننظر الى هذه النوحات على أنها قد عبرت تصوراً صحيحاً عن الحقيقة . أو على أنها تحليلات علمية للأحوال التي سادت آنذاك . لو مسبباتها . فلقد بالغ لير وآخرون ( ربما على نحو يثير التقزز ) في وصف اضمحلال التعليم وتدهور غوث الفقراء . وما استهجوهم ووصفوه بالمتع والمسوء القلب فحسب . يحتمل أن لا يتجاوز كونه رغبة مشروعة من الملوك ممن يكلفون من أجل الصلوات أمام التسميم وتحسين أحوالهم برفع قبعة الإيجازات واقامة الأسوار . الخ - ولعل الصورة المشرفة التي رسمها يكون للرهبان المطوقين في سائر العصر والأوان قد ناسبت الغرض الدعائية بين عامة الناس ولكنها اتصفت للأسف بالتضليل . وليس هناك ما يبرر افتراض أنه لو استمر « المتدينون » في البقاء لما أقنعوا على ارتكاب عمليات اضطهاد شبيهة باختلافهم من عامة الناس . ومع هذا فانهم تصايحوا بأصوات حادة على الإحاطة المرير بعد أن اكتشفوا تحول الحلم الى كابوس فظيع .

وقيل ذلك بمسوات ظهر هجاء طريف لأحد الكتاب (\*) الذي ناشد في معرض كلامه الكتاب ضمن أضياء أخرى على مواصلة تجريد الكنيسة من تزواتها . وهي العملية التي بدأت بالهجوم على المتدينين : « عليكم أن يبدؤوا بالخلاص من جماعات الانشاد الديني الفارغة وجميع معاهد الكنيسة المتعجرفة ، وأن يتخلصوا بالخصوص من الأساقفة الذئاب ذوى المخالب » . ولكنه سرعان ما تذكر ما حل بملكات الأديرة ، ومن ثم أورد قائلاً : لصالح هذه الأديرة والكنائس والأساقفة ، بالله عليكم ألا يفتنوا بأحد عند توزيع ممتلكات الأديرة وأراضيها . ولكن عليكم أن تطهروا - لو أردتم أن تتمتعوا - الى الأمان وأمانهم بالصليحية في عالم الناحية . فهم لم يقسموا أملاك صفه الممتلكات والأراضي على الحكام



والتيلا والأغنياء - الذين لم يكونوا بحاجة لذلك في ذلك الحين ، ولكنهم وضعوا هذه الأشياء في خفة الكومولت ورعاية الفقراء تبعاً لما جاء في الكتاب المقدس ، وإذا كان يربكلو قد بالغ في الإساءة بمضائل الإصلاح الديني في أوروبا خارج انجلترا ، إلا أنه ارتكب أشد ارتياب في وصف ما حدث هناك بأنه أفضل كثيراً مما جرى أيام هنري - قساذاً يا ترى كان سيفول ذلك المؤثر الكميروبرت هارنر (\*) لمجموع الشعب التي حرصه للتفرج على عملية احراقه في سميثفيلد ومنع الحجر ناية كلمة باسم الشريف ؟ لقد بوسل للسماح له بتقديم خمسة مطالب الى الملك المطلب الأول ، حيث ان جلالتة وضع بين يديه جميع خيرات الأديرة ومواردها - - - ولكن الشريف قاطعه - ولم يستطع بارمر عتقها من الاضطراب ان يفعل أي شيء غير قوله - « هل يرضى الله اذا أقدم خلالة على صبح الخيرات المشار إليها كلها أو بعضها لأرواحه وعاياه المساكين الذين هم حقاً في أمس حاجة إليها » - واستطاع اكمال كلامه بذكر اليهود الأخيرة التي تضمنتها تضرعه - بأن يقوم صبرى بالضرر بقوة على أيدي المسيحي الصحيح - - - غير أن التسامح الأول عن المراض الأديرة قد سبب مقترفي الرنا والمعاودة وعقاب من يحتشون العهد ، وإن يرضى الدين الشريف « المصبي » - فهل كان بوسع بارنر ان ينفخ البوق داعياً هؤلاء لفعل الخير على غرار المتخولين ؟

لعل كروى هو افضل من يتكلم في نهاية هذا العرض - فهو من اصحاب المشاعر الجياشة - ولقد ديج يراعه صفحات استهجان قهية للشراهة والشهوة يساهل من أحلها أن يدرج الى جانب لانجلاند ومور والنفارين (\*\*) وكارل ماركس - في أولئك الرسل المظلمة للمثالة الاجتماعية - وبدلاً من ان تختتم هذا الفصل بفقرة عاصفة مؤلف كبير يطرح الفكرة المألوفة للرعاية المسيحية ، ويدعو الأغنياء الى التلم على مطالبهم ، وما الحقوق من اذى للفقراء من عامة الشعب ، وإن يكشعوا عن اعتمادهم على المحبة ، وأهم اخوة يحدون من أب واحد ، وأعضاء في جسم واحد - فلقد آثرنا أن يكون الختام اببحرارة رصينة من الشعر يصح الاستشهاد بها :

Robert Burns.

(ج)

(\*\*) The Diggers ملأكة انطيفية ظهرت في هل الكومونلات - رسمت بهذا الاسم لمعارتها الحقير البوامي المشتري للأرض وللأحتسا - وأمن الفقراء بالتساواة الاقتصادية والاجتماعية ليذكر - ولقد لفتت حركتهم الحكومة التي قامت بهارتهم وتشتتهم في مارس ١٦٥٠

بيتما أنا سائر وحدي  
أتأمل ما قام به  
عظماة الملوك  
فى زمانى  
خطرت بهالى الأديرة  
التي رايها يوما ما  
وصودرت حبيما  
باسم القانون

★★★

يادىي ( فكرت حينذاك )  
لقد منحت الفرصة يوما ما  
لفرس العلم  
وفضح الفقر

★★★

فالأراشى والجواهر  
التي كانت موجودة يومئذ  
لم يكن يومئذ خلق دعاء مداحين  
لها كانت مستصحب مصدر حماية

★★★

لعامة الناس الى المصراط المستقيم  
من انحرفوا بعيدا الآن  
ولمها كانت ستظم المحرومين  
من يتضورون جوعا كل يوم .

فيالها من كلمات مقلقة ! . لقد كتب صغير فرنسي فى إنجلترا -  
يصف هنرى : انه وجل رائع ، ويلتف حوله شعب رائع ، ولكنه ثعلب  
داهية . وقال لوتر . سيخمد يونكر هايتز الها ويقمل كل ما يشتهى .  
فلعل هنرى كان لا يدري بما يجري ولا يتحمل أية مسئولية شأن الكثير  
من الملوك . غير أنه قلما آثمت الافتقار الى الدراية والمستولية عند أى  
ملك أنه يكبد شعبه تكاليف باهظة . وبوصه عام فان الأمر سيان .  
أما هذه الكلمات الحريئة الثيرة للأسى فقد صدرت . فى ٢١ يناير ١٥٤٧  
من مستشار الملك بعد أن دهمه المصاب . عندما أعلن للوردات بأن الملك  
الذي كان يحضى بأسه ويخشونه جميعا ويقدروه قد فارق الحياة .

## المراجع

- Patrick Collinson, *Archbishop Grindal 1519-1589* (1979).
- Claire Cross, *Church and People 1450-1660. The Triumph of the Laity in the English Church* (1976).
- A. G. Dickens, *The English Reformation* (1964).
- G. B. Elton, *Reform and Reformation : England 1509-1558* (1977).
- Christopher Haigh, *Reformation and Resistance in Tudor Lancashire* 1975.
- Felicity Heal, *of Prelates and Princes : A Study of the Economic and Social Position of the Tudor Episcopate* 1980.
- Richard Marston, *Thomas More* 1944.



## النساء وعهد الإصلاح الديني

### جين نمسي دو جلاس

عملت حركة الإصلاح النظرات المعاصرة للنساء والزواج . فبعد أن أعلنت مساواة « قساوسة جميع المؤمنين » بين المسيحيين ، فلنساء رفضت الاعتراف بوجود لوائح منفصلة للسلوك ، بعضها للكليروس والبعض الآخر للكافة ، ولم يكف البروتستانت باعتبار الزواج والاتصال الجنسي عملين خييين ، يرضى عنهما الله ، ولكن نظر أيضا إلى الحياة الزوجية على أنها اسمى مشكلة من الزهد والتبذل في اللاهوت البروتستانتي . والممارسة البروتستانتية ، وأصبحت الأسرة - لا الدين - هي « المدرسة الحقة للايمان » ، واستمر النساء يقطنن للزواجهن ، ولكن الحب الطبيعي والمعاشرة اتخذوا الصدارة في الزواج ، وحظيت المسئولية المنزلية من تسيير حياة البيت اهتماما جديدا وقلنا جديدا .

واتلحت حركة الإصلاح فرصا تعليمية جديدة للنساء والاطفال على السواء ، فقد ساعد التشجيع على أهمية للحياة الأسرية على جعل مواظبة الأبوين أمرا هاما في الزواج . أما أبعد التغيرات أثرا في قانون الزواج فكان الاعتراف بالحق المتبادل للطلاق وإعادة الزواج ، وهو أمر لم يسمح به بتاتا في كنيسة العصر الوسيط .

ويؤكد رد العمل الكاثوليكي لإغلاق البروتستانتية للكلية ، ما تركته حركة الإصلاح من آثار على النظرات المعاصرة للنساء والجنس والزواج . فقلق استلحت حركة الإصلاح بعض النساء على المشاركة في مستوى جديد من النشاط السياسي ، وحظت مسئوليات دينية جديدة لكثيرات منهن ، وفي الجبهة الداخلية ، كالات الحركة لتعوية حق ، وإن كانت محدودة ، في عقول كثيرين ممن انضموا إليها .

أحدثت حركة الإصلاح بعض تغيرات أساسية في أسلوب نظرة الكنيسة إلى النساء والرواج ، وتأثر بها المجتمع من قريبه ومن بعيد .

تأليف Women and the Christian Reformation خلاصة  
(1971) Religion and Sexism Jane Dempsey Douglass

ولقد كتب رولاند بتون . ه لقد كان لحركة الإصلاح الديني في رأيهم  
أثر كبير على الأسرة ، فإن تأثيرها على المجالين السياسى والاقتصادى -

ولقد اعتدى لوتر في دراساته التوراتية الى بيئات عديدة اقتنعت  
بمدى يحس الكنيسة الكاثوليكية للزواج - فحتى عند سقوط آدم وحواء ،  
قال الله قد قصد بالزواج ان يمدوا امرأ طبيعيا للكائنات البشرية . فقلل  
للزواج هو المثل الأعلى . ومن ثم لم يتعين ان لا ينظر الى الحياة الزوجية على  
أنها الأخط أخلاقيا من المذبذبة . كما زعم لاهوت العصر الوسيط . واتجه  
النظر بعد لوتر الى السه والجنس على أنها خيانت أساسا ، وعاد الهجوم  
الذى استتبع ذلك على المؤسسات الرهبانية بنتائج عميقة اجتماعيا  
وإحصاديا ، وعلم البيت هو المحور الجديد للدور الدينى للمرأة .

وسنبدا هذه الدراسة نرس مقتضب للاهوت الجديد الذى تضمن  
وقضى البروتستانت التفرقة بين الحياة وفقا لواميس الطبيعة ، والحياة  
وفقا للمعايير المثالية للنعوى ( كما وردت في انجيل متى ) يعنى تعاليم  
تبرير الوقوع في الخطيئة في نظر الله ، والتكفير عنها عن طريق العناية  
اللاهوتية من خلال الايمان بالمسيح وممارسة الشعائر المترتبة على ذلك ،  
وستنظر هذه الدراسة في دور المسحى في السلام وقسومية جميع  
المؤمنين . ثم تتركز بعد ذلك تركيزا مباشرا على نظرة الإصلاح الدينى  
للزواج والنساء والبيت بعد الامتعاة بينات مستفادة أساسا من لوتر  
في فينتسرج ومارتين بوتر (٣) المصلح الدينى الألماني في ستراسبورج  
وكالغان في جنيف .

ويتناول القسم الثانى بعض النتائج العملية لهذه الأفكار في مجالات.  
قانون الزواج والتعليم والحياة الكنسية . وفى نطاق التكوينات المألوفة  
للبيت والكنيسة . التى كان يترأسها الرجال - كما كان الحال منذ  
الازل - استطاعت النساء رغم كل ذلك النظر الى واجباتهن القديمة نظرة  
مختلفة ، واكتسفن واجبات جديدة لأنفسهن .

وقد القسم الثالث منبحث دور النساء في حركة الإصلاح الدينى ،  
كما دلت من منظور راهبة في جنيف من الأخت جان دى جوسى التى  
دونت مذكرات عن السنوات المضطربة التى شهدتها المدينة من ١٥٢٦  
الى ١٥٢٥ .

---

{\*} Martin Bucer ( ١٤٩١ - ١٥٥١ ) راهب لوثيكنى نقل عن حواراته  
لكاثوليكية وتزوج ١٥٢٢ وأقام في ستراسبورج .

## لاهوت جديد للزواج

● **ولف التاموس الداعي إلى الكمال في انجيل متى** ● فرق اللاهوت  
الوسيط بين الحياة المسيحية وفقا لمحتاها الأصل ، والحياة وفقا للتاموس  
الداعي للكمال ، ويصنف النوع الأول طاعة قانون الله ، ويتقدم به جميع  
المسيحيين . واكتشف المسيحي العادي قدرا كبيرا من الصعوبة لتحقيق  
هذا المطلب . أما النوع الثاني فهو دعوة أسس لا يقدر على تحقيقها سوى  
قليل ، لأنها تطالب بالبنوة - ضمن ضوابط أخرى - ولها ثواب أعظم  
عند الله . واسمعه لوتر من يواكير دعوته الإصلاحية هذه التفرقة  
بوضوح غير محتملة . ورأى استحالة وجود طبقتين أو كثير من المسيحيين  
بين الممجدين . فجميع الشرائع المزملة من عند الله مقبلة للنشر جميعا .  
واستشهد لوتر بنص الوصايا العشرة التنفيذية كوصية ( حب أعدائك -  
التي وردت في انجيل متى : ٤٤ ) ، ومضى واستمر ضمن تاموس  
الكمال .

● **تبرير دور الفتاة الالهية عن طريق الايمان** ● ولكن مهما كانت  
درجة تقيد الجميع بالقانون فانه من المستحيل التزام أي شخص بتنفيذ  
ما امر عليه ، حتى النظر عن قلبه ، كما ذهب لوتر . ولولا عبادة الله  
ورعايته لما وجد من يرغب في اطاعة ارادة الله على الإطلاق ، ولكن حتى  
المؤمن المسيحي - الذي يبتغي في نظر الله قد اتبع الصراط المستقيم  
الذي يطالب به الايمان ، فانه يظل في الوقت نفسه مرتكبا للخطية .  
وليس بمقدوره أي طالب بمثوبة من الله ، وكأنه يستحقها - مهما كان  
تصويب عمله من القيمة الدينية .

والأفضل هو أن لا يشغل المسيحي الذي يثق في وعود الله له  
بالحياة السمودية باله بمسألة الثواب والجزاء . فسنمنا يشكر المسيح لما  
أنعم به عليه ، فانه يفيض بالحب ، ويشعر بالغبطة ويخبره من أي قيد  
عندما يخدم أقرانه . ويذكر كيف أصبح المسيح خادما ، ومات من أجل  
المخطئين من أمثاله . فلماذا لا أقبل أنا الآخر على طيب خاطر كل ما أعرف  
أنه سيمر الله ويرضى عنه فيتم طبع الشعور بالابتهاج ؟ ومن ثم فالتن  
سأهب نفسي لجاري على عرار ما فعل المسيح ، ولما كان هذا الشخص  
المسيحي متحررا من أي حاجة للالتزام بالواجبات الدينية الخلفية بالثواب ،  
فانه يقرر أن يصل ما يراه ضروريا ولذا لجراجه .

● **الأصرة كوعزة للايمان** ● وهكذا يقلل المسيحي الذي لا يتلقى أية  
نعمة غير ايمانه بالمسيح ووعوده بالخلاص على العالم للقيام بدور فعال  
تبدو المحبة التي تلقاها ويسعى لصيها في كل ما يراه فله المواجهة

لحياجات البشر ، وهذا هو دور القديس ، وأعظم مقام يمارس فيه هذا الدور هو الأسرة ، ومن بين الأفكار الدائمة التكرار في تمجيد لوتر على سفر التكوين قوله :

« إن الأساطير أو حكايات القديسين التي تروى عن المايوية لم نكتبها وقما لحاير الأسفار المقدسة » فما قيمة أن تترقى فلسفة أو صوم أو تضطلع بعمل شاق من هذا القبيل بالمقارنة بالمتاعب التي تترتب على الحياة الأسرية والتي نهض بأعبائها القديسون . يعنى البطارقة .  
المجلد » .

وعندما وصف مرسى حياة ابى الأنبياء الأجلاء ( سيدنا إبراهيم ) فإنه لم يخترع صورة راهب حافلة بالمحرمات ، ولكنه صور كآدم النوام الماكثين على شئون أسرهم ، لأنه كان متزوجا ، وكان لديه أبناء ، ولا يفهم الباباويون هذا الضرب من القداسة لأنهم لا يدركون كيف كانت طبيعة إيمان إبراهيم وربيكنا مثلا طيبا على ذلك ، لأنها كانت إلى جانب قداسيتها أما طيبة مصنوعة من لحم ودم ، أى ليست مصنوعة من مادة أخرى غير المادة التي صنعها منها . فلقد عرفت العامة ، كما عرفت القوافة صا . ومن هنا رأى لوتر في الزواج ملوثة للإيمان . يتعلم فيها القديسون كيف يعيشون اعتمادا على الإيمان . في ذات الوقت الذي يكافحون فيه لحل المشكلات الدنيوية ، كالتعبير عن الولد والأغراب والولاء ، وغسيل ( الكافولة ) وإطعام الأسر ، وتهذيبها ، ومواجهة المعاقب التي قد تترتب على موت المسنين أحيانا وموت الأطفال هي أغلب الأحيان » .

● دور المسيحي ● نعم لم يعد دور المسيحي قاصرا على الحياة الدنيوية ، وشغل وظائف الكهنة والرحبان . فلقد اعتقد لوتر ، أنه كما يستطيع الحاكم الدنيوي بفضل الإيمان النهوض بدور « المسيحي » في العالم ، كذلك يمكنه رمة البيت أن تفعل ذلك أيضا . قبل الزوجة أن تترك أن مهامها المتعددة كترعاية الأطفال وتقديم المون لزوجها ، أو طاعته ، من « أسس الأعمال التي لا تقل نفاسة عن الذهب » . وعندما تترك الزوجة بتجربة مثل الولادة ، فيجب أن لا تشجعها على تحمل الأوجاع بتذكرتها خرافات حمقاء عن القديسين ، بل علينا أن نقول لها : « تذكرى يا عزيزتى جريتا أنك روحية ، وقد كرمك الله بهذا الدور . فعليك أن تقبل على العمل وفق إرادته وأنت متفرجة الصلوة » . « وأفضل كل ما في وسعك لولادة الطفل . ولكن إذا لاقيت حنقا فاعرضي أن حيتك كانت ميتة سامية ، تبعا لمشيئة الله » . « وسأين لوتر موضحا بين دورها الذي رسمه الله والأفعال « الدنيوية » :



« إذا رغبت ربة الأسرة أن ترضى الله وتخطمه فليدعها أن لا تطلع ما اعتاد اليابويون فعله ، يعني الجرى إلى الكنائس والصوم والاكثار من الصلوات . ولكن عليها أن ترضى الأسرة ، وأن تربي أطفالها وتهذبهم ، وأن تقوم بواجبها في المطبخ ، فلم تفلت ذلك بروح مؤمنة بآمن الله ، فانها بذلك تكتسب القداسة والبركات » .

● **تفوق الحياة الزوجية** ● وعندما تحبس لوتر للزواج ، فإنه تجاوز التأكيد بأنه صحة حيرة من الله وأن ، حالة الزواج ليست مجرد حالة مساوية لبقاى الحالات الأخرى ، ولكنها تسير عليها جميعا ، « سواء كان الزواج ملوكا أو حكاما أو أساقفة ، لأنها ليست حالة خاصة ، ولكنها أكثر الحالات عمومية وسلا » ويستشهد بكلمات يسوع : « ألم تعرفوا أن الخالق قد خلقنا من البداية ذكورا وإناثا » لهذا السبب سيترك الرجل أباه وامه ، ويصحب زوجته ويؤلفان معا شخصا واحدا ، وسيصبح الاثنان جسدا واحدا » ( متى ١٩ : ٤ - ٥ ) . وهي وصية لا تختلف من حيث القوة عن الوصايا التي بحرم القتل والزنا « عليكم بالزواج ، فعل الرجل أن يتخذ زوجة وعلى المرأة أن تتخذ زوجا » .

● **إمكانية العزوبة الطوعية** ● ولكن في أحيان أخرى ، اعترف لوتر بأنه إلى جانب أولئك المأحرمين حصانيا ، هناك آخرون لديهم القدرة على حياة العزوبة . « وحسبهم العيش كذلك ، ولكن عليهم أن لا يلمنوا البيت » . ويؤمن لوتر أن هذه القدرة نادرة ، ويسلم كالفان أيضا بأن بركة العزوبة هبة من الله :

« نحن بها أشخاصا بالذات ، لاعندهم لنور ما ، فلا ندعوا أي إنسان يزدرى الزواج عن طيش ويصفه بأنه بلا نفع أو زائد عن الحاجة ، ولا ندعوا أحدا يتطلع للعزوبة إلا إذا وافقت له القدرة على العيش بلا زوجة ، أيضا لا ندعوه يستسلم في هذه الحالة لراحة اليدين والاسترخاء ، فعليه فقط ، بعد أن تحرر من هذه الصلة الزوجية أن يكون أكثر تهيؤا واستعدادا للنهوض بجميع واجبات التقوى ، ولما كانت هذه النصبة قد وضعت لكثير من الأشخاص همرة مطبقة فحسب ، لذا فعليكم أن لا تشجعوا الجميع على الامتناع عن الزواج إلا إذا كان قادرا على عدم اساءة عرويته وإذا أطلق لي تحقيق هذه القدرة على ترويض الشهوة ، فدعوه يترك أن الرب قد فرض عليه ضرورة الزواج » .

لا ينبغي أن إمكانية العزوبة هبة من الله وصية ، ولست من بين الحالات التي تتحقق بتحكم الإنسان في شهواته . فلها دور على هي الحالات التي قد يحق فيها الزواج الشخص عن ممارسة دور بالذات .

ولا دلالة لها على سمو الخلق . ويمكن أن تمارس مع توقع أن لا تتجاوز الحاجة إليها أكثر من فترة مؤقتة ، لا على أساس أنها عهد يدوم مدى الحياة .

● **الزواج والاكليروس** ● ولم يقر المرف البروسنتاني دفع الاكليروس للمقدمة بممارسة الموزونة . ففي الواقع أهم رابوا في المرف التقدم الذي أتاح زواج رجال الدين في الكنيسة كلها وفي استمرار ممارسه الزواج . على الأقل بالنسبة لصفار الكهنة في الكنائس الشرقية . سابقة مشاورة لكي يقتدى بها الرعاة الدييون للزوجون . ورفضوا من حيث المبدأ تعهد أى شخص بالمزوجة . وفي بواكير عهد الإصلاح الديني ، شعر القسيس بالحاجة الملحة للزواج حتى يتعرفوا على ما يحدث عند تطبيق نظرتهم اللاهوتية الجديدة للزواج .

● **قسومية جميع المؤمنين** ● وكان أحد الأسباب التي دعت الى عدم توقع اتباع الاكليروس لمعار مختلف عن معايير عامة الناس هو المفهوم البروسنتاني الجديد لمحتى الكنيسة . فقلد فهم لوتر استنادا الى الايمان بطور المسيح والتعهد أن على المسيحيين أن يراعوا . « أننا باعتبارنا شركاء له في الاخوة وميراث الملك » قائلا شركاء له أيضا في الدور الديني . وبمقتورنا أن تتأسي به بالاعتماد على روح الايمان فنقول له عندما نظهر أمامه « يا أبانا » وأن يصلى كل منا من أجل الآخرين ، وأن نتقبل كل ما نراه عندما نرى القسيس يؤدونها بحكم وظائفهم » .

والأكثر من هذا أن لوتر قد ضمن تعاليمه بصفة خاصة تعليم كل شخص للآخرين كل ما يتعلق بالله . ودعا كالتان أيضا الى مبدأ مسئولية جميع من يتبعون الكنيسة من مهمة التهذيب العام ، كل يقدر نصيبه من العناية الالهية ، ملزم يؤدي هذا الدور على نحو مستطم وقور » .

علينا ان نلاحظ ان قداسة ( قسومية ) جميع المؤمنين لم تدرك أساسا على أنها وسيلة أو شفاعة مسيحية لصالح الشخص أمام الله . ولكن لظن إليها في الأرجح في سياق المجتمع ، أي كشفاعه شخص آخر ، وعلى أنها قائلة على تعريف كلمة الله للآخرين . غير ان هذا الاتجاه لم يحل دون الاعتراف بضرورة وجود قسوس مرسين في التيار الأساسي لحركة الإصلاح الديني ، ورتى من أجل النظام العام انتقاء اشخاص عاقلين مدينين على الحمل لصالح المجتمع لتسغل وظائف عامة لإدارة شعائر العبادة والمقنسات والوعظ ، شريطة توطيد القاعدة اللاهوتية (التي تنص على المساواة في المسئولية بين الاكليروس وعلمة الخلائق ، ومن بينهم النساء .

● **ضد معتقري السماء** ● وبعد أن نظر الآد إلى حالة الرواج على أنها اسمي أسلوب لحياة الأكليروس وعامة الناس على السواء ، فلا غرو إذا رأى لوتر توفيقا لصاحب البابويين<sup>١٠٠</sup> وجميع من يرددون الأناث ، وفي الوقت نفسه استشهد البروتستانت بقملة الآباء والقديسين ممن تزوجوا ، وأردوا بفصلهم اسم الزواج الفى ندد به العالم عن بكرة أبيه واستهجنه ، كما لاحظ عبد الشاعر جوفريال<sup>(١)</sup> والشاعر ملونبال<sup>(٢)</sup> ، ويعترف لوتر بالحطايا التى تروى عن بعض نساء فى التاريخ ، خصوصا حواء ، ولكنه ألح على وجوب مراعاة الاتصاف عند الحكم عليهن وعدم ارجاع ذلك إلى الجنس فقط ، ، لأن الخطيئة التى يقع فيه الرجال والنساء على السواء ، وعلى الرغم من أن ملاحظاته لا تحصل أى تأنيب ، إلا أنه يظن أن الأناث « هن الجنس الأضعف ، الذى يكمن فى روحه وبدنه العديد من الرذائل » ولكن هناك حسنة واحدة تنصر لهن جميع هذه الرذائل وتطفى عليها : **الرحم والولادة** .

لقد اعتقد لوتر أن اسم حواء وحده يكشف عن دورها المجيد كام جميع البشر : « لقد نص الله المرأة بدور خلق البشرية جمعا ، يعنى البهوش يستثبات الحمل والولادة ورعاية الأطفال وتهذيبهم وخسمة الزوج وإدارة شئون المنزل - وهكذا تتألف هذه الحسنة وسط جميع الشرور والرذائل التى تنسب إليها وتطفى عليها كلها » . وحتى بعد النسطة ، ظان القنوبة التى خللت بها ، يلبس خيل الأطفال والتوجع ، لا بد أن ينظر إليها النظرة الصميمة ، لئى على أنها « عقوبة صريحة ومفرحة » فلم يتخل الله عن حواء : فلقد رأى أنها قد خلقت على حسنها واستمرت كعترف ينقشها كأمراء ، ومن ثم فلم تفصل عن آدم لكى تحيا وحيدة ومحرولة من الرجل ، ولخصرت بالزهو لمور الأمومة التى لوكل إليها . واعتقد لوتر أن هذا شجها بلا مرء ، وعلى الرغم من أنه لوتر قد اعتبر دور المرأة وثيق الصلة بقدرتها على حمل الأطفال ، فإن هذا الدور بدأ له مصيرا سميما ومرفقا أكثر من كونه طمعا نجلاء ، كما بدأ لكثير من كتاب القرون المارة . وفى طئه أن ما يستأهل اللعنة هو الاضطراب - وتأثر لوتر تأثرا عميقا بنصوص المهد القديم ، وكثيرا ما شرحه وعلق عليه .

● **الاتصال الجنسى فى قاته خمر** ● واعتقد لوتر أن جميع المخازى التى تبدأ عنده بعض هي والاتصال الجنسى قد نجمت عن الخطيئة . فلم يكن هناك أى خنزى فى الفردوس ، لأن الاتصال الجنسى من خلق الله ، الذى

(\*) Juvenal ( من ١٤ إلى ١٥ ق م - ١٠ م ) شاعر كعنى سلفر ،

(\*\*) Marcus Marcial ( ١٠ م إلى ١٠٤ م ) ولد فى إسبانيا وكتب أشداده

باللاتينية -

باركه أيضا • وشعر آدم وحواء بنبعة شريفة علما عارسا الجنس مثل  
نبعة الفداء والشراب • أما الآن • وبعد سقوط آدم وحواء فلم يعد بمقدور  
أى رجل معرفة أية امرأة دون أن يشعر نحوها شعورا شهوانيا بشما •  
وترتبط عملية الولادة • بنبعة مخزية مرعبة قارنها الأطباء بحالات  
الصرع •

بطبيعة الحال ، ليس من العسير ادراك الفارق بين نقاء الجنس كما  
مودس في الفردوس ، والحرى الذى ارتبط به من أثر الخطيئة على انحاء  
شتى في التاريخ السابق للمسيحية بأسره • فلقد عارضت المسيحية بوجه  
عام الأوضاع المزدوجة التى حملت الجسد موطئا كامئا للشر - ولكن فى  
صعيد الفكر الإصلاحى ، حثت تشديد على القبول الموجب لعملية الولادة  
وفائقها ، التى تعرضت للتشوه بعد الربط بينها وبين الخطيئة • إذ مارال  
بالاستطاعة النظر إليها من منظور الإيمان والحكم بخيرتها

• فإذا شعر أحد بالجرى علما يرى فتاة ، فإن الخطيئة فى هذه  
الحالة لا ترد إلى العيب ، وإنما إلى علم نقاء الفؤاد ، لأن العيبين واليدنين  
والقدمين واليدنين هيات من الله • حكنا قال لوتر ، وليس العلاج الصحيح  
للاشتهاء الجسدى هو التوارى فى دير • كما يفعل الرهبان لتجنب رؤية  
النساء ، ولكن العلاج هو تعلم كيفية استعمال هيات الله ، لأن الرذيلة  
لا تعالج بالامتناع عن الأشياء التى منحها الله ، وإنما بالاستعمال الصحيح  
لها والتحكم فيها • فعندما يكون الإنسان مجرأ من الرذائل • فإنه يستعمل  
الإنشاء استعمالا صحيحا ، وعلى نحو نال على التقوى والأمانة • فإذا اتبعتم  
هنا لهذا ، سواء فى الزواج أو علما تمارسون مهام الحكم ، فإنكم  
ستمعاملون بالنبل من قبل الزوجة ، ومن الأشياء الخيرة فى ذاتها •

وإذا شعر القارىء المحدث بأية أسامة لأن لوتر قد جعل الزوجة شيئا  
من • الأشياء ، التى تستعمل ( أو تعامل معها ) ، فإن بالمقدور الإشارة  
إلى أن لوتر فى مواضع أخرى قد حرص على التفرقة بين الزوجة والأمتعة  
المنزلية التى تنضم لتصرف الزوج • فليس هناك من هو قادر على التحكم  
فى الروح الإنسانية غير الله من خلال الكلمة المتقدمة وكتابه المقدس •

وتطلع كالفان أيضا لشجب ما اعتبره خطأ من مكانة الزواج فى  
العقيدة الرومانية ( الكاثوليكية ) • إذ رأى من السخف أن يحسف اللاهوت  
الرومانى الزواج - من ناحية - بالقسمة ، وأن يحسف - من ناحية أخرى -  
بالدنس والفلوت والفتارة الجمعدية ، وأن يحال بين ملامسته - بل  
واتكاد دور الروح القدس - دوما فى عملية الجماع • ولكنه علما عقبه  
على الرصية المسابعة ، حذر الزوجين من علم تشويه زيجتهما بالتمادى فى

الشفوة المنحلة - فحتى اذا سلمنا بأن شرف العلاقة الزوجية له القلبية على ما فيها من احتياط وابتعاد عن التصف ، الا أنه من الواجب عدم استعمالها من أجل الاثارة -

● **خضوع النسوة لأزواجهن** ● يعترف جميع المصلحين على نحو ما ورد في التوراة سرأس الزوج للبيت ، وأن من واجب الزوجة طاعته ، ويبدو يوتسر في تصوييره للاسميسيين ( ٢٣٠ - ٢٤ ) ان على الزوج أن يعلم زوجته بوجوب التحل بالقعدة والصلاح في الحياة ، وأن يجنبها الدخوع في الرديلة ، وأن يطعمها ، ويرعاها مثلما يرعى جسده ، وعلى الزوجة بدورها أن تعبد جسدها وعونها كلما تيسر ذلك لمباداة الله ، ولجميع الجوانب الأخرى ذات النفع في الحياة -

وعندما عقب كالفان على الاسميسيين ( ٢٢٠ - ٢٣ ) لم يستهن - كما لا يخفى - بمطلب وجوب خضوع الزوجات للأزواج ، الا أنه شدد هنا - كما فعل في مواقع أخرى - على التذكرة بخضوع كل مسيحي للمسيحيين الآخرين ، رجالا ونساء ، فسلطان الزوج اقرب الى سلطة المحتس منه الى سلطة حاكم للملكة - فعليه ان يتجنب الاستبداد في معاملته لرفيقة حياته -

ويوسنا الاعتناء الى أدلة تثبت مدى جدية النظر الى واجب طاعة الزوجة في سجل طائفة الرعاة المصلحين في جيف ، ففي ١٥٥٢ ، تلقى كالفان رسالة بدون توقيع من مينة من الأشراف اقتضت باتباع الطعية الانجليكانية بعد زواجها من أحد المناصلين الكاثوليك ، وشرحت السيدة ما تضمن به من كثر من وراء عقيدتها وما تنحصر له من صفوط لاوغامها على اتباع الشرائع الكاثوليكية ، والطريقة التي تتبع في التجمس عليها وحسبها ، وبشعورها بطول اعتناء على زوجها وجسدها - فهي عاجزة عن الاعتراف بإيمانها الحق علنا ، وليس باستطاعتها انشاد الامير بالفرنسة أو اقتناء كتب عن يسوع - وتتساءل في الرسالة : هل ينص قانون الزواج على بقائها في محبة زوجها ، أم انها قادرة على التمتع بالحرية وفقا لما جاء بالكتاب المقدس ، واللهاب الى المكان الذي تستطيع عبادة الله فيه بحرية ، وهل تريد « جتيف » تسليمها لأزواجها لو أنها هربت الى جنيف ، وتقبها زوجها الى هناك - ان على الزوج أن يحب زوجته ، وليس احتقارها ، وإن ينشد صحتها وعونها - وعبر الرد - ولعل كالفان هو الذي كتبه - عن الاشدائ والتعاطف لما تعانيه من جزع وجرة ، ولكن الرسالة قد اوضحت ان الأسرار المقدسة لا تسمح للمؤمنات بترك أزواجهن من غير المؤمنين طوعا ، ليجرد حقن اعتدله أو مماناة ، والأرجح هو ان

سمى الزوجات المسيحيات الى اداء واجباتهن نحو أزواجهن على نحو يساعد على وجوعهم الى الايمان . وانا سمع بالهروب لن يكون امرا مضيا ، الا في حالات التعذيب عندما تعرض لخطر فادح . ولما كانت الزوجة تسير الآن مطالب زوجها في صمت ، فانها تعد بيمينه كل البعد عن التعرض لثل هذا الخطر ، وعليها ان تدعو في صلواتها لكي تتحلى بالشجاعة والوفاء حتى يمكنها مقاومة المطالب التي قد يمد خطية ضد الله ، وان تعرب عن ايمانها بطريقة مستحبة ، ويتواضع . فاذا الحق الزوج بها أي اذى جعلها تقترع من الموت ، فان هروبا مسموح به . وعلى السيد حامل الرسالة الرد شفاهة ودا كاملا للايلاغ عن سلامتها الشخصية . وليس بخلاف أن النقطة الأساسية في هذه الرسالة هي صحة الزواج بواحدة من غير المؤمنين . ويصح تطبيق هذه القاعدة بالمثل في حالة زواج رجل وامرأة ، من غير عقيدته . غير أن الحق الشرعي للرجل في التحكم في زوجته يلبو أنه مقبول حتى في حالات التعدي بالضرب مع مراعاة استثنائين ، الاستثناء الأول - حق الزوجة في الهرب اذا أدركت تعرض حياتها للخطر . والثاني - حقها في رفض طاعة أي أوامر تنفعها لمصلحة الله .

وهناك ود أكثر اقتصاها على امرأة مجهولة الهوية تعاني بالمثل . ويرجع تاريخ الرسالة الى ١٤٥٩ . وتضمن الرد بالضرورة النصيحة بعينها . وان كان كالمأن قد افصح عن رأيه بوصوح اشد ، فيما يتعلق بالإذنى أو الاستسامة :

نحن نشعر بصعوبة خاصة نحو النساء الفقيرات اللاتي ينامن بمسألة فظة وشريرة من قبل أزواجهن ممن يتصفون بالفظة والقسوة ويستبدون في المعاملة ، وتقيد حرياتهن . على أننا لا نرى أن من حقنا طبعا لكلمة الله أن ننصح أية امرأة بترك (هجرة) زوجها الا بدافع الضرورة . ولا نصنح بامتنعال الزوج للقوة مسلحة عندما يتصرف تصرفا خشنا وتهديده لزوجته ، وحتى عندما يضربها . ولكن ما تقصده هو حالات الخطر الوشيك على حياتها ، سواء من جراء تعذيبها أو من تأمر الزوج واعداء الحق أو من مصدر آخر ، فان عليها في مثل هذه الحالات أن تحمل صابرة الصليب ، الذي رأى الله من المناسب تعليقها له . وفي نفس الوقت ، فان عليها أن لا تنحرف عن أداء الواجب المقروض عليها تجاه الله ، محبة ارضائها لزوجها . وعليها أن تلتزم بالأمانة مهما حدث .

● **الخضوع فيما يتعلق بالمسألة** ❖ لم ير أي مصراع من المصلحين - كالمصلح الاسكتلندي جون نوكس الذي عمل في جنيف في سضي الاوقات على سبيل المثال أي شيء غير الشر في حقيقة اغتصاب النساء

للسيطرة في إيمانه والتحكم في الشحوب - إذ اعتقد بوكس أن هذا الإجراء مخالف للطبيعة والأسفار المقدسة وعلى الرغم من أن الله قد رشح من حين لآخر بعض النساء الباروات إلى مناصب سيادية ، إلا أن النسب تحكم طبيعتهن تنصن بالضعف والهشاشة وقلة الصبر والعصا - وأثبتت التجربة أنهى عديدات الوفاء متقلبات قاسيات وتفتقرن إلى الصلابة على التشاور والانتظام ، وحتى دون رجوع إلى الأسفار المقدسة ، فقد أدرك فيلسوف مثل أرسطو أن من يخضع خضوعاً شديداً لزوجته يعد حاكماً هزئياً واستمد بوكس من اللعة التي حلت بجوارحه بعد السقطه ، دعوتها لتخضوع لأرادة زوجها ( صفر التكوين ٣ - ١٦ ) وإيثار العهد الجديد بدعوتهم إلى السكوب أثناء وتوقهن من خشود المصلين ( ٢ - ٩ - ١٥ ) ولا ننسى كتابات آباء الكنيسة التي اتبعت نفس الموقف ، واستبد منها بوكس الثقة في توفقه ضد الله طغيان ماري (جيراريل انجلترا) في التبر ، ومن الغريب أنها ماتت بعد شهرين قليلة من هذه الفترة -

● **المحب المتبادل بين الزوجين** ● يلاحظ في الفكر البروتستانتي عن الزواج حدوث تحول تدريجي وابتعاد عن التشديد الأقدم على تبرير الاتصال الجنسي بصفه تخلد النوع ، وحدث ابتعاد أيضاً عن الاشارة بالزواج كعلاج للتخلد الشهواني ، وعرف لوتر بالذات للزواج بأنه اتحاد روحاني شرعي بين الزوجين يهدف إلى إعجاب خفية ، أو لتفادي ارتكاب معصية أو اثم ، على أقل تقدير ، ولكن كان يقدور أيضاً التساؤل - « هل هناك ما هو مرغوب أكثر - من تحقيق زيجة سليمة هاتية من حينين بحيث كل منهما الطرف الآخر وتتصل روحاهما اتصالاً مبهجاً ، ؟

وليس هناك من ينكر تركز اعتراف لوجسبيروج للوترية على الزواج كما أمر به الله على تجنب الفجور - غير أن الاعتراف التالي لذلك ١٥٦٦ قد أشار في فقراته الخاصة بالزواج إلى علاج الفجور عرضاً فصيحاً - خالاه يريد من الرجل والمرأة العيش في تكافؤ رغم انفصال كل منهما عن الآخر ، وأن يحققا أعظم قدر من الود والوفاء - فلا اشارة هنا إلى الانحطاب وتخلد النوع - ونس أيضاً اعتراف الايمان لوستمنسر ( الذي تم الإصلاح الديني أيضاً ) بأن الله قد أمر بالزواج « لكي يجادل الطرفان البنون لتزويد البشرية بفرصة صالحة ، ولتزويد الكنيسة ببنود مقدسة ، وللمع الرجس » ولطاهر أن هناك مغزى خاصاً وراء ترتيب الأهداف الثلاثة للزواج - فوجه عام ، ويسمى تناسي النقاش التقليدي عن دور الزواج في معالجة الفجور وتخلد النوع ، فإن الفكر البروتستانتي قد نزع إلى زيادة أهمية التعلق المتبادل بين الزوج والزوجة ، والذي خضع قبل ذلك كفاية لتخليد النوع -

وبالاستطاعة اكتشاف هذا التشديد بوجه خاص عند بوتسر في  
 بواكير حركة الإصلاح \* ان الغاية الحقّة والكلية للزواج هي أن يتبادل  
 الزوجان المودة والوفاء ، وأن تكون المرأة عوناً وجسداً للرجل ، والرجل  
 رأساً ودرعاً للمرأة \* واحتفظ بوتسر في تعريفه المتأخر للزواج في كتاب  
 « مملكة المسيح » بنفس العناصر : الألفة والاتحاد بين الرجل والمرأة ،  
 لتبادل العون في الحياة برمتها ، على أن يصحب ذلك أعظم قدر من الجود  
 والود على غرار الصورة التي رسمها الأفسسيون ( ٢٣ - ٢٤ ) . وأضاف  
 بوتسر إشارة صريحة الى واجب الكشف عن الاتصال بين القانون الالهي  
 والقانون الانساني ، ولا بأس اذا لزم الأمر باستعمال الجسد للاتصال  
 الحسنى . ولكنه لم يشر أية إشارة الى تخلية النوع .

والظاهر أن أولوية الحب المتبادل بين الزوجين كانت موجودة أيضاً في  
 مبحث الهيوماني الاسباني(\*) فيقيت وتعليم المرأة الاسبانية الذي أهله  
 الى ملكة اجتلترا كاترين الأرجونية . وإن كان المقام الذي ظهرت فيه هذه  
 العبارات قد نسب لها دوراً مختلفاً . فلقد أوصى فيقيت الزوجة بإدراك  
 « ان الاتحاد لم يقصد به التماسك والانجذاب ، ولكن قصد به اقتراناً لا تنقسم  
 عراه والمتساوكة في الحياة » . ولكن في مقام آخر ، ظهر أن نظريته قد جمعت  
 الى النزوع نحو الرهبانية أكثر من تصورها عن الغاية البيروتستانتية . فعندما  
 ناقش إمكانية عدم حدوث انجذاب في الزواج ذكر المرأة بأخطار الحمل  
 والولادة التي يصحب وصفها بأنها شيء مرغوب . فلقد ولت اللذة القلبية  
 بالدعوة للعقم ، وأصبحت المبثولة اليوم أفضل من الزواج . فاستطاعة  
 المرأة أن تنتقي أطفالاً تبينهم ، وأن تحبهم كأولادها ، وستكون النصبة التي  
 أولأها الله لها هي أن لا تحمل أطفالاً أو تنسج بهاها حرمت منهم .

## التغيرات الملحوظة في مكانة المرأة

من المسير العنود على أدلة تثبت حدوث محاولة واسعة من قبل حركة  
 الإصلاح لتغيير المكانة الاجتماعية للنساء ، بالرغم من أن اللاهوت الجديد  
 قد ساهم في تحقيق حرية ومسؤولية أكبر للنساء ، وإن كان هذا لم يثبت  
 على الفور . ففي قانون الزواج والتعليم والحياة الكنسية ، حدثت تغيرات  
 أخذت بطريق مباشر الرجال والنساء على السواء ، ولكنها حفزت الى إجراء  
 تغيرات كاسحة في دور النساء في القرون التالية .

(\*) Juan Luis Vives ( ١٤٩٢ - ١٥٤٠ ) وكان يؤلف بلاتينية ودرس  
 بيزنيس ثم عمل استاذاً للكنائيات في جامعة لوفان .



● قانون الزواج ● موجه عام ، لم يعد المصلحون يرون الزواج شيئاً مقدساً ، وحلوا على وجوب مراجعة السلطات الدينية لقوانينه ، لإصلاح الكثير من وجوه نفسه . ومن أمثلة ذلك : النظام المقدر الخاص بالعلاقات المحرمة ، بما في ذلك «العلاقات الروحية» ، والتي حلت من قنوة الشخص على اختيار رفيق حياته .

ومن بين التغيرات القبلية التي تحققت ، الجهد المتزايد لتعريف الكفاءة بمقدار الزيجة . فقد أصبحت المحظورات تنتشر علماً ، ويجرى استقصاء لحالات الزواج بالأنثرب . وفي جنيف ، جرت استطلاعات لتريجات التي سيحتجى بها في إطار التعمارو للدينية العادية ، وتزايد التشليد على وجوب موافقة الأبوين على الزواج .

يبد أن أهم تمر حدث هو السماح بتكرار الزواج للطرف المتضرر والطلاق . ينص النظر عن ندرة حدوث ذلك . وقبل الإصلاح الديني ، كان هجر المضاسب في بعض الحالات أمراً ميسوراً ، وإن طلب الصلة الزوجية تحول دون عهد زواج جديد مادام العروسان على قيد الحياة . وظلت حركة الإصلاح في حملتها عازقة أشد عروق عن إحارة الطلاق . ومن المعروف أن لوتر قد صرح بإشاره التزوج بالتنتين على الطلاق ، ولكنه كان يقصد بذلك الإشارة إلى ما يترتب على الطلاق من مشكلات في الريفة . والنظام أن حكمه قد عبر عن حوقه من الطلاق أكثر من تأييده للزواج من أكثر من واحدة . وبعد بوسر استشه من هذه القاعدة . ملقد حاول . وإن كان لم يوفق . حت استرامبورج تم انجلترا على السماح بالطلاق وإعادة الزواج عندما يحتق إلى حقوقه الأساسية . حسب تعريفه . بما في ذلك الاقتدار إلى الحب .

وفي بعض حالات ، حدثت محاولات تشريعية للمساواة بين النساء والرجال في المعاملة . وفي حالات أخرى ، كانت هناك فوارق واضحة . فمثلاً نصت لوائح الزواج بحيف (١٩٦١) على أنه « بالرغم من عدم وجود مساواة في الماضي بين حق الزوجة ، وحق الزوج في الطلاق ... لصعفا يتم الرجل بالرا ، وتطالب زوجته بالانفصال عه ، فانه من الواجب تنبية مطلدها أيضاً مادامت قد أثبتت استحالة قيام ( أولاد الحلال ) بالتوفيق بينهما . » إلا أنه في حالة أخفاه أحد الطرفين المتعاقدين على الزواج قبل انبامه ، ومطالبة الطرف الآخر بإخفائه من الرعد ، فلم يكن مستبعداً مطالبة المرأة في حالات مصرة بالانتظار لمدة سنة قبل حصولها على الحرية . أما الرجل فلا يطلب مه أي شيء من هذا القبيل .

● **التعليم العام** ● أدت معالم عصر الإصلاح الداعية الى تعريب جميع المؤسسات بنظام القسومية الى ازدياد أهمية اللام جميع المسيحيين بقراءة الكتاب المقدس وغيره من النصوص الدينية . ولقد ظهر في جنيف بعض التعليم العام ، قبل ظهور حركة الإصلاح ، أي منذ حوالي ١٤٢٨ للغيلان - وليس للفتيات - ويرجع الى منه الناحية جانب ما طرأ من محسن عام في تعليم عامة الناس في أواخر القرون الوسطى ، ولكن حركة الإصلاح قد ساعدت على تحوير التوسع في هذه البداية الهبة والارتقاء بها .

ومنذ وقت ياكورج الى ١٥٢٤ ، دعا لوتر السلطات المدنية لانشاء مدارس تعليم الأطفال . وبعد ١٥٣٦ - التي تمثل من الناحية الرسمية السنة التي بدأت فيها حركة الإصلاح في جنيف - طلب من الأطفال الانضمام في المؤسسة . وكان من المتوقع أن مستجيب العائلات القادرة على دفع المصروفات المدرسية لهذا المطلب ، على أن تتولى المدينة دفع مرتبات المدرسين حتى ينسني لهم اطعام أطفالهم ، وتعليم الأطفال الفقراء بلا مقابل . وبعد ١٥٤١ ، أنشئت مدارس تعليم البنات في المرحلة الابتدائية ، ولكن استمرت الشكاية عدة سنوات لعدم وجود مدارس عامة في المدينة .

ومن الجوانب الأخرى التي ساعدت على تقدم تعليم الفتيات المثل المعاصر الذي ضربته مساء طيقة الأشراف في عصر النهضة من شملين حركة الفلاسف والآداب برعايتين وآوين اللاجئين الدينيين مثلاً فقلت ريسه من ميزوا عندما آوت كالفان ، وإذا اسفنا الى دور النساء الأشراف المتطلبات في عصر النهضة قائمة من تولين مناصب فعلة للحكم في القرن السادس عشر كاليزانت في اسبانيا ، ومروحيات في النمسا ، لن يتعذر علينا فهم لماذا أسس المتحمسون في عصر النهضة هذا القرن « بقرون النساء المتميزات » .

ولقد استنحت بعض الهوياتيين في أواخر القرن الخامس عشر ويواكير القرن السادس عشر على وحبوب تعليم المرأة « الكلاسيكيات » وزيادة مشاركتهم في الحياة الفكرية للعصر . وظهر في أعقاب ليوناردو برودني كتاب (\*) ( ١٥٢٩ ) وكتاب آخر (\*\*) ( ١٥٤٤ ) وكتب أخرى (\*\*\* ) كثيرة . واقترح بعضهم - مثل فيغيث برنابا للتعليم متواضعا للتأية ، لا يهدف الى ما هو

---

(\*) Agrippa اسم الكتاب De nobilitate et precellentia feminei sexus  
 (\*\*) Nobilitas della Donna Domenichi  
 (\*\*\*\*) The Defense of Good Women Etyok. مثل كتب (١٥٢٤)  
 Topic Nubylitve of Wymen. Beccher.  
 — Juanviver De institutione feminae christianae (١٥٢٢) .

أكثر من الحفاظ على عفة المرأة وتواضعها . غير أن علينا أن نشيد بما جاء في كتاب يرحر(\*) ( ١٥٥٢ ) عن تكافؤ المرأة والرجل في الواجب . لقد لاحظت في بعض ما كتبه السلا جانباً من التحف والنقد - وعندها قدرتهن بالرجال من وهبوا مواهب مشابهة اكتسبت ماثلهن منهم أو تفوقن عليهم » .

« يتكشف شأمة النساء بضيقتها ومزعتها . وكأنهن يحس حبيسات الزنازين مما يؤدي إلى إلقاء حذوة استعداداتهن الطيبة والشفرة التي منحها الطبيعة لهن . ولقد رأينا كيف يكتسب الرجال الذين لا يشعرون إلا بالقليل عن طريق الممارسة والتدرب قدر لا بأس به من الكفاءة ، مما يدفعني إلى يؤكد أوجاع ما تنصف به المرأة من ضعف في تناول الأمور إلى العادة التي مرصها الرجال على طريقة حياتهن . فإذا اتصفت أية امرأة بضعف روحها أو قلبها ، فإن هذا يعزى إلى شتى ألوان القسوة والشراسة التي تعرضن لها من معاملة الرجال » .

وازدحم الاهتمام برفع مستوى تعليم النساء في الدوائر الهيومانية التي خضعت دائماً للقيود بعد أن ظهر اتجاه لقبول المجتمع مساواة المرأة بالرجل . ودعت الحاجة إلى وضع نظام تعليمي جديد يساعد على إعداد المرأة للاستطلاع بطور جديد ، وحتى في العهد القبي سادت فيه مثل هذه المساواة الاجتماعية عند الطبقات الحاكمة كفلورنسا أو فيروا - على سبيل المثال - فقلما ظهرت هذه المساواة في هذه المدن . بين الطبقات الاجتماعية الدنيا . أو بين الطبقات المتوسطة . وبادوا ما وجدت أيضاً في شمال أوروبا والمجتمع الألماني والفرنسي والانجليزى ، وحتى عصر الإصلاح الدينى . كان يراعى عنه وضع أى نظام تعليمي للمرأة توافقه هو والواجبات المنزلية التي اعتبرت ملازمة لطبيعتهن : معنى القراءة والكتابة والحساب والدروس الأولية للطبيخة ( أو الأشياء كما كنا نسميها قديماً ) ومبادئ تربية المرضى وأشغال الأبرة والنزل والموسيقى والفلك والدين .

ولمعه من الحائز بقول نال الحركة الهيومانية قد انضمت الريادة في تعديل مسار مكانة المرأة في المجتمع في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، ولكن علينا أن لا نسى أن هذا العهد كان عهداً شهد العديد من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، وتخفض عن طوعه تحولات اجتماعية سرية في العمود من الطبقات الاجتماعية الدنيا إلى ما هو أعلى ، وربما ساهمت التحسينات التي طرأت على معايير التعليم بين

عامّة الناس في هذا القرن على تحقيق مزايا للتساء إلى حد ما ، ومن ناحية ، من الصعب أن يسمى اغتباط عصر النهضة بنقد ولات النساء والسخرية منها .

● الحياة الكنسية ● وبمعه اختفاء الرهبانيات من الحركة البروتستانتية ، فقدت النساء دورا رسميا ملحوظا في الكنيسة ، لم يشغل على الفور ، حتى بعد إعادة احياء نظام التسامح التساء ، فيما بعد في هذا القرن ، فلم ترسم النساء للقوسية في التيار الرئيسي للبروتستانتية في المقارة الأوروبية لمدة قرون ، كما لم يسمح لهن بالانتخاب كعامّة التساء في المكاتب الرسمية المستولة على الاشراف على الكنائس .

غير أن تشجيع البروتستانت الكليروس على الزواج ساعد على بزوغ دور جديد لزوجات الرعاة مما أشاع ظهور النموذج الرائد للمرأة الجديدة ، التي سمعت حركة الاصلاح على خلفه واكتسبت الرهبة اللوترية السابقة كآثرين فون بورا موضعا مشهورا في كتب تاريخ عصر الاصلاح الديني لموقفها الراسخ المتل لايمال اليسطاء ، وتطلبها لاجناح مجريه لوتر ، واثبتت أفضلية نظام الزواج الذي دعا اليه في كتاباته ، ولهارتها الجسورة في التدبير وادارة المنزل الذي اقيم في مكان النير القديم . وضم هنا المنزل عائلة لوتر واطفالها وطلبة اللاهوت والزوار الأقارب وعلماء اللاهوت المتميزين واللاجئين الدينيين ، وجميعهم من محتودى الدنل الى حد يدعو الى الاتفاق ، وليس هناك من قرأ لوتر قرارة منزعة دون أن يتأثر عميق الاثر بدي تأثير تجربته في الزواج على لاهوته الياسطواني - أما قصة بحت كالفان عن زوجة فاضلة مناسبة ، ورواجه في ايدليت ذو بور قمروفة بدرجة أقل : أولا - لأن كالفان كان أقل تحسرا في كتاباته ، واستشاراته الى شئونه الشخصية ، غير أن باستطاعتنا ادراك بعض الدلائل عن شعوره الحار نحو زوجته ، وهل الأنص في مراسلاته .

أما قصة البطولة النسائية الحقة فكانت قصة قيلوا ينديس ووزينلات وكانت أرملة للهيوماي لودفيج كيلر (\*) وأنجبت منه طفلا ، ثم تزوجت مصلحا دينيا آخر (\*\*) وأنجبت منه ثلاثة أطفال قبل موته ، وفي ذات الشهر ، ماتت زوجة المصلح كاييتو + وبعد ذلك بصدّة شهر ،

تزوجت فيدرا بنديس من كاييتو ، وأنجبت خمسة أطفال آخرين قبل انضمام الطاعون الذي احتضف كاييتو وثلاثة أطفال ، وقضت زوجة بوترس نحبها عندما تقضى الطاعون ، ولكنها حُتت وهي على فراش الموت زوجها بالاقتران بفيدرا بنديس ، لكي تموت أطفالها ، ولم يبق من الطفل بوترس غير طفل واحد كان مارال على قيد الحياة عند رواجيه من فيدرا بنديس . ولكن ولد لهما طفلان آخريان بالإضافة إلى ابنة أخيه التي تبنتها - وتأنست فيدرا بنديس هي وكاتي لور - قلى بجانب الأعداء الجسام التي صادفتها في إدارة بيت كبير ، وروج مهمك في عمله ، فأنها شاركت في متاعب السنوات البائرة من حركة الإصلاح عندما لم تكن هذه الحركة قد وطلت أقدامها بالفعل ، وعندما كان التعذيب والسفي والموت في سبيل العقيدة الجديدة مسائل متوقعة في كل آن ، والحق أنها شاركت بوترس التي إلى انجلترا ، وانقطعت لرعاية الأسرة بعد موته .

ولم تنصر كل الدوية الحديثة لزوجات الرعاية الدينيين نشاطهن على رعاية المزل . فلقد استهلت كاترين تسيل (\*) زوجة مصلح ستراسبورج دورها الأكثر اتجاها للمساائل العامة فور زواجها عندما حرم الأسقف روجها من رعاية الكنيسة لرواجه . وانتشرت حكايات سفيرة عن سلوكه ، غشرت انكارا لهذه الحكايات المحتقة ، ودافعت دفاعا جيدا عن رواج القسوس ولزفت قاذلة .

• لقد ذكرتني بما قاله الرسول بولس عندما طلب من النساء أن يلقن بالصمت في الكنيسة . واتى أذكرك بكلمات هذا الرسول بالذات بأنه لم يمد عبد المسيح أى فارق بين ذكر وأنثى . وأذكرك أيضا بمسرة بويل : (\*\*\*) سأسبب روحى فى جميع الأبدان ، وصوف يتمنى لأبائك وبناتك الكهن ، وأننى لا أنخيل نفسى كأنى يوحنا المعمدان يلوم القارسميين ، ولا أزعج أننى ناثان يؤنب داود . فانا لا أطلع لما هو أكثر من التشابه وحوار بالام عندما قام يوزر سيلاه .

وسرعان ما جاءت في أعقاب رسالتها التي احتجت فيها للأسقف ، وأيضا مقالها الذى نشر واحتج عليه الأسقف أمام المجلس . ونشرت أيضا مبحثا صغيرا لمواساة حاكم المدينة الذى كان يعاني من مرض البرص ، وأيضا أربع نشرات تضم تراويل من تأليف آخرين . وأضافتها إليها تمهيدا . وعند وفاة روحها ، ألقت خطابا عاما أثار انتقادا شديدا ، فحدث عليه بالقول :

Katherine Zell  
Joel

(\*)  
(\*\*\*)

« انتي لم اغتصب وظيفه الواعظ أو الرسول ، انتي أقوم بعمور مشابهة لعمور ماويما المجدلية ، والتي لم يتبادر لذهنها قط ان تصبح رسولة . وجاءت لتحصن الخواريين بأنها قابلت المسيح الذي صعد الى السماء » . وبعد أن تحررت من الكثير من مسئولياتها المزيالية بعد وفاة طفليها ، تفرغت لرعايه سيول الكلاشني ، وزارت المرسى والسجاء جملة مرات . وبعد أن عثمت فجرة من الزمن في مستشفى خاص بمرضى الزهري برفقة ابن أخيها المرحوم ، شكت لمجلس المدينة من بعض المساوي ، ولاحظت الاهتمام بتنفيذ وصاياها الى حد كبير . وقبل وفاتها مباشرة ، قالت بعض الشعائر الدينية في السادة صبايا لاهني النساء المحضرات ، وانتقدتها مجلس المدينة في حينه . وكان زوج المرأة المحضرة قد طالب بنفسه للإشراف على الجناز ، ولكن الراعي أصر على إعلان وفاتها عن العقيدة الصحيحة . ورفض الزوج قبول هذا القرار . ولدت صراحة كاترين الى تسميتها « بمشاعة الكنيسة » وكان من أطلق عليها هذه التسمية هو أحد الرعاة ، لأنها انتقدت عفته كما وصفها بوترس « بالتصفة النافقة » .

واشتركت نساء بروستانت أحرار في المجمع التي كانت دائرة جيليك ، فكثرت أريولا فون جروصا - وهي امرأة باقارية من أشراف بيت هوهشتافز ١٥٢٣ - رسالة حريئة الى جامعة أنجلوشينات تضيح على مطالبها بعدم إكراه أحد شباب المرسين للتخلي عن لاهوت لوتر ، وشركت لمجلس المدينة من بعض المساوي ، وقالت موضحة دورها في هذه المسألة :

« لست أجهل ما قاله الرسول يولس بضروره التزام النساء بالصمت بالكنيسة ، ولكن عندما لا يرضيه أي رجل في الكلام ، أو لا يكون في معدوده ذلك ، فأنني أتبع كلمة الرب وقوله : « ان من يعترف بي على الأرض سأعترف به ، ومن ينكرني سأنكره » متي ولوقا ٩ ) واسي أوتاج لما قاله النبي اسحق ( ٣ : ١٢ ) ( وان كان هذا الاستشهاد لا يتسم بالصدق ) « سأرسل لكم أطفالا ليحكموكم ، وأرسل لساء لحكمكم » .

وأرسلت الى دوق النمساوية نسخة من احتجاجها ، ولكنها أرسلت اليه أيضا - والى الحكام بوجه عام - مقالا ينتقد هيلك الاكليروس ويدكرهم بمسؤوليتهم عن تخطي السلطة الالهية ، وعلمت السلطات بآديها الى زوجها الذي أساء معاملتها ونهرها لأنها تسببت في فقدان منصبه . واستشارت البلدة قاضية اقتناعهم باتناع الإصلاح الديني ، وزادت لوتر ، وصحنت مرتين لأعمالها الهدامة ، يعنى لنشرها كتباً غير كاثوليكية وتوزيعها ، ولأقامتها شعائر ديمية خاصة في بيتها واشترائها في الخلعان الجنازية.

دون تصريح • ولقد تركت اليزابيث فود فراوشيفيج اثرا عميقا على سياسة الإصلاح • وكانت صاحبة الكلمة الأولى في موطنها ، وكنت مقالا عن الحكومة لابنها ومقالا عن الزواج لابنها ، بالإضافة الى مقال آخر لمواسم الارامل •

وغم عدم حصول هؤلاء السوة الجريئات على وظائف رسمية في الكنيسة فقد يرون اعمالهن بالرجوع الى اللاهوت لاشتراكهن في المذهب البروتستانتي لقسومية جميع المؤمنين ، وكان هناك كثيرات غير من ذكرا وساعد هذا الفهم لطبيعة المجتمع المسيحي على اعطاه دقة قوية لتعاليم العلمانيين استطاعوا بفضلها اليهودي يستولياتهم • فلبس العوام وحلهم في حاجة الى تعلم قراءة الكتاب المقدس ، بل كان ممن الموعوب فيه ان يتولى الآباء تعليم العقيدة لعامة الناس ، واكتفت المحاضرات بانتظام في معظم المدن الحاضرة للإصلاح عن الكلب المقدس • ويحضر هذه المحاضرات القسوس والعوام على حد سواء •

وتطلب هذا الأسلوب الجديد في فهم الكنيسة مراجعة الطقوس حتى يتسنى للعوام الاشتراك فيها مشاركة كاملة فعالة بالإشهاد والإعتراف بالإيمان والصلوات والامتناع الى كلمات الله بلفتهم الدارجة • وانكسبت الكافة من نساء ورجال فهما حذيفا لغور القسومية في الكنيسة والشعائر العامة وطقوس الكنيسة من خلال وظائفهم المنبوية •

### صورة المرأة عند الأخت جان دو جوس

الآن وبعد أن رأينا جانينا من صورة النساء من خلال أخت البروتستانت في تلك الحقبة ، بمقدورنا أن نقارن انطباعاتنا بانطباعات راهبة في طائفة سان كلير هي جان دو جوس (\*) التي كانت تعيش في أحد أديرة حنف اثنان السنوات التي سبقت سبعا مباشرة حركة الإصلاح ، عندما تزايد اهتمام البروتستانت ، انها راهبة صفوة تعلمت القراءة والكتابة في مدرسة مجتهد قبل دخولها الدير • ولقد روت أحداث السنوات الواقعة بين ١٥٢٦ و ١٥٣٥ (\*\*) بحيوية فائقة ونلا تصويرا بأسلوب أدبي ، وحفل الكتاب بالإشارة الى النساء أكثر مما اعتدنا صادفته في وثائق القرن السادس

Jeanne de Jugla.

(\*)

The Persecution of the Heresy in The Levens of Calvinism (١٥٢٦) of Geneva.

عشر • وخضعت الأخت جان عملها مع الأخوات الراهبات اللاتي تجتمعن في مدينة حنيف • وهناك اكتشفن مدى عناء المعية لهستين • فمدن للاقامة في مدينة أنيسى بفرنسا ، حيث نولت « جان » في نهاية المطاف وظيفة رابعة الدير •

وكانت الأخت جان على يقين تام بولاء النساء للمقيدة الكاثوليكية بقدر حقوق ايمان الرجال بها • وعلى الرغم من اقدم كثير من الرهبان والقسس على الزواج - على نحو حسيين على حد قولها - فان واحدة فقط من بين الراهبات الأخريات جميعا حادت عن الطريق ، ولم تكن خالصة الفية في عملها • واقتنصت الأخريات إما في المقيدة الجديدة من هرطقة • وكثيرا ما حلت انقسام في الرأي في العائلات ، أدى الى الاسيخاز الى مذاهب مختلفة ، ولكن الأخت جان تزهو بجمع كثيرات من النسوة الكاثوليك الطبيبات من تزويج يوراشقة بروسوخ في المقيدة • وماتت إحدى النساء حرقا وكما ميتة مفاجئة عندما عبد زوجها طفلهما الجديد بوساطة كاهن بروتستانتي من اتباع المصلح قاديل • وهناك كثيرات حذيرات بالوصف بأنهن أكثر من شهيدات • فقد شرين وعدين لمزوفهن عن نبذ المقيدة الحقة • وجسبت ثلاث منهن في غرفة ضيقة بعد رفضهن حضور « مبلولة » عيد الفصح على الطريقة البروتستانتية ، فهرين من الخائفة لمصير لهن كاثوليكي ! وساطرت امرأتان كاثوليكتان بوجوازيتان مرموقتان ١٥٣٥ بالحضور الى الدير لواساة الأخوات عندما كان الرجال البروتستانت يذهبون الدير ويحسمون القطع الفنية • ويحاولون اقناع الراهبات بالتخلي عن دورهن •

وفي الجمعة الحزينة ١٥٣٣ ، اصطف أهل المدينة في معسكرين مسلحين • وكان الكاثوليك يطلمون لاقتلاع السلوى التي اجتاحت المدينة •

« تجعت زوجات المسيحيين وقلن انه لو حدث وحارب لزوجاتنا ضد هؤلاء الكفار فان علينا أن نشترك أيضا في هذه الحرب • ونقتل زوجاتهن المهرطقات حتى تقتسئ اباداة الجيش • وضم هذا الجوع من النساء سبعماية من الأطفال سنهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة • وضموا جميعا على الاشتراك هم وأمهاتهم في عمل مجيد • وحملت النساء الأحجار في جيورهن ، وحمل معظم الأطفال سيوفا ذات حدين • وحبل بعض آخر الأحجار في صدورهم وقباعتهم وقلنسواتهم » •

وفي ذات اليوم ، وبعد أن حرج أحد الكاثوليك جرحا فائلا بعد أن تلقى صرعة في رأسه ، صاحبت النساء المسيحيات صيحة مدوية ، واستدرفن



كروجات اللوتريين وهي يصنع ٠ « فلنبدأ الحرب بالقاء هذه المعامرة في نهر الرون ! » وهربت الى أحد البيوت « ولكن النساء مدفوعات بالنصيب فمن يشره كل ما في البحر على الأرض - وفي الوقت نفسه ، اقامت راهبات سان كلير والسموع سلوا عيونهن ، يحسوهن شعور بالاياء ، الحلا من أجل انتصار المسيحيين وعونة الحافظات الى الصراط المستقيم ، وحذرت بعض النساء « المسيحيات الصالحات » الأخوات ، بأنه إذا انتصر الهرطقة فابن يتخطى لأرقام جميع الأخوات ، صغارا ومسنات ، على الزواج ٠ ولكن اليوم مر بسلام دون أواقه دعا ، واتفق على عقد هدنة في نهاية المطاف ٠

ولم تصور النساء البروتستانت قط كمحبات للمف - ومع هذا فهي ١٥٢٤ نسبت اليهن حادثان تصنيفا اليهن : أولا - عدم الالتزام بالثاليم التي تحرم الاشتغال في أيام الصيام ٠ ثانيا : محاولة اقتاعهن الراهبات بترك الدين ٠

وبينما كان الكاثوليكيون يحضرون أحد المواكب الدينية التي تجوب الطرق ، جلست النساء اللواتي في توافق دوحس لكي ينسبن للمناوة مشاهدتهن وهن يتزين ويشعلن بالظريز ٠ وادخل الأخذ بالثار ، فبعد أن قامت بعضهن بمسل اللباس في اليوم التالي لميد النصح وعيد العترة ألقبت ملابسهن في نهر الرون ، وأصبحت امرأة لوتريه ضحكة في رأسها إثر تلقيها خبطة مفول اختطفه أحد الأشخاص من يدها بعد دعسها تحت الأقدام في الوحل ٠

وفي وقت يكرر يرجع الى ١٥٢٤ ، زارت الدير امرأة لوتريه تمت بصلة قرابة لحدى الراهبات ، واستغلت الفرصة فصصت جام غضبها وبغلتها ، ولمنت « الراهبات المسكينات ، وادعت أن العالم قد ارتكب خطيئة ، وأنه غارق لآذانه في عبادة الأوثان حتى الآن ، وأن وصايا الله لم تعرض دراسة صحيحة وزعمت أن أسلافهن قد أضيق حياتهن بطريقة خاطئة ، ثم تقوحت « بغيرات مجبوبة » عن القديسات « ولما علمت الراهبات في تهدتها بالاعتراض على توجهها ، أوصدت الباب في وجهها ، ولكنها استمرت في الكلام ٠

وعندما وقد موظفون من المدينة برفقة بعض البروتستانت مرتين للتأكد من مدى صحة ما يقال عن إكراه الراهبات على البقاء في الدير ضد رغبتهن ، سحب الموظفون معهم بعض النساء البروتستانت ، وكان من بينهن من تدعى ماري دياتيم من ميكلودني « وكانت تعمل في الأصل راعية

تم تزوجت وزعت « إلى النوسط عن طريق الوعظ وتجريح الأتقياء »  
وعلى الرغم من الغوم الذي وجهته الراهبات لزوجها ، إلا أنها استمرت في  
محاولة إقناعه بظروفها الجديدة ، وتروي الأخت حان أنها قالت :

« أيتها المسكيمات ! آه لو عرفتى متى ما يتحقق من خير عملنا تكن  
فى رفقة زوج وسيم ! وكم يرضى الله عن ذلك ! لقد عشت طويلا فى هذه  
الظلمة وهذا النفاق فى صس الموضوع الذى تحيون فيه . ولكن الله وحده  
هدانى وعرفتى مساوىء حياتى التى تدعو للرقاء ، فاهتمت واستمرت  
بتنوير الحق » . »

وبعد أن أسفحت لاساد حاتها « من قفاهات وضلال » قضايت  
مستحققاتها من حزمة الدين ، وهجرت « هذه التماسه » . « فالشكر لله  
على أى حال - فبعدى خمسة أطفال طرفاء وضاحيا حياة مالمه » وحده  
ود الاحوات الراصات غامسا ويسقى فى وجهها .

وفى اسلى المرات الأخرى توفقت إلى الراهبات اللبدي كلود زوجة  
ليفيت ، وهو سيللانى - وتولت هى أيضا « مهمة الوساطة والوعظ » .  
وبناء على طلب البروتستانت عكفت هذه المرأة السليطة اللسان على تشعب  
العدراء مريم والقديسين ، والبتولة وأنت على الزواج ، وزعمت أن جميع  
الرحيل كانوا متزوجين ، وأستشبهت بارتصاه الرسول بولس مبدا الاتحاد  
فى جسد واحد ، وتقبلت الكتب المقدسة « ، واعتللت احتجبت الراهبات  
احتجاجا قويا ، وطلين منها الرحيل ، قال لهن الرجال البروتستانت :  
إنها مخلوقة مقدسة تستدير بتنور ربانى . فقد ساعدت بعطائها المقدسة  
وتعاليمها الإلهية على إعادة أرواح كثيرة إلى الصراط المستقيم .

ومن الطريف أن تكون اللترية قد بدت بوجه خاص للأخت جيت  
كسراف للنمو من الأسفار المقدسة والإيقونية وللاطراء على نظام الزواج .  
وتنطحت المصادر التاريخية عن ظهور شكل جديد من مراسم الزواج ،  
عرضه المصلح الفرنسي قاريل ، لا وجود فيه لأى مظهرات مهمة وشعائر  
للعبادة ، ويكتفى فقط بالنوعية بالاقتران والتكاثر فى العالم ، وسفى  
كلمات لن أجرد على كتابتها اطلاقا ، لأنه من المخجل أن تكون مثل هذه  
الكلمات قد خطرت ببال أى روح طاهرة متفقة .

وبذا تجاوزنا هذه « الأخت الزائفة » التى اعتنقت البروتستانتية ،  
وتزوجت علنا ، بعد الطلى فى أسلوب عيش الراهبات ، منرى واحدة مهن  
فقط قد برزت فى هذه المذكرات كمساجبة شخصية متميزة : أنها الأم التى

انحوت في تقديم العود للرهبايات المسات الحائرات القوة ، عند تعاملها والبروتستانتية والمبتولين الرسيين عن المدينة الدين وحلوا اليها لافساد طريقهم في الحياة . وقد طالبت الرهايات أن تمتلئ هذه الأم . وعلما أمرت بصور مناقضة عامة عن الدين ، اعتبرت هي والرهبايات بكل احترام بحجة تهديهن على النفس طبقا لنظام الرهينة . وقصلا عن ذلك ، أصوات القول : « ليس للنساء دور في مثل هذه المناجات والمناحلات لأنها لم تفرض عليهن كواجب ، لأنه من المصطور على من لم يتل قسما من التعليم التدخل في تفسير الاسفار المقدسة . ولم يسبق قط أي طلب من امرأة أبناء ربي أو الأدلاء مشهاده » .

غير أنها أثبتت أنها ملقاة بصور قوية الشككية ، وتتميز بعصاة الأسلوب . فلقد عبرت بصلاة للبروتستانتية المذواتين عن رأيها بتعس الصاف الذي اظهوره حيالها . وعمما مثلت لمادا ترتدى الرهايات مثل هذا الزي ، ودت بالقول : « لانهن راسيات عنه » ثم سألت بدورها من وجه لها هذا السؤال : « ولماذا تحرص أنت على مثل هذا التأتق في ريك ؟ » وعمما حضر قانون وفيرت لوعظ الرهايات بنا على «الأمه بعض مظاهر الروح والاحتجاج ما دفع إلى إخراجها من الغرفة ، ولكنها واصلت طرق الحائط بيدها والصياح مخطرة الرهايات من الاستماع ، واختبرت المصلح الديني قانون انه يصيح وقته حتى ، حتى نسي الرجل عن أي شيء يتحدث ؟ » وبعد هذه التجربة صمم على عدم تكرار الوعظ هناك على الإطلاق .

ونحن اذا ألفينا نظرة خاطفة إلى حركة الإصلاح ، كما رأتها الاخت جين ، سيبين لنا أن التحالف البروتستانتية التي اعتدعت الزواج قد بدت لغير المتعاطفين المباشرين مائة الأهمية في العقيدة الجديدة ، وأنها تمثل اعتمادا جذريا عن التقاليد السائدة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مذكراتها تساعد على تأكيد انطباعنا بعيام النساء بنور أكثر فاعلية في أحداث حركة الإصلاح ، ومعارضتها أيضا . أكثر مما يرجع عادة . وبض المظهر عما اصطفت به المذكرات من تلوين عاطفي من أثر تجاربها المحنودة ومفصلاتنا الشخصية ، فإنها تعد ذلك مصدرا ناقضا وجذابا يكمل المصادر الأخرى للمعرض .

والمنظر الأوحده « لتحرر النساء » الخبير للاهتمام في حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر هو استعداد النظرة للرهبانية للنساء والمجس والزواج ، والتي ازدهرت في الكنيسة وبين المروم على السواء . لكنه أراد البروتستانتات منح الرهبان والرهبايات وعامة الناس أيضا ، حرية القيام

بدورهم المصحح في العالم عن طريق تقديم فهم لاهوتي جديد للحياة ،  
بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لترك الدير . غير أننا نلاحظ في مذكرات الأخت  
جين أنه بالرغم من أن البروتستانت قد تحدثوا عن « الحرية » للراهبات ،  
إلا أنهم قد جعلوا - كما يبدو - يوع جديد من القيود ، هو قيد الزواج  
والمخضوع للأزواج . فلقد تصورت البروتستانتية أن فلسفة التكوين  
البيطريكي لجسم تلك الأيام مسملة من التوراة ، ولا يلزمه ما هو أكثر  
من أضغاله الصبغة الانسانية عليه بتطمينه بالحبة المسيحية .

غير أن المعتنقات البروتستانتية عن دور المسيحية وقسوسية جميع  
الزمنين بالإضافة إلى النظرة الحديثة للزواج قد انحرفت في واقع الأمر إلى  
تغيير صورة المرأة ، ودورها حول اتجاه تتمتع فيه باستولية أكبر وحرية  
شخصية أعظم . وقد تحقق ذلك على الفور وعبر القرون .

## المراجع

- Roland Bainton. *Women of the Reformation in Germany and Italy* (1971).
- Miriam Christman, « Women and the Reformation in Strasbourg 1490-1530 » 1972 (p. 143-168).
- Claire Cross, « Great Reasoners in Scripture » 1380-1530 — in *Medieval Women* ed Derek Baker 1978, (pp. 359-380).
- Natalie Zemon Davis, « Clay Women and Religious Change in Sixteenth Century France » (1973).
- Joyce L. Irwin ed., *Womanhood in Radical Protestantism* (1979).
- Ian Maclean, *The Renaissance Notion of Woman* (1980).
- Steven Ozment, *When Fathers Ruled - Family Life in Reformation Europe* (1989).
- E. Ellen Weaver, *Women and Religion in Early Modern France*, (1981).



## ثالثاً

### أوروبا الحديثة في عهدها الباكر

إبان أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، أحدثت الاختلافات الدينية بين البروتستانت والكاثوليك انقلابات أبديولوجية ومماسية أثارت اضطرابات في أجزاء كثيرة من أوروبا . وبدأ كل شيء آخر غير نجاح « القضية » في نظر العقيدة الدينية المتعصبة ثانوي الأهمية . ففي فرنسا ، تسببت الحرب الدينية التي دامت ثلاثين سنة وما صاحبها من مذابح واغتيالات في إحداث خراب فطيع قودرت آثاره بالطاعون . فتلقت تعلم المهجوت ( القرسبيون البروتستانت ) من زعمائهم . منذ عهد ميدي - أن التمرد السياسي ضد الحكام الشرعيين خطيئة يمتد وكأنها تتخذ حينذاك شكل مناصرة صغار الحكام لازاحة الملوك الطفلة . ووصفوا مثل هذا الأجره بالواجب المقدس . وعلى نهاية القرن السادس عشر ، انحاز الكاثوليك لنفس المنحى ضد الطغاة البروتستانت . ويوضح دو مال د ر . كيللي كيف ظهر مثل هذا الموقف غير المحتمل في فرنسا . ولماذا اتحدت السياسة الصاعدة على المدى في نهاية المطاف في شتون فرنسا ؟ . ومستشهد المقود التالية كيف أصبح وضع الصالح السياسي للبلاد نموذجاً يحفئ في أوروبا الغربية كلها .

وشهدت أوروبا الحديثة مولد الثورة العلمية . إذ كان الميل للاعتماد على التفسيرات النظرية المحة للواقع - خصوصاً تلك التي تتوافق على خبر وحه هي والمعتقدات اللاهوتية - من السمات العامة للمفكرين في القرون الوسطى .

غير أن كوبرنيك اعتقد أن التفسيرات ذاتها التي تتوافق هي والمساهمة المباشرة قد تنصف بالريف . وظهرت فكرة دوران الأرض حول

نفسها ، ودوان الأرض حول الشمس مرة كل سنة كوفائع علمية مناقضة  
للاهورت وتجربة الحياة اليومية على حد سواء - أما كيف اتجه كوبرنيك  
للدفاع عن هذه الأفكار فانه سيكون موضوع مقال ادوارد جبراس -

وإذا احتسبنا الواقعية في السياسة والنظرة العلمية الجديدة للواقع  
من ملامح أوائل عهد أوروبا الحديثة فانا نسهم الى هذه الملامح مطاردة  
السحر - فمن ١٥٥٠ و ١٦٥٠ ، ساد العصر من السحرة على نطاق واسع  
أكثر مما حدث في القرون السابقة - فلقد خلق الاعتقاد في وجود الشيطان  
والسحرة ، بالإضافة الى استغلال الناس لالقاء اللوم في هذا الشأن على  
مصائبهم أيديولوجية من قبل السحر في أواخر القرون الوسطى جديدة  
الاحكام والمتعش - فيعد أن تعرض بهذا الاعتقاد في القانون ابان القرن الخامس  
عشر والقرن السادس عشر ، فانه أصبح فيما بعد أداة سياسية استغلها  
الحكام العلمانيون والييون - وانتشرت أصابع الاتهام بوجه خاص الى  
النساء في هذه المسألة ، فطوردن واضطهدن لممارسهن السحر - لما كيف  
قلعت المحاكمة على ممارسة السحر المصالح السياسية في بواكير عهود  
الحكام في العصر الحديث ولماذا كان للنساء العلة كصحايا لهذا الاتهام فمن  
الموضوعات التي اهتمت بها الأبحاث التاريخية القريبة العهد - وتبعت  
كريستينا لاربر هذه المشكلات بعد أن نظرت نظرة فاحصة في الوثائق  
الخاصة بحاكمات الساحرات في استكتلنفة في القرن السابع عشر -

ويربط بعض المؤرخين بين مطاردة الساحرات والكراهية العامة للنساء  
والإخفاق الشامل للحياة الأسرية في أوائل عهد أوروبا الحديثة ، ويرجعون  
ذلك الى عدم وجود أزواج متحابين أو حالات تأخر فاحل الأسرة قبل بواكير  
القرن السابع عشر - وربما لم يتحقق ذلك الا بعد أن اكتسبت النساء  
مكانة اجتماعية ساعدتهن على حماية أنفسهن من أية إساءة أو اضطهاد -  
ويفند مؤرخون آخرون هذا الاعتقاد لأن اضطهاد الساحرات كان في الحق  
موضوع اهتمام فئة صغيرة من الناس بالغ المؤرخون في تقدير دورها من  
تأثير امرجنتهم الشخصية - ويصفون أن الحرية والرومانسي كانا من سمات  
العلاقة بين الجنسين منذ وقت ياتر كالقرن الخامس عشر - وكان طفانيان  
الدكور على الإناث وإساءتهم لهم هو الاستثناء لا القاعدة في الحياة الأسرية -  
وتوازن كايث وايستون بين طرفي هذا النزاع بالاستمانة بالأدلة المتوفرة  
عن إنجلترا في بواكير العصر الحديث -



## الحرب الدينية في فرنسا

دونالد ر. كيللي

قبل مذبحة سان بارتولوميو التي أريدت فيها تمام البروتستانت ١٥٧٢ ، فزعت الفلسفة السياسية لفرنسا البروتستانتية تمضيًا مع التقليد البروتستانتية المحافظة إلى تفضيل تعمل طغيان الحاكم على الاتجاه. كعنف لقلب أنظمة حكمهم. وبعد ١٥٧٢ ، تطورت رعاية الديانة الهجنوتية وتحولت إلى فلسفة سياسية محكمة . وقبل أن السلطة السيمية تكون في الشعب وهو رأي ألكسي بالنتونج الذي سبق أن ظهر في القانون الروماني ، وانحازت السنة حائل الهجنوت إلى ملعب سيادة الشعب ، يعنى حق الشعب في التصيب حكمه وعزل الطغاة ، والاستعلاء بمن انتخبوا من شاعلى الوظائف الدنيا . واختفى الاستمياء من الاعتراض على الاضطهاد الدينى .

وتجاوز الناطقون باسم الهجنوت الإعتماد التقليدى للبروتستانت على الاسفار المقدسة ، فاضلوا حجبا عقلانية وفكرية إلى الحجج التقليدية المستندة إلى العرف والتقاليد . واستشهدوا بالتمسك القرنى العريق والحريات التى نعم بها النظام الاتصاعى والمدن كأساس شرعى لمحاربة الطغيان السياسى . وشاهدت بوجه خاص بين الهجنوت حجة توفيقية أعطت الغلبة للمجالس الاسكوتية الكنسية على البابوات . ورأى وجوب خضوع ملك فرنسا بالمثل للكيان السياسى كما يقمئل فى جمعية الولايات العلمانية الفرنسية . واستغل أصحاب الشرائع من الهجنوت حالة الضيق العام ولوحوا بإرادة لوتر ، وطالبوا بالحرية المسيحية لجموع الشعب .

وحوالى نهاية القرن بعد أن ألقى الملك البروتستانتى هنرى الثامارى العرش . انقلب الحسير السياسى لفرنسا بصورة ترامية . فقد امتاز

من تأليف

The Begimmg of Ideology

(١٩) نقل عن كتاب

Donald R. Kelly كيمبرج ١٩٩١

الكاثوليك آنذاك لفلسفة المقاومة العيسائية ، بينما عارضها البروتستانت ،  
 واتضح أن للاعتبارات السياسية الصادرة على الدين عند صوغ الفكر  
 السياسي - ومن الآن فصاعداً - مستصدر الواقعية العيسائية على  
 الأيديولوجية الدينية ، لا في فرنسا وحدها ، وإنما أيضا في كل موضع  
 آخر .

### شكل الأيديولوجية

كان القرن السادس عشر - من عدة وجوه - أسبب الأوقات لحدوث  
 تطور الأيديولوجية الحديثة التي أثمرت أكثر من مائتي حالة حرطقة ،  
 بالإضافة إلى ما صاحبها من رؤى للحياة الدينية . وما من شك أننا لا نرمي  
 من وراء هذا الرأي تأييد أي مزاعم عن أصالة هذا العصر فيما يتعلق  
 بالأيديولوجية الخلاقة . والحس فعمل الأفضل هو أن يعكس التشبيه ونظير  
 إلى العصر من ناحية كونه ممثلاً لفترة الحصاد في الفكر السياسي والاقتصادي  
 الغربي ، فس المظهر الجيد الذي كان ما يسترعى الانتباه في هذا القرن  
 ليس مستحدثاته الفلسفية بقدر برعته التقنية والمحافظة . وكشف  
 الأيديولوجيون عن براعتهم واقتدارهم لا فيما ابتكروا من صيغ جديدة ،  
 وإنما في اتباعهم الصيغ القديمة وإعادة تنسيقها . وعلى الرغم من كل هذا ،  
 فإن النتائج المترتبة - ضمناً - عن الماركسيكية السياسية ( إن لم تكن  
 الإجماعية ) كانت عميقة العمور . والحق في الاستطاعة الإشارة إلى أن  
 التسمية على الميراث السياسي العربي قد يمر حدوث انتعادات أساسية  
 واستبصارات أكثر مما كان سيحدث لو جرى أي أعمال لهذا الارت ، أو  
 تحال له . وكما هو الحال في مجالات أخرى من تاريخ الفكر ، فإن ما يسر  
 تحقق أبعد التغيرات أثره وبقاء في أي توجه أو منظور هو اتباع عملية تحويل  
 لما هو قائم بالفعل ، بدلاً من إثارة تنامي الأفكار السائدة . نعم لقد كان  
 التهورس بعملية التغيير بعد التخفي وراء مظهر الحفاظ على الموروثات أو  
 الرجوع إلى حالة أبكر وأفضل من الأساليب السائدة عند الأيديولوجيين .  
 ولم يحدث هذا من قبل على نحو مماثل لما حدث في هذه الحقبة التي تميزت  
 بالنظر إلى الوراثة وإعادة التقييم ( سواء عند الأصوليين أو التقليديين ) .

لقد استغرقت عملية تشكيل حزب الهيئات ممنوات ، ولكن هذا  
 الحزب لم يتخذ شكله الأيديولوجي المحدد إلا بعد ١٥٧٢ . وقبل ذلك  
 العهد ، كان يحسم وراء مظاهر ومراعى بأنه اتحاد سياسي ، إن لم يكن  
 دينياً أو أوثودوكسياً . وتغير هذا الوضع تغيراً تاماً بعد مذبحة سان  
 بادولوميو ، ولو إلى حين . ففي أعقابها ، تحدثت ملامح شخصية الهيئات ،  
 دل وعرفت فمسمتها . ولم تستطع جميع المراجعات الفكرية في السنوات

الثالثة ، أو عمليات استحضار صورة ما حدثت أن تحل الأثر المبدئي أو يعوق الأثر بعيد المدى لما جاء في أعقابها . واستمر التعبير عن اتجاه الحرب ذاته باستعمال مصطلحات مألوفة ، واستخلص معانيه العميقة أشد حاسر من أمثال هورتان ( فرانسوا ) وبيرا ( يودور ) وبمصل استقصائهم وتأملاتهم ، التي لم تنحصر لأي قيد ، تحول شكل الإيديولوجية من مجرد دعاية إلى شيء أقرب إلى الفلسفة السياسية

وفي بحر ما هو أقل من عشرات السنوات ، ظهرت في الواقع مجموعة من الكتب الأساسية التي يصح اعتبارها من كلاسيكيات التراث السياسي الأوربي وعلى الرغم من أن هذه المؤلفات قد لمست الكثير من المسائل وتقدمنا إلى ما وراء أوضاع معركة إيديولوجية القرن السادس عشر ، إلا أنها كانت من نتائج نفس المآرق وتنسب إلى نفس عالم البحث . وتستأهل أن نقرأ بوجه خاص في نفس هذا المقام . واشتركت أبعد هذه الكتب تأثيرا ، بمعنى مؤلفات هورتان وبيزا وبودان وجورنلي في نفس مجموعة المباحث ، ولكنها اختلفت في عدد من الجوانب الهامة . إذ يمثل كتاب هورتان أي حد كبير . وهو من نتائج العقد الأول للحروب الأهلية - بحث أحد العلماء عن أسباب الأزمة القومية التاريخية ، والتي يرجع في حصرها إلى عهد موغل في القدم ، وإن كانت قد اتخذت شكلا قانونيا في أساليبها وحيثياتها . وتشابهت عاطفيا وتصوريا هي والبحث البروستاتني عن دين نقي لم يخره أي دنس . وعلى الرغم من أن بعض أفكاره الأكثر راديكالية قد وصفها هورتان فيما بعد في معرض تبريره لها بأنها تاريخية ووصفية أكثر من كونها قانونية أو إيمانية في طابعها ، فإن معظم القراء قد اعتقدوا اعتقادا مختلما . وعبر هورتان ذاته لأخصائيه بيده وبمس نفسه عن إوتياحه لتوجيه لطفة إلى الطغيان . ولم يقتصر أثر كتاب بييرا ، حق الحاكم ، على تقرير ما جاء في كتاب هورتان ، ولكنه كثيرا ما تدخل معه . خصوصا في ناحيتي التاريخ القانوني والسياسي . فبعد أن اتخذ نقطة بدايته نظرية كالفان إلى المقاومة ، والتي تماثلت هي والنظرة التي نادى بها لوتر في معارافات ماخادبورج ، فإنه نحا منحى أكثر نزوعا إلى الناحية الدينية .

---

(\*) إلى جانب المؤلفات التي اشتمل عليها التلويح ، والكتب التي يقع جرمه القدر Reveille-Maun هناك كتب Francogallia Holman ( ١٤٧٣م ) وصنفته Rights of Magistrates . Bera ( ١٥٧١ ) والكتاب المجهول Political Discourse وكتاب Le Baebe ( ١٥٧٤ ) ويظهر بعد موت المؤلف . وكتاب Contre Machiavel ( ١٥٧٦ ) وكتاب Bodin العظيم . وكتابه Defense of Liberty against Tyrants ( ١٥٧٩ ) ويسمى عادة إلى Philippe du Pleissis Motnay.

وهيثل كتاب « دفاع عن الحرية » الذي يدو منحصا على ما يجري في هولانده مثل اربباطه بفرنسا - ابعاجها أكثر نزوعا الى الراديكالية ، لانه يستصوب للقلومة استنادا الى أساس دولي . ويبدأ كتاب المبحث السياسي « اندى يجمع بين المجمع التوراتية والقانونية ويبدأ أكثر الحاحا على تصورات السيادة الشعبية والطغيان . أما فيما يتعلق بكتاب الجمهورية لبودان فرعم أنه كان مصمما كروية نسبية للمجمع ، الا انه يمكن تصويره أيضا كهيوم مضاد على الملوك السماحي . فقد تشابه الأفكار التي ظهرت عند بيرزا وهوتمان . »

وفي فرنسا ، تمحور الانتباه حول تصور « السيادة » أو « الحكم » في خمسينات القرن السادس عشر . ولست مصادفة ان تظهر الصياغة الكلاسيكية للفكرة في ذلك الحين . فلقد برعحت « السيادة » للتحتدي في عدة مستويات من الفكر والناحية العملية . وأشار هوتمان بطرف حتى في شكل تساؤل بليغ : « كيف تتوافر أية سيادة أو جلاله مثل هذا الوحش ( شاول التاسع ) وكيف نستطيع فيقول ملك سفك دماء ثلاثين ألف شخص في بحر ثمانية أيام ؟ » . ومن الناحية العملية ، يبدو انه عبر عن آراء مماثلة ، لم تكن أقل توقفا رغم ما فيها من حلقات مدرسية وتصورية . وهذا للتدريسي دفاع هوتمان عن الحكومة المختلطة، انها كما فاضحا « للحلولة » . ووصح قلائل من الأصداق أو الأعداء الكثير من الثقة فيما انكروا كتابته للتاريخ ، ووصفوا ما كتب بأنه نظرية مبناسية . وبالتدور تصور تعريف بودان الشهير للسيادة ، وقوله انها لا تقبل التجربة ونطبق على جميع الحالات « كتناقص صريح » في هذه الفكرة . وفي هذا الاستقطاب ، بوسنا ان نلمح كيف أحدثت المشكلة انفصالا في القراء ، قد انعكس على صياغتها في أعلى مستوى نظري .

وجنح كتاب « الملك السفايح » مثل بيرزا وهوتمان الى التوافق بوعي وإلى حد ما مع المبحوث الأقل شهرة حيثنك « في الرأي حول مبدأ السيادة الشعبية » ويكس ويا . المظهر الصلي لهوتمان دفاع عن فكرة « الملكية المدعة بأصوات الانتخاب » وحق الشعب في اداة الملوك وخطهم لذا اقتضى الأمر ذلك . وفي الطمة الثانية لكتاب بيرزا ( ١٧٥٦ ) حشر حملة مرات بالحروب الكثرة الشعار الروماني الشهير : صالغ الشعب يجب ان يكون القانون الأسمى (\*) . وقد اتفق بيرزا بوجه عام هو وهذه الطرة ، بينما استعان على نطاق واسع بالتصاوير التوراتية ، قبل لجوئه الى المصادر القانونية والتاريخية . واستعان أيضا بالحجة التوقفية القديمة التي استمرت باقية في فرنسا وألمانيا أيضا ، بأن المجلس المسكومي أعلى مقاما من البابا .

واقترح بالمثل أن تكون النول العلمانية فوق الملك . وهكذا قتل المدافع عن الحرية . غير أن هذا الكاتب قد تميز بكونه أكثر دوسماتيقية في نظراته لهذه المسألة . وهذه ناحية مفضة . فهو لم يكتب في محاجاته بعبارة مثل : « الملوك من صبح الضمير » . والملوك يلقون القوانين من الشعب » كما أنه ليس يقدّم الرمان أو الإمبراطرات أن تفسر في طريق مصاد أسبادة الشعب ، أنا تصورت على هذا الوجه . واستندت هذه الآراء على نظرة إلى المجتمع أكثر أصولية واسعا للتوراة من نظرة بيرا أو هيرمان .

والتعاقدية (\*) كانت بالطبع من الاتجاهات الشائعة في الفكر والمحاذرة بين المحامين . وقد تأثرت بها الدعاية على أخص شني - في صورة التعاقد الإقطاعي وأخصا في صورة القانون الخاص الذي يتطلب إيمانا حقا بأية علاقة اجتماعية . وأهم من ذلك في القانون الروماني المشهور (\*\*) . وقدّم « بيير فابر » هذه القضية التي منح بموجبها الشعب الروماني لقب الجلالة للحاكم ١٥٧٥ - وكتب يقول : عندما خلق الشعب « الملك » لأول مرة ، كان مقصده هو احتياز أب يتوقع قيامه بدور الحاكم الحكم في مسائل مثل الإيمان . وغير ذلك مما يحال إليه ، ومن ثم فقد أمر الشعب أيضا بمن قوانين معينة وحسنة لتقييد سلطته وتحديدها . وعندما يتخطى الملك هذه القوانين يتوقف اتصاله بالملك الحق ، ويوصف بالتمسب والطاغية . وأدخل هونان هذا « التصور » في الطبعة الثانية ١٥٧٦ من كتابه « فرانكوجاليا » ، واستعمل المصطلح مستصلا صحيحا للإشارة إلى القوانين الأساسية للرنطة بالملك . والعكزة الرومانية القائلة بأن صفة « الجلالة » تكتسب أساسا من الشعب ناقضها بيزا وأيضا المدفون عن الحرية فرائنا أحد السنة الحال يتناول في كتاب « المرأة الفرنسية » (\*\*\*). هل خلق الملك الشعب ؟ فيجب المساسي : لا على الإطلاق . ولكن الشعب هو الذي صنع الملك .

والتساؤل حول القيود القانونية والديمقراطية على سلطة الملك أقدم تعقيدا . وهذا تعود إلى عالم قناتوي المحامين ومجادلاتهم ، والتي أودعت فيها السوابق والصحيح الخاصة بكل مسألة تخطر على البال - وأعاد هيرمان وآخرون الفكرة القديمة عن «الألمبة الثلاثة» (\*\*\*\*) . وقام كل فكرة منها بدور ما في الدعاية المعارضة . فاقولا - لقد نظر إلى الدين كجد لاإرادة الملك بمعنى أن الخروض هو أن يتبع الملك الوصايا . ولعلنا وجود إشارة

Continuation

(\*)

Barraud

تأليف (\*\*\*\*) Lex Regia.

(\*\*\*)

Signé

(\*\*\*\*\*)

منذرة ترى أن واجب الرعية يتجه دائما نحو الله ، ونحو الملك بعد ذلك فقط . ثانيا . تجر كلمة «المعالة» في ديلها قيد الملك يقوانى أساسية معينة كالفقاهود الفصالى (\*) ( الذى يستبعد النساء من خلافة العرش ) ومبدأ عدم إمكان التنازل عن الملكية ، والحاجة عند ممارسة الحكم الى نوع ما من التأييد يستند اليه في تمرير السلطان المطلق ، وانتماء يتطلب الانصياع في المملكة وجوب احترام قوانين واتفاقيات واعراف ومميزات بعض الجماعات والمؤسسات . ولقد خص النعاة المهجوت بالاعتماد النظرة الوسيطة التي تنسب للمجتمع كيانا معسويا معسوبا بتقاليد شخصية من الحريات والامتيازات الجماعية ، التي اسهمت عند تطبيقها في حلق انواع شتى من الأساطير التي اتحدت صيفا مندولة كمصطلح « المراقبة الدستورية » التي يحده الاصل العريقة والسيادة القومية للمقاطعات والنظام التشريعي ونظام المراتب التشريعية والكومين وغير ذلك من المظاهر التي شاعت في المجتمع الفرصى .

وهم فكرتين تركزت عليهما العناية في سبعينات القرن السادس عشر هما ما يدعى بالسيادة الدنيا (\*\*) ومجمع السلطان . وقد ورت الفكرتان ضمن برنامج حزب المهجوت من البداية . وتتضمن الفكرة الأولى أعلى طبقات أو مراتب الاستقرائية الاقطاعية بالرغم من إمكان حينها بالصيغة المغلالية باوجدتها الى القانون المدني والقانون الاقطاعي أيضا . ان هذا التصور الذي اشتهر بفضل كتاب كالمان عن الأنظمة (\*\*\*) قد استعمله بيزا للدفاع عن الحرية ، وإن أمكن الاعتماد الى دليل مؤيد لهذا الاستعمال عند بيزا وكتاب هوتيان . ولقد أشيد فكرة « مجمع السلطات » على نطاق واسع في جميع المؤلفات الثلاثة ، وفي العديد من المقالات المعاصرة بحق . وعنى ذلك عند هوتيان التراث العريق برهته «المجلس الكبير» الذي ينحدر من الأسرة الفرنجية في المال . وإن صح ( كما يقول المؤرخ الرومانو تاسيتوس ) ارجاعه الى عصور ما قبل التاريخ ، وما صحها - صما - من حكومات مختلطة . واتبع بيزا الاتجاه ذاته في المعالجة مستعينا بنفس الأمثلة والسوابق . والمظاهر أنه خص « المجلس الأكبر » بصيب أكبر في السيادة ، واتجه اتجاهها مماثلا في كتاب الدفاع عن الحرية ، وإن كان لم يهتم اهتماما كبيرا بالمؤسسات وأنظمتها الدستورية .

نعم أن المسألة الحاسمة كانت شرعية المقاومة ، أو بالأحرى ، الحالات التي تعد فيها المقاومة مشروعة . وطرح بيزا « والدفاع عن الحرية » هذه

Belle.

{3}

مجمع السلطات  
Assembly of Estates  
Institutes

inferior magistrate أعيان الدنيا

{3.3.3} ١٥

المسألة على نحو بعيد عن المهد متسائلا : « هل بالقدور التصدي للطغيان شرعا بالاعتماد على القوات المسلحة » بلمة بيزا ، أو « هل من المقبول قاذوبا القنابل في وجه الحاكم اذا صدر دولة عامة أو اضطهد ، وإلى أي حد يجوز أن تمتد المقاومة ، ومن يسمع بها ، وكيف » وإلى أي حق يستند ؟ »

وكانت الاجابة بالإيجاب عند بيزا و « المدافع » و « الباحث السياسي » . وكشف الباحث السياسي عن ميل « تطرف اللامشادة بحق المجتمع في القضاء على الطاغية » ، وأردف بلمة الحكمة : « بأن العلاج الأكيد للطاغية هو تحديه » . ولم يرض بيزا عن الاعتراف بالمقاومة المسلحة من قبل شخص أو أحد الأفراد الا في حالة التصدي للضعف ، ولكنه اعترف بسلطان « الحاكم الأدنى » كما حدث في حالة كوليتي ووليم أوراج على سبيل الافتراض - ويحاجي بيزا ويقول مشبرا الى فكرة « جسد الملك » - وعلى أي حال ، فإن وراء الرعية ينصب على ما يشغل الحاكم الأسس من منصب وليس على شخصه . ولكن المصدر الأساسي للمقاومة هو « مجتمع السلاطين » ونحن فإن هذه المهمة الأساسية لهذا المجتمع هي البحث عن وسيلة للتصدي للظلم . وبما على ذلك ، فمن هوثمان « المجلس الكبير » جميع مقومات السيادة التي استبقاها عادة بوزان والمدافعون التقليديون للملك ، وفيما بعد وبما كان « المدافع عن الحرية » أكثر تأكيداً لهذه النقطة . فهو لم يتشكك في أن مهمة المجلس الأكبر هي الخلاص من الطاغية أو أي ملك غير جدير بالملك ( بضم الميم ) ، أو بتصيب آخر مكانه . وتركز التقدير دائما - بطبيعة الحال - على كلمة « ملك » . قلم يقتل أحد من هؤلاء الكتاب الثلاثة فكرة اسناد مهام الحكم للامات ، ناهيك بالمسائل الخاصة بالظلم .

وترتبط بهذه المسألة القضية الآتية : « كيف يكون رد الفعل اذا الاضطهاد الديني » . فمن سمات كتاب هوثمان تفاديه التحدث عن القضية التمييزية ، بالرغم من أنه أشار في التمهيد الذي كتبه ابلان لمشتمال الاضطراب الناجم عن المذاهب الى أن فساد الدين هو السبب الأساسي لفساد المجتمع والمستور ، أو « الفرائد حاليا » . أما بيزا فإنه لم يشعر بأي ارتباك في استمجان الخضر الأثم الذي لا يستند الى أي سرور ، والذي قد به للملك أنفسهم علما أعلنوا الولاء للمسيح السحال الروماني ( يقصد البابا ) . وجاءت اجابته بوجه عام على السؤال هي لمكان الهوى بسعة مقاومة الاضطهاد الديني بصير مستريح لو أن الدين الحق كان مؤيدا بضمان من القانون . - وأجاب « المدافع عن الحرية » بتوجيه السؤال المبلغ الآتي : « باختصار ، لو أن الله دعانا - من ناحية - لكي نحتد أنفسنا لخدمته ، ودعانا الملك - من الناحية الأخرى ، فهل وجد انسان يعتقد تماما الى العقل بحيث لا يقول ان علينا أن ننرك الملك . ونكرس أنفسنا لخدمة الله ؟ »

ليس من شك أن مثل هذه التوجهات كانت شائعة بين أعضاء حزب  
الهجوت ، وبخاصة المتفيعين منهم ، أو المسلحين ، برغم استللاف صيغ  
حجبيهم . والمحق أن ما يسترعى الانتباه في فكرة المقاومة في هذا العهد  
هو تنوع الأسس التي أسند إليها في التبرير . ويرجع ذلك - من جهة -  
إلى الروح التقليدية للحصر . واتجاه كثير من الإيديولوجيين إلى الترجيمية  
بأية حجة تستند إلى مبرر مقبول . غير أن هذه الحالة يعكس أيضا المجال  
الواسع للمعتقدات والمشاعر . وأيضا الأفكار والنظريات . وبالإستطاعة  
عند ترميم وسائل إصعاد الشرعة في شيء أشبه بالسلم التصاعدي ، هذا  
من المصادر التقليدية العتيقة إلى أكثر المصادر تحورا وعقلانية أن تتخذ  
الترتيب الآتي : أولا : التصوص التوراتية والأدبية . ثانيا : الأمثلة  
التاريخية والقواعد الشرعية . ثالثا : التمثل بالقانون الخاص والاطعاني .  
رابعا : الصحيح التي مرد إلى الأخلاقيات والقانون الطبيعي ومسايرة المفهومية  
الدارجة وفنقل الخالص . وبعبارة عما جاء في صدد لوتر الناطي إلى  
الاكتفاء : بالإسفار القدسة ، فأتينا نرى الإيديولوجيين العلمانيين  
الهجوت يقتربون من النظرة التي تقررت في مجمع ترنتينو بإمكان الإعتناء  
إلى برهان يمكن الاستئذان إليه على صوء الأعراف والعادات وأيضا الكتيب  
المقصود ، وبهذا المعنى أيضا تبدو دعاية الهجوت قد تعيرت « بالنسول »  
الذي يضم كل جانب من جوانب التجربة .

ولكن على ضوء الفكر السياسي ، من المقبور إدراك ما حدث من انحراف  
عن الأسلوب التجريبي ، وعن طريقة الإقناع السلطوية . واقترب من  
السبل الأكثر عقلانية لبرهنة نقاط البحث . ويشترك المؤلفون الأربعة في  
الميل إلى تقديم أمثلة تتبع الأسلوب المقارن مع الاستماعة بمختلف التجارب  
وإما جرى في أسطورة ومجتمعات متفرقة - يعني من الميدان الذي يماظر  
القانون القديم للأمة (٣) - تم يستخلص بعد ذلك بالإعتناء على عملية  
استقراء الأنماط التي تنصف بكليتها ، والتي بالإستطاعة أثبتت توافيقها  
هي والقانون الطبيعي . وبهذه الروح ، تم الاستمهاد بمهود المنوك  
الانحياز ، ونسلا أراجون والقوانين الأصولية وأنواع شتى من الجمعيات  
التمشيلية ، وبذلك ظهر نوع من المجمع الخاصة بالقانون الطبيعي بالمعنى  
التجريبي والمقارن الحديثين . وأيضا بالمعنى الوسيط «القبلي» (٤) الذي  
سنلاحظ بلوغه النظم في الصيغ الأكثر ارتقاء (٥) في القرن الثال .  
وباستطاعتنا ملاحظة ذلك في كتاب الدفاع عن الحرية بوجه خاص ، ففيه



طرحته إحدى النظريات التي تكاد تقترب من نظرية التعاقد الاجتماعي .  
ونبه تلاحظ روحاً أخلاقية مطلقة شديدة الهيمية مما ساعد على مواجهة  
البرعة القومية السالطة . بل ودفع أيضاً دفاعاً عقابياً عن قسوة فكرة  
العون الأجنبي .

ومن المعروف جيداً أن حجج ما يدعى ، بالملك السعاح ، لم يبعها  
وطلبها الكاثوليك وحدهم في الجيل التالي ، علماً أدى ترشيحهم لهرى  
الساغاري للعرش إلى انضمامهم لصعوف المعارضة . ولكنها اتبعت أيضاً في  
القرن السابع عشر في إنجلترا ، وفي الثورة الأمريكية في القرن الثامن  
عشر . وإلى حد ما . بعد نقل الأفكار على هذا الوجه بعد تكييفها ، الأسلوب  
الذي اعتمد عليه التواصل في تاريخ الفكر . غير أنه يتوجب الاعتراف  
أيضاً بأن حجج المقاومة ، مع أن إردادات تجربتها وعقلانية واستناداً إلى  
القاسمة والقانون الطبيعي - بدلاً من السوابق القانونية أو التاريخية -  
فإنها ازدادت أيضاً اصطفاً بالمالية والقابلية للتطبيق في العديد من  
الحالات . وإردادات وسجواً معاني الطغيان والحقائق الطبيعية والتعاقد  
الاجتماعي وحق الثورة في مقامات أخرى ، أمريكية وإنجليزية وأوروبية .  
ومثلت أيضاً على أقل تقدير بعض المخلطات اللامباشرة لعروب القرن  
السادس عشر ، كما اعتقد جون آدمز وكثيرون من المشتغلين بالمسائل  
العامة في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . غير أن هذه الأمثلة  
تمثل دورات أخرى للأيدولوجية في بدايتها . وتتجاوز بحثنا الحاضر -

### عناصر الأيدولوجيا

كيف تحلل الانتفاضة الأيدولوجية للمجتمع البروتستانتي العلوي  
في ميسونات القرن السادس عشر ، وكيف نظم هذا الكيان اللاحق للظاهرة  
والذي يمثل - في أغلب الظن - ابتدأ وأبلغ تعبير عن الأيدولوجية الشائعة  
في الناحية العامة . وعلى نطاق عالمي واسع في بداية التاريخ الحديث ؟  
ليس من شك أن العناية الملحوظة المتضخمة قد استعملت قوتها في حالات  
متفرقة من الصيق الاجتماعي . وأيضاً من التصديق السياسي البعيد المدى .  
ولكن لا يقل عن ذلك تأثيراً ، القول بأن الحماسة الدينية كانت تمثل -  
يقبلاً - القوة الحيوية لهذه الانتفاضة . ولم يتبع هذه النظرة فقط الأمصار  
من كل جنس وصوب ( بالرغم من التمايز الأبعد عن الشك في مدى إخلاص  
الدواعي الدينية عند الرعاة ) ، بل اتبناها أيضاً الملاحظون المعاديون والنقاد  
الاجتماعيون المعنوقون من أمثال مغير فينسبا في فرنسا مارك أنطونيو  
باربارو : « إن مثل هذا الاضطراب الذي شهدته العصر لم يسمح به من قبل »

وكان هذا ما جاء في تقرير ماريلو في تقرير يوحس الى ١٩٦٤ : « ولا نرحب هذه الطريقة الى سبب آخر غير الدين » ثم حدد خمسة سبب أدت الى تخريب المجتمع

أولاً : مثل المترابطة عدة السلاسل للأفكار المهرطقة .

ثانياً : شعبية المشاعيات -

ثالثاً : بفضل رجال الكنيسة في الوظائف القانونية .

رابعاً : الاخلاق في معاقبة الجرائم التي كانت ترتكب في « مدن » المهجورة .

خامساً : ايثار بعض المظالم ( مثل كوندى كولسي من رحلات السياسية ) للمهرطقة ، هذه على أية حال هي الظروف التي يمكن ادراكها عند جيل الأيديولوجيا في القرن السادس عشر .

وانا كان باريلو قد أدرك وجود هرطقة وسلوك عدائي للمجتمع ، لأن بوسنا اذا أممنا النظر أن نلاحظ سطاً أكثر اصنافاً بالصومية للممارسة ، إلا على وجود ما هو أكثر من حالة الاعتراض السياسي . فبعد اربع أنصار كالفان من فرميسين وسويسريين والمان وهولنديين ، أو المتصاطلون على الكاثوليكية نظراً متكاملة للعالم تدعو الى الضال - حتى وان حدث ذلك بضمه « مؤقتة » - اعتماداً على التقاء المعتقدات الفكرية والضرورات الاجتماعية - وتضمن ذلك على ظهور رؤيا عامة للطبيعة البشرية تجاوزت صنع الاعتراف الحررية ، وعلى الرغم من أن هذه الرؤية لم يمر عنها في أي موضع فسا يشبه الشكل السقي . الا ان طابع الاحساس كان واضحاً جلياً في هذه المظرات في احدى الواسع للدعاية . أما ما جاء في اعقاب ذلك فلم يرد عن محاولة لم شمل العناصر الانسانية التي خلقت الأيديولوجية البروتستانتية .

واتخذ المنصر البيكولوجي الصدارة بين هذه العناصر . فقد تفجرت منه ظواهر الضيق والسرور الاجتماعي ، أي الظواهر التي ترتب عن ازدياد عدد السكان . والظواهر أنه لا توجد وسيلة مقبولة لفصل أي أثر عن باقي الآثار . فالآثار الذاتية يمكن أن تنسب الى المجتمع . وليس من شك ان محاولة ارجاع الأسباب الى أصل تعميمي واحد كما تفعل « النزعات الفردية » لا يعد كافياً . غير أن هناك بعض أنماط جرت في ذيلها - ضمناً - آثاراً مضادة للمجتمع لا يمكن انكار دورها الى أعمال إرادية معينة وبخاصة بعد يزرغ نماذج البطولة المشتعلة في الحكام المصلحين ، والتي حلت محل

القيم الاجتماعية .. وبالإستطاعة هناك وجود فعل هذه الساحة في أنواع شتى من السلوك غير المألوف ، كما يبين من حالات الهروب من الرقابة الأبوية ، والنظميات الرهبانية ، والتأسي بالشهداء ، وإيجاد الأنواع الأكثر غايلية ونضالية للمقاومة . وربما كان من الضروري على ضوء الأدلة القائمة إرجاع هذه الظاهرة إلى أسباب تاريخية نفسية ، وإن كان لا وجود لأي اختلاف حول ما أسفرت عنه من نتائج . والأمم يكتل فيما يتعلق بالقيم العام لترير الأفعال على أساس معايير غير تقليدية تتصل بالضمير والقيم التراسندتالية ، والتي تعنى من الساحة العملية القيم الخاصة بأحدى المجتمعات الخارصة عن القانون ، أو الغريبة عن الاتجاه العام - ولا جنال أنه يصح القول بأنه في غضون حل من الزمان اتخذت هذه المسالك الفردية وهذه القيم الفردية شكلا اجتماعيا متفقا عليه ، عتفما جله في أعقاب الحكام لمصلحين بعض البدلاء الأقل تمتعا بالكاريما ، ممن سموا بالصنف الثاني ، كما حدث في حالة بولينجر الذي جلب تسفنتلى ، ويزا الذي خلف كالمان . ولعل هذه الحالة تمثل يقينا عملية تحول للثقل العليا إلى أيدولوجيات اتبعت مختلف القنوات التي أشرنا إليها .

ثانيا : العنصر الانجليكاني ، الأكثر قابلية للاكتشاف . ومن بعض نواح ، كان هذا العنصر أكثر مفعول الأيدولوجيا فاضية ، عتفما كان الكتاب المقدس أكبر أداة للمعاينة واضفاء الشرعية على السلوك غير المحافظ . وفي البداية ، لم تكن فكرة الحرية المسيحية كما نادى بها لوتر وبوبر فان جونغ (\*) وفاريل وآخرون كثيرون ، ذات طابع سياسي ، ولكنها كانت عناصره للسيطوية على نحو لا يمكن الوقوع في الخطأ فيه . ومن اليسير اللوامة بين الحرية المسيحية والأسباب السياسية ، عتفما اكتشف لوتر في التو ، عتفما التقي بالزعماء الألمان ، المعترضين ، وبصفة أساسية ، وتسميا مع المضيعة الشهيرة التي ذكرها أريك فروم عن الحرية السالبة ، في محتجم ما بعد القرون الوسطى ، يمكن رد عتفه التاحية إلى الفكرة الانجليكانية عن الحرية التي وعلت بالتححرر من طغيان الملعب المادى وعادة الأثران ومن التصور « الإنسانى » التسانى للالهيات ، ومن السيطرة الأجنبية ، بطبيعة الحال . والمعنى المتضمن في ذلك هو القول بأن معيار الحكم والتاحية العملية ليسا مستمدين من مصدر مطلقى إنسانى أو تقليد أو تنظيم إنسانين ، وإنما من « كلمة » تراسندتالية أو علما مجاوزة مستمدة من الأسفار المقدسة ، بشرى أى « تأويل » كنسى . وبعد اسقاط هذه « الكلمة » على العالم الدنيوى ، استطاع الإيصال الحر للتطير التزويد أيضا

بوسيلة العنف . ولعله رفض فكرة اعتبار الإنسان مصدرا موثوقا في علمه  
 الباطنية . ويمكن الرجوع في هذا الشأن الى المعنى المجازي لعبارة « جسمي  
 الملك » . فكما يمكن تطهير القدس من أى عناصر مؤقتة قائمة بالقفل ،  
 كذلك يمكن تجريد السلطة العلمانية من قواعدها على الإنسان وما يستخلص  
 من ذلك هو استناد الولاء - كالأيمان - الى عامل ترائيدتالى لا غير  
 وبعبارة أخرى فقيما يتعلق بالملك ، فإن ما يوجه اليه من احترام إنما يخص  
 مصه الجليل ، أو « الجلالة » بالمعنى المجرد ، وليس لجلالته شخصيا .  
 وعلى أنحاء شتى استطاع الدين المتأثر بحركة الإصلاح التزويد بنموذج  
 أو مصدر شعورى للأيدولوجيا العلمانية . وإذا استعملنا تصورا لادينا  
 اسكتا القول بأن كنس فرانكو حاليا لهوتان كان اسقاطا علمانيا للكنيسة  
 اليدائية . وبصفة السياسة باستطاعتنا القول ان كتاب « الدفاع عن الحرية »  
 هو الإسقاط العلماني للعهد التوراتي . ويشمل الكتابان شبيهين ومزيين  
 لتصور الحرية المسيحية .

وبالاستطاعة أيضا الاعتراف بوجود عنصر اتحادى يدل على الاشتراك  
 في الامتيازات ، أو الانتماء لمؤسسة واحدة ، وتتل - بمعنى ما - في حالة  
 ولاء مستقل عن الولاء الموجه للكنيسة أو الدولة - للثقلات والمهن  
 والوظائف وغير ذلك من الأنظمة « حرياتنا » المحدودة بصفة خاصة ، والتي  
 نحرم على حمايتها ، بحيث لا تستطيع حتى الحكومة انتهاكها دون افلات  
 من التقاص . فقد تمتعت الكنيسة النالية وجامعة باريس ورابطة المحامين  
 والبرلمان ونقابة المحامين ، بل والأسرة ، بامتيازات وحرمات تمت بسرور  
 الزمان ، وحرمي الناتج على تأكيدها من حين لآخر ، وأضاف اليها أحيانا  
 امتيازات أخرى أو سلخ بعضها . ولئن يجسب اتباع المؤرخين الأقنم بهذا  
 الذين ربطوا برابط وثيق بين مثل هذه المراكبات من الامتيازات المشتركة  
 والاتجاهات التصورية الحديثة ، وزعموا وجود هوية بين تصديت العاملين في  
 الطباعة ، والأساتذة ، في القرن السادس عشر ، وبين حرية الصحافة الحديثة ،  
 أو ربطوا بين حرية الرأي التي تمتع بها أعضاء البرلمان في القرن السادس  
 عشر وبين التصورات الأحدث عهدا - فلا ينبغي وجود قيم وأسلط سلطوية  
 في التصورات الأيكر للحرية تتناقض أيما تناقض هي وتصورات القرن  
 التاسع عشر والقرن العشرين - غير أن الاعتراف بالاختلافات لا يعنى انكار  
 الروابط التاريخية . فلا جمل أن الجماعات الاجتماعية والمرفقة الأيكر  
 كانت مصادر مقاومة للقوى الساعية لأحدث أفراد في المجتمع وللقوى  
 السياسية الاستبدادية . وإذا عبرنا عن ذلك بلفة الأيدولوجيا سيجوز لنا  
 القول بأن عادات وتقاليد وصيغ الاحتجاجات من أجل تطبيق الحرية

للجماعات قد ساهمت في خلق الاتجاهات التحررة من التقاليد والأعراف ،  
بل والداعية للتورة في نهاية الأمر .

واما : هناك المنصر الاقطاعي ، والذي كان - وربما اصنم - في  
القيام بدور المعوق الدائم لسلطة الملوك والوحدة القومية . وفكرة التعاقد  
بين الاقطاعيين ، والحقوق والواجبات للمصاحبة لها لكلا الطرفين كانت  
مضمرة في الموقف الذي اتخذه سأمرو وأمبولزه (\*) ، وتكتسب سامرا في  
موقف كوندنيه (\*\*) من معاهدة فالراسلطة ، ونجحت هذه واضحة في شكايات  
بشتي للمحدثين باسم طقة الاشراف ، بوجه خاص ، الذين كانوا مرغبيين  
على الحرب دفاعا عن « شرفهم » ، أو ضياعهم بمعنى أصح ، وأيضا في  
سبيل المبدأ القديس والسياسي . ولقد تغلغلت الحجج المستقاة من التمسك  
« بالحرية » الاقطاعية في دعاية الحروب الأهلية . واحتلت بعد « المذابح »  
مكانة بارزة في ميانات أكثر اتباعا للروح الطليعية . ولقد اعتمدت حتى فكرة  
سيادة الشعب - بمعنى ما - على هذا المثل الأعلى الاقطاعي الجديد ، لأنه  
بنى على اعتراض يزعم إمكان قيام الشعب بالعمل المباشر من خلال وكتلته  
لور من يحتلونه من صقوة عليا القوم .

لعله من المحتمل أن يكون من المفالة ، وما هو سابق لأوانه تاريخيا  
توكيد وجود عنصر كلاسكي في الوعي السياسي والاجتماعي للحروب  
الأهلية - فبهاك بعض دلائل على ظهور غلو في التشيع لفكرة الجمهورية ،  
وكانوا يستشهدون من حين لآخر باسم بروتس لتأييد دعواهم . ولكن  
وحتى فيما يتعلق بقضايا الطميان والاختياله ، فإن هذا الضرب من التسرع  
بالتشخيص وأفكار من الصور الفائرة كان ذا أهمية ثانوية . ففي أغلب  
النواحي ، لم تسع أيديولوجية القرن السادس عشر الى التحرر من تقديسها  
بأطار المجتمع الاقطاعي وانغراضاته - وهذا واضح حتى في أشد تعبيرات  
مقاومة مزاعم الحاكم قوة ، وعلى الأخص ولیم أوف لورانج في البلدان الواطنة .  
اذ استند لورانج مثل دفاع حصة (\*\*) الى حد كبير على اعتراضاته على  
القطاع ( كما فعل أيضا دون برانانت ) والمعاملة التي لا تأملها من الاقطاعي  
الأكبر فيليب الثاني ملك إسبانيا . والأساس الاقطاعي لجميع المقاومة

(\*) Conjuraton d'Amboise اشتريه فيا كوندنيه .

(\*\*) Condé معن عامروا الحركة الكاثوليكية ، ولعل  
المصدر من كوندنيه الاعظم ( ١١٧١ - ١١٨١ ) الذي اكتسب بحروبه في الفلاندرز  
ومولده .

(\*) Hesse في كتاب Asology ١٩٨٧ .

« واضح أيضا في العداوات المتواصلة للمجالس الكبرى في فرنسا وهولاندة  
الى ان انتهت بانكار سيادة فيليب الثاني على أساس ان علاقة البلدين كانت  
بمصادرة أساسا ، بخلاف الصلاقة بين فيليب ومستعمراته في العالم  
الجديد . . . »

ويرتبط بالانكار الاقطاعي - وربما كان هذا الارتباط أكثر اقلاقا  
للمسيحيين المحافظين - العصر الذي في ايدولوجية القرن السادس عشر .  
وفي هذه الساحة ، كان عند الكلاسيكية المسيحية ما هو أكثر لتفديمه .  
وباستعمال مصطلحات المفكرين يمكن القول بان الاتجاه التحرري للمدن  
التي اعتنقت البروتستانتية في القرن السادس عشر كان متأثرا بهذا التيار  
الكلاسيكي ، أو على الأقل ، فقد مثلت مزاعمهم آمنة ترواها في الاتجاهات  
المرتبطة بالترغبات الهيومانية للمدن ، أو « المدن - الدول » الإيطالية في  
القرن السابق . ولكن مرة أخرى يبدو أن الأساطير الوسيطة التي كانت غالبية  
رغم احتمال أن تكون حريات أهل المدن قد تفتت على الزعة الجمهورية  
الكلاسيكية ، وإن كانت جنودها المسفة كان لها طابع خاص . ولقد اكتسب  
المثل القديم القائل ، « بأن هواء المدينة يخلق الحرية » روحا جديدة عندما  
أضيفت اليه فكرة « الحرية » الجرمانية المسيحية ، وليس من شك ان  
مدنا حرة كستراسبورج وماجندبورج قد قلعت تطبيقات عملية لثل هذه  
الاتجاهات بانضمامها لتصوف الامامية لمقاومة الامبراطور شارل الخامس -  
وبالاستطاعة الاحتذاء الى لمثلة مماثلة في مزاعم المدن الهولندية عند  
مقاومتها لآين الامبراطور ( فيليب الثاني ) . والتقاء الحريات المدنية  
والحريات ائدينية واضح في حالة مدينة برايبانت التي ناضرت « حريات  
الدين » على أساس « الحريات القديمة » التي كانت تمنح النبوق ( يعني  
فيليب ) من ملاحقة رعاياه الا بعد الحصول على إذن قانوني . وتممه أيضا  
من فرض الضرائب أو تعيين احانب لشغل الوظائف دون رجوع للمجلس  
الأعلى . وطبقا لما جاء في البيان المشهور ، فإن هذا الاجراء كان شبيها  
« بالاتحاد الاقطاعي » ، وإذا انتهك النبوق هذه الحريات أو انتقص منها ،  
بحق للمواطنين نكث تمهدهم وفعل ما يروونه الأفضل لصالحهم ، - ان  
هذه البيانات التي صدرت من المدن الثائرة قد ساهمت على نحو مباشر  
في نظرية المقولمة الشكلية ، وعلى الأخص عن طريق كتاب بزا حقوق  
الحكام ، الذي وصف بأنه تعقيب على الكتاب الشهير اعترافات ماجندبورج  
١٥٥٠ ، وكتاب دفاع عن الحرية ضد الطغاة الذي استشهد بالسوابق  
التي حدثت في هولاندة .

لما الأهم من ذلك ، فكان الأمثلة السابقة التي ضربتها مدن سويسرا  
التي اعتبرت قنوة ومثلا عليا ، وبخاصة في نظر الدعاة الهولانديين .

وتميزت التقاليد الليبرالية وقويت بفضل التفاعل المتبادل بين حركة «الإصلاح» والكفاح في سبيل الاستقلال عن سافويا . ويمرر الفصل في هذا الشأن إلى جيلين من الماضين مع هذه السلطة . وليس هناك ما هو أبصر دليل على الاتحاد بين الالتزام الديني والاستقلال النسبي ( يصور الجانبين الروحي والمادي للأيديولوجيا ) من تمهيد جينيف بالولا ، بعد حرصها على تأكيد الاحتياجات المدنية القديمة مثل حتى التملك في المدينة وطلب السماح بالمفاودة أو استيراد السلع الأجنبية وتقديم المساعدة العسكرية عند الضرورة ، وغير ذلك . ثم أصيب إلى هذه الحقوق ابتداء من ثوبمبات القرن السادس عشر ، المطلب اللارم سلفا بأن « يحيا المواطنون وفقا لمبادئ حركة الإصلاح وما يمليه الكتاب المقدس » . وحدث هذا - بطبيعة الحال - باسم الحرية المدنية والحرية المسيحية أيضا ، وليس باسم حرية أهل جينيف وحدها . وكتب ييزا بعد الحرب الدينية الأولى مع فرنسا : « نحن مقتنعون أنه إذا سقطت المدينة ، فإن جيوانها سيتألزون بذلك ، بل وستكون كازرة حتى لم لا يعرفون شيئا عنها . أنها ستكون نهاية الحرية » . - - - أما فيما وراء جبل الألب فقد ملت جينيف في نظرم وكرا مريرما للمهرطقة والدمار . وترامت لأنطوان فرومست الذي شمس بالإجباط في موعطة تسبب في نفيه صورة متكررة للمدينة القديمة « مدموم » التي جاء ذكرها في الترواة ( ونسب إليها انتشار السنوذ الجنسي ) وتصورها البروتستانت كآورشليم جديدة وجوهوية جديدة . على أن الجميع قد اتفقوا على اعتبارها مريرا معبرا عن أيديولوجية حركة الإصلاح الديني .

ومثلت مدينة لاوشيل في فرنسا مثالا كلاسيكيا للتحول المدني . ولاوشيل مدينة يرجع نحررها إلى القرن الثاني عشر على أقل تقدير . وكانت تزعم أنها تمتعت بهذه الحرية بفضل التحصينات التي أقامها يوليوس قيصر . وقبل ١٢٠٠ ، كانت المدينة تتمر بإقامتها لمجلس نيابي ، اتبع مثل برلمان باريس النموذج الذي كان متشما في روما . فكان يتألف من مائة عضو . وفي القرن السادس عشر طر إلى الحريات المدنية في لاوشيل على أنها مصدر تهديد ، بعد الزعم بانجاء الأهالي إلى تسليح أنفسهم ضد « حلالة » الملك ١٥٣٤ - وأمكن حسم نمرد لاوشيل - طاهريا - عندما اعترضوا على فرض ضريبة على الملح ( الباييل ) ١٥٤٢ . غير أن المسألة الدينية بدأت تغير القلق . وراينا قرنيس الأول يكتب بعد ذلك سمنتين : « في لاوشيل والمناطق القريبة منها ، عدة أشخاص ممن أصبحوا بلوثة من جراء تأثيرهم بهذه الأخطاء اللوثرية اللعينة . ولقد شككوا بصاعات تحوب طول الملاد وعرضها وتحدث مالا حصر له من الفضائح . واستطاعوا نشر معتقداتهم التعممة الضالة . وهذا أمر لا يسر خاطر » .

غير أن عدم رضا الملك لم يحل دون انتشار الهرطقة ، خصوصا بعد أن  
لانت تأييدا من الأشراف - وفي ١٥٥٨ ، تم الإبلاغ عن جوقه من المشلقين  
البرلميين من يسخرون من الطقوس الكاثوليكية في حجرة الملك الراحل  
لنصار وفرينته- وبعد ذلك بأربع سنوات ، أتت عديده مديحه فاسي (\*)  
« حالة من اليأس والدعوة لتحطيم الأوثان » ، ما لبثت أن تصاعدت وتحولت  
الى صراع مسلح - وابل سنتينات القرن السادس عشر ، عملت لاروشميل  
الى المطالبة باحترام « حرياتنا العريفة » وطالبت أيضا بحرية أحدث من ذلك  
هي « حرية الصيغ » ويقوم ١٥٧٢ ، كانت المدينة قد تحولت بالفعل الى  
جمهورية مستقلة ، وابتنعت أسطورة منافسة لجنيف وشاركت بصقة  
مباشرة ، في الجانب المدمي للنعاية مسيحية القرن السادس عشر -

وفي الحركات الأيديولوجية للقرن السادس عشر ، يزد دور العنصر  
القموي على نحو لا يمكن إنكاره - غير أن دوره كان على نحو ما غامضا  
وخديعا ، بل وكان مصدر فرقة لبعض أنصار « القضية » الإنجليكانية  
السياسية - وجدت هذه الظاهرة بوجه خاص في الامبراطورية التي رفع  
فيها لوثر راية القومية في خطابه ١٥٢١ ضد المؤسسات الكنسية - وبلا  
حرم - ضد الامبراطور - وفي البلدان الوالطة ، استندت الحركة القومية  
- الى حد كبير - على المشاعر المناهضة للأسبان ، وبغت أشبه بعبية شعبية  
ذات اهتمامات اقطاعية ومدية وإنجليكانية ، وانتشرت من جبلت بواح الى  
القوة التي تساهمها على ضد الميول الانفصالية المتمدة الجذور - وفي  
فرنسا ، كان الموقف معقدا أيضا - وربما صح القول بأن ضروب البلاغة  
وللحاجة كانت تتمتع بروح قومية غائبة عند الفالين والميجوت - غير  
أن طرفي النزاع كانت لهما تحالفات مع القوى الغربية متزايدة التشوش -  
فهناك - من ناحية - التحالف مع الإيطاليين والاسبان - وهناك من ناحية  
أخرى تحالف مع الألمان والسويسريين والهولنديين ، ومع الانجليز بقر  
قليل - والنتيجة لذلك ، والتي كشفت عن وجود مفارقة ، هي أن تصبح  
القومية في المدى القصير على الأقل قوة أيديولوجية - وليس من شك  
أنه ما يدل على تزايد قوة الحركات الأيديولوجية في القرن السادس  
عشر ، استطاعتها مقاومة الروح القومية ، بل واستغللتها أيضا -

وبوجه عام - لقد قامت الحركات الأيديولوجية في القرن السادس  
عشر بدور بارز فد في الأقاليم ، وعكست في صياغة مبادئها المآزق  
والاهتمامات الانسانية المباشرة - كما أنها امتشعنت ببعض السوابق

(\*) Vassy مقيمة في نورماندي بشمال فرنسا ، واسمها الحالي كافانوس  
Cauvados



والتماليد الخاصة . غير أنه حدثت محاولات للتخلف فيما هو أبعد من التاريخ والقانون ، بل والأسفار المقدسة ، والنحليق في الانجاسات والبرامج ، لبلوع آفاق فلسفية ، وفي هذا المقام ، عاود الظهور القانون الطبيعي واللاهوت العفاني كوسائل لأضعاء الشرعية ، وحل العقل والقيم الكلبة محل العادات والاعراف الاسانية . وكما قلت الأنظمة الملكية وكأنها تستند الى العقل ، كذلك اتجهت الاتجاه ذاته معتقدات التعاقد الاجتماعي والسياسة الشعبية . وزلزل في نهاية الأمر أنه بعض النظر عن مراعات القانون الوضعي وفان الله يختار ، والسمع يصيب ملكه (\*) ، وبمقدور أطراف النزاع أن تختار أحد شقي هذه المهادرة ، أو كليهما لتبرير طريقتها في العمل . ويصح هذا الرأي أيضا عن المقاومة المعالة . فمس الصمم التي تواسمت هي والعقل والقانون المذمي أيضا القول بإمكان استعمال القوة لصد القوة . والنعت في مؤلفات الفيلسوف يودس - وعند الملك السقاج بوجه خاص - جميع العناصر التي ناقشناها أنفا ، وما هو أكثر منها ، وأنت نظرات تركيبة عن حالة الانسان ، كما هو بالضرورة ، أو كما يتبين أن يكون باستعمال مصطلحات من على الاجتماع والسياسة . وانتقلت نظرات القرن السادس عشر في المقاومة والثورة في صورة متسلسلة الى سلسلة من الأجيال المتعاقبة للأحلاف لكل منهم مضللاته المجرية . مثلنا ، وعند أمثال ووسو وحون آدم .

### نهاية الايدولوجية

وعلى نهاية سبعينيات القرن السادس عشر ، كانت الانقسامات الاساسية عن ايدولوجية الهجوت قد انتشرت وإحدثت أثرها . غير أننا اذا استندنا الى لغة الكم ، سنرى أن ذروة المد للدعاية لم تكن قد حدثت بعد . والأمر بالمثل فيما يتعلق ببعض أمورا بشاعات وفظائع الحرب الأهلية والحرائم الشخصية . ومن ناحية الخلاف السياسي ، فإن مستوى الضجيج قد ظل يتصاعد حتى ١٥٨٨ على أقل تقدير ، يعني السنة التي شهدت اخفاق الأرمادا الاسبانية ويوم فرض الحصار على باريس واغتيال البوق الشاب دوجيز (\*\*) وأعقبه في السنة التالية اغتيال هنري الثالث آخر ملوك افعالوا ، وفي ١٥٨٠ ، نشر هنري الثالثي تصريحاً على عرار العصية التي نشرها كولني ومكونديه قبل ذلك . ولكن بعد ذلك بأربع سنوات .

Eligit Den. et constituit Regim populus.

(\*)

من ١٥٧٤ - ١٥٧٤) كاردينال اللويين ومن

Charles de Guise

(\*\*)

رجال السياسة في فرنسا .

وبعد وفاة دوق انجو ، واضمحاض عدم حدوث مشكلات مترتبة على مصرع هنري الثالث ، أصبحت نافار هي الوريثة المحتملة ، واكتسب حزب المهجوسين الشرعية ، واتبع انتصارها محافظا - ومن آيات ذلك ، استبعاد هوبان الاشارات الى مبدأ النظام الملكي المبني على الانتخاب في الطبقة الثالثة من كتابه فرانكواليا - ومن ناحية اخرى ، اشهد ساعد الجناح المعادي للكاتوليك وكسبة روما ، ويحاصه سنة ١٥٨٥ عندما تفاجئت حدة الاتهامات الموجهة في المنشور البابوي الذي حرم نافار وكوديه من رعاية الكنيسة -

ومن الآن فصاعدا ، سرى انتقال الحزب الكاثوليكي في فرنسا مرغما الى موقف المعارضة - ولكن ما حدث من تغير في الأوضاع ، وانعكاس دور الفريقين لم يحل دون استمرار الشكل العام للصراع الايديولوجي على حاله - ونشط الحكام الكاثوليك وابعان المدن في إصدار التصريحات ضد من حاولوا - بانساع شتى الطرق القضاء على الديانة الكاثوليكية والقوة الكاثوليكية - . وكشفوا بنورهم عن الأسباب التي حالت دون إعطاء الكاثوليك للسلاح ، واتهام الملك هنري الثالث « بالبطيخان » . على أنه من الناحية الايديولوجية ، فإن أسلحتهم كانت قد اعتدت لهم ، فتشبيها مع ما جاء في نشرة صدرت ١٥٨٩ « المهجوس هم الذين مهدوا الطريق أمام الكاثوليك - - - » وفيما يخص حجج المقاومة ، يقول الكاتب : « يبقيا لو اتجهن المتحررون في علقة ، وتوافرت القوة على إعطاء السلاح وإعلان الحرب على الملك ، فإن قوتهم ستزناد لو ناصرهم الكاثوليك الذين انتشقوا السلاح لتحطيم الهراطقة » - وهكذا لم يتردد الدعاة الكاثوليك عن الاستعانة بمعتقدات المهجوس - كسب النظام الملكي القائم على الانتخاب التي روجه بيزا وهوتان وبابرو - بل وذهب بعضهم الى حد تأييد فكرة استباحة هذه الطبقات - - - »

وساعدت إحدى الأفكار التي اشترك فيها الطرفان المتنازعان على إبقاء النيران متباعدة - هذه الفكرة هي الزعم القديم بأن الاختلافات الدينية ربما كانت أسوأ عاقبة من اتباع الاتجاه الخاطئ - . ولم يمض طويل وقت على مذبحة سان بارتولوميو حتى رأينا أحد أنصار النظام الملكي يقول : « ان محترقي الدين هم الذين سيهدمون الجمهورية » - ومن هنا نجد لويس دورليان (٣) يشعر بالفزع « من الشرع عديسي الاكثريات والذين لا يبالون بانقاذ أي شخص اذا كان من اتباع عقيدتهم » - وربما كان الأسوأ من ذلك هو محاولة إخفاء الاختلاف أو تسويهه « يعني باتخاذ موقف

(\*) Louis Dorléans (١٥٤٧ - ١٦٢٩) كاتب فرنسي اشتهر بشدة هجومه على الملك هنري الرابع ملك فرنسا .

المراوغة أو الخراطة « كما فعل اليجوت بالذات . كما يعوم غسما صا دكره دورليان . وشعر الدكتور دولوريه (٣) بالاضيق من عصبة المنحرفين أو المنحرفين والخنثويين الذين يراوغون في آرائهم ابتغاء للمخاط على مستلكتهم ووظائفهم بادعاء تأييدهم للمذهب الديني . وبإله من معلق حدير بمكيافيلي ١ . وساد مجذلات السنوات الأخيرة من الحرب الدينية استعمال اسم هذا الفيلسوف الخائف ( مكيافيلي ) الحاصل على الدكتوراة في الطغيان ؛ على حد قول « أحد الكاثوليك الطييس » .

ومرة أخرى اذن تمحورت المسئلة حول تعريف المصطلح المؤلف « السياسي » والمقصود به ؟ بعد أن ارتداد الربط بينه وبين الاناسي والاباحية والالحاد بل والمكيافيلية . وكانت كلمة « بوليتيك » في وقت ما علامة تشريف كما كتب أحد أصحاب النشرات ١٥٨٨ « اد كان هذا الاسم فيما مضى يطلق على الحاكم المادى والسيد الحنف الذى يعرف كيف يحكم المدينة بالاعتماد على العقلية المسددة ، وكيف يخلق الوثام بين الأطراف المتنازعة والمصالح المتفرقة ، ولكنه يقترب الآن بالآلاف الشرور » فهو يدل على الرعب والفساد النظام والقدرة واستحقاق الارادة ، بعد أن أمده اليه أمثال هؤلاء الناس » . وأردف الكاتب قائلا : « ان شرف البوليتيك هو شرف التعلم الذى لا يعتمد عيناه على التطبيق في الحاكم . والذى يقر كل ما يقول أو يعمل ضد الله . ان ما يتصوره كثيرون عن خلق المحاص يمكن أن ينسب بالمثل الى السياسي ، فهو يبدو من منظور أى مؤمن من المسيحيين الأوديه » . وقم كاتب آخر قائمة والية بالأخطاء التى تنصف بها العقلية السياسية ، ومن بينها « وضعها الأولوية للمسائل المدنية والسياسية المعولة ، وتخط هذه المسائل عنده الصدارة فوق الدين » « واعتقادها اجتماع المحافظ على وثام الأحوال المدنية مراعاة متطلبات جميع ما ظهر من أديان » . وما يستخلص من مثل هذه الآراء هو الكشف عن الارتباط بين هدف جميع اليجوت والبوليتيك وأهداف الداعرين والابيقوريين والمحددين ، وجودة جميع هذه الأهداف بأن تنسب الى الملاح مكيافيلي والذى يتضمن دوره اتجلبيكانيو عصرنا يعنى السياسة أو البوليتيك ، بل وأشار أحد الكتاب الى أن من أعراض المكيافيلية العروف عن المشاركة في الحرب ضد المؤمن الديني »

على أننا نلاحظ في ذات الوقت وجود علامات دالة على حدوث تغير في المزاج العام . فحتى قبل مباحث سان يارتولوميو ، شعر بعض الناس بالاحباط بعد أن فقدوا حماسهم للقتال . فحتى أحد المؤلفات التى اشتهرت

بتضحيتها للاقتتال فانها قد اوجعت أحد أسباب الحرب الأهلية الى وجود  
 اساس لا يعرقل منه أخرى غير هبة الحرب . وشعر جاك كوياس رغم  
 دفاعه عن موقف الحكومة باردواثة لطفان هذه الملاحظات على النشاط  
 العلمي ، وكتب يقول : « ما قرأت وما سمعت قط عن عصر غاق عصرنا  
 في انتاج نفسه للسمية » . فلقد غمرث الروح الحربية كل تواحي  
 الحياة ، واتجهت بعض الشخصيات إلى راحة القتل ، ومن أبرزهم مونتاني .  
 الى الاعتقاد بأن أخطر مشكلة ليست الخلاف حول اللاهوت ، ولكنها كاسنة  
 في الطبيعة البشرية بالذات . فكما قال صاحب هذه الآيات الشعرية .

العيل ضخم والأسد قوى

والسر مفترس . ولكنهم جميعا لا حول لهم ولا قوة

فياستطاعة الانسان أو رعب من الناس

ذبح جميع هذه الوحوش

وإشار بعض الساسة المناهضة مثل هذه النزاع بالالتجاء الى العنف  
 المتخفي في شكل « الاعتدال في الحماسة » . وكتب واحد من أبرز هذه  
 النخبة : لقد سبناهم بالساسة لأنهم عازقون عن غس أصابعهم في  
 دماء المسيحيين . ويصع وصف هذه الحالة بحالة استيقاظ للمسيح .

ويزعجت توجهات بين الهجنون بالتزام الواقعة اثر النتائج المدمرة  
 للحرب ، فبعد أقل من عشر سنوات من دى جرس الخطر (\*) وجه بارنو  
 مشروعات الفياضة الى حصر السفات الاجتماعية والاقتصادية للحروب .  
 وجاءت نتائجه مترتبة . وامنر بارنو يجادل في هذه المسألة و العرائكو  
 جاليه . ويتحدث باسم السيامي ، واعترف في كتابه المرأة الفرنسية  
 بأنها اما عكسنا المعادلة الحالية المتبعة ، سيتضح لنا أنه لا وجود في  
 فرنسا « لانه أو ايمان أو قانون » .

وهكذا يعود الى النهضة القديمة التي ترجع الى ما قبل الحرب الأهلية ،  
 عن التسامح الديني « والمصالحة » ، أو بالأحرى للوسائل المقتدة للاعتراف  
 القانوني والتعايش والتسوية القانونية ، وقبل مذهب سان بارنولومبر ،  
 اقترحت « احدى دعوات السلام » شروط مثل هذه التسوية ، فاعترفت  
 هذه البشرية « بوجود صفين للدين في فرنسا ، وما بقي لا يتجاوز  
 تحديد القواعد المناسبة لكل صيغة منهما » : للتأكد من عدم حصول أى  
 طرف على مميزات تفوق مميزات الطرف الآخر ، وأنها تتمتع بحريات

متساوية . ونعم بغض الحقوق في ديسا \* وساعد الروح الى تلويح  
 الخلاف في الربع الأخير من القرن على تعقيد هذا الحل ، ولكن لم ينجح  
 قى الأقق أى يدبل آخر . فلقد أوردت شرة ترجم الى ١٥٨٦ المصحح التي  
 أدلى بها صغراء ألمانيا يلتصمون فيها الرحمة للإنجليكايه الفرنسيين ،  
 ويتشددون الإهتمام الى حل سياسى للاحتلالات الدينية . فكما تحتاج  
 الأسرد الى كيان مستقر وسياسة حكيمه (٥) لتنظيم العلاقات بين الروح  
 وذوحنه ، كذلك يحتاج المجتمع الى ترتيبات معقولة ووسائل لتسيو  
 العلاقات للشاذلة بين التجمعات الايدولوجية . وربما طلت هناك بعض  
 معارقات ومضاعفات في الاتفاقات السياسية بين اى طرفين ، وكأنها ضرب  
 من السبل المتخشة ، ولكن في أعقاب منار مارتولويو ، ظهرت مبادئة  
 الحلول الوسط كسياسة يتبعها حزب يمكن التعرف عليه ، واكتسب  
 قاعدة منطوية بعد ترشيح هنرى التافارى للمرعى الفرنسى . بيد أنه  
 رغم المزاعم القوية لهذا الحزب السياسى ، فإنه لم يتمتع بتأثير يفوق  
 أشد الايدولوجيات وما ، باستثناء معارضة للتشبيح لروما \*

ولمحت اطل أن وجوب استعراض الأنماط الايدولوجية المعقدة في  
 الربع الأخير من القرن السادس عشر يحتمل اى خلاف . فلقد تصاعد  
 تيار الدعاية الى أحاق قصوى جديدة ، وحدث ارتفاع مماثل في طابع  
 المجادلات ، وابتكرت الانتلجنسيا التي تيسر وجودها بفضل الطباعة ،  
 ابتكرت جميع أنواع التخصصات ، ومن بينها حرفة الدعاية ذاتها . ونحو  
 التطرف والتجريح الشفهي الى حرفة ، وأصبح من الأمور الشائعة المألوفة ،  
 وجعل الأخص عندما تبرز بالعنف ، ويشتم أنواع اثاره الاضطرابات التي  
 لم تقتصر الا فى القليل من المظاهر هي والمناسبات العنيفة ( التي كان  
 يروج فيها كل طرف بسعائمه نفسه ) لاي حل أنكر باستثناء الاشتراك  
 في القوة الدافعة الشعورية المسببة منها . واستمرت الأنماط الايدولوجية  
 رغم ما حدث من خلط بين المصالح السياسية والمصالح الدينية . وبزغت  
 قضية الإغتيال المدير للطفلة ، الى جانب أحداث الاغتيالات العابرة كقضية  
 تستاهل المناقشة ، وظهرت أيضا افكار تتمحور حول مسألة سيادة  
 الشعب ، بل وشاعت التضرعات لصالح الأيتام والموزين وضحايا الصراع  
 الأهلى ، ولم ترتكز الى أساس منطوى ما أو الى قضية بعينها . وإذا  
 نظرنا من ناحية الجانب البلاغى والجانب السلوكى والجانب التنظيمى  
 ستصبح لنا أن عمليات الشر حينذاك التي تمتعت في أشكال شتى قد  
 دارت حول دمة واحدة بلدت كأنها اعتماد لغس العملية الايدولوجية .  
 والمفقت من ناحية المظور الذى اتبعناه هنا هو ثقافة نور المصادر التي

وأطه يلقده أيضا وجود ما يشبه الشرطة القديم

(٥) bonne police

لمكن المأزجات .

البعثت منها هذه الايديولوجيات ، والتكرار الأجوف لأغلب الدعاية • اما ،  
ما يبدو ذا أهمية فهو تزايد الميل لانتهاء الصراع الحزبي وتحقيق استقرار  
قومي وتضامن قومي على المسس سياسية ...

وهكذا عاد هنري الرابع الى ديانة ماكيافيللي ( على حد قول بيزا ) ،  
وبعد الترحيب بعودته الى الكاثوليكية ، خصوصا من قبل اكليروسه العالي ،  
وتتويجه في شاور ، وعودته الى باريس ، شرع الملك في إعادة الأمور  
الى نصابها ... ونهضت الدعاية مرة أخرى عن طريق النشر يدور مخطوط  
في إعادة تركية النظام الملكي والوحدة القومية • وصفت سلسلة من  
القرامانات واللوائح متضمنة برنامج إعادة الأحوال الى سابق عهدها في  
كل جوانب المجتمع الفرنسي ، فتم حصر التمرد في أقل عدد من المدن ،  
وعاد البرلمان وجامعه باريس لممارسة نشاطهما ، وعادت حريات الجمعيات ،  
الأهمية الى سيرها الأولى • وبذلت الاندثار ومختلف المصالح جهودها  
لإعادة توطيد النظام • واستغرق تحقيق الاستقرار الديني جملة سنوات ،  
ولكنه اتبع الضغوط العرضية للوائح التي صدرت في عهد أبكر ، وبعد  
اتباع هذه السبل السياسية • استقرت أحوال النظام الملكي الفرنسي ،  
والمجتمع بجمع أركانها ، يعني الدين والعدالة والشرطة ، وأمكن كبح  
جماع تجاوزات المشاحنات ، وإن كانت حالات الضيق والتوتر قد  
استمرت ، ولكن باستعمال لعة السياسة يمكن القول بأن حركة الاستعادة  
التي حققتها ، البوردون • قد مثلت • نهاية الايديولوجيا • ، بالنسبة لهم .  
الحقبة على الأقل •

على أن هذه الحالة لم يتجاوز كونها تميرا سياسيا عن الروح التي  
بلغت ذروتها في أواخر القرن السادس عشر • وقد أصبحت الآن واضحة  
جلية • إذا لم تقصر كلامنا على الموجات الصاعدة وقرع الطبول وصخب  
التشرات • ولا تظهر هذه الروح بجلاء أكبر من ظهورها عند الأعلام من  
شعروا بالاحباط ( من أمثال ميشيل دي مونتاني ) الذي أثر العزلة حتى  
قبل مذابح سان بارتولوميو ، واعتكف للتأمل التي لم يقتصر على استغفاف  
بواطن وعيه ، ولكنه اتجه أيضا الى دراسة مستويات الحياة الاجتماعية  
الكامنة وراء ضجيج المظاهرات المدينية والسياسية • وعلى الرغم من أنه  
كان يشبه • بالأنا • إلا أنه ندد الأنانة وده ادعاء التعالم الشائع بين  
المفكرين ، ونقد الخلاف ، وغير ذلك من الانتفاضات والاسامات التي لحقت  
بفن الكلام • وقال : • ما الحق أي شيء ، اضطرابا في العالم يفوق ما الحق  
البحر به • • ولم تكن أحداث المقاضاة السيئة السعة في عمره إلا امليادا  
لهذا العرض • وأردف قائلا : • الباعث الأول لقطبناياتنا هو تفسيرنا  
وتأويلنا للقوانين • • بطبيعة الأحوال ، كان الإيمان هو أهم المظاهر التي  
عانت من هذه الأوضاع ، ولاحظ مونتاني ما طرأ من تبدل على الدين •

وعلق قائلا : « ما الذي رأت أنه الأجدر بالاتباع في فرنسا على عهدنا الحالي ؟ » . فقال من قدموا بها نحو اليسار ، وصعدوا من القوا بها تجاه اليسار . وهناك من وصفوا هذه الحالة بالسواد ، وآخرون وصفوها بالياباس . واستغل الطرفان هذه الأوصاف بطريقة متباعدة لتحقيق أغراضهم المعينة الطموحة . « واستمر مونتاني حالات الحماسة الدينية المعاصرة ووصفها بأنها لا تريد عن مظاهر أمانه متعطرة » . انظر الى الوقاحة المريعة التي تسود مجادلاتنا ، وما تصطبغها من حجب لتعريضها ، وإلى كم ابتعدنا عن الدين ، فحين نرقص الأشياء ، ونعود إليها ثانية ، أي سير نسعى للموضع الذي رحلنا فيه الأحداث وسقط المواصف الجباصية » .

ولا يمكن الوقوع في ليس عنه فهم ما يشعر اليه مونتاني هنا ، فإن ما يعميه كان ما يدعى « سيميس » (٣) الحركات الدينية . غير أن موسى قد نصب فوق كل ذلك المראה التي أبدتها الأطراف المتنازعة في استغلال الدين . واتهم البعض لأن المداولة التي تسببها لأسباب بالذات كانت مجرد مزاعم « كذلك التي يجهر بها المعلن » . ولم تكن تنبعث من وحدان أحد أطراف المجادلة ومشاعره . « وتجلت هذه الإزدواجية بصورة أوضح عندما انتمست مواقع الأطراف ، أي ما حدث أبان منتصف ثمانينات القرن السادس عشر ، وما صاحب هذا التحول من تصدق ثوري رأى مونتاني مثيرا لأشد تقزز : « إن هذه القضية التي قبلو في مثل هذا المظهر الوقور : هل يحق لأحد الرعايا التمرد ولتشقاق السلاح ضد حاكمه دلالا عن الدين » . فعليكم أن تتذكروا كيف اتخذت الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب في تفوهات أحد الأطراف . واتخذ الطرف الآخر الإجابة بالنفي على هذا التساؤل في دفوعه . . . وعليكم أن تنصتوا وتستمعوا هل استطاعت الأسلمة أحداث صليل عند أحد الأطراف عند دفاعة عن القضية بدرجة تفوق الصليل الذي أحدثته عند الطرف الآخر » . هنا يالتاكيه كانت « نهاية الإيديولوجيا » .

## المراجع

- Frederick J. Baumgartner, *Radical Reactionaries The Political Thought of the French Catholic League*, 1976.
- Philip Benedict, *Rome During the Wars of Religion* (1981) ?
- Elizabeth L. Eisenstein, *The Printing Press as an Agent of Change* (1979).
- Carlos M. N. Eire, *War Against the Idols : The Reformation of Worship from Erasmus to Calvin* (1986).
- John H. Franklin ed *Constitutionalism and Resistance in the Sixteenth Century* (1969).
- Robert M. Kisson, *Geneva in France 1555-1563* (1956).
- Quentin Skinner, *The Foundations of Modern Political Thought Vol. 2 The Age of Reformation* 1978.
- Alfred Soman (ed) *The Massacre of St. Bartholomew's Day Reappraisals and Documents* (1979).



## كوبرنيك والثورة العلمية

### ادوارد جرانت

قام اتجاه جديد للفروض العلمية يدور حوله في الثورة العلمية في القرن السابع عشر ، وتكشف هذا الاتجاه لأول مرة فيما حققه كوبرنيك . وعلى الرغم من أن المدرسين في العصر الوسيط قد استعانوا بالفروض على اتحاء شتى ، فإن هناك فرضين من هذه الفروض قد اتخذوا الصدارة من حيث الأهمية ، أحدهما هو الفرض الكلي إلى « التجاوب والمظاهرة » وهو تصور مستمد من اليونان القديمة . وثمة لهذه النظرية ، يعد الفرض مجرد زعم مناسب لتفسير المظاهرة دون نظر لطبيعته الفيزيائية أو زيفها . وثمة اتجاه آخر يتعلق بالفروض أو الافتراضات عن العالم هو ما يعد مستحيلا طبيعيا ، يعنى متعارضا هو والطبيعة . والفروض من النوع الأخير من الفروض (\*) ( يعنى التى تقع الخيال ) هو التوصل إلى الأحوال التى تتعارض والعمليات الطبيعية ، كما فهمها أرسطو ، وبعد هل تعد نتائج مثل هذه الفروض مستصوبة أو ممكنة . ولقد تضمنت معظم الفيزياء الوسيطة والكوليات الوسيطة ، - ولم تقل كلها - تصورا أو أكثر عن الفروض .

واختلف كوبرنيك عن هذه النظرية عندما توقف عن الهالة الجانجواوب والمظاهرة عندما لجأ إلى فروض مقبولة لا يمكن التيقن من صحتها أو زيفها . ففى نظره ، وأيضا فى نظر خلفائه من العلماء المشهورين لابد أن يطرح الفرض شيئا ما واقعيا أو حقيقيا عن طبيعة الكون ، حتى وإن لم يكن الفرض المعلن قابلا للملاحظة المباشرة . ففى نظر كوبرنيك ، فإن الفرض القائل بأن موضع الشمس هو مركز الكون . وإن الأرض تدور حولها مثل أى كوكب آخر مما فرضان لا يقتصر أحدهما على التجاوب والمظاهرة على نحو الفصل من الفرض التقليدى الذى يأتى الأرض مركزا .

Secundum Imaginationem.

(\*) وتوصف بالانجيا

Journal of the History of Ideas

قال عن مجلة

Love Medieval Thought, Copernicus and the Scientific Revolution.

Edward Grant. الجزء الثالث والعشرين من ١٩٧ إلى ٢٢٠ .

الكون ، ولكنهما تميزا بصحتهما بالضرورة ، لأن تصح النتائج إلا إذا استطاعت المقدمات ( أو الفروض ) إعطاء هذه النتائج الصحيحة ، وتشجيع كوبرنيك بفضل إيمانه الحماسي بصحة هذه الفكرة الجسورة فأعلن حقيقة النظام الفلكي الذي يتصور حول الشمس ، وبذلك بدأ ثورة العلمية .

كما هو معروف ، لقد توقفت مسألة إمكانية الدوران اليومي للأرض في القرون الوسطى ، قبل التصريحات الثورية التي حاور بها كوبرنيك ( ١٥ ) . ولم يحدث النقاش الذي دار في العصر الوسيط - بقدر ما تعلم - أي تأييد لمذهب دوران الأرض ، ومن ثم يكون كوبرنيك علما أصر على القول بوجود حركة دوران يومية للأرض حول نفسها ودوران الأرض ستويا حول الشمس . قد انقطع انقطاعا خطيرا الشان عن أسلافه من العصر الوسيط .

وعلماء ركز العلماء انتباههم على المنجزات الأساسية لكوبرنيك ، خافهم استحالوا باقتطاع شيء آخر يبدو مرتبطا بعمر لا تنقسم مذهبهم الجديد . إذ كان تصورهم لهمة وجود الفرض بعيد الاختلاف عن تصور أسلافه ، بحيث يصح اعتبار هذا التصور الجديد قد رمز إلى ابتعاده الشديد عن التقليد المدرسي ، بقدر يكاد يمتثل وابتماد مذهبهم في الكونيات عن الكرنيك التقليدية .

ويرمي هذا البحث إلى إحياء بعض العوامل التي ساعدت على تشكيل التصور الوسيط للفرض العلمي ، والتدليل على عدم العوامل مثلما يست في النقاش الفعلي لفكرة دوران الأرض . ونعاسيسا على ذلك ، فقد كشف الجاه كوبرنيك عن الصعوبة التي تفصل نظريته عن النظرة التي سادت في القرون الوسطى . وما من شك أن كوبرنيك قد أجبت أنه الرائد الفعلي لاجتياح أساسي للمناهة نزع معظم الشخصيات الكبرى في الثورة العلمية - على نحو أو آخر - للاعتماد به ، يعني القول بأن المبادئ الأساسية التي تتخذ شكل الفروض والاقتراضات عن الكون يجب أن تتصف بصحتها من الناحية العريالية ، ولابد أن لا تكون خلاف ذلك .

ولقد اتصف التصور المدرسي الوسيط لدور الفرض في العلم بجم تمثيحه - إذ كانت النظرة المنووسة وليدة ثبارين من المحتمل أن يكونا قد اخترجا ، لو عزز كل منهما الآخر على أقل تقدير ، فمن ناحية - كان هناك تمسك عام بالمبدأ الفلكي القديم عن « التجاوب والظاهرة » ، ومن ناحية أخرى ، فإن غمضا من التيارات الفكرية قد تولدت من المشكلات الخاصة التي ابتعثت في نطاق التقليد المدرسي ذاته . . . .

وكانت الفكرة المعقدة ، للتجارب والظاهرة ، معروفة على نطاق واسع ومقبولة في القرون الوسطى . وفي صورتها الوسيطة ربما كانت مستمدة من تعقيب سمبليوكوس على كتاب أرسطو عن السماء الذي ترجم عن اليونانية إلى اللاتينية ١٢٧١ . ويقتو سمبليوكوس في معرض تعليقه على الكتاب الثالث - الفصل الأول : « ولكن لعل أفلاطون والبيثاغورس لم يمتدحوا بأن الجواهر الحساسة من ناحية مطلقة وحقيقة عبارة عن جمع لهذه المكونات ، ولعلمهم فعلوا مثلما فعل علماء الهندك » . فبعض اعترف ببعض فروض ، واعتزف آخرون بفروض أخرى ، دون أن يؤكدوا ناكدها قاطعا وحده هذه الآليات بالفعل في السماء . فلذا كانوا قد افترضوا أي فروض من هذا القبيل ، فلما يرجع ذلك إلى تجاربهم والظواهر ينسبة الحركات الدائرية أو المطرودة لجميع الأجرام السماوية . فلقد اعتبر هؤلاء الكتاب ضمن الفروض القول بأن صلاحي الأجرام تنسب إلى هذه الأشكال التي اعتبرت كافية لتفسير سبب الوقائع . ولقد اشترك غيرهم النظرة مع سمبليوكوس أمثال توما الاكويني وجان بوريدان ويقول أوديزم والبيرت السكسوني ، ويير دالي (\*) وغيرهم كثيرون ...

واشتد تمرير هذا المذهب المتحول على نطاق واسع فحصل بعض التيارات الهامة التي مثلت الجو الفكري في أواخر القرون الوسطى . فلقد خلق الصراع بين الفلسفة واللاهوت الذي بدأ في القرن الثالث عشر ، وتساعد في القرن الرابع عشر روحا مبتعدة عن اليقين ، وأميل في أغلب الظن لتشكك في الكثير من القضايا البادية الوضوح والحقائق المبرهنة جيتاثيريقيا ، وشاعت في وصف الحجج والبراهين كلمات مثل « افتراضية » و « ممكنة » و « محتملة » ، وبخاصة في اللاهوت ، وأيضا في الحجج الفلسفية والعلمية التي تناولت مسائل اللاهوت . ولتجاول النظر في بعض العوامل الهامة الكامنة وراء هذه التيارات .

اتبع تقديم تراث أرسطو الفلسفي وصلاحه العلمية في القرن الثالث عشر تفسيراً حتى المزع للطبيعة واستعين بفكرة قوة الله كوسيلة لإخراج مراحع مدرسة (اسكولائية) تتبع فيها الاستدلال في مسائل اللاهوت والفلسفة المبادئ المتنازعية الأرسطية ، ومن المظاهر الهامة التي انبثقت من هذا التطور المذهب الرشدي اللاتيني ( نسبة إلى ابن رشد ) والمذهب المصاحب له عن « الحقيقة المدروجة » (\*\*) فضائق الفلسفة التي تدور حول النظام الطبيعي قد تنعكس هي وحقائق اللاهوت التي

Pierre Gailly.

(\*)

Toulmin's works.

(\*\*)

تتناول النظام المجاوز للطبيعة . وما يستغل من هذه الحالة هو الإنهاء انه الى تبديل النظام الطبيعي بالاستعانة بمؤثر يجاوز الطبيعة . ومن ثم فلا يستبعد أن ينظر الى ما يعد حقيقيا في المستوى الطبيعي على أنه زائف في المستوى المجاوز للطبيعة ، والعكس بالعكس . وبهذا مذهب « الحقيقة المزدوجة » انحرافا عن أي أمل في إحداث مصالحة بين الفلسفة واللاهوت كما ترأست على سبيل المثال لنوما الاكوينى .

ويصر بير دوهيم على القول بأن ادانة ١٢٧٧ قد عادت بنتائج فائفة على الأبحاث العلمية ، لأنها حررت العلم الوسيط من الخضوع لأهواء الميتافيزيقا والكوتيات الأرسطية ، وشجبت القضايا التي ترتبت على هذه النتائج العول بصير الله عن تحريك الكون في حركة مستقيمة ، أو قدرته على خلق كثرة من العوالم مما ترتب عليه الاقتراب من ظهور حجابات حول المكند ، الخواء ، وجود عوالم أخرى ، مما ساعد على تنشيط المثالية العلمية .

ورغم ثناء دوهيم ، إلا أن الأثر الشامل للادانة كان اضعاف الثقة في البراهين الميتافيزيقية للقضايا الفلسفية والعلمية ، التي تجاوزت أو لمست المجال اللاهوتي على نحو ما ، وفيما يتعلق بمذهب « الحقيقة المزدوجة » فإنه استطاع تخطي كل العقبات بعد أن دلى شذو حقائق الميتافيزيقا والفلسفة الطبيعية لحقائق الإيمان . فليس بمقدور المبادئ الميتافيزيقية - بمعناها الدقيق - العلو الى ما هو أكثر من مرساة الاحتمال (٢٥) ، لأنه من المعتقد أنها مستمدة من التجربة والذاكرة أو الاستقراء فحسب . ولا تزيد حقائق الفلسفة الطبيعية عن كونها احتمالية ، لأنها حقيقة بالأسبة للعقل الطبيعي ، بينما تصنف حقائق العقيدة واللاهوتية بإطلاقها ، وعدم تطرق الشك إليها بفضل أصلها الإلهي . وفي القرن الرابع عشر - كما سنرى - اعتقد أن حقائق الإيمان لا تقل البرهنة .

واستمد التشديد على مبدأ الاحتمالية والامكان من عصر آخر . فالظاهر أن الكتاب الذي أصدره اللاهوتي الإسباني بيتر (٢٦) كان من عوامل انتشار الشك في القرن الرابع عشر ( كما لاحظ أحد العلماء ) . ففي بداية هذا الكتاب ، ذكر بيتر الإسباني أن كتابه من أوله الى آخره لا يحل أكثر من طابع الاحتمال . ورأى أن « الجدل » هو العلم الذي يسبك بفتح مبادئ جميع المناهج ، ولا بد من اكتساب معرفته قبل

معرفة أى علم آخر ، لأن البطل يناقش على ضوء الاحتمال مبادئ جسد العلوم . وما يترتب على ذلك هو القول بأن أى تقمى صم عن مناقشة المبادئ المناسبة لهذه العلوم ، لا يحق أن يوصف بأية صفة غير صفة الاحتمال ، وفحصا على ذلك ، ولما كان هذا الكتاب ، قد كتب لى يحطه عن ظهر قلب شباب الطلبة ممن يتقبلون كل ما يطرح فى إيمانهم ، والذين كانوا آتت متحمسين فى الحيلة الجدلية للجامة ، لذا فلا يستغرب حاشيت سينوج نحو الشك . . .

وبالإضافة إلى الكتاب سائب الذكر ، فقد ارتبطت به المناقشات التى بدأت فى القرن الثالث عشر واستمرت إبان القرن السادس عشر ، المتعلقة بأشياء نظر إليها نظرتان بديلتان . وبياح الإيمان بأى بديل متما على المسألة لأنهما يحاثلان فى درجة الاحتمال . وبوسعنا أن نستخلص أيضا تقدر برهنة صحة البديلي مما .

على أن أكثر لحظة صوبت للوثوى فى الميتافيزيقا قد جاءت فى القرن الرابع عشر ، عندما واصل اللاهوت التحرر من الادعاءات الفلسفية ، ففقد استئان وليم أوكام ( حوالى ١٢٨٠ - حوالى ١٣٢٩ ) ومن تبعوه من اسمعين بالمحج الفلسفية - وليس باللوائح الكنسية - لأرياك الفلسفة ، وأظهار علم حوى الكثير من المراهين الميتافيزيقية التقليدية فى ميدان اللاهوت - وأدت الانتقادات المنطقية والاستمولوجية التى صاغها أوكام إلى تفنيد أو وقضى العنصر من المزمعين للمراهين التقليدية التى أشتت وجود الله . وصفاته الوجودية واللامتناهية ، وغير ذلك من الصفات « الضرورية » .

وبعد أن مد أوكام جنود موقفه الأساسى إلى التجربة ، نزع إلى تحدى ما يقال عن استئناد العلاقات العقلية من الاستئلال ، وأصر على القول بأن المشاهدة هى التى تحقق مثل هذه المعرفة ، ورأى أنه من غير القبول منطقيا الاستئلال من التجربة إلى ما يحلوها أو يسلو عليها ، ومن ثم غدا من المنوس مه اثبات وجود الله استئنادا إلى النظام السائد فى عالم الطبيعة ، الذى نعرفه عن طريق حواسنا - وليس من شك أن أوكام لم يعترف بوصف اللاهوت حتى بالملم ، فالعقائد اللاهوتية لا تعد صحيحة إلا استئنادا إلى سلطان الإيمان والوحي .

واستنتفت النزعة التجريبية لأوكام على اصراءه على القول بأن جميع المعرفة مستئناة من التجربة غير « الإدراك الحسى » ، وعنى بذلك أن الإدراك المباشر لأى شيء مفرد يفتقنا - طسمة الحال - إلى القول بأنه موجود ، فلبس بالاستطاعة إراء برهان لاثبات أى شيء أدرك على هذا النحو ، ولا حاجة إليه ، أنه يدرك وحسب ، ويسر لنا إدراكه إصدار حكم حادث بوجوده .

ويجادل أوكام بذلك ويقول إن معرفة الموجودات المكتسبة من « الإدراك الحسي » لا تسمح لنا استخلاص وجود أي شيء آخر ، لأنه لا اتصال ضروري بين الأشياء الحادثة ... ، ومن ثم فإن العلاقات العلية لا يمكن إدراكها عن طريق الاستدلال ، أو معرفتها « قبليا » بواسطة العقل - غير أنه بالاستعانة إدراك هذه العلاقات العلية اعتمادا على التجربة في شكل علاقات رمائية ومكانية ، كما يحدث مثلا عندما نفكر أن النار علة السخونة ، فهي أي شيء ساجن ، غير أن هذه الارتباطات لا تزودنا بمعرفة أية علة حقة كاملة وراء الشيء ، لأن مثل هذه الأشياء مختلفة عنا ، وبغير الروابط الزمنية والمكانية ، لن يكون هناك تماثل على يمكن تحديده ، والحق أن هناك الكثير من الحالات التي لا نستطيع فيها التيقن من وجود علة أو عدم وجودها -

وهكذا قسم أوكام العالم إلى قسمين مختلفين بصفة مطلقة ، ولا وجود لأي ارتباط ضروري بين هذين القسمين - ثم طبق بعد ذلك مبدأ الموصى ، أو مبدأ التدبير (\*) ، الذي اشتهر به فيلسوفنا ، وحضر ميل السديدين في أسلافه ومناصريه لافتراض وجود علاقات حقيقية بين الأشياء ، وروعيهم إلى مصاعفة الكيانات من شتى الأنواع بلا ضرورة - ويوصف هذا الإجراء بأنه عملية استدلالية غير مبررة من التجربة - فمثلا عندما طبق أوكام « موسى » على التصور الفرياتي ، فإنه أصر على عدم وصف الحركة بالكتونة المنفصلة عن الجسم المتحرك ، كما يظن بعضهم - فالحركة عبارة عن مصطلح دال على جسم يشغل مواقع أو أماكن متعاقبة ، وعلى حد قول أوكام : « بوسعنا » القول « بأن هذا الجسم موجود الآن في ( أ ) وليس موجودا في ( ب ) - وبعد ذلك ، يصبح القول بأن هذا الجسم موجود الآن في ( ب ) وليس في ( أ ) ، وبذلك يكون هناك معنيان متناقضان قد نسبت إليهما الصفة على التماثل » -

وعلمنا اعتبر أوكام الظواهر الفزيائية الحادثة مجرد فروض ، فلا يستبعد أن يكون قد أثر في تيار علمي هام ظهر بين الاسمين باسقفورد وباريس ابان القرن الرابع عشر - فمثلا شدد على صيغ المنطق بالصرامة ، ولم يصر على الاعتراف بوجود الأشياء التي تستخلص ضمنا ، فانه في أغلبه الظن قد شجع آخرين على الفجاء إلى ما هو أبعد ، وتدخل شتى أنواع الممكنات ، بل وربما المستحيلات - دون نظر إلى الحقيقة الفزيائية ، أو كيفية تطبيق ذلك - والنزاع أوكام بقيد واحد عندما اشتراط وجوب

---

(\*) يقتضيه مبدأ الموصى والتدبير عند أوكام الحد على عدم التعليل بوجود عند كثير من الميقات أو العوامل إذا كان بالاستعانة الاكتفاء بالقليل منها .

عدم وجود أي تناقض منطقي صوري ، والملاحظة المبصرة لهذا الاتهام من عبادة طبقا للخيال (٣) ، والتي غلب ظهورها على أحداث العلم في القرن الرابع عشر .

وجاء التأثير التراكم لجميع التيارات التي عمدها آتما على الفكر الوسيط هائلا حقا - فلقد ترتب على أحداث ١٢٧٧ استهلال الاستثناء في عالم اللاهوت عن المتناقضات ، وعن البرهان الفلسفي أيضا - والواقع أن أوكام قد أتم هذه العملية - إذ شدد هو وآخرون على وصف الله بالقوة الخلقية (٣٩) ( يعني الله في ذاته طبقا لقوته المطلقة على القيام بأي شيء ) يختار لاعتقاده بأن هذه الفكرة مستوحى إلى الخلق الباب أمام أي تناقض منطقي ، غير أن هذه العملية ، أطلقت سراح تيار التشك اللاهوتي الذي أبحاح الطن والدلا يقين عندما يعتمد تحقيق المعرفة والبرهان . . . .

وبإبان القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، انتشرت الحركة الاسمية في عدة جامعات ، ووسحت أقدامها ، وأدى تركيز الاسميين على المنهج التجريبي ، وما صاحب ذلك من تدحور للميتافيزيقا إلى اقضاء الفلسفة على اللاهوت ، وضعا إلى العلوم الوضعية والعواصم الرياضية - غير أن شبح الإثبات الدائم الوجود قد ختم قوى العديد من المساحلات العلمية في أواخر القرون الوسطى . فحيثما سئل نطق المفاهيم العلمية في نطاق اللاهوت ، كان ما ترتبه على ذلك ترايد تسجل رجال اللاهوت وروح ١٢٧٧ . ومن ثم رأينا جان بوريدان عندما حاول تفسير الحركة المخرطة المسيرة للأحرام السماوية ، يذكر عدم الحاجة إلى عقول لتسيير الكواكب ، ، لأن الله قد بث في كل منهما زخا يساعدها على القيام بذلك ، وهذا الزخم الذي بث في الأحرام السماوية لن يتعرض للوهي ، أو الفساد قسا بعد ، لعل وحود ميل عد هذه الأجرام لانواع حركات أخرى ، كما لا توجد أية مقاومة قد تقصد هذا الرحم ، أو قفمه - ولم أذكر هذا الرأي من قبيل التاكيد ، ولكن قلته ( كاجتهاد ) ، حتى أستطيع الاهتمام عند أعلام اللاهوت على ما يوسعهم يعرقي في هذه المسائل ، وعن كيف تحولت هذه الأشياء . . . .

وبوجه عام ، يمكن القول أن التجريبية الاسمية قد اقتصر على المسائل التي يمكن تجربتها تجربة مباشرة ، ولم سمع للمحت عن أية حقائق وراء ذلك - إذ أحجم أنصارها عادة عن التجرد باستنتاج أية مبادئ اسمية من التجربة - فمالقصور غالبا تفسير الظواهر التي تجرب تجربة مباشرة اعتمادا على الروايات العلة المكمة أو للحملة بين الأشياء الحادثة

فحسب - ومن المعتاد عدم السماح باستدلال أية روابط علبة لا تشاهد مشاهدة مباشرة . إذ يقتصر دور العديد من النظريات والتفسيرات العلمية على « التجاوب والظواهر » . اعتمادا على القضايا المفترضة . ولقد رأينا بالفعل أن العديد من نقاشات العرياء في القرون الرابع عشر ، كانت عبارة عن نماذج في المنطق مصححة متقى سريع بإمكان تطبيق النتائج أو الافتراضات على الواقع الفيزيائي .

ويساعد التدريس آتف الذكر لأنماط الفكر الوسيط في الصام واللاهوت والفلسفة في أواخر القرون الوسطى على تيسير ادراك مدى اعتماد كوبرنيك عن المعتقدات والمثل الوسطية فيما يتعلق بكل من التفسيرات والافتراضات « والتجاوب والظاهرة » .

وهناك ثلاث نظريات مختلفة تناسب المقام تتعلق بدوران الأرض ساد الاعتقاد بها في القرون الوسطى . ورفض كل موقف من هذه المواقف الثلاثة فكرة حركة الأرض كحقيقة فيزيائية . واتباع الموقف الأول قرأتوا دي هايرون والبرت السكوتوني وبيردالي . واستند الرقش عند الجميع على أساس واحد . فليس بمقدور الحركة اليومية أن تصد أساسا مقبولا لتحليل مظاهر التضاد والافتراق بين الكواكب ، كما أنها لن تستطيع تفسير شواهد خسوف الشمس والقمر .<sup>١٠</sup>

والموقف الثاني عظيم الأهمية ، ويمثله اثنان من أصحاب المصليات العلمية المتقدمة في القرون الوسطى ( جان بوريدان ونيقولا أوديزم ) ورفض بوريدان الموقف الأول بأن قال إن نسبة الحركة لن تيسر لنا تحديد السؤال . وبالإستطاعة إرجاع الحركة الظاهرية للجرم السماوي والكواكب إما بافتراض سكون الأرض ونسبة الحركة للسماء أو العكس بالعكس .

وانتقل بوريدان بعد ذلك إلى الصحيح المستقلة من التجربة ، واستشهد بصلد من التجارب تعتمد كل منها في تفسيرها على دوران الأرض ، ولكنه اعتدى في النهاية إلى ظاهرة جزئية لن تستطيع فكرة دوران الأرض تفسيرها . فلو صح أن الأرض تدور لترتب على ذلك أننا إذا قلنا سبها إلى الأمام فإنه سيسقط ورائنا ، ولن يعود إلى النقطة ذاتها . غير أن هذه الحالة تتعارض هي ونحربتنا ، ومن ثم نستنتج بوريدان أن الأرض لا تتحرك . وهكذا يكون بوريدان قد سابر الجسول الإسمين وتذرع بنتيجة إحدى التجارب الفيزيائية - غير العلمية - التي قد تترتب على دوران الأرض . ولا تشاهد في الطبيعة ، وكانت هذه الحجة هي أقوى حجة استطاع عرضها .



وماثني يقول أوديزم المسألة أيضا ، وتمائل هو وبوريدان ، عندما  
 رفض القول بحركة الأرض ، غير أن رفض أوديزم الاعتراف بالدوران  
 اليومي للأرض لم يرتكز - مثلما حدث في حالة بوريدان - على حجة  
 علمية ، فبعد أن قبل أن أحد كبر استدلالات بوريدان ، رفض بحجة  
 السهم التي ذكرها ، بالرغم من أنه اعترف بها كأهم حجة لاثبات عدم  
 حركة الأرض ، وقدم فرسا جديدا لتفسير ذلك ٠٠٠٠ . وتوقع بوريدان  
 الحجة التي يحتمل أن يساق لتأييد فكرة دوران الأرض ، بمعنى القول بأن  
 الهواء يتحرك مع الأرض ، ويحمل السهم إلى الأمام ، وبذلك يتسنى له  
 تفسير لماذا يقع السهم في نفس النقطة ٠٠٠٠ . ومضى أوديزم للمقناع عن  
 هذا الموقف بالذات اعتمادا على القياس والاستشهاد بأمثلة :

« لعل هذا سيبدو ممكنا إذا استمنا ماقياس ، فلو كان هناك  
 شخص راكب مركبا تتحرك تجاه الشرق ، بسرعة كبيرة ، دون أن يدري  
 بالخرجه ، والأرض يده إلى أسفل ، وقام بوصف أحد الخطوط المستقيمة  
 المتجهة في اتجاه مضاد لمسارية السفينة ، فانه قد يتصور أن يده تتحرك  
 حركة مستقيمة فقط - وتما لهذا الرأي ( الحاصل بدوران الأرض يوميا )  
 يبدو لنا على نفس النحو أن السهم يهبط أو يصعد في خط مستقيم .  
 ولتأييد ( هذا الموقف ، عليكم أن تراعوا ما يأتي ) : إذا كانت المركب  
 متجهة نحو الغرب بسرعة أقل من سرعة اتجاه السفينة نحو الشرق ، فانه  
 سيبدو أنه يتحرك من الشرق ، بينما هو متجه بالفعل نحو الغرب ،  
 وبالمثل في الحالة التي ذكرناها ، فإن جميع الحركات متبدو تحت وكان  
 الأرض ساكنة - ومن ثم فأنني أستخلص القول بأنه ليس بإمكاننا اعتمادا  
 على أية تجربة تجري اثبات حركة السماء حركة يومية ، وثبات الأرض » .

ولقد حول أوديزم المسألة إلى حازق حرج ، وشعر في هذه الأثناء  
 بالنقطة وباهتمامه إلى ما يريد ، فالقروض البديل محتمل بالمثل ، اذا  
 أثبتناه بالرجوع إلى العقل والتجربة - والنقل عاجز عن اثبات أية مسألة  
 علمية على نحو دقيق ، مثلما يجوز أيضا عن برهة مواد الإيمان ، وبذلك  
 يكون أوديزم قد استعان بالنقل لأرباب العقل ، وكشف بوضوح أنه ورث  
 الاتجاه الذي برغ من أثر الصراع بين الفلسفة واللاهوت ، عندما نزع  
 الفلسفة عن طريق اللاهوتيين إلى أحداث اضطراب في فلسفة الفلاسفة ،  
 ولما كان أوديزم بالذات من رجال اللاهوت - وهذه مسألة لها أهميتها -  
 فإن كل ما مثله هو نقل هذا الاتجاه إلى عالم العلم ، ولم يكن بالاستطاعة  
 حقا إثبات أي البديلين هو الصحيح قريبا .

أما الموقف الثالث الذي يرى أن الدوران اليومي للأرض يفسر  
 الظواهر الفلكية تصيرا أفضل من القول بثبات الأرض ، فانه أيضا

يشير الانتباه بقدر كبير عند مقارنته باتجاه كوبرنيك - وهي أسفه  
أما لاستطيع نسبة هذا الاتجاه لأي اسم واحد - والحق أننا استنادا  
فقط الى ملحوظة مقتضبة ووددت عنه قرأتسوا لدى ما يرون يعقلورنا  
الوثوق من أن هذا الموقف كان يحظى بأبواب - فقد ذكر أنه هناك دكتورا  
مجا يقول : أنه لو صح أن الأرض تتحرك والسما ساكنة - فإن هذه  
الحجة ستكون هي الأفضل - »

ويكاد يكون من الميقون أنه هذا الدكتور المجهول الاسم لم يؤيد  
فكرة الدوران الفريائي الفعل للأرض - فلو أنه فعل ذلك لاستحق اعتراجه  
التعقيب من ما يرون - فمن القروض أن يكون هذا الرأي مرسا أفضل  
« للتجاوب والظواهر » أو الحفاظ عليها - ولكنه لن يعرفنا أي شيء عن  
الموقف الفريائي - فالحق أنه من المحتمل يدوية ساذجة أن هذا الشخص  
كان سيعر على القول بأن الأرض لا تتحرك حركة دائرية - وأما ما يفعله  
عن أن فكرة دوران الأرض ستتجاوب هي والظواهر غائبا - كما يظن -  
ستمد فرضا رائعا ربما حقق نتائج أفضل من القروض الحقيقية +

فإذا رجعنا الآن الى كوبرنيك - سنرى لديه اتجاها مختلفا جذويا ،  
يكشف بوضوح الى أي حد ابتعد عن التقليد الفلسفي والعلمي الوسيط ،  
وعن تصوره لنور الفرض « والتجاوب والظواهر » ولن يمتد الى كيفية  
إبتعاد كوبرنيك عن تصور العصر الوسيط للفرض من المحج التي قمها  
لديم فكرة الدوران السومي للأرض ، والحق أن الكثير من هذه الحجج  
كانت أمرا مألوف في مجادلات المدرسين - ولكننا بالأحرى نستطيع أن  
نلاحظ هذا الابتعاد من إصرار كوبرنيك على القول بأن للأرض حركة  
فزيائية بالفعل - ونلاحظ ذلك أيضا في التفسير المنهجي الفعلي الذي  
برز من هذا الاعتقاد الصحيح - فلقد تصور كوبرنيك وجود رباط وثيق  
يربط هذين الجانبين - ولاحظ كوبرنيك في تمهيد لأحد كتبه (\*) ،  
« أنه لما كان قد سمح للأخرين بالزعم بوجود دورات معينة تقهر حركات  
المجسم ، فأننى اعتقد أنه من المسموح لي أن أحاول بالاعتقاد على افتراض  
حدوث بعض الحركة للأرض أن أعتدى الى تفسير أفضل لدورات الأجرام  
السماوية - »

وبعد أن افصح كوبرنيك نوعا بأن ظاهرة دوران الأرض ستتبع  
هذه الفكرة بالضرورة ، بل وسيتبعها أيضا القول بارتباط ذلك بانتظام  
التجوم وأحجامها ودرجاتها ومعاراتها - بل والسما أيضا ، بحيث يؤدي  
أي تمع في أوضاع هذه الأشياء الى حدوث اضطراب في الكون بأسره ،

عندما اقتنع بذلك لم يتصور أن اقتراسه كان مجرد تكهن مناسب أو فرض محتمل ، وعلى العكس ، خلقت دمع النظام الكوني الأبسط المترتب على الافتراض المبدئي لثبات الأرض كوبرنيك إلى الاعلان بجرأة بأنه « لا يشعر بالتخل من الاعتراف بأن كل ما هو أدنى القصر ومركز الأرض يصر وجود مسار كبير بين الكواكب حول الشمس » التي هي مركز العالم ، وأن ما يبدو حركة للشمس إنما هو في الحق حركة الأرض » .

وعندما أعلن كوبرنيك حقيقة حركتي الأرض ( اليومية والسنوية ) فإنه ابتعد عن أسلافه في العصر الوسيط الذين رفضوا أن يسبوا للأرض حتى أية حركة يومية مفردة . على أن هذا الابتعاد ربما بدا أكثر أهمية إذا أدركنا أن كلمة فرض كانت بين المصطلحات التي استعملها في التعبير عن أحكامه الأساسية والعمومية عن حركة الأرض . غير أنه لم يقتضد بذلك مجرد اتساع لتقليد التجارب والملاحظات ، كما أنه لم ير هذا الحكم مجرد حكم يتفوق في احتماله على البدائل الأخرى ، انه حقيقة أساسية عن الكون الفيزيائي . ويتضح ذلك من انتقاده لما أسجده علماء الفلك السابقون له : « من هنا ، وما أسفرت عنه عملية البرهان التي تسعى بالتفجع بوضع أنهم إما تأسوا شيئا أساسيا ، أو اعترفوا بشيء عرضي لا يمت بصلة إلى الفكرة » . وما كان هذا ليحدث لهم لو أنهم اتبعوا مبادئ آكيمة . فلو لم يكن الفرض الذي اقترضوه زائفا ، لأمكن برهنة كل شيء مترتب على فروضهم بدرجة لا يتطرق إليها الشك . وهكذا قمى حالة صحة الفروض فقط فإنها ستتجلبوب هي والمظاهر بالفعل . وبذلك تكون حركة الأرض المزدوجة ( يومية وسنوية ) من الفروض التي اعتقد كوبرنيك بصحتها بلا أدنى ارتياب .

وتحدث الحركة المزدوجة للأرض سيمترة في الكون ، تجعله شيئا أسعى من تصوره قديما . وأصبح بالاستطاعة فهم ما يحدث للكواكب من تقهقر أو تقسم من الناحية الفيزيائية . والمظاهر أن هذه النتائج المترتبة على حركة الأرض كان لها دور في اقتناع كوبرنيك بأن الأرض تتحرك بالفعل ، وبأن اعتراضاته كانت انكاسا صحيحا لحقيقة الكون . غير أننا لو أردنا ادراك أين ابتعد كوبرنيك عن التقليد الوسيط ، فإن علينا أن نركز الانتباه على الكلمات الآتية بالفات : « لو أن الفروض التي دعوها لم تكن رافقة لتسمى برهنة كل ما يترب على فروضهم بلا أدنى شك » . فنعلمها بحدث تجلوب والمظاهر الفلكية . فإن هذا لا يرجع فقط إلى ملامحة هذه الفكرة ، ولكنه يرجع إلى صحتها ، ففي نظر بوريدان ولوريزم لم تكن المسألة مسألة حقيقية ، ولكنها كانت مسألة

بجواب وتلازم . إذ اعتقد الإنسان أن كلا الفرضين يتماثلان في القدرة على التنبؤ والتطوّر الفلكية . ولقد بسى القرار لصالح مكنون الأرض بناء على أسس بعيدة عن حقائق الفلك . والحق أن أنصار الموقف الثالث المذكور آنفا رسا ذهبوا إلى أغلب الظن إلى ما هو أبعد وقالوا أن الأرض ساكنة . وأنها لو تاروت فإن دورانها سيتجاوب والظاهرة . ففي مثل هذه النظريات الوسيطة في الكونيات . لم يكن ضروريا بأي حال أن تمكس الفروض الفلكية . الحقيقة الكونية . ولا جدال أن أي عدد من الفروض المختلفة بقدره نظريا أن يتجاوب مع المظاهر الفيزيائية . ولكن كوبرنيك قد جاء بنظرة بعيدة الاختلاف تماما . وابتغاء حديد كلية إلى علم الفلك . فاقول أن هناك فرضين يساويان في التجاوب والتطوّر الفلكية سيبدو في نظره مساويا للاعتراف بالجهل واللملة . لأن مثل هذين الفرضين عن حال الأرض ليس بمقدورهما - بعد النظر الصحيح - أن يتجاوبا حسا والظاهرة . فلا بد من البحث عن معيار أبعد . وإذا احتدى إليه فإنه سيغير الفصل بين الزائف والحقيقي .

وهكذا يكون هناك اختلاف جدرى بين تصور كوبرنيك و للتجاوب والتطوّر . وبين التصور القديم والوسيط . ففي هذا التصور الأخير . ليس هناك مشكلة تصبو إلى التفرقة بين الحقيقة والزيف . وكل ما هو مطلوب هو تجاوب الفرض والتطوّر . أما عند كوبرنيك . فإن التجاوب والظاهرة في علم الفلك يعنى إقامة فروض صحيحة .

بيد أن اسرار كوبرنيك على حقيقة مقبوه الجديد قد نفذ ربما إلى ما هو أعمق من ذلك . فهو يعد اعترافا على مذهب الإسميين بزمته التي سسها العلم والفلسفة في أواخر العصر الوسيط . ففي نظير المذهب الاسمي . فإن المذهب الكوبرنيكي يعد استئلالا يعجز التجربة . ولا تبرر شدة اتصافه بالمساواة والقدرة على التقسيم الخطوة الهامة لأشقاء الحقيقة على المذهب . فقد كان بمقدور الله أن يجعل هذا العالم الحادث صقلا مثلا من جله بسيط . ولقد أوعجت القدرة المطلقة لله الانسسان على قصر معرفته على ما هو قابل للمعرفة المباشرة والادراك المباشر . ولكن في نظر كوبرنيك . عالم الله بسيط جوهريا . ويتألف الكونى يقبل المعرفة .

واستحدثت كوبرنيك شيئا هاما آخر . فالظاهر أنه أخضع الفيزياء للفلك . وبذلك عكس التقليد القديم والوسط . فمتنحا اقتنع كوبرنيك بنمثيل فرض كونيانه الحديثة للحقائق الفلكية . رأى لزاما عليه أن يتبكر فزيه منامية تعتمد إلى دوحه كبيرة على مراعاة حركة الأرض . وقد أصبحت الضرورة تقتضى الآن تعديل التصورات الفيزيائية المرفقة

التي دامت طويلا تمديلا شاملا . وهكذا يتعين على الفيزياء ان تتبع المطالب الأساسية لعلم الفلك الحق ، ويمد مثل هذا الاتجاه انقطاعا بالغ الأثر عن تقليد يكاد ينظر إليه الآن نظرة تقديس .

لقد تكيف فهم كوبرنيك لدور الشمس في أية نظرية علمية بمسعيه نحو ادراك الحقيقة . فمن الواجب ان يتعامل العلم وفروضه مع الحقائق لا الخرافات . وبهذا المعنى ، ان لم يوجد غيره ، يصح اعتبار كوبرنيك أول شخصية كبرى في الثورة العلمية . إذ كان اتجاهه هو الذي اتبعه كبلر وجاليليو وديكارت ونيوتن .

وانضم كبلر الى كوبرنيك بلا شك عندما كتب يقول : « انه من الخرافات البسيطة ، كما اعترف ، القول بأن ظواهر الطبيعة يمكن أن تبرهن بالرجوع الى أسباب زائفة - غير أن هذه الخرافة لا وجود لها عند كوبرنيك ، إذ ظن أن فروضه صحيحة ، ولم يكتف بالاعتقاد بذلك ، ولكنه أثبت أنها حقيقة » .

وقبل جاليليو أيضا فكرة دوران الأرض كحقيقة فزيائية . وفي فترة بعيدة الأهمية ، كشف عن الحالة العقلية التي لاكتفى بمجرد التجارب والظواهر ، ولكنها تهدف الى اكتشاف « التكوين الحق للكون » ، وقال جاليليو : أن علماء الفلك الرياضيين يقتصرون على مجرد افتراض دوائر الاختلاف الا مركزى والدوائر التي يقع مركزها على محيط آخر و *equant* . وما أشبه لتسهيل حساباتهم . ولكن الفلكيين الفلاسفة لا يمتثلون بهذه المبتكرات الهندسية ، لأنهم يسعون للبحث عن التكوين الحق للكون ، أي أهم وأروع مشكلة وجبت حتى الآن . لأن مثل هذا التكوين قائم ، ويتسم بتفرده وصحته وحقيقته ، وعدم امكان وجوده على نحو آخر - وتزحل عظمة هذه المشكلة وسموها هذه المشكلة لكي تتبوا الصلابة بين المسائل التي تقبل الحل النظري .

وعندما أشار سالفياتي الناطق باسم جاليليو الى الفقرة ذاتها التي أعلن فيها كوبرنيك وجوب انصاف الفروض بالصحة ، وأقرها افرادا صريحا ، قال « وهكذا فبما شعر الفلكي من الناحية العملية بالارتياح إلا أنه يشمر بالارتياح والاطمئنان بوصفه علما نظريا للفلك » . ولا كان كوبرنيك قد أدرك على خير وجه أنه على الرغم من احتمال تجاوب الظاهر المساوية مع اقتراضات زائفة في طبيعتها ، إلا أنه سيكون من الأفضل كثيرا اذا تمكن من استخلاصها من الفروض الصحيحة . . . . . وبعد أن اتبع جاليليو فروضه الثورية ، ورأى ان الكل قد ناظر أحزابا ببساطة وزائفة ، فإنه تبهى هذا الاكتشاف الجديد وإطمان إليه .

وبالاستعانة الاعتداء الى المطلب الخاص بتصنيف المبادئ الأولى  
 يصححتها وعدم نظري الشك اليها عند ديكارت على نحو أبعد تطرقا من  
 أكثر أسلافه ومعاصريه ، فيعد أن امتدنى الى المبادئ الحقبة في التفكير  
 الواضحة والمتمايزة ، أصبب اهتمامه على رد الكون الفيزيائي الى قانون  
 رياضي ، وكسب الى مرسين في ١٦ مارس ١٦٤٠ . « وفيما يتعلق بالفيزياء  
 فلا بد أن اعتقد أنني لا أعرف شيئا عنها ، اذا لم يكن بقنودري أن لا أقول  
 عنها ما هو أكثر من كيف تكون هذه الأشياء بدون البرهنة على أنها لا يمكن  
 أن تتخذ شكلا آخر . وبعد أن قدمت برد الفيزياء الى قوانين الرياضيات  
 أصبحت أدرك أن هذا ممكن » وفي اعتقادي أني قاعد على اثبات ذلك ،  
 رغم قلة المعرفة التي اعتقد أنها متوافرة لي » .

والظاهر أن نيوتن قد اعتقد في امكان الاعتداء الى مبادئ عامة  
 لا ريب فيها عن الكون ، ففي كتاب المبادئ (١) ١٦٨٧ ، قال انه بالرغم  
 من علم أكشبه على صفة الجاذبية ، الا أنه يكفينا القول بوجود الجاذبية  
 بالفعل ، وأنها تعمل وفقا لقوانين قد استنتجنا شرحها ٠٠ ، والآن  
 لم تعد الجاذبية صفة للأجسام . ومن ثم فإنها ليست من الحقائق التي  
 تقبل الملاحظة ، ولكنها غلت بالأخرى استدللا من القوانين الرياضية  
 التي تصف سلوكها . وهنا تصور يتماشى بكل جلاء هو واتجاه  
 كوبرنيك ، ولعل كثيرين من المدرسين في أواخر الصور الوسطى من  
 للفروض أنهم مفسرون نظرية الجاذبية عند نيوتن على أنها مجرد فرض  
 مستصوب أو محتمل ، اعتمادا على امكان تفسير الظواهر - تصورا - على  
 نحو آخر ٠٠

وعندك في البحث ٣٦ من كتاب البصريات لنيوتن (٢) ، فقرة تكشف  
 عن فهمه للهدف من العلم ، وغايته - إذ أصر نيوتن على القول بأن  
 الأرسطيين قد أطلقوا اسم « الكيفيات الخفية أو المستترة » لا على وصف  
 الكيفيات ، ولكن للدلالة على الكيفيات التي يفترض انها كامنة أو مختبئة  
 في الأجسام ، والتي ينسب اليها النهوض بدور على المخلوقات الظاهرة .  
 وعلى هذا النحو ، قد تكون على الحاديه والتجاذب المغناطيسي والكهربائي  
 والاختيار اذا افترضنا أن هذه القوى أو الأفعال قد امتعت من كميات  
 مجهولة لنا ، ومن غير المقصور اكتشافها وإيضاحها ، ولقد تسببت هذه  
 « الكيفيات الخفية » في إيقاف تقدم الفلسفة الطبيعية ، ومن ثم فقد  
 رفضت بعد سنوات لاحقة ، فلا عجب اذا شجب نيوتن من شمسرو  
 باليس ، وتخلوا عن محاولتهم الكشف عن العلل الكامنة ، ولجأوا الى



الاسميّين ، وعلى الرغم من أهمية هجرات العلم الوسيط - والتي كشف  
 دوهيم بالذات الكثير عنها ، إلا أنه من المشكوك فيه أن الثورة العلميّة كان  
 بإمكانها الحدوث في ظل تقليد اتجه إلى التشديد على اللايقين والاحتمالية  
 بإمكانها الحدوث في ظل تقليد اتجه إلى التشديد على اللاتيقن والاحتمالية  
 الفزيائية الأساسية ، التي لا يستطاع بلوغها بغير ذلك - لقد كان  
 كوبرنيك هو أول من خطط الطريق الجديد الذي ألقى بهم الثورة العلميّة ،  
 بأن أوصاها بتحقيق رغبتهم الأثيرة للاعتناء إلى معرفة الحقائق الفزيائية .  
 وإن كان قد عبر عن ذلك بإنباع خطوة غير منطقيّة .



## المراجع

- Eric Cochrane, « Science and Humanism in the Italian Renaissance » (1976).  
*American Historical Review* (1039-1057).
- Fredrick Coppieston, *A History of Philosophy III : Late Medieval and Renaissance Philosophy* (1963).
- A. C. Crombie, *Medieval and Early Modern Science* 2 vol. 1959.
- Pierre Duhem, *The Aim and Structure of Physical Theory*, (1954).
- Owen Gingerich (ed) *The Nature of Scientific Discovery*, 1975).
- A. R. Hall, *The Scientific Revolution 1500-1800 - The Formation of the Modern Scientific Attitude* 1966.
- Owen Hanunhay, *The Chemists and the World*, 1975.
- Reijer Hooykaas, *Religion and the Rise of Modern Science* (1972).
- Alexander Koyré, *From the Closed World to the Infinite Universe* (1957).
- Thomas Kuhn, *The Copernican Revolution* (1957).
- E. A. Moody, *The Logic of William Ockham* (1935).
- Francés Yates, *Giordano Bruno and Hermetic Tradition* (1969).



## من هم السحرة مطاردة السحرة في اسكتلندة

### كريستينا لارنر

بين ١٤١٠ ، و ١٧٠٠ ، اعدم ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص بعد عبور أحكام قانونية ضدهم لممارسة أعمال السحر في إنجلترا وأوربا . وشكلت محاكمات السحرة اهتمام عامة الشعب والمثقفين والساسة على السواء ، ولقد كانت هناك صلة وثيقة - كما يبدو - بين مطاردة السحرة والثورات النيشية في هذه الحقبة ، وما أصاب رجال الدين وصفوة الساسة من تشامخ وعنجهية \*

ومثلت النسوة في شتى الالتقاء الاغلبية الكبرى للسحرة ، ففي اسكتلندة ، حيث حدثت مطاردة السحرة في وقت متأخر أكثر من معظم اقصاء أوربا ، كان أربعة اقسام المتهمين بالاشتغال بالمعصر من النساء ممن كن في مقبل العمر ، او بين الطبايعات في السن ، وعادة تكون المسمومة زوجة أحد الفلاحين الاجراء او ارملة ، وتنتمي الى قاع النظام الاجتماعي ، او من طبقة قريبة من هذا القاع ، فلماذا تركزت هذه الظاهرة في النساء ؟ لعل السر في ذلك هو ان النساء يجمعن بين الحساسية والقابلية للتأثر ، سواء كن من الطبوعات لممارسة عملية السحر او من ضحاياه . والسحر يقرر على رفع المرأة الى مرتبة تصاعدها على التسلط والتأثير في المجتمع ، مما جعل هذه الحرفة تجتذب بعض النساء ممن يعشن في فقر متقع ، والسحر ايضا وسيلة مقبولة للنساء تصاعدهن على معارضة العدوان داخل المجتمع البطريركي الذي بمقدوره فرض دور ثانوي ومسابك عليهن ، ولقد تكوّن المسطحات الوثنية و « اليهودية - المسيحية » الى النساء على انهن اضعف بنيا وأخلاقيًا ، ومعنويا من الرجال ، ومن ثم جاءت سهولة التباين للشيطان - وتصف النساء المتهمات بممارسة السحر في اسكتلندة بصفات يشتمل عليها

---

(\*) قلا من كتاب Enemies of God, The Witchhunt in Scotland

تأليف Christiane Lerner (١٩٨١) .

المتجمع الخاضع لميطرة الذكور ، واشتهرت الساحرات بالنزعة العبودية والميل للمشاجرة وسلطة اللعان وعدم التعاون ، وكوتهن من اللواتي ، يرفضن التزلم مكانهن .

وتتطابق أوصاف ساحرات امككتنده في وصفات ساحرات الريف الأوربي . إذ كان معظمهن من المهورات من تقع أعمالهن بين قبيل البحر والقبيلوخة . ولا تسعفنا المصادر بطريقة مباشرة بأية تفصيلات اجتماعية أوفر ، فلم نجو المادة على تسجيل جهن أو أعصار المشبهوات . ولم تذكر الحالة الاجتماعية ( الزواج وعند الأولاد ) إلا في حواشي ثلث الحالات . وكثيرا ما لا نثر عل ما هو أكثر من الاسم . وفي بعض الأحيان لا تذكر حتى هذه البيانات الضئيلة . وبوسعنا أن نلاحظ في المصادر التي بين أيدينا أنه من بين ثلاثة آلاف أو يزيد من المتهمات لم تذكر أي بيانات عن أكثر من ١٩٢ حالة سجلت فيها المهنة أو الحالة الاجتماعية أو بعض بيانات عن الأزواج . وبالإستطاعة تصنيفهن على الوجه الآتي :

١٦	إشرافه
١٤	مواطنون يتمتعون بحق الانتخاب
٤٦	مهنيين
١	مرابطون عقيمون
١٠	بشارة
٧	أعيان
١٤	قسس وديرسمون
١٠	مزارعون أثرياء
١٢	قابلات
١٦	عمال أجراء
٢	فنتقيون
٢	حوميتيون
٢٣	خدم
٢٦	مقبولون

والواقع أن هذه الأرقام مضللة إلى حد كبير ، ومن حسن الحظ أن هناك دلائل يعرفها العالمون ببواطن الأمور ، وموتقة إلى حد يمتد على الرضا ، كتبت أنه من الحكمة استخلاص المبدأ الإجمالي للساحرات من الأرقام المدرجة أعلاه ، فلا يحسن أن المكانة الاجتماعية للأشخاص لم تذكر في الوثائق ، إلا في الحالات التي دلت على وجود شيء غير مألوف ، والساحرة - عادة - لما لن تكون زوجة فلاح أجير ، أو أرملة ، ويحتمل

أن تكون قرية من الشريعة السمل في البناء الاجتماعي . وعندما يدرج اسمها ضمن فئة القتيات في السجلات . فقد اسمها يذكر مقرونا باسم زوجها ، ويبدو من الاتهامات أن الأسباب التي أدت إلى نشوب العراك ترجع إلى خلافات تجارية أثناء عمليات التفاوض في نظام اقتصادي يمانى .

ويتلمذ الحديث بقدر أكبر من اليقين في حالة عدم وجود أبحاث محلية أكثر تفصيلا عن بعض المناطق الكبرى لممارسة السحر . إلا أن الانطباع المتولد لن يختلف احتملا كبيرا عما كان يحدث على الصعيد الإنجليزي ، حيث اتضح أن نسبة النساء بين المشتبهين بالسحر قد بلغت ٩٣٪ ، وكان يصفه مطلقة من طبقة قاع المجتمع ، ومن زوجات العمال الأجراء ، أو أراملين ، ومن ينطبق عليهن قانون الفقر ، أو من المتسولات ، وتجنح الساحرات الاسكتلديات عادة من مرتبة اجتماعية أعلى قليلا . أما الأكثرية من اللواتي تشغلن قاع السلم الاجتماعي ومن لا يعترف بشخصيتهن المجتمع كالمجرمات والمسلات والتجريات وبنات الهوى والبنات المتجولات ، أي من يدرجن عادة في خانة المقترحات . ويعترف عند قليل من هذه السجلات بهذه الفئة كطائفة تسمى لقفز الاجتماعي من طبقة لأخرى ، فتلا أدرج اسم سان هامدون التي حوكت في جلاسجو في مايو ١٧٠٠ على أنها إحدى الفقيرات الباحثات عن الصدقة ، وأرملة أحد الخبازين . أما مارجريت دنكان التي صاحبها في المحاكمة فذكر أنها أرملة تاجر ، بينما وصفت كاترين ماكنابيد التي حوكت في دونبار في مايو ١٦٨٨ بأنها زوجة مساج تحول إلى متسول ، ووصفت جون شاند من موراي التي حوكت ١٦٤٣ بأنها متشردة . وكانت ماريون بوردي التي حوكت في أدنبره ١٦٨٤ تعمل قابلة في بعض الأوقات . غير أن هذه التطرفات الخاطفة إلى السجلات لا تزيد عن نظرات عابرة ، إذ يكشف البحث النقيص الفصل في أية منطقة عن احتمال انتماء الساحرات المتهمات إلى طبقة انتزعت منها أرضها الزراعية الصغيرة واضطرت لئساء هذه الطبقة إلى التعيش من عائد قطعة أرض لا تفي باحتياجاتها ، واستكمال دخلها بالصل كالجيرة ، وفي حدود ما تعرف حالها ، يبدو أنه بينما تنسب قلة إلى الفئة غير المعترف بها اجتماعيا كالأمهال والأجراء والمجنون أو المحرمين ، إلا أن كثرة من المتهمات بالاشتغال بالسحر كن يمشن حياة مستقرة نوعا . وربما ارتبطن باناس يعيشون في الأحياء المعترف بها من شغلوا موضعاً ما في البناء الإقطاعي . ولكن الأغلبية قد اضعدت - كما يبدو - من قاع البناء الإقطاعي ذاته ، ويتواتر لحظهم سكن له حديقة للمطبخ . وجمع بعضهم بين العمل الأجير والرعاية في بعض المدن الزراعية ، وبمباراة أخرى فقد كن تتمتعن بمكانة

في المجتمع بالرغم من عمالة عائده من أجور ، وشبهه اعتمادهم على أحسرى ، ولم يحظر ببالهم احتمال الاستعداد الى مكانة وصيفة .  
فان لم يعرف الاسرار قيمة الوضع المستقر في المجتمع ، فانه لم يسعى ليجد على سبيل للارتقاء ، ويسمى من ذلك من تعرض للاتصال بسبب الاشتغال بالسحر ، فأرغم على هجر مقام اقامتهم ، أو من صاحبتهن سمعتهن في أى مكان حائل فيه .

ومن مؤشرات أهمية الانصواء تحت فئة من الفئات المعترف بها اجتماعيا ، مما يساعد على الحماية من التعرض لخطر الاتهام بممارسة السحر ، ما ذكر في محاضر جلسة كيرك في روثساي - وهي مدينة اسكتلندية على جزيرة - التي شهدت حالات قليلة من ممارسة السحر ، وإن كان السحر لم ينتشر فيها بشكل وبائي على الإطلاق . فلهذا استدعت المحكمة المشهورة في كيرك ١٧٠٦ بسى يقول ابنة دنكان نيقول ، عامل التسميم ، لأنه :

« استعان باليزابث ماكنتيلور زوجة جيمس ستوارت ، الذى يعمل في التجارة لكي تساعد على طريق السحر لاستعادة ( جولة ) فقدت منه ، ولأنه منع اليزابث أنعايا تغير التقييم بذلك ( مبلغ ٤٠ بنسا ) موضوعا في قطعة قماش وبضى قصوى الملح من مستلزمات السحر » .

وربما اعتقد أن اليزابيث ماكنتيلور الفاتنة ، والتي يرجع الى خفتتها الاشتباه في اشتغالها بالسحر ، كانت أسوأ الآثام ، ولكن في موقع ناه مثل كيرك ، كانت جلسة المحاكمة تقتصر الى الشجاعة :

« فليما يتعلق باليزابيث ماكنتيلور هذه ، والتي زعم أنها استغلت لتنفيذ عملية السحر ، فمن المعروف أنها صيلة السمكة ، وأنها اشتهرت بالعناد والصق وعدم تقبلها للاصلاح . وقد قرر المجتمعون في الجلسة نقض أيديهم من البحث في أمورها » .

وبذلك تركزت الشبهات على من ينمون بالاعتقاد ، بدلا من تركزها على المتشردين والمتبذوين من الفقراء ، ومنلت النساء أغليتهن .  
فممارسة السحر في اسكتلندة شأنها شأن أى مكان آخر في أوروبا جريمة نسائية بدرجة ساحقة ، ولعلها كانت أول جريمة نسائية تحلت في اسكتلندة على هذا العهد . وإذا تصفحنا سجلات الجرائم التي لم تحل للحصول على انطباعات عنها ، سيصبح أن النساء لم يستثنى الى المحاكم إلا في مناسبات قليلة كارتكاب جريمة الزنا ، أو سفاح القربى ، وفي حالات قليلة من جرائم قتل الأطفال - وهذه حالة تدعو الى العطفة - وارتكاب جرائم العييان باعتداء لا تذكر . على أنهم كن يخضعن دوما

لتقليد الحظ من شأنهن بتوقيع عقوبات مخففة في جلسات محاكمة كيرك ومجانس المدن أو محاكم البارون .

وعلى أية حال ، لقد تميزت نسبة الرجال الى نسبة النساء في الاشتغال بالسحر بالشبكات ، اذا قفنا بيننا عن ثلاثمائة أو يزيد من الساحرات اللاتي لا نعرف أسمائهن ، أو من تسمى بأسماء يتسمى بها الرجال والنساء على السواء . وعدد الساحرة من المذكور متغلب ، غير أن عددهم بلغ خمس المجموع الكلي لعدد الساحرة من المذكور والناث .

### التسمية المثوبة للمشتبهين من المذكور

في عقد من الزمان

لغاية	عام	تكرر	نسبة التكرار
١٥٦٠ - ٩	١٠	٧	١٦,٧
١٥٧٠ - ٩	٤	١٠ من ١	٢٠,٠
١٥٨٠ - ٩	١٠	٢	٢٢,١
١٥٩٠ - ٩	١٥٤	٣٦	٢٠,٠
١٦٠٠ - ٩	٢٤	٩	٣٧,٢
١٦١٠ - ٩	٩٢	١٩	٢٢,٢
١٦٢٠ -	٢٤٧	٤٩	١٧,٢
١٦٣٠ - ٩	١٣٣	٢٨	٢١,٨
١٦٤٠ - ٩	٣٩٦	٥٧	١٤,٦

لماذا ارتبطت حرفة السحر ارتباطا قويا بأحد الجنسين في أوروبا ؟ ، والمشكلة الثانية - وهذا كان تأثير هذا الربط بينهما وبين جنس بالذات على انطلاق حملات مطاردة الساحرة ؟ - ويقال في هذا الشأن ان العلاقة بين النساء والنموذج النسلي لحرفة السحر علاقة مباشرة ، فالسحر عمل نسائي ، وكل امرأة ساحرة ، بالقوة ، أما العلاقة بين مطاردة الساحرة ومطاردة النساء فانها أقل مباشرة ، والنساء يطاردن باعتبارهن - في المقام الأول - ساحرة ، والمشر العام الذي يمثلونه ليس مرتبطا بنوعهن كجنس بالذات ، فقلبيبا أن لا تنسى أن الشيطان نفسه كان ذكرا ( ١ ) ، ولقد كان المرء علية طاردة الساحرة أسبابا أيديولوجية ضد أعداء الله . وإذا كان قد اتضح ان ٨٠٪ أو يزيد من هؤلاء الساحرة كن نساء ، فإن هذه المسألة رغم أنها ليست وليدة المصادفة ، إلا أنها تبتهل اعتمادا هينا عن كونها حجوما على النساء بحكم كونهن ناثا .

ولما كانت المادة قد جرت على النظر الى السماء كنموذج مطبق واحد متماثل في الصفات ، فقد رثي أن الاشتغال بالسحر كان منذ أمد طويل مربوطا بالنساء ، قبل سموت مطاردة السحرة ، ويستند النموذج النمطي على دعائم النظرية الأوسطية للنساء على أنهم يمثلون صورة ناقصة للجنس الأدنى . وربما يرجع سببه الى حدوث خلل ما أثناء عملية الحمل ، وأيضا على النظرة الصراوية المسيحية للنساء ، كإصايل الخطيئة ومسقطه آدم ، ولما كانت حرقه السحر تنعس رمزا لا يعد أسس المذئاب البشرية . فلا غرو اذا كانت النساء أول من تعرضن للشبهات - فالنساء يحكمن فطرتهن وجوههن أكثر استعدادا للقل والخصوع للشبهات ، والشر يوجه عام ، وهو أقل قدوة على التحقل من الرجال ، ولكنهم رغم ذلك قادرات على إثارة الهلع في قلوب الرجال ( ١ ) - ويرجع هذا الهلع الى حملة مسببات - فيحكم قيامهن بعملية حمل أرواح في بطونهن ، ويحكم الطمث ، فهن يملكن - بالقوة - قوى غريبة وخطيرة ، ويستشهد شاتل وردجريف بما قاله بليزني (٢) في وصف المرأة في فترة الطمث : « اذا لمس أية شجيرة غلال مستصبة الفوام دبلت ولن يرمى منها أي خير . ولو نظرن الى سيف أو سكين - أو أية آلة حادة ، خفت يريقها وضاع أثرها - ويحدث شيء مماثل للبياض الناصع للماج . وللتحل التي يموت في خلاياه ، وإصابة الحديد والصلب والنحاس بالصدأ ، اذا تصادف ولست أيديهن القبيحة المسمة المنتنة هذه الأشياء » .

ولقد أدركوا تناظر هذه المظاهر بلميزة بالصفات الضارة للمرأة في فترة الطمث هي والصفات المعروفة عن الساحرة . وتناسب هذه الصفات جميع النسوة التاضيمات في بعض الأوقات . بيد أن هذه النظرية كانت تاريخيا تخص ناحية بالذات ، أكثر مما يوحي ما قاله شاتل وردجريف -

ولقد أشار بليزني لنفسه من خلال الفقرة لا الى آثار الاحتكاك بإحدى النساء في فترة الطمث ، ولكنه أشار الى التأثير أو لمس دم الطمث نفسه (٣) وترجع الترجمة التي استشهدنا بها الى القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر ، وإن كان اسم مصدرها لم يأت ذكره ، وكان هذا التحريف هو الذي نقل الأكار الشريرة لسائل الطمث ، الى المرأة ذاتها ، وليس من ألوم الظن بأن مرد هذا التحريف هو شدة حقن النساء في هذه الحقبة -

(\*) Priny (٢٣ - ٧٩ م ) المظلم للروماني والذي ظلت موسوعته الطبيعية

في أكثر مصادر العلم حتى القرن السابع عشر \*

Mutuum effluvio.

(\*\*)



وترجع خشية النساء الى نوعين كونهن مصدر اضطراب المجتمع البطريركي ، ولا يقتصر الأمر على الخوف من النساء المحاضرات ، ولكنه ينصب أيضا على النساء باعتبارهن يقمن بعمل الأطفال ، فليس بمقدور الرجال المصنف من صحة جنس أطفالهم الا اذا تحكوا في جميع مظاهر حياة نساكنهم وأجسامهم . وكما تثير النساء الرعب حتى أثناء العملية الجنسية . فهناك أساطير مروى عن اشتهاؤ المرأة بدم الأوتوه الجنسي ، لكونهن متعلقات أكثر من كونهن صاحبات دور فاعل موجب - وبوسطن تفصل كل ما يحرقهن سواء رضى عن ذلك ، أم لم يشعرن بأى رضاه . ولما صاد الاعتقاد بأن السماء من أثر علم شعورهن بأشباح شهواتهن قد يتسبين في شرور الرجال ، أو جعلهم موضع سخرية لضعفهم الجنسي . فقد زعم أن الساحرات قادرات على إصابة الرجال بالهنة وذهابهم للبحث عن الإشباع في المواجه في صحة الشيطان والحيوانات وبيعته المذكور الذين يمكن غوايتهم أيضا ، ولقد أدلى الملك جيمس السادس بقول مماثل للنظرة السابقة عندما تحدث عن أسباب اعتبار النساء أكثر تعرضا للاشتغال بهنة السحر من الرجال :

« السبب بسيط . . . لما كان جنس النساء أكثر هشاشة من الرجال ، لذا فس الأسهل وقوعهن في حائل الشيطان . وقد أثبت صحة هذا الرأي خداع الحية لجوء هنذ به الخلفة . وعند ذلك الحين ، توطئت أواخر المحبة بينهما ( الشيطان والمرأة ) » .

ولعله من الجدير بالملاحظة أن النمط النموذجي للسحرة هو النقيض لماكس للنمط النموذجي للقديس أو القديسة . فالساحر عن طريق علاقته الخاصة بالشيطان يعرض معجزات وندقية . أما القديس فيعرض بفضل علاقته الخاصة بالله معجزات فاضلة . وفي أوج عهد القديسين ( القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ) حدث ارتباط بين القداسة وجنس المذكور ، مثلما حدث ربط فيما بعد بين حرفة السحر والانات . فالنموذج السطحي للأنتي يتصف بالقوة في حقيقة الأمر مما دعا في بعض عهود الى اعتبار كلمتي « امرأة » و « ساحرة » مترادفتين ، وفي روسيا في القرن الثاني عشر . عندما تقبعت السلطات السحرة فانها اكتفت بمسألة بالتنقيب بين النساء الروسيات . وفي لايتدورف ١٤٩٢ . اتهموا الجميع عما اتفق بين الباطل بالاشتغال بالسحر .

ويغسر وجود ٢٠٪ من الذكور بين من اكتشفهم مطاردو السحرة على أنحاء شتى . فقد اعتقد مؤثر أن من اكتشفهم في بحوثهم من السحرة المذكور أعيل الى الزيادة في المناطق ذات التاريخ المضطرب السحرة بأحداث

السحرة والهرطقة ، واكتشف ميدلفورت ان المشبوهين المذكورين  
 يتهمون بارتكاب جرائم أخرى الى جانب ممارسة السحر . فبالمنحور  
 اعتبار المشبوهين المذكورين مصدر دخل للسلطات . ولهذا الحالة ما يقبها  
 في اسكتلندا . فتنظام الزواج من اقارب الأب السائد في اسكتلندا ،  
 والذي تحتفظ فيه الروجة بكنية زوجها ، يصعب تحديد الحالات التي كان  
 فيها المشبوهان مقترنين عن طريق الزواج . واتضح أن عدد المشبوهين  
 المذكورين الاسكتلنديين متناقص . ولكنه على الجملة يناهز خمس ( بصم الحاء )  
 المجموع الكلي .

لغة	الذكور	النسبة المئوية
١٦٥٠ - ٩	٣٠٨	٥٥
١٦٦٠ - ٩	٢٧٧	٥٧
١٦٧٠ - ٩	٢٦٢	٥٩
١٦٨٠ - ٩	٢٢	٤
١٦٩٠ - ٩	٣٦	١١
١٧٠٠ - ٩	٩٤	١٣

وانا تفاضينا عن السنوات التي انخفض فيها عدد السحرة ،  
 مما قلل من أهمية دورهم ، سيوضح أن نسبة السحرة من الرجال قد  
 انخفضت بشكل حاد خلال السنوات الصحاف التي شاع فيها الذعر ،  
 وفي المهود الأهلى تراوحت نسبة المشبوهين المذكورين بين ٢٠٪ و ٢٧٪ ،  
 وأثناء فترات تفشي الأوبئة انخفضت الى نسبة تتراوح بين ١١٪ و ١٤٪ ،  
 وعندما اشتد التهافت على السحر ، كانت النساء غالباً هن أول من لبي  
 النداء ، وهذا الاتجاه يتعارض مع ما اكتشفه ميدلفورت في جنوب غرب  
 ألمانيا ، ولقد لوحظ ذلك ، وإن كانت علته لم تتضح ؟ فالظاهر أن السحرة  
 المذكورين يحتاجون لبعض الوقت لاكتساب الشهرة والخبرة ، وأنه خلال  
 الأزمات عندما تظهر حاجة ملحة للبحث عن السحرة كانت حجات الاتهام  
 تلجأ الى الأساليب التقليدية المحفوظة ، والظاهر أيضاً ، وكان السحرة  
 الحنئة عندما كانوا يتعرضون لضغوط للاعتراف بأسماء أعرانهم ، كانوا  
 يظنون أن ذكر أسماء نسوة سيجعل اعترافهم أقرب الى الاقتناع .

وبعض النظر عن طريقة تقديرنا لهذه التقلبات ، فلا يخفى أن عدد  
 المشتغلين بالسحر من الرجال يفوق ما اكتشفه ماكفارلين في مقاطعة  
 اسكس ، غير أن « سومان » عندما قصص الإلتباسات التي رفعت لرجال  
 باريس ، اكتشف أن نصف المتسجنين من الرجال ، واكتشف ميدلفورت

( في جنوب غرب ألمانيا ) وحوثر في سويسرا ، أن النسبة الإجمالية تشاغل هي والنسبة الإجمالية في اسكتلندة \* وربما يست النسبة المنخفضة للسحرة الذكور في انجلترا غير مألوفة عموما ، وتدل النسبة الكبرى للمشعوذين في أغلب أنحاء أوروبا على أن مهنة السحر لم تعد وفقا على الإنك . ولو كان ذلك كذلك لكان الأمر ، ولكن علينا أن لا ننفل أن الصفتين الأساسيتين اللتين يتميز بهما المشتغل بالسحر وهما القل والقوة الخارقة من خصائص الأدعيين عموما ، أكثر من كونهما خاصيتين أنثويتين ، غير أنه من بين كل خسة أشخاص تنسب إليهم هذه الصفة ، يوجد أربعة على الأقل من النسبة ، فحرفة السحر إذن ليست من الحرف المرتبطة بصمة فطرية يجنس بالفت ، ولكنها من الحرف التي تست لأحد هذين الجنسيتين .

وهناك مشكلتان متباينتان تخصان هذه المسألة . الأولى تخص من أمكن التعرف على حوثرهم فاعما كانوا ورجلا أو أنثى للانثى المشعوذة . أو من الأشرار سيئى السمعة ، كما هو الحال في القارة الأوروبية ، وفي حالات قليلة من الدعاة الذين يعيشون منعزلين عن الآخرين . وبالتفرد ود الاختلاف بين اسكتلندة وانجلترا في نسبة الذكور المصنفين إلى أن انجلترا لم تحر سوى القليل من المعالجات الجماعية التي يستطاع فيها الخلط بين الأقارب الذكور ، وأيضا لأن الدعاة في انجلترا أقدم على الأفلات من انهامهم بممارسة السحر .

وعلى الرغم من إمكان الحاجة والقول بأن جميع النسوة ساحرات بالقوة ، فمن المسألة الفعلية ، كانت هناك نوعيات معينة من الصلاة مختون لهذه المهنة . والأصح هو القول بأنهن كن يخترن أنفسهن . وفي اسكتلندة بالاستطاعة تصنيف من وجهت إليهم تهمة الاشتغال بالسحر إلى أربعة أصناف ، وإن كانت هذه القسمة ليست دقيقة بدرجة كافية ، فأولا - هناك من لم يسترخوا على سمعة الانتماء لهذه الحرفة ، بل وربما اعتبروها شرقا يرفع من مقامهم وسلطانهم في المجتمع ، ثانيا - من يعانون من وهم الخضوع للشيطان ، ثالثا - من أقروا بالذنب عنقما وقفوا أمام محاكم التفتيش أو عند محاكمتهم - ورابعا - وأنفروا - المقصود ببراءتهم ، وتمسكوا ببرائتهم حتى النهاية ، أو اعترفوا خوفا من التعذيب أو تهديدهم به . وتشاغل جميع هذه الحالات في آثارها للاهتمام من ناحية صلتها بصورة السحرة في المجتمع . وإن كان من رحوا بالقيام بدور السحرة يثرون الاهتمام أيضا لأن يسمحت عن مدى اجتذاب مهنة السحر للنساء .

وتتكشف هذه الجاذبية واضحة عندما تتسائل لماذا كان من حضيض لهذا الاغراء من طبقة الفقراء ، وبصرف النظر عن الحقيقة الواضحة بأنه من الأيسر - اجتماعيا - توجيه الأصنام إلى الأقل مقدرة على الدفاع عن نفسه ، فإن مساوئة السحر كانت أشد جاذبية للضعفاء من الفقراء ، ولقد أشار توماس إلى أن الساحرات الانجليزيات اللاتي كان امتدادهن للطبقات الدنيا أكثر من مثيلتهن من الاستكشديات - كن من بين من شعرن بالعجز التام - فلقد حرصن من القوات المعنوية لتحقيق دأبهن ، ولم يكن باستطاعتهم تحسين أحوالهن ، ويرى توماس أن مساوئة السحر قد بدت لهن وسيلة للارتقاء عندما أحقت سائر السبل الأخرى . وأضفى الخوف من مساوئ السحر القوة على من اعتقدن أنهن سحرات ، وتعد سبعة الاشتغال بالسحر إحدى الوسائل الميسورة لتعديل مسار من يتبعن شمل موصع أكثر تميزا . وفوق كل ذلك ، فإن الاشتغال بالسحر قد تراسى لهن من السبل المباشرة لتحقيق النفع لهن ، وعلى الرغم من أن ما يقال عن التعاقد مع الشيطان قد قام بدور كبير في مساوئة الانجليز للسحر ، إلا أن توماس خصه بمكانة أقرب إلى الصدارة بين بواعث الاشتغال بالسحر عند الانجليز عندما كتب عن سيكلوجية « الوعي الذاتي للسحرة » . ولقد كشف أيضا من اقترفوا ما وصف على حبه وحده « بالجريمة الفعلية » الخاصة بالتعاقد مع الشيطان ( يعنى من اعتقدوا واعين بارتكابهم أفعالا أثيمة ) ، يعنى جرائم اجتماعية ، واعتقدوا أيضا أنهم قادرون على ذلك بحكم اقترابهم من الشيطان ( طبقا للمعتقد الجرم بينهما ) كشمقوا في اعترافهم الطبيعة الدقيقة للوعود التي وعدهم بها الشيطان ، وعندما تركز على ما يحرق في المجتمع الزراعى السابق للصناعة في إنجلترا وسكتلندة ، قاننا نيتعد عن العقود الأرستقراطية الكلاسيكية على طراز الدكتور فاوستوس حيث كانت الصلقات تمنى تقديم منح خلاقة كبرى في مقابل الروح الخالدة للفرد . فلى نظر الشيطان ، لم تبد القيمة الاقتصادية لروح فلاح من القرن السابع عشر بالغة الأهمية - فبعد هؤلاء الأشخاص الذين تم التعبير عن الأمل عتصم في صورة بالغة الحدو ، قاننا نلقى أنفسنا في عالم من الحرمان النفسى ، فلم تكن تساء الانجلترا في القرن السابع عشر من عتشن على هامش المجتمع تنوقن أن تؤصلهن أرواحهن لكى يرتعن في الحرائر والتفانى . وبدلا من ذلك فقه قلن أن الشيطان لم يمنهن ماكرن من التحرر من العوز والفقر الملحق ، وقال لهن : « لن تشعرن بالحاجة قط » . وهذا وعد يطابق جميع الحالات .

واستعملت ساحرات اسكتلندة بكل حقة نفس المصطلحات المسائدة في إنجلترا . ولكن لما كان « التعاقد » قد اتخذ مظهرا أصبح لدا فقد

اعتيد تصويره على طاق أوسع . وتناقلت وعمود الشيطان في أوله مثل جاد ذكره في القضايا الاسكتلندية وصورتها بعد أن وهب أثره في المخيلة الجماعية . وروى لنا جون فين كريف وعنه للشيطان بالكف عن المبالغة بأي شيء . وفي ١٦٦١ ، تكرر ذات الشيء ، فقد وعد الشيطان مرجريت بربرون ، بأن تكف عن المطالبة بأي شيء ، . والأمر بالمثل فيما يتعلق نانبرايت بلاكلي . التي أحطرت بأن لا تطالب بأي شيء ، . وأبلغ الشيطان أيضا أجنيس بيجامي وجانيت جيمسون ، بأنهما جسدها تعسان غارقان لأناتهما في الوحل ، وإذا هما عملتا في حيلته سخطهما كل شيء . ويدفعهما إلى عدم المطالبة بأي شيء . بل لعله أغرى مرجريت بورتوس بما هو أكثر . وبكل النعم الموجودة على الأرض . . ولاحظ توماس أيضا أن الساحرات الانجليزيات قد عرضت عليهن أسلما في صفقاتهن مع الشيطان بعض مبالغ من المال . اضح فيما بعد أنها بلا قيمة . وذكرت إحدى الساحرات (٣) ( ١٦٦١ ) أن الشيطان بعد أن وعد هذه الوعود المحدودة نوعا نضحا مبلغ ١٢ بيتا من الفضة اضح فيما بعد أنها مجرد حصوات من الإردواز .

ومن البيانات الأخرى الدالة على توقعاتهن واحسانهن بما قد يوهن عليهن من نفع ، الاعترافات الأكثر احكاما التي تضمنت وصفا لمسابلات الساحرات . واختلقت الروايات عما كان يقدم من مأكولات ومشروبات في هذه اللقاءات . ففي بعض الأحيان . وصفت بأنها كانت تنبئ الغرف والتقزز ، لا سيما في المناسبات التي كان الشيطان يتصور كشخصية شرسة في معاملته لأتباعه ، إلى حد علم تردده في الاقلام على شربهم أو صربهن إذا أخفقوا أو أخطئ في تنفيذ طلباته الشريرة . والأغلب هو أن تنحصر هذه المأكولات والمشروبات في الأصناف التي توجد في الأسواق المألوفة للقرويين كطائر الشوفان والحبوب .

وبين الأسباب الأخرى التي تجتذب النساء لممارسة السحر بعض مؤثرات أخرى ، غير الأمل في تخفيف وطأة القدر . ويعد تفسير امرأة الجوجا (٣) في أفريقيا الذي ورد في لقاء بأحدى السيدات المتروحات القنعوات صدى لما جاء في كتيبات القرن السابع عشر في أوروبا ، فعلى الرغم من أن بعض النساء أوردن دوافع خاصة ، فإن أحدهن أحابت على ذلك بقولها : « لأننا شربيرات » - وتفسير الكاتبة التي أحرت هذا اللقاء إلى أنه ربما توجد بعض مقامات قد تدفع الرجال إلى القتل . إلا أن هناك حالات قليلة قد

تلجأ فيها النسوة للعنوان بطريقة مشروعة إذا تمكن من ذلك . ففي حالات التوتو المزلي والضيق التي يلجأ فيها الرجال للعنف ، تستعين فيها النساء بالسحر . وربما تماثلت الساحرات من الإناث في المحاكم الاسكتلندية في القرن السابع عشر من والدكور في عدد الاتهامات بالقتل وسفك الدماء . ان هذا يرد على ما يتعرض للسكان احيانا في عمليات التحليل الخاصة بالعلاقة بين المصططه ( بكسر الهاء ) والمصططه ( بفتح الهاء ) . فالنساء لسن افضل خلقا من الذكور للمهيسين مثلما لا يبد العفراء افضل خلقا من اصحاب الملكية المسيطرين . وكل ما هناك هو كونهن اقل تمنا بالقوة ( السطوة ) . وثمة زاوية أخرى تتبع الدوافع السيكولوجية آثارها وادبر (م) في إحدى رواياتها . فقد رأيت في ممارسة السحر نوعا من المفارقة والاثارة للنبي تستمدان عادة من حياة المرأة . وربما لجأت النسوة إلى السب واللعنات للتفتيش عن الصفوان ، وبأثبات قوتهن ، وإلى الاستمراق في المظاهر القاتنازية لتلوين حياتهن .

لقد كانت النسوة اللاتي صحن للاشتغال بالسحر أو توجهن كساحرات حون اختيارهن من الفقرات . ولكنهن لم يكن في اسكتلندا دائما وحيدات . فعالبا ما تبين أن النساء التي تركزت تقليديا عليهن أصابع اتهامنا بالاشتغال بالسحر لم يكن من بين الفقرات لكونهن لرامل أو وحيدات بلا عائل أو مورد مستقل للعاشة ، ولكنهن كن متزوجات باناس يتضورون جوعا - ومرة أخرى نقول ان الأرقام التي لدينا من الحالة الزوجية لا يرتكن إليها ، ولكنها أفضل من بيانات الحالة الاجتماعية . فعوالى نصف من دونت حالتهم الاجتماعية كن متزوجات بالفعل عندما قبض عليهن ، وكان بضعهن وحيدات . ولكن الرحمة بهنك المعنى لا تيسد عنصرا عاما من حقومات الساحرة الاسكتلندية . كما أن قبح المنظر لا يبعو ذا أهمية كبرى ، ولقد وجه ماكرلين الانتباه إلى النموذج النمطي لبشاعة منظر الساحرة ، ولكن توماس استبعد أهميته ، وربما ساعد وجود أدب شعبي عن السحر في انحلترا ، يكاد أن لا يكون موجودا في اسكتلندا على جعل عامل للمظهر الشخصي ذا أهمية أكثر هناك . ولا شك ان نمط المرأة المجرؤ القبيحة المنظر موجود باسكتلندا ، ولكن ليس هناك دليل قوى يربط هذا الطابع بالفعل بالتهمة بالاشتغال بالسحر .

ومن ناحية السمات الشخصية باعتبارها مقابلة للخصائص الاجتماعية ، لم يبق لدينا إلا الاعتراض بوجود تنوع في الشخصية . وهذا تصور شائع ، ومن الصعب التحقق من صحته بالاستمئانة بالتاريخ .

وربما كان يقدورنا أحيانا التعرف على سمات الشخصية في أشخاص نالذات ، غير أنه من الصعب عادة الحكم بأشخاصها بالقراءة بالسلوك المياري للعصر . وقد لاحظ الشاعر الإنلي هاية « فقدان الشخصية » لأهبتها السيكولوجية الصيفة بعد أن تزايد شعها بالمسبون الاجتماعى ، وأصبح ههها يتطلب معرفة المجتمع الذى نشأت فيه ، والدور الذى لرسه عليها المجتمع ، وأوز لها بالقيام به . وبوصفا ملاحظة بعض الخصائص الشخصية للساحرة ، وإن كنا غير قادرين على معرفة هل كانت هذه الخصائص من صفات جميع نساء القرن السابع عشر من الزمرة القرية من قاع الهمم الاجتماعى السياسى الاقتصادى ، ولقد اعترف بهذه المشكلة فى حينها ، واستغلت كثيرا فى دفاع العامى . ولقد حلبنى المداخله الموفق عن إحدى المتهمات ضد شهادة ادعى صاحبها أنه قد تعرض للسحر بعد أن صرحت فى وجه المتهمه فقال : « انه لا شئ آثار ضيقه غير الجعجه والبطانة الشائتين بين النساء عند امتنابهن عن قبل جواهن ، وبخاصة من قبل النسايج باعتبارها أشياء مألوفة عند شعور النسوة بالغضب » .

على أنه بعد ذكر كل ذلك فالظاهر أن الصفة الشخصية الأساسية هى سلطة اللسان والتخضر والمضب . ولبنى الساحرة العامية اللانوية الاسكتلندية ، يعنى توعد الدهن ، والاصرار على عدم التراجع ، أو الرجوع للعق ، ولليل للمشاجرة . فانا لم نوافر لاحد من الميل لئسب الآخرين ، كان معنى ذلك أنها بريئة من أى اثم ، ولا نتمنى لفئة الساحرات ، وما ينسب للساحرات من ذلاقة لسان خلقت للتطر بدرجة ملحوظة . ولقد اتهمت احدا من بالسحر من قبل امرأة أخرى لأنها قالت لها ، عسى فى عيكو حينها خصوصا بنت الذين حى » . وقالت أخرى فى موقفه ضائل : « روحى فى داهية » .... وهكذا أخرى من اتهمها بالقول : « لو كنت ساحرة حقا لخطفت روحك قبل أن تخرج مثل هذه الكلمات من فمك » ...

ولربما كانت الساحرة لا تتمتع بمكانة اجتماعية أو اقتصادية مستقلة . ولكن أهم عامل كان يستحث على اتهامهم بالسحر هو رفض الانترام بالاحترام والاحتشام عندما يتطلب الموقف ذلك . ولقد كن تصغر بروج عدوانية مماثلة عند تعاملهم مع المتساويات معهم فى المقام من آثارهم .

بد أن القمرة على استحضار نموذج ثامت للسلال المشتركه للساحرة ، لا تمثل أكثر من جانب واحد من المشكلة ، فهلا استطاعة وصف نموذج الساحرة بأنها امرأة منزوعة متوسطة العمر من الريفيات من الطبقة الدنيا ، ومن المروقات سلطة اللسان والبنانة . أما المشكلة

التماقة تتمدد التماذج البنية فترجع الى قصور الاستعانة بها عند التفسير ، لان هناك عددا كبيرا من الساحرات الاسكتلديات لا يواس من النودج المبني الانف الذكر . ومن الغريب ان لا تنهم أية امرأة من بين العدد الهائل من السوء اللاتي طابقت المرافقات حالتهم بالسحر ، او لمكن التعرف عليهن اعتمادا على هذه الأوصاف . وفي هذه النقطة ، فعل نظرية « الأوصاف » التي جاء بها علم الاجتماع تحقق شتا من النفع ، باعتبار هذه النظرية تعتمد على العناصر الدينامية في عملية العرق ، ومن ثم فانها تكشف الحالات التي تتعرف اجتماعيا عن الأوصاف المحددة . فهناك تفاعل متواصل بين الفرد والمجتمع . وفي جميع طريقة الأوصاف ، ثمة تضديد على التمارات المحركة المتغيرة ، لأن الانحراف لا ينظر اليه كحالة ساذجة ، وانما كحقيقة دينامية للتفاعل الاجتماعي ، لا تتوقف عن تشكيل وإعادة تشكيل العمليات الدينامية . ويقال ان هذه الحالة تحدث في ثلاثة مستويات من الفعل الاجتماعي : ( أ ) اشمل القاعدة الجماعية . ( ب ) التفاعلات بين الأشخاص . ( ج ) العمليات التنظيمية .

فيقوم انشاء د القاعدة الجماعية ، التي نظر بموجبها الى ممارسة السحر على انه امارة أو حرية ضد المجتمع ( ١٥٦٣ ) ، وطبيعة إعادة تمريرها ، أثناء محاكمات ( ١٥٩٠ - ١٥٩١ ) وتسميتها « بالخيانة » . ما كانت لتظهر حالات مطاردة الساحرات في اسكتلندة . وبلاستطلاع التوسع في شرح هذه الحجة ، والقول ما كانت لتوجد ساحرات تابعات للشيطان . ولقد اختفت بالضرورة هذه النوعية من الساحرات من أعالي اسكتلندة أثناء حقبة المطاردة ، واختفت اختفاء مطلقا في أواخر القرن السادس عشر ، واتجهت الساحرات الى تخصصات مختلفة . فكانت هناك مشغولات بالمداواة ، وقارئات طالع ، ومتخصصات في التسميم ، وصاحبات أعين شريرة ، وشتمعات . وكان بالاستطلاع عند تسمية كبريات - خصوصا المعتقدات في الضغائم - بالسحرة ، والاختلاف بينهما وبين ساحرات الساحل الشرقي في القرن السابع عشر ، وساحرات الأراضي الواسعة مزدوج . فالولا - لقد تغيرت صفة الساحرة ، وتحولت الى معنى يجمع بين التزم ومعاذاة المجتمع من بكرة أبيه . فلم تعد الساحرة الحديثة مجرد عدوة لأفراد معينين أو حتى لقاطمة ما ، ولكنها أصبحت عدوة للمجتمع بأسره ، وللبلدة بل ولله . فانينا - أدى وجود المستوى الثالث من الفعل الاجتماعي ، وأيضا العمليات التنظيمية المستحدثة الى جعل عملية السحر أكثر اقادة للمجتمع . لعل هذين العاملين هما اللذان أوحدا دورا آخر على المستوى الثاني ، بمعنى الخاص بالعلاقات الشخصية بين الأفراد .



وفى عملية تحقيق شهرة في المجتمع ، هناك عنصر هام يحقق اتصالا بين الوصف الساكن لأصاوغ المجتمع والشخصية الأكثر احتمالا لاجتذاب الاتهام بممارسته السحر والحرف على شخصية الأفراد الذين اشتهروا بالنقل الى المحاكمة . هؤلاء هم أصحاب المنهم ، وأقاربهم ، وأعوانهم . ولا وجود لما يسمى الأربابل بشخص ما ثبت الاشارة منه بالفعل لكن اقتبست عملية « الأوصاف » صحتها . ولقد سبق أن تحدثنا عن حالة ابنة أحيس غيس وغالبا ما يكون قد أطلق عليها اسم « سليلة السحرة » (٣٠) في المرحلة الأولى بعد أن اعتقد أن قوى الشر منتقل من الآباء والأمهات الى الأبناء ( ولا يتوافق مثل هذا الرأي بسهولة مع فكرة التعاقد مع الشيطان ) . ونمثل هذه الحالات التي اتى الضوء عليها أمثلة حوكت فيها الأم والأبنة سويا ( قلولا ذلك لتصور التعرف الى صلة القرابة بينهما ، عندما تكون الأم قد استعملت باسمها ، بينما سميت الابنة باسم الأب ) . وهناك قصة تروى عن أم وامة قمتا للمحاكمة ، وبعد ذلك يستثنى وفى استئتمنة أيضا أعدمت امرأت مجهولة وابنتها سويا . ولابد أن تكون هناك حالات أكثر من ذلك انتقلت فيها صفة الساحرة من الأم الى ابنتها وترتب على ذلك إما اقتران هذه الصفة بالابنة الى الأبد ، لم وجه الاتهام إليها بحكم هذه الصفة فى تاريخ لاحق . نعم لقد كان لقب « سليلة السحرة » من المصطلحات المعتادة الشائعة فى حياة الريف .

وهناك صلات أخرى لها أثرها أيضا . وفى ١٦٢٩ ، كلف الشريف هاديتحون بمحاكمة حسن كازفرا وزوجه اليسون بورثويك وشقيقه توماس كازفرا ، ووجه اليهم الاتهام أيضا لانهم استشاروا مرجوت هاملتون وبيرى كازفرا الذى كان فيما يظن من الأقارب الآخرين ، وقد أحرق بالفعل لاتهامه بالسحر . والقريب المؤلف من زوج وزوجة من الحالات الشائعة فى عالم السحرة . وفى غرب لوثيان فى فبراير ١٦٢٤ ، حوكت الزوات باريس من وزوجها . وفى الشهر التالى حوكت وليم فالكونر وزوجه برفقة مجموعة أخرى من السحرة . وهناك حادث آخر قرب أدبره ١٦٥٥ ، شتى قب له ولم حارتون وزوجه تم حرقا . على أن المعرفة الشخصية قد تكون مبررا قويا أيضا لتوجيه الاتهام بالسحر . فعندما حوكت الزوات هاكسويل ١٦٥٠ ، زعم أنها كانت شريكة لامرأة حوكت قبل ذلك بثلاثة سنوات . واعتقد أن هذه الحالة من المعادلات الشائعة فى « كار » السحرة . غير أن مثل هذه الصلات والروابط لم تكن أكثر من مؤثرات عابرة فى خلق السحرة . إذ يحتاج ذبوع الشهرة عادة لبعض الوقت ، وبعد مسالة ديتاسة قوامها التفاعل الاجتماعي بين الساحرة وجراتها ، وأن يقترب ذلك بتعزيز

كل طرف بانتظام للطرف الآخر . ولعل اجنيس فيس ، والتي تحدثنا عن قدرتها على حب الصناديق والذوات قد صيرت مثلا كالميكانيكا للنقطة من التسمية الأولى الى النسبة الماسة ( يقول اللقب الى اليهودي بالدور المصاحب للقب ) معنا قال : يوم اتحول الى ساحرة حقا ، سنهضمون الى ميرز افضل لتسميتي بهذا الاسم .

وللاسف ليس بمقدورنا أن نذكر سوى القليل عن المرحلة المبدئية المألوفة المدقة في الطريق الى اكتساب السحرة السميطة بالانتماء الى طائفة السحرة . لأن تقاوير مثل هذه الحالات تضم عادة مجموعة من الاتهامات يرغم منها وقعت في فترة رسمية ، ولكنها جمعت بالتأكيد في لحظة من الزمان . وأحيانا تعرف فوارج الأتنام التي ارتكبت ، ولكن ربما تكون بعضها قد اعتمدت على التذكر أو وثقت في ضوء آخر بعد أن تكون السحرة قد توطئت أو استقرت . وهذا مجال آخر من المجالات التي تساعد فيها أية دراسة موسوعية مكثمة على إلغاء الضوء بعد مضاهاة الشكايات الباكرة من السحرة في محاكمة كيرك بالقضايا التي عرضت أخيرا على المحاكم .

وتختلف من حالة لأخرى المدة الزمنية التي استغرقتها ذبوع شهرة للشغلين بالسحر . وهذا عامل يهم ما يقال عن أن كثيرا من اشتبهوا بممارسة السحر استطاعوا المشي بعد أن كشف أمرهم ، ثم ماتوا في فراشهم ميتة طبيعية حتى ايان القرن السابع عشر . وعاش بعض السحرة ممن اتهموا في نهاية المطاف ، وهم يحصلون لقب الساحر لمدة تكفي للذبوع صيتهم كمتشغلين بالسحر . ففي إحدى الحالات ( ١٦٣٩ ) استمر ذكر الساحر يمارس محله . وهرقت جائيت تبلور التي اتصفت عن ستراليج ١٦٣٤ باسم « ساحرة مونزا » . وعرضت أخريات باسمه مستمدة من صفات شادة كان من المستطاع أن تطيح بهن الى هامش المجتمع - ولدينا مثلا ميج الطرشاه (\*) التي ساعدت اصابتها بالخصم على ذبوع اسمها . وحوكمت بصحة أربع ساحرات أخريات في موريك ١٦٢٦ . وأغرب من ذلك حالة رجل اسمه لوشيبالد وات من لانكشير ، الذي عرف باسم « نعل حذاء حليف الشيطان » ( ٢٨ ) .

وهناك آخرون استمرت شهرتهم لمدا طويلا دون أن يعرفوا لقب خاص . وعاش عديرون ، بعد أن ناعت ألقابهم الغامضة ، أو ربما لم تطلق عليهم أية ألقاب - يستمرون بالشهرة سنوات عديدة قبل أن يقدموا في نهاية الأمر للمحاكمة . فرائينا مثلا جانب لايث ( ١٦٢٨ ) من نيلوى قرب

ادبره تعرف أنها استمرت زهاء ثمانى عشرة سنة أو يزيد ، مستشير الشيطان وأنها وفت له اعتبارها . واستغنت عن مراسم التصيد ووعيت نفسها للشيطان . أما ولیم كريشون فيقول ( ١٦٤٨ ) بعد أن مر بفترة عسيرة . وبعد أن عاود القسس ، أقسم على الاعتراف بأشياء نافقة ، وانتهى الأمر بتعاقد مع الشيطان لمدة أربع وعشرين سنة يبقى فيها تحت امرته ، وبما زال حتى الآن فى هذه الخنعة .

إن نظرية « الأوصاف » قد تنقلنا بعيدا فحسب إذا حاولنا تصور لماذا انتخب أفراد بالذات من المشتركوا فى الصفات التقليدية هم والآخرون لكى يوجه لهم الاتهام . إن هذه النظرية توضح لنا ما يحدث خلال مرحلة تميز صفة السحر . ولكن إذا استبعدا جابجا ما حدث عند اشتعال بذات الساحرات بمهنة أمهاتهن ، فإنا نرى أنها لن توضح لنا كيف بدلت عملية السحر . وليس يفتقروها فى الملاذ الأخير أن ثبت أكثر من أن هؤلاء الأفراد قد وحدوا فى الموضوع الخطأ والزمان الخاطئ .

وعندما نرتد من طريقة اختيار الفرد إلى الخصائص الكلاسيكية أو التقليدية سنرى استمرار وجود مشكلة تتعلق بالعلاقة بين نوعية الشخص المتهم بممارسة السحر وازدياد اضطهاد المستغنى بالسحر ، فنرى بعض أدلة تشير إلى أن هذه العلاقة مباشرة - فمطاردة السحرة مرادفة لمطاردة النساء ، أو على أقل تقدير مطاردة للنساء اللاتي لا يتجاوبن مع وظيفة الذكور إلى السلوك الذى يتوجب على المرأة اتباعه . ومن الأمثلة المنقولة عن الأنثروبولوجيا حالة النوب (١٢) فى عشرينات القرن العشرين ، ولقد ذكر « نادل » كيف كانت النسوة تستغلن باقراض المال والتجارة . وكان أبناء الثواب فى كثير من الأحيان من المدينين لهن . وعاشت هؤلاء النسوة حياة مستقلة ، فكن يخرجن عشاءتهن ، وقلبا أقيمين أطفالا ، وهذا يعنى تحديهن للمثل الأعلى التقليدى للنسوة المستغلات بخدمة الرجال والأطفال ، ومن هنا جاء توجيه الاتهام لهن بالاشتمال بالسحر .

ولا يتوافق لنا ما يكفى من أدلة لتقرير هل كانت مكانة المرأة تنعبر تغيرا جذريا فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر والقرن السابع عشر على غرار المثل الأكثر تحديا وخصوصية الذى نوه به نادل ؟ لقد قيل أن مطاردة السحرة كانت بمثابة هجوم من الذكور الممارسين لمهنة الطب حديثا للإناث ممن يمارسون العلاج . وهناك قدر من الأدلة المؤيدة لهذا الرأى . ففى اسكتلند ١٦٤١ عند التصديق على منح امتيازات للجراحين فى ادنبره

لوسط وجود نسوة غير مؤهلات سارمن عمليات الجراحة بطريقة غير مشروعة في المدينة ، وأمكن التعرف على عدد من المتنبه في ممارستهن للسحر أثناء اشتغالهن بالعمل كقابلات - بيد أن الصلة ليست مباشرة بما فيه الكفاية - فلقد حدثت اغتصاب مهنة القابلة من قبل الذكور في القرن الثامن عشر ، بعد أن انتهت عملية مطاردة السحرة - وتركزت الاعتراضات على قيام الإناث بعملية المداواة في المدن حيث تتمتع المحترفون الذكور للممارسون للطب بقوتهم ، وحرم اشتغال النسوة بالمداواة ، بيد أنه من غير المقدر رد العدد الكبير من أحداث الاضطهاد إلى امتحان الرجال لعملية المداواة .

وهناك حجة مختلفة ترى أن خضوع الزراعة للنظام الرأسمالي قد أضعف من دور النسوة ، وجعله قاصرا على انجاب الأطفال ، بدلا من الاشتراك في الإنتاج الزراعي - غير أن من يقيمون هذه الحجة لا يستطيعون أن يخطئوا ببعض الحقائق - فلا وجود لما يكفي من الأداة لدمج - أو ما هو أسوأ للارتياح - في أية نظرية رحيمة عن التاريخ الاقتصادي للنساء . ويوجه خاص فإن توقفت هذا التغير الكبير يبدو أنه قد اختلف من موضع لآخر في أوروبا . وحدث في أغلب الأماكن بعد انتهاء عملية مطاردة السحرة ، والقول بأن هذه القضية قد شجعت ازديادا في عدد النساء اللاتي لا عائل لهن من الصعب أيضا التدليل عليه - كما أن عملية مطاردة السحرة لم تكن موجهة في المقام الأول لهن .

فإذا انتقلنا إلى جانب الأيديولوجيا ، سنبقى الأكثر اقناعا هو القول بأن قصة مطاردة الساحرات ما هي في الواقع إلا قصة مطاردة للنساء - فالنموذج النمطي للساحرة لم يكن المرأة ذات الأطفال ، ولكنه كان المرأة المراهقة التي تحيا حياة مستقلة - ولقد طالب المين في عصر الإصلاح الديني والحركة الكاثوليكية المناهضة للإصلاح البروتستانتي ، أن يكون واجب النساء الأول هو المسؤولية الكاملة عن إرواجهن - والحق أن الوعاظ قد اتهموا عن مهمتهم عنعنا جسموا بين الرجال والنساء في مواعيلهم - غير أن تقرب الدين من القمص قد انزعج من النساء باحدى اليدين ما أعطاهن باليد الأخرى ، لأن العصبورية المميزة للدين قد اتصفت بشدة اتباعها للبطيركية أي المجتمع الخاضع لسيطرة الأب - وكانوا يدعون في مقدسهم وعظاتهم إلى تصاف النساء بالنقص الروحي والفتنوى - ويدعون في ذات الوقت إلى المسؤوليات الشخصية الجديدة التي خصصت لهن . وبذلك اتخذت مكانة المرأة شكلا متفارقة وفقا لما تدعو إليه الأيديولوجية الجديدة .

فلم يسمح باحتياد عملية ممارسة السحر الا للنسوة اللاتي يتمتعن بحرية الارادة والمسئولية الشخصية الموسوعة لهن . وتمثل هذه الحالة تقيدا ملحوظا في مكانه المرأة في اسكتلندا على اقل تقدير . فحتى العهد الذي سبقت فيه حرية ممارسة السحر بالطابع الديني . كانت جرائمهن تلقى بحتها على الأزواج والآباء . وكان يماقن بالجلد . الذي اعتبر آنسب عقوبة للأطفال . وعندما أصبح ساحرات مظهر البهر كجرامات بالغات يتصرفن على نحو لا يحد الأزواج مسئولين عنه . ومن هنا بالمقصور النظر لطائفة السحرة كعملية لحماية التراجع(\*) ضد ارتقاء المرأة لمرتبة بالمقامات المستقلات . ان النساء اللاتي كن يتعرضن للاتهام من اللواتي تحدين النظره البطوريكية لنتل الاعلى النسوى . ولقد اتهمن من قبل الرجال وايضا من قبل نساء احريات من اللواتي تجاوبن مع تصور الذكر لهن . وشعرن بتهديد الاعتقاد بوجود حوية بينهن وبين المخلفات عنهن .

ان هذا التفسير هو اقرب التفسيرات التي سادت بين مطاردة الساحرات ومطاردة النساء . لانه اختلف عن هذه التفسيرات الأخرى بمراعاته التوقيت التاريخي الصحيح . ومع هذا ورغم ما بين مطاردة الساحرات ومطاردة النساء من علاقة وثيقة، الا انهما ليستا متماثلتين تماما، ولا يصح النظر اليهما كظاهرة واحدة متماثلة ، فيبينها درجة من الاختلاف . اذ كان مطلب التوافق الأيديولوجي بكل بساطة أوجب من المطلب الذي يمثل جانبا واحدا من جوانبه ، يمس الحاسب الذي اعتم بمكانة النسوة . وهكذا يكون النقاش الرامن حول العلة المباشرة للتفرد المزعم لمطاردة النساء في انجلترا . والمكانة المتعددة للنساء في انجلترا قد تسمى قصوره . اذ كانت مطاردة الساحرات غاية في ذاتها ارتطفت ارتباطا مباشرا بضرورة فرض التوافق الأخلاقي واللاموتى . اما حقيقة كون مسنة عالية من بين من اخبروا في هذا المقام كمتحرفين كن من النساء فلا اتصال بينها وبين هذه الفاية الأساسية .

---

(\*) أشبه بما يقوم به المرحس للتلف في المعارك الحربية

## المراجع

- Norman Cohn, *Europe's Inner Demons : An Enquiry inspired by the Great Witch-Hunt* (1975).
- Gustav Henningsen, *The Witch's Advocate : Basque Witchcraft and the Spanish Inquisition (1609-1614)*, 1980.
- Richard Kieckhefer, *European Witch Trials : Their Foundation & Popular and Learned Culture 1300-1500* (1976).
- Alan C. Kops and Edward Peters, *Witchcraft in Europe 1100-1700* (1979).
- A. D. J. MacFarlane, *Witchcraft in Tudor and Stuart England* 1970.
- F. William Monter, *European Witchcraft* (1969).
- Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic* (1971).

## الحياة الأسرية الانجليزية

### كايت رايتسون

في إنجلترا إبان القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، كان الرجال يتزوجون عند بلوغهم أواخر العشرينات من أعمارهم . بينما تتزوج النساء ومن في منتصف العشرينات من أعمارهن . ويعكس هذا النمط الأخير للزواج الذي تشترك فيه أنحاء كثيرة من أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، تصور الإنجليز أن الزواج ميزة وليس حقا . ويمكن تحقيقه في من يكون فيها الرجل والمرأة قادرين على الاعتماد على نفسيهما كنواة لأسرة مستقلة .

ويقال أن الأسرة الإنجليزية قد تطورت من خلال ثلاثة أطوار شعرية متميزة . فبعد أسرة القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، التي اختلفت بقدر مشعرها ، وخضوعها للنظام البطريركي ، جات حياة أسرية أكثر انساما بالقبضه وأقل سلطوية في أواخر القرن السادس عشر ، والقرن السابع عشر ، وانتهى الأمر بالأسرة « الحديثة » للتحابة المتعاطفة في أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . ويقال أن الزوجات والإبناء قد منحوا في كل طور من الأطوار المتعاقبة حرية أعظم ، بعد أن شاركت الزوجات أزواجهن بنصيب أوفر في القوة والنفوذ . ولم يقتصر الأمر على اكتساب الإبناء حق التصويت (الاعتراض) على أية زيجة تعقد بطريقة متفرقة ، بل واتصلوا المبادرة في اختيار رفيق حياتهم أو رفيقة حياتهم .

وطبقا لما نقوله كايث رايتسون ، فإن هذه الصورة زائفة ، ولا تمثل حقيقة الأسرة الإنجليزية ، ولا يمكن التكاثر وجود تأثير قوى للوالدين في عائلات صفوة أهل المدن والوجهاء ، عضا كليات الصروح والكنائس القائمة على المال لتأثر بالزواج . غير أنه حتى في هذه الحالة ، كان يوسع الإبناء اتخاذ المبادرة في اختيار رفيقة حياتهم أو رفيق حياتهم . فلا وجود

لأية أدوار يمكن اكتشافها تدل على حدوث ازدياد في الزوجيات المتطابقة ،  
أو نقصان في السيطرة على الزوجيات والابتداء ، إذ يتمتع ابتداء الطبقات  
المنخفضة بقدر أعظم من الحرية بحكم تركهم لبيوتهم في وقت مبكر سعياً وراء  
الرزق ، واحتكائهم بدرجة أقل بأبائهم وأقربائهم ، ويتمتع ابتداء الطبقة  
المتوسطة بالحسرية أيضاً بالرغم من حرصهم على مواظبة الأبوين ،  
واستمرارهم لهم في المسائل الوجدانية ، وفي المجتمع الانجليزي في جملته ،  
قامت حرية الاختيار ، بل والغرام ، بدور أساسي في الزواج .

### الزواج وفرص الزواج

الزواج ، طبقاً لما قاله وليم بركنز « اقتران شرعي لزوجين يعني رجلاً  
وامرأة في جسم واحد » ، انه حالة مبعده أمر الله بها في الجدة لتحقيق  
غايات رئيسية أربع :

أولاً : اتجاب ذرية .

ثانياً : استمرار بقاء الكنيسة .

ثالثاً : اتباع الرغبة الجنسية .

وأخيراً : تبادل العون والارتياح الذي يحققه كل طرف للطرف الآخر .  
إنهاء هذه الأسباب جميعاً ، يجمع اعتبار الزواج « أساس شتى مظاهر  
الحياة في الكومنولث والكنيسة ومدرسة لتعليم الحياة من شتى  
جوانبها » .

واعترف في القانون الكنسي بثلاثة أشكال « للاقتراح الشرعي » .  
الشكل الأول - هو أكثر الزواج اوصافاً ، ويمثل قراباً كنسياً ذا مسحة  
وقور يعقد في رحاب الكنيسة ، بعد إعلاء رسمياً ، أو بعد الحصول على  
إذن بإعفاء الطرفين المعنيين من هذا الإجراء الشكلي ، واحتلقت الكنيسة  
الانجليزية عن كنائس القارة الأوروبية في بعض نقاط - إذ استمرت تعترف  
بشرعية الترابط باتباع شكلين صحيحين آخرين للزواج ، رغم عدم اتباعهما  
النظام الأصلي للزواج - فالتمهد بالزواج باستخدام كلمات تعبر عن صيغة  
الحاضر أمام شهود يمثل رابطة الزواج ، وأيضاً التعمد شفهاياً بصيغة  
المستقبل - شريطة أن يكون قد نبه اتصال جنسي ، وبالإستطاعة اعتداد  
الموافقة على الزواج ، لو صغرت عن شخص تتجاوز سنه السنوات السبع .  
وبالامكان اكسال الزيجة جنسياً عند بلوغ الفطمان سن البلوغ ( ١٤ سنة )



وبلوغ اللغيات سن الثانية عشرة . وليس من حق الأشخاص المتزوجين فعلا ، أو الطرفين اللذين اتفقا على التعاقد ، الزواج من طرف آخر لانتهاء زيجة صحيحة . ويحرم زواج أى رجل بامرأة تربطها صلة قرابة أو صلة دم . أما باقي الحالات فالزواج مباح لها لجميع الطوائف والمذاهب ، بلا استثناء . كما قال يركينز .

ليس كل ما قلناه موضع خلاف . غير أن الزواج فى إنجلترا كان فى الحق أكثر تعقيدا وأقل تجانسا مما وود فى التعريفات التقليدية للدعاة الأخلاقيين ، أو الشروط التى اشترطها القانون . وما من شك أنه الزواج تنظيم أساسى ، ولكن مسلك المتزوجين كان بعيدا عن الاطراد . فلقد عكست مبادسة الزواج عند الانجليز بفضل القوة النسبية للشخص الانجليزى على الزواج ، فى السن التى يرونها مناسبة ، وفى الطريقة التى تتبع فى الاختيار المتبادل للعروسين . وفى المييار المتصع فى الاختيار ، عكست خضوعا للحاجات وللناسبات المختلفة ولوضعية الأشخاص وانحدارها من طبقات اجتماعية مختلفة . أكثر من عكسها لسنة مدوكية أقل اطرادا .

تم طروراج مباح للجميع وإن لم يكن كل شخص قادرا على الزواج . فخلال ١٩٠٠ أو يريده من النسبة المئوية تجاوزت سن البلوغ قد أمضين حياتهم بلا زواج . وبالقول نظريا التعاقد على الزواج ، وانتهاءه من قبل أى غلام أو فتاة فى سن البلوغ ، ولكن الانجليز يتزوجون فى سن متأخرة . إذ كان متوسط أعمار الرجال فى الزواج الأول فى الطبقة الواقعة بين ١٦٠٠ و ١٦٤٩ ( ٢٩١ ) فى إحدى المدن ، و ٢٧٨ فى مدينة أخرى و ٢٦٧ فى مدينة ثالثة . وهكذا . بينما كان متوسط أعمار النساء فى نفس الأبرشية فى الطبقة ذاتها على التوالى ( ٢٥٩ - ٢٥٩ - ٢٧٣ - ٢٨٤ - ٢٨٤ ) . وفى نطاق هذا السط الذى يمثل بالمقارنة تأخرا فى سن الزواج ، لوحظ وجود تنوع فى سن الزواج يرجع إلى امتداد الأزواج وهنا مختلفة ، وإلى انتماهم لطبقات اجتماعية مختلفة . وعلى الرغم من احتياج هذه المشكلة إلى مزيد من البحث والاستقصاء أكثر مما حظيت به حتى الآن ، إلا أنه يبدو واضحا حيا بوجه عام أن أبناء الطبقة الأرستقراطية وعلية القوم يتزوجون فى سن أكثر من السن التى يتزوج فيها أبناء الطبقات الاجتماعية الأدنى فى مستواها . بينما يلاسط عند عامة الناس ، اقبال المهنيين والحرفيين والصناع على الزواج فى سن أبكر من السن التى يتزوج فيها الأعيان والمراعى .

ويبرز الانجليز في ناحية الخصائص الأساسية لمسلكتهم الزوجي في نطاق ما أصبح يسمى « سط الزواج الأدبي » . ويجمع هذا السط بين السن المتقدمة للزواج الأول للنساء ، بالإضافة الى نسبة لا بأس بها من حالات العروية للنساء . ويمتد نطاق هذا السط - تاريخيا - من بحر البلطيق شرقا الى المحيط الأطلسي غربا . ومازال أصل هذا النمط مطاطا بالغموض ، ولكن النتائج الديموجرافية التي ترمت عليه واضحة للغاية . لأن مثل هذا المسلك قد وضع قنونا ملحوظا من القيد على القدرة على الانجاب عند الكفاية . فإذا سلمنا بمرور المرأة مرحلة تبدا بفترة الحيض التي تقع في مستقبل أعاصيرها وتنتهي بانتهاء مرحلة الشباب ، كان معنى ذلك أنهن يضيأن أزمن قترات حياتهن خصوبة بلا زواج ، بينما لا تتمتع أقلية كبيرة العدد على الإطلاق بفرصة حمل لحقال شرعيين . غير أنه من المتشكك فيه أن يكون المعاصرون قد تطروا الى هذه المسألة على نفس النحو . فكما بين ويجلي (٣) : لقد كان الاتجاه الديموجرافي العقلاني للنظام السائد لا شعوريا الى حد كبير . وخصص هذا الاتجاه لتقليد اجتماعي عقلائي يحيط بناحية المؤهلات التي يتعين توافرها لتحقيق الزواج . أكثر من خضوعه لاية حسية لأنار الديموجرافية . ان هذه العوامل هي أساس نظم الزواج والأسرة في العصر . وقد مدت واقع الحياة اليومية ، وما تنبئه من فرص للزواج . ولعل أهم هذه العوامل هو اعتبار صغار الأشخاص - أو صغار الشباب يسمى أصح - أكثر استجلاء للزواج عندما يبلغون اللحظة التي يكونون فيها قادرين على تكوين عائلة مستقلة ، والحفاظ عليها .

وكما رأينا ، فإن الأغلبية الساحقة من العائلات التي تتألف منها الوحدات الأساسية للمجتمعات المحلية في إنجلترا كانت تتكون من عائلات بسيطة أشبه بالذرات ، تضم دور إقامتها - أو لا تضم - مكانا لا يواء الحدم . وهناك أقلية من الأسر الأضخم عددا ، والتي تشترك في مسكنها مع الأقارب بحكم بعض الظروف الخاصة . ولكن نادرا ما وجدت حالات يشترك فيها الأزواج حديثو العهد مع والدي أحد الطرفين المتزوجين في نفس الدار . وتتمتع هذه الحالة في بعض الأسر الأرستقراطية التي تزوج فيها الإبناء صفارا . وربما حدثت في بعض حالات بعض من هم أدنى مستوى في السلم الاجتماعي كاجراء مؤقت ، أو الاشتراك في الميراث . غير أن أمثال هذه الحالات ليس هي القاعدة المتبعة في إنجلترا ، يمكن ما يجري في المجتمعات الريفية الأوروبية . وليس من شك في وجود حائل ثقافي لا يتشجع على اتباع مثل هذا الأسلوب في الحياة . وتصح ولهم واتلى زوجين مقبلين

على الزواج : « لو قدر لكما وزوجتما ، فليكما بالعيش مستقلين ، لكي تنحيا بحياة أسرية حقة » - فقد رأى أن اجتماع ربي أسرتين وورثتي أسرته في مكان واحد سيؤدي إلى ارتفاع جميع الأطراف ، وبخاصة في حالة السواد الأعظم من العوام . ونصح بتجنب مثل هذه الحالة بقدر الاستطاعة . إذ يتعين أن يبدأ شباب اللروجيين زيجتهما في دار خاصة بهما ، وأن يعتمدا على نفسيهما ، وعادة تنبع هذه القاعدة .

وإذا سلمنا بهذا الرأي ، فلا بد من تأجيل الزواج إل أن يبلغ الطرفان الحد الأدنى من السن القانونية والتقنيولوجية ، أي إلى النقطة التي يستطيع فيها تأمين قدر كاف من الاستقلال . وأحيانا ، قد يترقب على ذلك انتظار وفاة الأبوين ووراثتهما ، وإن كانت هذه الحالة قليلة المصير - والأكثر شيوعا هو اعتناء الطرفين المتوقع اقترانهما إلى حل آخر ، يحسه على جمعهما لثغراتهما الشخصية ، بعد امتحان راتبهما جانبا ، لكي يدفع منه اجر الثمن ولتقديم العون المالي للأبوين . ويساعد الأب والأم في الأسر الميسورة الحال الروجيين بتزويدهما بحساب من أثاث بيت الزوجية أو المال . ويتبع هذا الاجراء عند كبار المزارعين والصناع والأرستقراط على حد سواء ، وإن كان مقلد العون عند عامة الناس قلما ارتفع إلى ما هو أكثر من المساعدة والإسهام في اقتناء أسرة جديدة .<sup>١٠</sup> وإذا تمعز الحصول على مثل هذا العون ، فلا بد للزوجين من التفرغ بهذه المهمة امتحانا على جهودهما الخاصة . وفي حالة الطبقة العاملة الفقيرة لعل الحصول على عمل منتظم واستحار كوج هو السبيل الأول ، ولتحصل على النجى عن وسيله للحصول على قطعة أرض أو قطعة من الماشية . ورغم هذا فإن أبناء هذه الطبقة قد يحتاجون إلى بعض المقتدرات لتوفير الاحتياجات الأساسية للحياة الزوجية - وتستغرق هذه الاستعدادات بعض الوقت ، وقد تشغل الزوجين معا ، اللهم إلا في الحالات التي تلحق فيها حوطة مجزية للفتاة عند سن مبكرة . ويتكشف تغافل هذه الحقائق في توقعات عامة الناس في عدة أمثلة . ابتداء من نصائح الأيوين ، التي تتراوح بين مثل هذه النصيحة التي أسداها جيمس مانكس لابنه بأوجاه زيجته إلى أن توافر له القدرة الكافية على إدارة مزرعته(\*) ، إلى الردود التي لجاب بها رفاق الحال عندما سئلوا أمام مكتب الزواج بالكسيسة عن بوابهم بعد الزواج . فمثلا رأينا أدوارد نورتنون يقول للشماس في أبرشه سان نيقولا في أكسفورد أنه وعد فابيرن بالزواج « شريطة أن يوفر لها سكنا » ، بينما يعلى جون ملك . داستو عن نيتة الزواج من أورسولا حول في عد القديس ميشيل القادم

عندما يجد سكنا لها . وإذا راعينا الملة التي يستغرقها اعتماد هذا السكن ، وإن اقامة الزوجين قد تتعاقب في يوم لا يعلم إلا الله متى يحين ، لشخصين بقيامه في مكانين مختلفين ، فلا غرو إذا وأنها تنوعا في متوسط سن الزواج يمكن ملاحظته في مختلف الجماعات الاجتماعية ومختلف المناطق في مستوى معيشتها . وينعكس ذلك على فرص الزواج . وبمصر النظر عن الاختلاف من حالة لأخرى . إلا أن الملحوظ بوجه عام ، هو اعتبار الزواج وتكوين أسرة في هذا المجتمع ميزة أكثر من كونه حقا . أنه شيء يتطلع إليه الجميع ، وإن كان من الآمال التي لم يستطيع بعض تحقيقها البتة . بينما من يتجنون قد يحققون ذلك في سن متأخرة نسبيا . أنها حقا سن متأخرة ، إذا راعينا قصر فترات التوقع بالمقارنة . ومن ثم هذه الاستقلال الاقتصادي المقوم الأساسي للزواج . وقد أثر التفاوت في تحقيق هذا الاستقلال تأثيرا عميقا في فرص الزواج لكلا الطرفين والجماعات الاجتماعية . وبسبب ذلك حله العقبات . تتراوح مسألة القدرة على الزواج أمام مسألة اختيار العروس . . وسيتركز كلامنا على هذه المسألة .

### اختيار الشريك في الزواج

بعد اختيار الشريك في الزواج مشكلة جوهرية - فالولا - من المحتمل أن تؤثر على مدى استمرار الزواج ، وفروعه . ولكن الأهم من ذلك هو تأثير الأسلوب المتبع في اختيار العروسين ، واحتمال تعديده طابع الزواج في هذه الفترة ، وما يحدثه من أثر عميق في نوع العلاقة داخل أسرة مؤلفة حديثا . والحق أنه بالمقود أدوار التحولات التي لحقت بالسلوك العائلي . الذي أدركه لورنس ستون في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر في أوضح صورة ، فقال : « في الأسرة السلطوية المجردة من المواقف ، والتي تنعم بأقل قدر من حرارة المشاعر . والتي لا تنفذ بحسب أو نسب ، كان الوالدان والأقارب هم الذين يحرون ترتيبات الزواج لأسباب اقتصادية واجتماعية بعد استشارة الأبناء في لضييق نطاق » . وفي المقود الأخيرة من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، بزغت صورة جديدة للأسرة أكثر انفتاحا أمام التأثير الرهيب للأقارب ، وأقرب إلى العفة في العلاقات المنزلية . وظل الأيوون يستعان بسلطان مطلق في اختيار أسانهم وبناتهم لشركاء حياتهم وحياتهم في هذه الأسرة البطيورية القيد . ولكن المرشحين للزواج من الشباب منحا حل القيتو ( الاعتراض ) . واستمر

---

Upon condition that she would stay until he could provide (١٤)  
him of an dowry.

هذا الموقف قائما حتى أواخر القرن السابع عشر ، والقرن الثامن عشر ، حيث حدث تحول مزدوج . إذ أفسح حق اختيار الأيوين للفروسين ، والذي تطلب باباحته حق الابن أو الابنة في الاعتراض ، المجال أمام اختيار الابن ، مع خضوع هذا الاختيار لموافقة الوالدين . وحلت المشاعر الشخصية والقدرة على التحول محل الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية كمحيار أساسي للاختيار . وبشرت هذه التحولات بيزوغ شكل ثالث للأسرة ، يسمى الأسرة الصغيرة القائمة بذاتها ، الأشبه بالنواة والمعادلة على خدمة نفسها بنفسها . وفيها سمح بقدر أكبر من الاستقلال الذاتي للزوجات والأبناء ، وبظهور روابط شعورية أقوى . ويرى مستون أن هذه التحولات المتعاقبة في العلاقات للشعورية داخل الأسرة الانجليزية قد مثلت « أهم تغيير في العقلية حدث في بواكير العصر الحديث » . ولا يستبعد أن يكون هذا الحدث يحق أهم حدث في ألف السنة الأخيرة من تاريخ الغرب ، لأنه وضع حجر الأساس للأسرة ، كما نعرفها . وكانت الصفوف العليا والوسطى من المجتمع الإنجليزي هي التي اتخذت المباداة في هذه العملية الهامة البعيدة الأثر . ومنها انتقلت إلى الطبقات الدنيا بفصل انتشار « التفاعل بين الطبقات » ، وشهد القرن السابع عشر أخطر طفول واقتحام وتطعيم للفروصيل وتقاليده الاحترام في النظام البطروكي في العلاقات الأسرية ، مما ساعد على ظهور النزعة الفردية الشعورية « ( ٢٥ ) » .

وتمثل حجب سنون القوية وفروضة الجريئة أكبر محاولة طموح حدثت حتى الآن لتفسير تطور الأسرة الإنجليزية عبر الزمان . ومع هذا فإنها عرضة للتشكك ، بقدر خطير في ناحيتي تحديثها لخصائص الحياة الأسرية في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر في إنجلترا . وفيما ذكرته عن التغير في نطاق هذا العصر ، وعلى الرغم من أن ستون كان على دواية بالفوارق الكبرى التي ربما كانت قائمة بين طوائف المجتمع في إنجلترا . إلا أنه لم يعرض حرصا كافيا على الكشف عن تحرية أهل إنجلترا في جملتهم . وترقب على ذلك لأن جاء تفسيره قاصرا على الارتكاز على التجربة التاريخية للأرستقراط وكبار الأعيان وأثرية المسكن (الباتوقراط) ، أي القطاعات التي عسى بها أساسا ، وخضعت في صميمها الافتراض الفلسفي بإمكان امتلاك القولات التحليلية المستمدة من تجربتهم على نحو ما ، بحيث يتيسر تطبيقها على مختلف أطوار تاريخ الأسرة الإنجليزية . وهذا افتراض خاطئ . فمضض النظر عن بروز مكانة السلوك الأسري للصغوة في إنجلترا - من الناحية التاريخية - إلا أنها كانت بعيدة

عن تمثيل غيرهم من ابنه بلهم . كما لا يمكن القول بأن التحولات في مسئلتها كانت خطوات تنموية هامة في تطور الأسرة ، إذا وضعناها في السياق الكامل لخصائص الحياة الأسرية الراسخة والمسمورة لمن هم أدنى مكانة منهم اجتماعا . وبالإستطاعة تصوير القنطين على خير وجه إذا تسعد في المشكلتين الواردتين في حجة ستونز على التوالي :

أولا : التحكم في اختيار الشريك في الزواج .

وقانيا : المعيار الذي يبنى عليه الاختيار .

## وساطة الزواج

ليس من شك أن الكتاب المهتم بالسلوكيات قد اعتقدوا أن من بين أهم واجبات الوالدين رعاية تزويج أبنائهم وباتهم . وإن كان هذا لا يعني بالضرورة إقارهم وتأييدهم لحق الأبوين في اجراء ترتيبات الزيجات . والحق فلقد أخذت غلبة استعمال المؤرخين للكلمة « ترتيبات » ، وما تعمله ضمنا من معنى الاختيار الأبوي من جانب واحد ، أدركنا لهذه المشكلة ؟ ولعل بركير كان أكثر تمصرا عندما ذكر أن دور العائلة يمكن أن يتمثل إما في تيسير الزيجات للأبناء أو في نصيحهم عن مدى تكافؤ الأعراس المأمولين . وفي موضع آخر ، أوضح أنه حتى إذا اتفقت الوالدان المبادرة في الترشيح للزيجة ، إلا أنه لايتوجب عليهم البتة فرض الزواج على الابن ، وأبدى الأسقف بارنز من دورهام استعدادا للذهاب إلى ما هو أبعد في وصاياه ( ١٥٧٧ ) كما يبين من قوله . « على الصغار بحكم السن الإلهية أن لا يتزوجوا دون موافقة الوالدين » . ولكنه لم يطلب من الوالدين المبادرة بالقيام بدور ما في اختيار الأزواج ، أو التحكم في عقود الزواج . فتحت مصائد درجات من الرونة حتى في الصاير « الزئبقية » التي استعملها رجال الكنيسة في وصاياهم ، والتي كثيرا ما لا يحرص المؤرخون على الاهتمام بها . وبسبب اغتيالها عن انصاف دورهم ، فكما بين فلاندرين (\*) : لعل ما سمحوا به من قدر كبير من الحرية للشباب في هذه الساحة ، كان أهم ميزة سبر بها الدعاة الأخلاقيون في هذه الحقبة على أقرانهم الفرنسيين .

فإذا انتقلنا إلى الدليل المستقى من السلوك الفعلي ، سيتضح على الفور أن المبادرة في وساطة الزواج قد تآمت إما من الأب أو من الابن ،

كما بين بر كيتو الى حد كبير . أما ما يهم فلم يكن هوية الطرف البادئ والمبادر به بقدر كونه الحصول على موافقة الطرفين ، أو الاطمئنان الى حسن نواياهم ، ، على أنه في نطاق هذا الاطار الرهيب ، اختلفت القيود الأبوية المفروضة على الابن من حالة لأخرى . وعندها توجد مثل هذه الاختلافات فإن مصدرها في الغالب يرجع الى الاختلافات القائمة ، فبما تطالب به العائلات من مختلف المراتب ، أو قد ترد الى مصلحتها الخاصة ،

وكما بين ستون ، كان الزواج عند الأرستقراط وعلية القوم مسألة عظيمة الأهمية من ناحية المعاملات والملكيات التي تترتب عليها ، ومن ناحية تعزيز الروابط الأسرية ، مما حال دون ترك مثل هذه المسائل لمصافة الشباب المعنى . وعلى لواخر القرن السادس عشر ، وبدايات القرن السابع عشر نظر الى مسائل اختيار الأطراف المشتركة في الزيجات منذ دعوة أطرافهم ، والتي تجرى لها ترتيبات فجة ، على أنها أمور عفا عليها الزمان الى حد ما ، ومع هذا فقد كان الأيووان يباذران بترشيح زيجات الأبناء . وغالبا ما استمر التأثير الأبوي على اختيار الطرفين من المسائل الحاسمة حتى في الحالات التي تمت فيها الزيجة بعد موافقتها ، وفي بعض الحالات ، كانت هذه الموافقة تقابل بالترحاب كما بين من حالة جون برون عندما عاد من إحدى مدن اجترا الى أكسفورد ليكتشف أن والده قد دشحه للزواج من ابنة عمته إحدى القرى ، وقابل جون هذا الترشيح ، باحترام كبير شأن كل ابن مطيع ، ووعده بالموافقة بمجرد الاطمئنان الى مشاعر الفتاة المرشحة ذاتها واستعدادها للقبول . وفي حالات أخرى ، قد تكون موافقة الابن مجرد شكليات تنتزع بالاكراه ، فقد وافقت مثلا مارجريت وسمل على الزواج من الايرل كاميروناند ، على أساس الصالح العام ، أكثر من الاستجابة لنساء قلبها ، ، واقبلت على الزواج التي لم يطق لها الكثير من السعادة . وكانت الوارثة مارجريت - داكينز من يوركشاير ، والتي كانت أكثر توفيقا مع أزواجها ، شريكة سليمة لمن تزوجت من رجال يكبرونها سنا ( فلقد تزوجت ثلاث مرات - الأولى وهي في الثالثة عشرة ١٥٨٩ ، والأخيرة ١٥٩٦ ) ، وفي كل مرة من هذه المرات كانت الزيجة ترشح وتنجح بفضل آخرين ، وبخاصة من وصفا الايرل هانتجتون بالرغم من مشاركة بعض أصحاب المصيبة في التوسط في زيجتها من سير توماس هويي .

ولربما كانت مثل هذه الحالة هي القاعدة المتبعة بين أبناء الطبقة الراقية من المجتمع الانجليزي وسحب ، ورغم ذلك فمن المهم أن نقرر أنه حتى فيما يتعلق بأبناء الصفاة ، فإن عبادرة الزواج لم تكن تقع على كامل الوالدين فقط . فعند الطبقة الأرستقراطية ، كانت سيطرة الوالدين ،

فيما يحتمل - في انعام عملية الزواج اقوى في حالة الاناث منها في حالة الذكور ، بينما منح صنف الابناء بوجه عام حرية اعظم للاختيار تفوق حرية من يستعملون بعض الارث - وهناك دلائل على انه في حالة الصغرى الدنيا من عية القوم ، علما تتصل بالآثار المترتبة على رغبة البنات ، قد يسمح بحرية المبادرة الشخصية في مسائل الزواج ، واكتشفه أنطوني فلتشر انه بين الأسر المتزوجة لعملية القوم في سوسكس ، كانت زيجات من يحق لهم الارث ، ذكورا أو اناثا تختلط مسبقا ، بعد مراعاة موافقة الطرفين . أما صفقات الزواج بين المراتب الأدنى من عية القوم ، فكانت أكثر تمتعا بالحرية الشخصية ، وتنبها بالحميمية ، والعلاقة الرومانتيكية ، وتقع غالبا مبادأة التقم بالخطوبة على عائق الزوجين للمصين - ويتبنى منجاي نظرة ترى انه « بين الطبقات ليسورة و ذوى الاملاك » بوجه عام ، يخضع صالح الفرد عند الزواج لصالح الاسرة » الا أنه يسمح للابن أيضا بالمبادأة ، ثم السعى بعد ذلك للحصول على موافقة الوالدين وهما اقرار الزواج » - وهكذا حتى ١٦٤٩ .

« سمعت بريجيت ادجلاندر للزواج من شاب من الوجهة ، كان أبوها يرفضه مبديا ، ولكنها البحت وصممت على الحصول عليه ، مها كانت المواقب ، فوضع الأب ووافق على الزواج » .

ولعل مسألة غلبة اتخاذ الابناء للمبادأة في هذا المستوى من مستويات المجتمع ، قد اعتمدت كثيرا على الحرية التسمية التي تمنح للصغار عند احتكاكهم بصغار مناسبين لهم ، وما يتبع ذلك من سوانح تساعد على المبادرة بالتقانة للزواج ، وفي هذا الشأن ، لعله من لهم أن نذكر في روار انجلترا من الأجانب كثيرا ما دهشوا لما رأوا من حرية مفعلة متاحة للمرأة الانجليزية . فعلى نساء الصغرة في المجتمع ، كن لا يحتصرن بين جدران أربعة ، بل سمح بفقر مقول من اللقائات دون اشراف من الوالدين للصغار من كلا الجنسين ، واتاحت جولات الأنشطة الاجتماعية لعملية القوم في الريف فرصا كالية للتعارف وتحديد من يفضلون من الفتيات كزوجات لهم . وربما اتخذت هذه الخطوة كبادرة للمغامرات الشخصية للأبوين ، وشاع أيضا بين العائلات الراقية المشاركة في مختلف « مواسم » لندن ، وتبادل الشيايب من الجنسين التديد من الزيارات دون اشراف من البالغين ، وإن جرت العادة أن تكون كل فتاة بصحبة أخرى من سنها لتتعرض بجهة الحراسة ( أو يدور البكيت ، كما كنا نقول في مصر في الزعان القابر ) . وترتب على ذلك وفرة ما تم من مبادعات قبل الاقلام على طلب تدخل الوالدين . أما الاتفاقات السرية على الزواج ، فانها لم تكن من الأمور غير المألوفة - ولا بد أن يكون



الموقف قد اختلف بقدر كبير من أسرة لأخرى ، وتوافر للفتيان - بقينا - مجال أكبر للمناورة والعمل المتحرر لعقد الزيجات أكثر مما توافر لنظرائهم من الفتيات ، ومع هذا فلا يخفى أنه حتى في صعيد الطبقة الاجتماعية الأرقى حيث تنحصر الأسر لخسارة أقدح من جراء الرغبة الطبيعية عن التكاثف ، فإن الموقف كان بعيدا عن الانعكاس بالترتيب والالتزام بطريقة تعلية عندما كان الأمر يتعلق باختيار عروس المستقبل ورفقة الحياة ، أجل لقد كان الزواج « المرتب » المرتكز إلى مساندة الوالدين والذي لا يترك للأبن ما هو أكثر من حق « الفتى » كان بلا شك من الأمور المسلم بها طيلة هذا العصر ، بيد أنه حتى بين الطبقة الاجتماعية ، فإن هذا الزواج المرتب كان سيظهر بمظهر بالغ الجسود ما لم يكن مصحوبا ببعض اللبس المظلمة ، وربما كان المخرج في مثل هذه الحالات هو اختزال دور الأبوين في تدبير الزواج ، مع استشارة الابن أو عدم استشارته ، باعتبار هذا العمل أفضل من اغتراف أحد الطرفين بالمبادرة ، والحصول على مراقبة الطرف الآخر مؤخرا .

وإذا وصفت عملية اختيار شركاء الزواج في الطبقة الأرستقراطية وعالية القوم وصفوة أبناء المدن بشدة التعقيد ، أكثر مما زعم ، لهما لاشك فيه أنه في حالات الانتماء إلى طبقة اجتماعية أدنى في السلم الاجتماعي ، كانت المباعدة في اختيار العروس تقع بالفعل على عاتق الشاب المعنى ، وأيا كان مسلك الأخيار من حيث الخبرة والرشد ، فإن السواد الأعظم من الشعب الانجليزي ، لم يكن يتوقع حدوث تحول أساسي في الكيم المرتبطة بالزواج ، فلقد تمتع للراحمون والمراهقات بتحرر أعظم ملحوظ من وصاية الأبوين ، فاق للآلوف ، حتى في أكثر الحالات الرقيقة حرصا على كرامة أصلاها ، ويرجع ذلك إلى حقيقة بسيطة وهي اعتيادهم مبادحة بيت الوالدين بعد الالتحاق بالخدمة الحكومية أو الطبعة متد من ياكرة ، يضاف إلى ذلك - وهنه ظاهرة كانت كثيرة الشيوع - ففي حالات فقدانهم لأحد الوالدين ، فإنهم نادرا ما خضعوا لقيود من الأوصياء عليهم ، فكانوا يصمون بحرية الحركة ، واختيار من يشاؤون للزواج من بين أقرانهم من العاملين معهم ، أو من تتاح لهم فرصة التعرف عليهم في الأسواق أو مشايوب الحصة أو مرقص القرية أو الكيسة ، أما ما كانوا يتعرضون له من صيد وتصريم في مثل هذه الحالات فلم يكن من كثير آبالهم وأهملاتهم ، ولكنه يرجع إلى إدراكهم أنه من المستحب لهم الحصول على تصديق - أو تأييد في أقل تقدير - لزيجاتهم من مختلف الأطراف المعنية بأمرهم ، وبالرغم من كل هذا فقد اختلفت مظاهر التصديق والاقترار هذه من طبقة اجتماعية لأخرى ، ومن جنس لآخر .

وبين أبناء الطبقة المتوسطة وميسوري الحال ، من المسائل ذات الأهمية العملية لصالح مستعيل الزوجين ، أن يستند الزواج الى رضا الوالدين حتى يستعيد الأبناء من العون المالي ، والذي يقدم في شكل دويلة ، أو مشاركة في نفقات الزواج ، وللتأكد من دور هذه الترتيبات وأنها كانت من الأعراف السائدة بين صفار ميسوري الحال ، ما علينا للتحقق منها غير الرجوع الى وصاياهم ، فقد تضمن بعضها بما يحصل أبنائهم المتزوجين على حصتهم من الوصية ، بينما ذكر أن أغلب الأمتعة والنقد السائل سيؤول للأبناء غير المتزوجين عندما يسقط قرانهم ، والحق أن الموافقة على زواج الأبناء كانت شرطاً ملماً للغاية عند تحرير الوصايا لضمان التزام المستفيدين بالوصية من الأبناء غير المتزوجين يرى محسور الوصية - فمثلاً نصي ولم اجل ١٦٢٢ ، وهو من الأعيان ، في وصيته ، على تخصيص حصة كبيرة من الأرض والمال لكل بنت من بناته اذا تزوجت بعد مزاولة أمها وعيا . أما اذا تزوجت أي بنت يقرر حصول على الموافقة المطلوبة ، ماها تستمر في الحصول على المال ، وفي بعض الحالات ربما تحصل على مزيد منه . ولكنها تحرم من الأرض .

وكما يبين من هذا المثال ، فإن حق الوالدين في الموافقة على زيجات أبنائهما كان موضع تقدير ، وإن كان لم يحدث اصرار على التمسك بهذا الحق . إذ كان الأبناء يملكون أحراراً نسبياً في اتباع الطريق الذي يروق لهم ، كما يبين من شهادة جاءت في ثلاثة كتب من كتب المذكرات أو السجرات الذاتية لبعض القسيس المروفيين في ذلك العصر ، فلقد وصف أحدهم ، وكان ابناً لأحد الأعيان ، كيف لم يقتصر اثنان من أخواته في ثلاثينات القرن السابع عشر على اختيار زوجتيهما بنفسيهما ، ولكنهما تجرأ وواجهتا رفض اختياراهما ، بينما أقدم معه ذلك بجيل ابن شقيق أحد المتبردين باجراه زواجه في لندن ، بعد أن أصبح إحدى الفتيات من أول نظرة ( ١٦٣٩ ) ، وخطبها في يناير ١٦٤٠ ، وتعهد كلاهما للأخر على اتمام الزواج . وسعيها بعد ذلك للحصول على الموافقة على عقد الزواج قبل الاقدام على توقيع العقد الرسمي في سبتمبر ١٦٤٠ . على أن ابنتهما جون - تحصلت مثل هذه الأحكام ، وتزوج في التسايف المسعد دون علم والديه . وفي كتاب آخر ، تروي لنا حكاية هنري نيوكام الذي اختار عروسه في أربعينات القرن السابع عشر ، وكان والده قد مات ، وتقدم بعد ذلك لآله لم يستمر أصدقائه في هذا التمسك ، وتزوج بعد ذلك ولدها دانييل وهنري بشي حصولهما على موافقة أبيهما ، أو حتى علمه ، وعلى الرغم من شعور الأب بالضيق من هذا الاجراء ، إلا أنه رضخ للأمر الواقع .

وتصور اليوميات التي وردت في الكتاب الثالث الحرية العسية التي تمنح بها الشباب عند اختيار روجاتهم ، وكان مظهر هذا الكتاب يصل مساعدا لأحد تجارب التحرير ، وبوصفا أن تعرف من اليوميات في هذا الكتاب إلى نظرة أحد الفنانين كايوا ييتونو عن عروس زهاء خمس سنوات ابتداء من ١٨٦٣ ( السنة التي بدأ فيها كتابة المذكرات ) ويقول لك في بعض صفحاتها ، « هذه أول ليلة في حياتي ظلت فيها اتودد وأتمتع » ، « إلى أن انتهى الأمر بالرواج من أم يوم ١٦٦٨ » ، وبركزت محاولاته لمناقشة الطرف الآخر في أمر القرائن بوجه عام في تباله الحديث أثناء مشيه في الحقول ، وزياراته للحدائق القريبة ومناوله العسة . وحضور الأقراج ولأنهم رفقة شباب آخرين من عده « أشتون » ، بسا كان يتفانى في ذات الوقت مع والد معدونه ويجالسه في المصبة (ولعلها المدة) ويرى أنه يعرف على روعة المستقبل لأول مرة في أحد مشارب المدة في سيرة من سهرات « أشتون » ، وإن كان قد سبق له أن لمحها قبل هذا اللقاء ، وظلا يتباحثان زهاء أربع سنوات وبخاصة حمله مرات واحنا مرة إلى وسيط لمصالحتهما إلى أن أقما ١٦٦٨ مصرع ريحتهما « ولا وجود لأي إشارة في جميع هذه الخطوات لأي سمي بالحصول على عروسة الأبوين ، رغم أن مطلقا كثيرا ما ملاه مع بعض أفراد عائله الطرف الآخر في مشارب المدينة وكان يوسسه الحصول على موافقتهم فتمتا

هناك قدر قليل مما جاء في الرواية أتبعه الذكر عن إحراجات الرواج مما قد يبدو ممدا عن المؤلف في نظر الشباب الحديث ، ونوحى أمثله أخرى . بأنه فيما كان الشاب يحوم بفكر كاف من الحرية يسبح لهم معانعة أية فتاة في أمر الرواج ، إلا أن النساء كن أكثر مقيدا وأحيانا للمقاومة والصبر والحصول على موافقة الوالدين ، والأسبقه « ( الدين قد يكون من الأقارب أو لا يكون كذلك ) ومن ثم يصبح القول بأن حرية التصرف عندهم كانت، محصورة مدرجة ملحوظة ، وعلى سبيل المثال تحدث هري بوكام عن حالة فتاة من عاشر سن اعترضها حالة اكتئاب فظيع عندما تمارست رغبتها في البداية مع رعدة أسرتها عندما أرادت الزواج من حبيب تقدم لخطبتها فرفض أسرتها ، وتصب المنعز آدم ماتينديل إلى ما هو أبعد عندما استقى أسسه اليراث ، والأرمية ، بالاستقالة من وظيفتها عندما وقعت في حب أحد الحدم ، ورآه « غير مناسب للرواج من ابنه » - فلقد حتى أن تكون الفلسفة قد عر بها ، وحاول يعرضها عن ذلك معرض عليها « صفة رواج أفضل » وعلى الرغم من رفضها مبادره والدها ، إلا أن ماريتيديل لم يلج عليها في هذا الأمر ،

وعندما يحطم آمال الزواج عند الشباب عندما يعيش في الحصول على موافقة الوالدين على ريجانهن . وعلى الرغم من ذلك فلا سبي وجود قناعات استطعن اثبات قنوة ملحوظة على التحرر في عمليه رواجهن . فقد سمكت كاترين ملوشال - وهي فتاة من بيوكاسل - من فرض ارادتها وبروجنت من ابن أحد الدباغين - ويدعى كريستوف روبسون - وعرضت ريجتها على والدها - وبماحتت معه في نفس الوقت في شروط الزواج ، وردد أيضا اسم ماري كولينج ايمه تاجر المايمازوه في لندن التي تمادت في بحرورها الى حد تماقبحها هي وشباب يعمل في متجر والدها على الزواج . وكسميت موافقة الواله قنما بعهه رجم د ما ابتداء من عدم الرضا لانهما بجاورا حفرهما دون موافقته - ولان ابنته كثيرا » .

ولعله من المهم أن نذكر هنا ان علم رصيهه الأب ( فوسيس كولينج ) لا يرجع الى اقدم اينته على المادرة باختيار شريك حياتها بقدر ارتكابه الى اتمامها على اتخاذ خطوات في هذا السبيل قبل ابلاعه والحصول على موافقته . ولعل هذا المثل يعد مفتاحا لا كثار يؤمل من كل فتاة ، اما والى حوسلن فكان من الآباء الذين اعرىوا عن استعدادهم للدهاق - نظريا - عن حق الأب المطريكي في اختيار عرائس أولاده . أما ما كان يحط بالفضل فهو انتقال مبادرة اجراءات رواج بناته - عادة - الى طرفى الزواج ، وكان الخطاب يتقدمون اليه طالبين القرب وموافقته ، بعد أن يتبادلوا الوله والهيام هم وبناته . وعندما تحرى المباحثات ، كان اصدار الرأى الهائى في انمام الرجة يترك للفتيات أنفسهم . وما يفهم - حسنا - من ذلك هو أن الفتاة المعنية تكون قد شجعت للشباب بالفعل بما فيه الكفاية مما يساعده على اتخاذ الخطوة الأخيرة ، التي لا تتخذ الا بعد موافقة الوالدين - ولوصح مثل لهذه الحالة ما حدث في قضية المدعو سوبرست الذي تمثلى على أفضل وجه الظروف العاديه للزيجة في هذا المستوى الاجتماعى ، فلقد ابلت الفتاة المعنية والدها بأن شجعا يدعى والتر وودرو يرغب فى الزواج منها ، ويطلب السماح بالحضور للمنزل للتعقد بهذا الطلب ، فأجاب الأب : بأنها اذا كانت حقا ميالة لهذا الرجل . وعلى استعداد للزواج منه فأهلا به وسهلا في بيته . - وحصر والتر في يوم الأحد الثالى برفقه شقيقته ، وأثناء تناولهم الطعام ، طلب يد ابنته . فبجواب الإجابة : انهما سيتلقيان الرد بالموافقة اذا كان هو والفتاة قد اتفقا على ذلك . - وعلمنا تم ذلك ، شرعا في احراء مساومات شاقة حول الدوطة . بعد أن استغل الأب - بعدها - تعلق والتر الواضح بابنته كوسيلة للاقلال من التكاليف التي سيتكبدها طيل اتمام الزواج .

وهكذا بعد موافقة الوالد مرغوبة اذا أمكن إنهاء الزيجة نهائية  
مستحبة ، وأمكن التفاوض على دونة معيولة ، أما دور الأصدقاء ، فاكثروا  
قبولها . فلهذا ما كان يحدث في هذه الحالة هو قيام الأقارب الحميمين  
كالأعمام أو أصدقاء الأسرة بدور الأب الميت . - وربما يحكم اصطلاحهم بدور  
الحضنة التي قد تكون ممتدة في الوصية . - وتروى من محلات الكنائس  
بالكثير من الأمثلة لما يؤديه دور الأصدقاء ، وأثره الفعال ، كما حدث  
عندما أبلغ جون ستانلي أحد النشأين المحققين ١٥٨٤ : « بأن هناك  
وصية مقبولة ومحاولة للزواج بين هذا المدعى عليه وجين نفسها ، ولكنها  
لم تتم » ، وفي الرضعات التي تفقد بين طرفين لا يملكان شروق تغير ،  
تعد مسألة الخلاف حول النوبة والحصى غير ذات موضوع ، وقد  
يكون لنصائح الأصدقاء الشخصيين بعض الأهمية ، والتي قد تزداد قيمتها  
إذا كانوا حلفاء يمشون بعيدين بعدا كافيا عن إرشادات موطئهم الأصل  
في أنه في هذا المستوى الاجتماعي ، يبدو في المحصلة الأخوة أو الاتفاق  
على الزواج مسألة تخص الطرفين المتعنيين ضميمهما ، لأن الريجة لا تعتمد  
اعتمادا كبيرا على أي شخص آخر . أما الوالدان اللذان يحتل أن يكون  
محفل إقامتهما بعيدا من الناحية الجغرافية ، فإنهما يضطرا في باب  
اللياقة فحسب ، وغالبا ما يصلهما خبر عقد الزواج كأمر واقع (\*) -  
وهكذا رأينا بأنات المراجعين اللاتي يعملن خادعات في لندن وميزوجن  
ينرجصن بلا إشهاد نادرا ما يتوقمن الحصول على حصص من آياتهن .  
وقد صرحت كثيرات بأنهن وحيدات ، ومن ثم فإن عصمتهم بأيديهن ،  
ولم يصح اتخاذ ما قالت إحدى فتيات مرتقودشايير تميرا عن رأي  
المعيدات عندما قالت : « ان أباهما المزعوم لا يعرف شيئا عن هذه الريجة  
التي في الية إتمامها ، ولكنه عندما يعلم بها سيسعد بها كثيرا ، لأنها  
ستكون لصالحه بإعساره رقيق الحال ، ولديه أطفال عديون . ومن ثم  
فليس يفسدونه منحها أي شيء لهذا الزواج » .

ومن المعقول - كما يبدو - أن يستخلص وجود حرية عبد السواد  
الأعظم في مسألة الزواج واختيار شريك الحياة ، وإن كانت تتأثر بنصح  
الأصدقاء ، والاحساس بالالتزام بطلب المتصورة من الوالدين - ولعل هذا  
كان يحدث بعد فوات الأوان والانتها من كل شيء - ان كانوا ماوالا على  
قيد الحياة ، أو تستي الاتصال بها ، أما في حالة الفقراء الممنعين قريبا  
سميت الحاجة الى شكل أحد من ذلك بالموافقة ، بمعنى ضرورة الحصول  
على تصديق من الأرضية حتى لا تقيم المراقب التي تحول دون إتمام

التعاقد ، وقد يقال ان الأبرشية لا يعنى لها لذلك ، وان كانت قادرة على اتباع وسائل تحتية غير مباشرة لاثبات اعتراضها كعاقبة حق الاستيطان ويسمى مكان للاقامة او السبل ، فمثلا رأينا ١٦١٨ بطونى آدم من مستوكون فى ويستسترشاير بعد أن شعر بالقبضة لتوقيفه فى العتور على روية محطصة يصطدم برجال الأبرشية « الذين اعترضوا على الاعتراف بهذه الروجة ولحقوا الى احمال قيامهم برفع دعوى على العروسين » ، فاضطر الى البحث عن كوخ فى مكان آخر ، بينما استمر يمارس عمله فى مستوكون . وهناك مثل آخر لنفس أبرشية بعد أن طلب منه بعد رواج غير مشهر لاحلى الكمبيجات الفقيرات ، فاته ابتعد عن الصيغة المثبتة فى الوثيقة « وأشار على الأبرشية بإمكان رواجها واشتركتها فى التسول ، وسأل « هل هناك ما يحول قانونيا دون ممارستها للتسول ؟ » . وليست هذه الأمثلة نادرة الحدوث ، ولعلها تصور ممارسة وصفها أحد الكتاب ١٦٧٤ « بالمادة البويلة الضائعة فى أبرشيات الريف » وتذكرنا على نحو يثير الأسى بأن ريجات العمال الفقراء التى تبدو ظاهريا متحررة فى بعض النواحي ، كان بالمقدور تقييدها بقيود صارمة ، فهي صرية مصحوبة فى أفضل الأحوال باعتقاد الأمان عند محاولة اتمام مشروعات الزواج ، وستزده هذه النقطة وضوحا عندما نتحدث عن مشكلة اللاشعورية .

وبعد أن استعرضنا الأدلة المتصلة باختيار الشركاء فى الزواج فى مختلف المستويات الاجتماعية ، سيتضح لنا أن التفسيرات القائمة على التصنيفات التقليدية المروجة ، التى تقسم الزيجات الى زيجات خاضعة لمراسم خاصة ، وأخرى متحررة ، أو التى تقسم الزيجات الى زيجات من اختيار الوالدين ، فى مقابل الزيجات التى يختارها الأنساء بأنفسهم . هذه التصنيفات لانتحارب هي وما فى الواقع من تعقيدات . فهناك أدلة شحيحة عن الزيجات « الممددة والمخططة » والتى يشرها الفتره خارج نطاق الطبقة الراقية من المجتمع . وليس احتمال اقدام الوالدين على المبادرة أو عقد الخطوبة من أجل الزواج أمرا معززا حتى فى أعلى المستويات الاجتماعية ، ولقد لاحظت أنه حتى عند حدوث ذلك فقد اعتيد منح الأساء حق الاعتراض ، وإذا انتقلنا الى طبقة اجتماعية أخرى يعنى طبقة عليا القوم وأثره المدن ، سنرى أن المبادرة الفعلية كالت تقم عادة على كاهل الشباب الخاضع لتصانيع الوالدين والأصدقاء وموافقتهم ، بل ولتصانيع العبدان المقربين أيضا . والظاهر أن أهمية هذه التصانيع والموافقات قد اختلفت باختلاف الجنس ودرجة الثراء ، ولكن على الجملة يبدو أنه قلما توقف اتمام الزواج فى حالة تصميم الطرفين المعنيين على الزواج .

وأخيرا بالمقدور أن نلاحظ أن هذه الحقبة لم تشهد تغيرات في هذه الجوانب ، مع احتمال استثناء الأرمنقراط والمراثية العليا من عليا القوم والأسماء الكبيرة في مجتمع المدن ، ولعل تفسير الأستاذ مستون للتغير يتصف بصحته فيما يتعلق بقمة جماعات المجتمع ، التي عني ببحثها أماما - وليس هناك من يضارعه في سعة علمه بهذا الشأن - غير أن تشخيصه للممارسة التعددية ، أو تطيله للتغير لا يبدو واقيا في وصف تجربة السود الأعظم من الشعب الإنجليزي ، فلا وجود لقاعدة «انجليزية» واحدة في هذه المسار ، ولكن هناك اشكالا شتى من الممارسات التي كانت تتعايش سويا ، وتمثل علما واسما من التغيرات ، ينقصنا إلى التمسك في صحة أي سق تطوري مفرد . أما الوقت المتعلق بانتقاء شركاء الزواج فيبدو أنه أصبح وطيدا - وبقي أن تكشف عن مسألة المعايير التي كان يستند إليها في هذا الانتقاء .

### معايير الزيجة

في القرن السادس عشر ، والقرن السابع عشر ، نظر للزواج على أنه تعاقد يقوم على الحياة - لانا ملنا بهذه الحقيقة ، ستبين الحاجة التي كانت متبعة أتت والداعية إلى مراعاة قدر كبير من الحرص عند اختيار الشريك أو الشريكة - فلا عجب أن يتخص الكتاب هذه المسألة باهتمام كبير . وقسم ولبيم بركنز معايير الاختيار إلى نوعين أساسيين : أولا - هناك ما سماه القومات الأساسية كعقد الزواج بين شخصين مختلفين في الجنس ( ذكر وأنثى ) - ثانيا - عدم وجود حوائل قائمة على صلات رحم طبقا لموجات العراة التي قررتها الكنيسة الانجليكانية ، والمعروفة في أغلب الكنائس الأبرشية - ثالثا - أن لا يكون أحد الطرفين متزوجا بالعمل - رابعا - أن لا يكون الطرفان مصابين بمرض من الأمراض المعدية ، وتتواءم لهما الصلابة والصلاحية للانجاب ، أما الزيجات التي تتعارض وهذه الشروط ، فإنها محظورة ، في رأى بركنز ، ويسمح بجميع الزيجات الأخرى ، تبعاً لنفس المبدأ ، ولكن هذا لا يعني أنها ستعتمد الأكثر تفضيلا ، وعلى عكس ذلك ، فقد قسم بركنز أيضا عرشه ثانيا لمعايير الزيجة المفضلة مفرنا بقائمة ما سماه الخصائص المرغوبة ، وتماثل هو ومعظم الكتاب في هذا الموضوع ، فأوصى بمراعاة البحث عن قدر من التشابه أو المساواة بين الشريكين في العمر ، ( وعلى بهذا الشرط التماثل في المكانة الاجتماعية والثروة ) والأمانة في المعاملات العامة والصفاء ، وطبيعة الحال ، اعتناق الديانة المسيحية - وأضاف بعض

الدعاة الأخلاقيين - وإن كان عددهم ليس بالكثير - الاستجمام الشخصي  
كشرط مرغوب فيه .

وتتمتع الرعية الكاملة على السواقي في السن والمكانة والثروة  
والصيت والدين بالإضافة إلى التعاطب الشخصي . وليس بين هذه الصفات  
ما هو موضع خلاف ، غير أنه عند التطبيق العملي في الواقع فإن الأهمية  
النسبية التي تضفي على هذه العوامل المتعلقة قد تختلف حسب  
ملحوظات ، فبعد الأرستقراط مثلا - كما يقول مستون - بالرغم من مراعاة  
بعض الاعتبارات ، إلا أن الزواج لم يكن اتحادا شخصيا لاشباع الحاجات  
السيكولوجية والفسيولوجية . أنه وسيلة تنظيمية لتحقيق استمرار  
الأسرة ، وممتلكاتها ، وترتب على ذلك ارتكاز أعظم انتباه على الرأيا المالية  
التي سيحققها الزواج ، ومن ثم كان « الثراء هو أهم عامل متفرد » حتى  
في بواكير القرن السابع عشر عندما ازدادت الإشادة بدور تغليد النوع  
واجبات ذرية في عملية الزواج - وليس هناك من ينكر ازدياد أهمية هذا  
العامل بالفعل في أوقات الشدة ، عند كثير من العائلات الأرستقراطية .

وربما لم تتعد الأرستقراطية بهذا الموقف ، إذ يتفق إلى حد كبير  
مؤرخو طبقة الأعيان على أن عامل الملكية والمكانة التي ترتب عليهما ،  
كان له دور أعظم بالمقارنة بالمعايير الأخرى للزيجة الموقرة ، ففي سويسرس  
في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، كان أهم  
عامل يراعى عند تزويج الأبناء هو استمرار امتلاك الضيعة وصالح  
الأسرة ، وهي يوركشاير ، كان ما يهم الأعيان فوق كل شيء هو اختيار  
شركاء مساوين لهم في الثراء والمكانة - وفقدت الشريعة العليا للأعيان  
للزواج كملاقة تتعلق به بالجناب الاجتماعي والاقتصادي أكثر من علاقتها  
بالمواحي الرومانسكية . أما الحاجات الشعورية والجسدية فمسائل  
هامشية ، وعلى النعوم يمكن تأييد ما قاله مينجاي بأن الحرص على  
الحفاظ على الملكية وعلو المكانة وشهد ازدهر التحالف بين العائلات كانت  
العوامل البارزة في الرجعات المضطربة عند أعيان إنجلترا .

غير أنه من الواضح عدم المصالة في تأييد هذا الموقف إلى حد القول  
بأن الطبقة الأرستقراطية وطبقة الأعيان لم تعبأ بأي جانب غير جانب الملكية  
أي اهتمام ، لعدم صحة هذا الرأي ، كما ثبت . فتأندا ما نظر للزواج  
إنشائي على أنه يرتكز إلى الكسب المالي قصص ، ولكنه كان يستند إلى  
وكان مستحبة أخرى ، كما أنه لا يستطيع تجنب التأثير بالتوقعات  
الرومانسية التي ألهمها الأدب الرومانسكي في العصر . ورغم كل هذا  
للتحفظ ، فلا مفر من القول بأن الاعتبارات المالية قد بلغت عظمة الأهمية



عند من يتطلب حفاظهم على مكانتهم من بين أهل الصنوة ، الاعتماد فوق كل شيء على تعزيز ثروتهم وملكيّتهم للأرض ، وساعدت هذه الحقيقة على صبح زيجاتهم بتسوية تجارية تعمية قوية ، فضلا عن ذلك ، فعند العائلات التي غلبت ما بها مبادأة فكرة الزواج فيها من قبل الوالدين ، قائما كانا ببدلان قصارى جهدهما لاتساع أفضل صفقة ممكنة لأبنائهما ، بل ويلاحظ أن الأبناء الذين يشتمون بحرية الاختيار لأنفسهم قد اعتادوا الاشتراك مع آبائهم وأمهاتهم في مثل هذه النظرة . وإذا ارتكبا إلى ما جاء في رسائل توماس هوبز لمعرفة نظرتهم لهذه المسألة ، سنرى أنه رغم تمتع أعجابه بتسوية زواجه الشخصية ، إلا أنه حطبا حتى قبل أن يقامها ، بتحرير من أمه المتلهمة على تأمين حياته بتزويجه بسيدة أحد الميونات العريقة - وعندما تصحح جيمس بانكس ابنه عن طريقة اختيار زيجاتهم كان يأمل اختيارهم لفتيات « يحسن الله » ، ويضمن قوانين ولي الأمر ، ويسعدون من أمين من أصل كرم ، غير أن أهم وصاياهم قد تركزت على البحث عن واحدة من الواثبات « باعتبار هذه الوسيلة أفضل طريقة لزيادة دخلكم ، كما فعل آخرون من قبلكم » ، وأسباب هذا التفضيل لا تخفى ولا تحتاج إلى تعليق .

ويجوز في أدنى مراتب السلم الاجتماعي من بين طبقة الملوك ، طبقة ذات اهتمامات مقسمة بين المدينة والريف ، وتقع المبادأة في الاقدام على الزواج عادة عند هذه الطبقة أو الطريحة على كامل الشباب والعفة . وظلت مسألة « الملكية » في هذه الحالة من المؤثرات الهامة التي تتعين مراعاتها . فكان الطرفان يحرصان على اتباع اتجاه واقعي عند بحثهما الطريقة التي سيمعياها في حياتهما . ولربما أجبها عما وأسرتها إلى المساومة لتأمين الحصول على ملكية مجزية أو نافعة ، وأحيانا قد يتركز الاختيار على هذه المسألة . كما توحى عبثة الزيجات الأولى للمثقفين بالصناعة والتجارة في لندن . واكتشف الدكتور البوت أن ما لا يقل عن ٢٥٪ تزوجوا من أرامل ، وبذلك آمنوا بدايتهم على خير وجه ، وهناك حالات أخرى كحالة أحد المزارعين الذي فقد زيجة مجزية ، وعندما طالب بمرعة والد الطرف الآخر لرفض مطلبه ، « ولا عجب في ذلك » ومع هذا فالظاهر أن التكافؤ الفردي في الثراء قد اعتبر شرطا أساسيا وضروريا لتحقيق الزيجة الموقفة مع تساووى باقي العوامل من حيث الأهمية ، إن لم تزد عليها في أقل تقدير .

ومن المحتمل أن تعبر السمة العائلية أمرا عاما ، مثلما حدث عندما عبرت إحدى الأمهات عن بغضا لاقتراح ابنها بقتلها وإلحاقها بالسرقة .

فكيف تغفل المصاهرة بين الإشرار وأسرة عريقة معروفة بأصلها الطيب . واكتشف أحد الأرواح أن فتور حماته وشذوذ معاملتها له ، في إحدى مراحل زيجته إنما يرجع إلى شائعة زائفة بأن أمه لم تتزوج أباه . وربما ترك التعصب الديني أثره أيضا على الزواج . فلقد شعرت أسره أحد الكيورتان بالهلع ، عندما بهور أحد أبنائها فانسحرف عن الصراط المستقيم وبروج من إحدى الكاثوليكيات ممن يعن بالولاء للبابا ، مما أسرى الجميع ، « وقد أثبت هذا المتهور إمكان حلول هذا الأمر ، ولكنه اضطر أبند إلى الهجرة إلى إيرلندا ، وتقليص ارتباطه بأسرته إلى أدنى حد . ولقد سبغت الأسرة ، عندما أقدم شقيقه الأصغر على اختيار لثاة مقدينة تنحدر من أسرة هالحة » -

بطبيعة الحال ، كان بالاستطاعة الإهتمام إلى من تتوافر لديهم صفات كالسمة الطيبة ، والتدين ، « والمستر ، المال في العديد من الشرفاء الممولين ، لأن عدد الأشخاص الماسيين في هذه الفئة كان أضخم بدرجة ملحوظة من عدد من يسمون إلى فئة اجتماعية أصغر . أما العنصر الذي كان يحسم الموقف في أغلب الأحيان ، ويحدد الشخص الذي سيوقع عليه الاختيار ، ويتركز عنه الوله فهو عنصر الجاذبية الشخصية ، وربما أيضا حالات الإغراق في العاطفة الملتزمة - وقد يتطلب ذلك - ضمنا - قدرا من التكافؤ الشخصي والقرائني ، لأن شريكي الزواج غالبا ما كانا متقاربين في السن ، وإن كانت هناك غرفة من الأدلة تدل على طبعان العنصر العاطفي . ومن ثم رأينا إشارات كثيرة إلى أن الحب كان أساس أفضل الزيجات . ولو أردنا دليلا واضحا من تأثير الحب فما علينا إلا أن نرجع إلى الإشارة التي ذكرها « روبر لوى » عن زيجته هو شخصيا . إذ كان قلب لوى مشحونا بمواد رومانتيكية كذلك التي تصادفها في أغاني الحب وبالإلانات الرومانس ، وقد بلغت حرارة مشاعره المتبادلة مع محبوبته أوجها عتفا اتفاقا على الزواج ، وعلى العيش كل منهما على انفراد ، لضمان استمرار الحب ، وارتبطا سويا بالإخلاص حتى الموت . ومن المدهش أن لوى قد شعر بالغيرة نوعا ، عندما بسجت مشاعر هاوى نحو الفتور . ولم يقر أصدقاءه ماوى مسلكها ، بالرغم من وجود بعض الأمل عند روبر في كسب تأييد والدها ، ولكن الوالد رأى من غير اللائق أن تقيم « نوسة عينه » في منزل « صبي تاجر حرير » ينتمى إلى طبقة أسط من طبقة أبنائه . وكان أسعد حظا مع لثاة أخرى - فلقد تعرف عليها بعد أن شعر نحوها « بمطالفة صحومة » ، وتعبد بلهب التبره عتفا وآها برفقة مناضل له في أحد مشارب البيرة ، وأثبتت أنها أفضل شريك له في السر والعلن .

لا يستبعد أن يكون الحب - أو التجاذب الشخصي في أقل تقدير -  
 ديك الزلوية في تكوين أية ريجة موقفة في نظر الشاب والفتاة المقبلين  
 على الزواج ، حتى أن لم يبد هذا المنصر ذا أهمية في نظر والدهما  
 واصداقتهما ، ومع هذا فمن المسلم به أنه لم ينظر إلى هذه الناحية على أنها  
 تخفى عن توافر باقى المؤثرات ، فلقد اعترف ضوء المحاذير الطبيعي  
 والشخصي شريطة أن يقترب صوانب أخرى من النكاح في الريجة الموقفة ،  
 وأن لا يتعارض معها ، فالزواج شيء أكبر من اجتماع أربع سيقان في  
 فراش واحد ، كما يقول الكل الامجلزى ، ولا يخفى أن من يدعى حوى  
 نيوكلم قد تزوج من أجل الحب ، ولكنه اعترف باستغاة في هذا التيار  
 بطيئ وتكون نظر للعواقب ، وتصور أنه ربما أراد الله أن يبدى هذا الزواج  
 أمراً محزناً في نظري ، ولكنه كان رجيساً محوله الى حير أنهم به ،  
 وبالضرورة الاعتماد الى هذا الاتجاه بعينه ، بالإضافة الى عرض دائع للصفات  
 المطلوبة للريجة في رواية آدم مارتينديل عن زواج احبه الأكبر ، فلم يكن  
 والد مارتينديل - وهو من الأعيان ميسورى الحال ، الذين جسموا ثروتهم من  
 مزاولة اجنبى الحرف ، ولم يشتهر بالقوة ، يتوقع احتلاك زوجته ابنه  
 لثروة مسألة تماماً لثروته ، ولكنه كان يأمل أن ينضم ابنه بالاستثمار ،  
 وقد سعد عندما عقلت الريجة ، وكان الطرف الآخر شابة ذات من  
 مناسبة وسلوك طيب ، ولها دخل يقدر بمائة وأربعين حثيها اسبرليتها  
 ( ولم يذكر هل كان هذا الدخل شهرياً أو سنوياً ؟ ) وأسفت الأسرة  
 عندما نفى الابن يديه من الريجة ، ووقع في حب فتاة صغيرة هوائية  
 وبوهمه ستها بين ١٥ ، ١٦ سنة ، ومن المولات المهورسات بالأودية  
 الليلية والليالى الحمراء حيث قضى لاليها في الاستماع الى الموسيقى  
 ومزاولة الرقص ، ولم يزد دخلها عن أربعين جسها ، وحاولت الأسرة على  
 الفور تحذيره ، ولكنه ركب رأسه ورفض الانصياع للنصيحة ، وأصر على  
 الزواج ، وقبل أبوه في آخر الأمر مكرها فتزوج الابن في ١٦٢٢ ، وظهرت  
 مارتينديل ، ملاحظة : لا بد أن اعترف بأنها لم تثبت فقط تدبها ، ولكنها  
 اثبتت أيضاً تدبها وتساهها بجميع صفات الزوجة الصالحة ، ولكن هذا  
 يرجع الى فصل العلى للعظيم ، ولا يرجع الى حسن اختيار أخيه ، وكانت  
 ضالة دخلها من أكبر أسباب نجاح امرتنا فيها ، وباختصار : الحب  
 جميل عندما يوضع في موضعه ، ولكن علينا أن نراعى الحصافة عندما  
 نحب . -

ومن أهم مقومات رواية مارتينديل لهذه القصة ، صليقه عليها ،  
 بالرغم من أنه لم يكن قد بلغ من العمر أكثر من عشر سنوات عندما حدثت  
 هذه الواقعة ، وأدرك الفارق بين هاتين الريجتين ، فالأبناء يتعلمون عند

وقت باكر المشاركة فى القيم الكامنة وراء تعقيدات اجراءات الزواج ، ويعرفون كيفية الحكم عليهما فيما لذلك ، والتأثر بها عند احتياؤهم لشركاء حياتهم . ومن ثم فلم يشعر (الف جوسلين ) ثلاث قاطب تحت الجيم ) بأى خوف عندما تروجت ابنته من شخص وصف « بالشخص العاقل المتزن الذى يشعر بالخير ، ودخله خمسمائة جنيه » ، ولقد بادلته جين الحب ، وشعر جوسلين بالأسى عندما اعترضت ابنته الأخرى مارى على خطبتها ، وهو قس من الجبران . ولكن كان عليه أن يدرك جميع الدفوع التى ذكرتها ضد هذه الزيجة . « فسنه أكبر منها ١٤ سنة ، وقد عركها أوملة تحول أولادها ، كما أن دخله لا يتناسب مع احتياجاتها . والأهم هو أنه لا يبدو قد وقع فى دباذبيها » . وكان هذا الحكم متصبيا ، قائما على المواردة بين الاعتبارات العسيلة والاعتبارات العاطفة ، مع اسياز ، فى أغلب الظن للناحية الأخيرة ، كما توحى خواطر جوسلين . « لم أرغب فى انمام هذه الزيجة ، عندما قالت أنها قد تسبب إكتامة للطرفين » .

وعند صفوة الأعيان ، هناك معايير شتى تحكم فى الزيجات . غير أن ناحيتي المكانة الاجتماعية والملكية لهما القدر الملى فى تحديده ما هو أوفق . والتكافؤ فى الثراء وللكانة عامل هام عند متوسطي الحال . وبيع تدنى المستوى الاجتماعى والتمتع بنصيب أوفى من الحرية للمساب احتياو شركاء يؤمنون من ورائهم خيرا ، ولا سيما اذا اعتقدوا على استغلال أهمية عامل الجاذبية الشخصية التى أثبت فى المحصلة الأخيرة اثره الفعال . أما ما نعرفه عن المصممين الذين لا يملكون شروى تغير فاقبل من ذلك ، فكما أدرك ريتشارد باكستر وآخرون ، وبما عنى تصميمهم على ترك الخدمة والزواج ، سنوات تفهوهو كبير فى مستوى معيشتهم . وما يتوقع حدوثه فى هذه الحالة أقل هو أن تؤثر الفتاة الرجل الذى تيلو عليه سببا المائل المقتلو ، بينما يبحث الرجال عن الفتيات القادرات على ادارة شئون البيت بحرص وحس تدبير ، مع الاسهام فى دخل الأسرة . وللمرور أن الاصدقاء قد ينصحون بمراعاة السمعة واحتساك صلاحية كل شريك للآخر ، ولكنهم لا يبالون بذكر عنصر الثراء بين مقومات المرشحين والمرشحات للزواج . وكتب كارير وايلى عن الفقراء : « انهم لا يقدرون ناحية المختل عند الطرف الآخر مادام قادرا على الخدمة والمسل ، والكسب يتابع أى وسيلة » . والظاهر ، بدلا من ذلك ، أن الاهتمام الأكبر وتصيب على الصفات الشخصية والجاذبية الفردية . فاذا سلمنا بسلام قيام الناحية المادية بأى دور فى الزواج ، فلا يستبعد أن يكون أهم عنصر اجتذاب هو الرغبة فى الاستقلال والصحية والإشباع العاطفى والمزيناى الذى يحصل عليه كل طرف من الطرف الآخر ، بالإضافة إلى تكوين أسرة قائمة بذاتها .

وتشهد بصحة هذه الحالة ، أمثلة الزيجات غير الشرعية التي عرفنا بعض أمثلة تساعدنا على التعرف على ما يحدث في حالة زيجات الفقراء ، ولقد كانت الزيجات غير الشرعية قليلة الانتشار آنذاك ( في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ) بالمقارنة بما حدث في بداية القرن التاسع عشر ، وإن كانت أكثر شيوعا في إنجلترا منها في فرنسا في القرن السابع عشر ، وبلغت سبب الزيجات غير الشرعية في حقبة قصيرة في منتصف القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، كما حسبها علماء الديموجرافيا ( نسبة المواليد غير الشرعيين إلى المواليد الشرعيين ) ذروة مؤقتة ، غير أن الأبرشيات المتوسطة الحال ، شهدت بوجه عام ، تناظرا غير منتظم للمواليد غير الشرعيين - وليس بالمقارنات دائما اكتشافه الظروف الكاشحة وراء هذه الحالات ، ولكن عندما تتوافر أدلة اضمحلية ، بعد الاطلاع على سجلات الجهات الشرعية ، فإن نتائج البحث مستكشف عن الكثير .

وبدت اللاشرعية ، في نظر الدعاة الأخلاقيين الدينيين للمصر مجرد فئة متفرقة من المشكلة الأتلية الدائمة ، للتموس ، والاحلال الجنسي الذي زعم أنه ثمة جنائية بعض الأفراد يعتبرون الاعتداءات الجسدية مجرد لعبة من الاعيب الشباب ، والحق ، لقد كانت المشكلة أكثر تعقيدا من ذلك ، فلقد شهدت القرى الاسطيرية الممرات أنجبوا أطفالا على طريق الحرام ، أو تبنا أطفالا من هذه النوعية ، بل وعائلات كانت تميل إلى الناحية اللاشرعية ، غير أنه سيظل من المسائل التي تقبل الحل تحديد هل تمثل هذه الطائفة اتجاها شبه ثقافي متجرف ، أم أنها مجرد استغلال - ربما كان لا أخلاقيا - للقوانين الفقراء ، ولا ننسى أن عددا من المواليد غير الشرعيين كانوا ثمرة ظروف تقليدية ، لاستغلال الأمهات أو الوعاة - جنسيا - للخدمات ، أو الأدنى مكانة اجتماعية ، ولكن الأغلب هو ود الأطفال غير الشرعيين إلى حملة جنسية تبنت بين اثنين من نفس الوضع الاجتماعي ، كأي يكونا من خلم المزرعة ، من كانوا يورون الزواج ، وتقسيم ممتلكاتها للزواج .

وتؤيد القول بالربط بين اللاشرعية وفرض الزواج تأييدا قويا الدراسات الوثيقة لبعض الأبرشيات ، التي بينت التقارب بين سن النساء اللاتي حملن أول طفل لا شرعي ومتوسط الأعمار التي تلد فيه النساء الأسعد حقا أول أطفالهن بعد الزفاف ، وتؤيد هذه النتيجة الوثائق والمستندات في السجلات الرسمية - ففي ١٦٠٢ مثلا وضعت إحدى النساء طفلا غير شرعي لأحد الرجال ، التي أعرب بعد مولد الطفل عن نيته الزواج من أمه ، وأنه اضطر لهذه العلاقة غير الشرعية بسبب انخراطه

في سنك الجندية . وفي مثل هذه الحالة ، وفي عند مسائل من الحالات ، يتم الزواج الذي لم يتم في حينه لأسباب خارجية عن الإرادة ، وحسبك فتيات أقل حظا من ذلك ، فمثلا هناك خادمة كانت تصل برفقة زميل لها من الخدم في إحدى مدن إسكس ، وكانا يحفظان للزواج ، إلا أنهما توقفا عن ذلك ، وانتقل الرجل للمخلة في مكان آخر عندما اكتشفت الخادمة أنها حامل ، وهذه حادثة لخادمة أخرى عاشت حياة شريفة حتى ١٦١٧ إلى أن تعرفت على زميل لها من الخدم ، بثها فيه الحار ، ووعدها وعودا عسفية بالزواج ، وبعد أن حملت منه قرر اهتمامه وحرب من البلدة .

وفي الحالات المماثلة للحالة السابقة ، يصح القول بلا ريب تعرض الفتاة لخداع خطيبها ، ولكن هناك حالات كثيرة كتبت بكل صريح وجود : اتجاه حقيقي للزواج ، يؤيده استشارة الأصدقاء وإبلاغ الأبوين ، بل وتوجيه الدعوات الرسمية ، قبل وقوع الأحداث التي أحبطت الزواج . وإيا كانت هذه الحالات بالذات ، فإن أمثال هذه القصص المأسوية تكسب عن جانب كبير ما يحيط بمشروعات الزواج عند الطبقة الدنيا في المسلم الاجتماعي . أنها تؤيد القول بوجود حرية نسبية للاختيار عند الشباب المعنى ، وما ترتب على هذه الحرية من أخطار ، كما توضح معنى أبعد من ذلك : أهمية التجاذب الشخصي والجنسي في صلة الزواج . وتبين أيضا كيف دعت القيود المفروضة على النشاط الجنسي تأثرا بأحداث العهد السابق لاستخدام وسائل منع الحمل ، إلى حالات قريبة حتما من الحمل ، دفعنها إلى التحطم بمجرد أن لاح شبح الزواج في الجو . ومن أثر هذه الأحوال ، لم يكن وجود الآباء غير الشرعيين أمرا مستعريا ، ولقد تبين لعلماء الديموجرافيا بعد أن تتبعوا أحوال المراتس حتى مولد الطفل الأول بالرجوع إلى سجلات الأبرشية أن المراتس الانجليزيات كن عادة حوامل في هذه المرحلة ، ينسب تفاوت سن ١٠٪ إلى ٢٠٪ في مختلف الأبرشيات ، وفي بعض المناطق ، ربما يرجع إلى الاعتراف المسبق بحق المشروع في الانصال الجنسي بعد إعلان الخطوبة . ففي القانون الكنسي ، يعد الوعد بالزواج لتبوع بالاتصال الجنسي ذواجا صحيحا ، وإن اقتصرت إلى الشرعية ، على أن الكنيسة قد أعلنت مسخها على هذه المؤسسة . وعالمت الكنائس من تركيبها بالتأثير المعنى ، وما يبدو أقرب إلى الاحتمال هو أن التوجهات الشعبية - بالرغم من اعتمادها عن الإباحية - كانت أكثر مرونة من توجهات محترفي الدعوة الأخلاقية في المجتمع ، فعندما يتأكد الزواج - أو يبدو كذلك - فإن الطرفين اللذين كان انجذابهما كل منهما الآخر هو السبب الأول لمقد قرانهما يسرعان في الاتصال الجنسي ، والحق ربما بناء مكتبا لم يصلوا خلفا ، وقطعت متطاطاتهم للزواج

مستوطنا بعيدا - وإن دفعتهم للبغاء تحت سغب مخدوعهم ظروف اضطرارية ، حيث يتقون وعاية أفضل من حيث للأوى والمائل وامكان ادجار المال ، أن يكون حقوت حمل بمثابة اشتارة تدفعهم لتترك الخدمة ، والزواج ، والاشترار في انفسه حياة خاصة بهم ، وأيا كان الراى في ذلك ، فلا يخفى أن العمل الذى يدفع الى عقد القران كان من المسائل التى تحمل الففران على تطلق ويوسع .

على أن بعض الفتيات لم يته بين الأمر الى الاقتران بعد ثبوت حملهن ، ولكنهن أصبحن أمهات لأولاد حرام ، وهذه حالة من الحالات التى لا تقبل الففران . . . ويصبح الأقرب للاحتمال في مثل هذه الحالة المثل أمام السلطات الكنسية والامسجواب ، وصودر الحكم بالتأثير العلنى ، ولو تصادف وتعرضت هذه الفتاة لانتزاع أطفالها بين الموزين في الأبرشية فانه لا يستبعد أنه قد يدين للمحاكم الجزئية . وربما صودر للحكم بإبناح الأبناء الإصلاحيات . ولم يكن مستغربا فصل الفتيات العامل من الخدمة ودفعهن للتسكع بين الأبرشيات ، بين النساء المشبهات المرتاب في هويتهم من لا يعرف من أين أتى ؟ وينتهى الأمر بالكشفاقين عندما تحين ساعة الوصع أنهن محاطات بقايات صدرت لهن التعليمات يرفض تقديم المساعدة لهن ، الى أن يصرعن اضطرارا اعتراضات مصحوبة بمساعير كثر موجبة باسم الأب . ويتخذ تخنيهن عن الطفل الذى يلتصق بهن التصاق اللعاب بالشجرة ، وهذا مجرد مثال لا كان يحدث ، وليس من النادر ، ولا مما يتبر الدهشة أن بعض الفتيات عندما واحتهن هذه الأحوال لجأن الى احفاء حملهن ، وقن برعاية أطفالهن وحيدات . وعندما اكتشف أمرهن ، أما الفتن الطفل في عرض الطريق ، أو عمدن لقتله .

وربما دنى أن هذه الحالة المزعجة للفتيات اليائسبات كانت أهم مبرر للدفاع الضرورى عن المبدأ المفسر في أنماط الزواج في انجلترا . . . والذى ينص على مراعاة توافر الرعاية لأى مولود ، وأن ترعاه أسرته مستقلة اقتصاديا ، فكما تعرف نادرا ما كان الأب يماكب بما هو أكثر من تأنيبه عينا ، أو تسلمه أمرا برعاية الطفل ، ان أمكن المشور عليه ، وبعض النظر عما يرى في هذا الشأن ، فإن مسألة الإلا شرعية تكشف عن الثمن الذى تكبده البشرية من جراء هذا الوضع . ولعل حالات الإلا شرعية قد زودتنا بدليل على الانفصام الذى قد يوجد بين آمال الزواج وفرص الزواج ، ولو صح أن فرص الزواج وتكوين الأسرة كانت مباحة للجميع ، كما ظن بركنز ، إلا أن هذا الهدف لم يكن يسير المائل اطلاتا . فلم تكن الزواج أمرا مشغول التحقق ، إلا بعد اتسامه بالفعل في حالة الفقراء ، وحالة

النسوة الفقيرات بوجه خاص . وتأسيسا على ذلك ، فعمل كثيرات كن  
 يلزمن العذر ، كالعامة التي تحدث عنها سومرست ، التي قالت  
 لعاشرها الولدان . لا ! اننى لى أتركك تضاحى ، الا اذا تزوجنا ..  
 فانت تعرف كيف حنت آخرون بالوعد . ومن أنا ! مجرد خادمة ..  
 وإذا لم يغر أمسكناك وواحنا ، فإن ما بيننا يجب أن ينتهى ، ولقد  
 فاهرت أحرىات ، وبأل بعضهم مآربهن ، وخسر بعض آخر .

## خلاصة

وباختصار . من الواضح أنه عند انتقاء شركاء الزواج ، فإن فكرة  
 التكافؤ فى الزيجة التى طالما شدد عليها الدعاة الأخلاقيون المعاصرون ،  
 كان لها أثر عميق على الاختيار سواء تم عن طريق الأشخاص الذين  
 يمنعون الأمر ، أو خضع لتوجيه أو موافقة الآخرين ، ولكن فيما يتعلق  
 بمختلف المعايير التى سمحت لمراعاة جانب التكافؤ ، فقد بغادت التركيز  
 التسميى على عامل أو آخر ، ولعل كفة التحابب الشخصى كانت الأرجح  
 فى سلم الأفضليات إذا حدث صراع بين هذا العامل وبين العوامل المادية  
 والاجتماعية . وكلما هيبطت المرتبة فى السلم الاجتماعى ، ضعفت صرامة  
 خضوع الفضائل الشخصية للقيود ، بيد أنه ربما لا يكون من الحكمة  
 الزعم بوجود حدود فاصلة حادة تفصل بين العوامل المادية والاجتماعية  
 والعاطفية عند التعاقب على الزواج ، أو التقفز إلى الاستنتاج والانتقال من  
 معيار أساسى آخر عند الانتقال من زمان لآخر . ان هذه العوامل تعمل  
 متوازنة . ولا يحى أن وجود قدر من حساب دور العامل الاقتصادى كان  
 عقيدا على الدوام ، ولا يجب تقسيم هذا العامل تفسيريا فجأ اعتمادا على  
 بروره فى زيجات النوات ، وزيادة تركيز الأشخاص عليه فى الواقع  
 التاريخى التى ما زالت باقية ، إذ كان للمؤرخين للميراث التى تلقتهم إلى  
 شدة الحرص على التركيز عليه . ولعل مرجع الاهتمام بالجوانب العاطفية  
 حتى نهاية العصر موضع البحث هو وغرة الوثائق التى اتخذت شكل  
 المفكرات والرسائل . وعلى أية حال ، لا بد أن ندرك أن المواطن والمواطن  
 لا تظهر فى فراغ . ولعلها تستثار عينا يتعلم الشخص كيف يجب  
 - كما يقال - وفقا للقيم السائدة فى زمنه وزمنها ، وتقيما مع مرتبته فى  
 الحياة ، وبغض النظر عن امكان التفرقة بين هذه العناصر المادية  
 والاجتماعية والعاطفية ظاهريا ، الا أنها من الناحية العملية تتشابه  
 بدرجة تكفى إلى اللباس من مكان فصل كل عنصر عن باقى العناصر .



وترتب على ذلك - كما هو متوقع - قدر كبير من تجانس أوصاف الزواج ، يمكن اتبانه وتطبيقه ، فلقد كانت جميع طوائف المجتمع بحرص على الزواج بمن يماثلها في الأوضاع الاجتماعية ، وعندما حدث ابتعاد عن هذا المبدأ ، وبخاصة في حالة صغار الأبناء ، فابهم نادرا ما سطحو بعيدا في ناحية التكافل الاجتماعي والاقتصادي ، ولكنهم كونوا ما يصح تسميته بالزواج من داخل العنصرية الاجتماعية (٣) - في نفس المستوى الاجتماعي ، ولربما استطاعت الطبقة الأرستقراطية الزواج من طبقة عليا القوم بمعنى سلالة الأثريه من التجار والمغامرين ، وأمكن لأبناء عليا القوم الزواج من عائلات التجار ورجال القانون والكهنة وأحيانا من طبقة الأعيان ، وهكذا دواليك ، فوسعا ذكرنا علة أخرى عن مختلف الطبقات الاجتماعية ، وكما هو الحال في التقارب الاجتماعي ، فإن الأمر بالمثل في التقارب الفيزيائي ، إذ يمكن الموقع الحضري في اختيار شريك الزواج الأبعاد المكانيه للعالم الذي تتحرك في نظامه الأسر من مختلف المراتب ، فبالنسبة للأرستقراط وكبار عليا القوم ، الذين يدعوون للقصر الملكي أو يشاركون في الأنشطة الاجتماعية الموسمية ( كالتساقى مثلا ) ، قد يكون التصاهر بالزواج صمالة تتم من منظور قومي ، ويزوج أبناء عليا القوم غالبا من الطبقة المتوسطة في مقابلاتهم وإحيائهم ( وإن كانت نسبة ريجلات عليا القوم بعد تحديدها على هذا الوجه تتفاوت من مقاطعة لأخرى ، تبعا لحجم المقاطعة وموقعها الجغرافي ) ، ويزوج أبناء الطبقة الدنيا في نطاق المجال الاجتماعي الذي يتحركون فيه لمساكنات شتى ( بوجه عام داخل أبرشيات أماكن إقامتهم ، الذي يختلف عن مقدار الأبرشيات التي ولدوا فيها ) .

وفي الزواج ، كما يحدث في سائر الحالات ، قد تتخاضم الطوائف الاجتماعية ، وقد تعرض للتآكل في أطرافها ، ويساعد الزواج على تحصيل التماثل الاجتماعي والفيزيائي ، على أن هذه الباحية من المستحسن عدم التأكيد أكثرها ، فبوجه عام الزواج يرسخ الفروق الاجتماعية - وتمكس عملية تكوين الأسرة بأمانة النظام الاجتماعي ، وتساعد على تقييده ، من حيث امتيازاته والتزاماته وفرصه وقبوده وتصفاته .

## والى اللقاء في الجزء الثاني

## المراجع

- Lutz K. Berkner, *Recent Research on the History of the Family in Western Europe* 1973.
- Christine Klapisch-Zuber, *Women Family and Ritual in Renaissance Italy* 1985.
- Jean-Louis Flandrin, *Families in Former Times. Household and Sexuality* (1979).
- David Hunt, *Parents and Children in History : The Psychology of Family Life in Early Modern France* 1970.
- Alan MacFarlane, *The Family Life of Ralph Joad* 1970.
- Michael Mitterbauer and Richard Seidler : *The European Family : Patriarchy to Partnership from the Middle Ages to the Present* (1982).
- Gerald Soliday, *History of Family and Kinship : An International Bibliography* 1980.
- Lawrence Stone, *The Family. Sex and Marriage in England 1500-1800* (1979).

## اقرأ في هذه السلسلة

- أحلام الإعلام وقصص أخرى  
الالكترونيات والحياة الحديثة  
نقطة مقابل نقطة  
الجغرافيا في عاتق علم  
الثقافة والمجتمع  
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)  
الأرض المغامضة  
الرواية الانجليزية  
المشهد الذي فن المسرح  
آلهة مصر  
الإنسان المصري على الشاشة  
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة  
الهوية القومية في السينما العربية  
مجموعات النقوش  
الموسيقى - تعبير نفسي - وعاطفي  
عصر الرواية - مقال في التنوع الأدبي  
نيلان توماس  
الإنسان تلك الإنسان الفريد  
الرواية الحديثة  
المسرح المصري المعاصر  
على محمود طه  
القوة النفسية للآهرام  
فن الترجمة  
فولستوي  
سستدال  
رسائل وأحاديث من الخفي  
الجزء والكل (محاضرات في مضمهر  
الفيزياء الذرية )  
التراث القامش ماركس والتاركسيون  
إدارة الصراعات الدولية  
الميكروكمبيوتر  
مختارات من الأدب الياباني  
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة
- برتراند رسل  
ي - راسنكيا  
اللسن هكسلي  
ت - و - قريمان  
رايموند وليامز  
و - ج - قوريس  
ليستر ديل راي  
والتر الن  
لويس فارجانس  
فرانسوا موماس  
د - قوريس هفنى وآخرون  
أولج فولكف  
ماشم اللحاس  
بيفيد وليام ماكديونالك  
عزيز القسوان  
د - معهن جامم الموسوى  
أشرف س - بين كوكس  
جون لويس  
بول ويست  
د - عبد المعلى شعراوى  
أثور المعداوى  
يلى شول واننيت  
د - صفاء خلوصى  
والف قى ماتلو  
فيكتور بروهيدر  
فيكتور هوجو  
فيرنر هينزبيرج  
ميشي شواه  
د - السيد علبوة  
د - مصطفى عفانى  
مسبرى أبو الفضل  
جابريل يابر

## ٢٤ علم الفلسفة السياسية المعاصرة

أنطوني دي كريستيني  
وكييث هيدوج

داويت سوين  
زاقيلسكي ف. م.  
ابراهيم القرضاوى  
بيتر رداى

جورج داهموى  
س. م. يورا  
د. حاصم محمد رزق  
رونالد . سميسون  
و. توماسن د. . اندرسون

د. . انور عبد الله  
والث رىستو  
ي. م. . ميس  
جون بوكهارت  
الان كاسيار  
سلمى عبد المعلى  
فريد هويل  
شاندرا ويكرام هاسينج

حسين حلمى المهندس  
روى رويرتسون  
موركلز هاكليبتوك  
هاشم النحاس

ف. م. انخيلوف  
هادى نعمان الهيتى  
د. نعمة رحيم العزوى  
د. فاضل أحمد الطائى

فونسيس فرجون  
هنرى باربوسى  
السيد عيسى  
جاكوب برونوفسكى  
د. روجر ستروجان  
كاتى ثير  
ا. مينسر

كتاية السيناريو للسينما  
الزمن وقياسه  
اجهزة تكييف الهواء  
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى  
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى  
البحرية اليونانية  
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية  
العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصرى والفكر  
حوار حول التنمية الاقتصادية  
تبسيط الكيمياء  
العادات والتقاليد المصرية  
التذوق السينمائى  
التخطيط السيلفى  
البذور الكونية

مرامى الشاشة ( ٢ ج. )  
الهرمين والايدز  
صور الترقية  
تجيب محفوظ على الشاشة  
فن الاثبات الروائى عند تولستوى  
انثى الاطفال  
أحمد حسن الزيات  
اعلام العرب فى الكيمياء  
فكرة المسرح  
المجسم  
صنع القرار السياسى  
التطور الحضارى للإنسان  
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟  
تربية النواجر  
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

## الفن والطب

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى  
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية أراء  
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤

كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة  
النصحاة

اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن  
التشكيلى  
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية  
وبعدا

حركة عدم الانحياز في عالم متغير  
الفكر الاوروبى الحديث ( ٥ ج )  
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى  
١٩٨٥ - ١٩٨٥

التنشئة البشرية والابتداء للصغار  
تفريعات الفيلم الكبرى  
مختارات من الأدب القصصى  
الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟  
حروب القضاء

الكمبيوتر في مجالات الحياة  
المفردات حقائق اجتماعية ونفسية  
وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء  
الهندسة الوراثية  
فريية أسماك الزينة  
كتيب تغيرت الفكر الاتصال  
الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج )

الفكر التاريخى عند الاغريق  
قضايا وملامح الفن التشكيلى  
التغذية في البلدان النامية  
بدئية بلا نهاية  
الحرف والصناعات في عصر الاسلاميه  
حوار حول المظالمين الرئيسيين  
للكون  
الارهاب

د - ناعوم بيثروفيتش  
جوريف داموس

د - ليفوار تشامبرز دانث  
د - جون شنتلر  
بيير اليسر

المكتبر غوريال ومعه  
د - رمسيس عوض

د - محمد نعمان جلال  
فرانكلين ل - بارمر

شوكت الربيعى  
د - مصطفى الدين احمد حمدين  
تأليف : ج - د.دلى اندرو  
جوريف كوتراڤ  
طائفة من العلماء الأمريكيين  
د - محمد أحمد عبد الرزوق  
د - محمود مرسى طه  
بيتر لورى  
يوريس ميروفيتش سبرجيف  
ويليام بينز  
ديفيد لدرتون

جمعبا جون - ر - رور  
ميلتون جولڤ يتجر  
أرنولد تريپس  
د - صالح رضا  
م - ٨٠ - كتيج واخرون  
جورج جاموف  
د - للصين طه آبر منجوه

جانيلىو جاليلى  
أرك حوريس : الآن هو

سيزيل العريد	اختناون
آرثر كيمسكلر	القبيلة الثالثة عشرة
أ - ج - هـ - ويس	الثورة الإصلاحية في اليابان
توماس ٩ - هاويعس	التوافق النفس
مجموعة من الباحثين	الدليل البيولوجي
روى آرمنز	لقبة الصورة
ناجاي منشيو	الثورة الإصلاحية في اليابان
بول هاريمون	العالم الثالث قدا
مكايل الكي	
جيمس لفلوك	الانقراض الكبير
ليكتور مورجان	تاريخ النقود
اعداد محمد كمال اسماعيل	التحليل والتوزيع الأوركستراي
الغرفوسي الطوسي	الشاهنامه (٢ ج )
بيرونز بوتر	الحياة المكرمة (٢ ج )
عك كريس حومبور	كتابة التاريخ في مصر ق ١٩٠
محمد مؤاد كويريلي	قيام الدولة العثمانية
بول كونر	العثمانيون في أوروبا
اختيار واعداد صبرى الفضل	مختارات من آداب الآسيوية
توني نار	التمثيل للسياحة والتلفزيون
تاديث جورديس وآخرون	سقوط الخطر
غوريس بيريراير	صناع الخلود
آدامز فيليب	دليل تنظيم المتاحف
اعداد أحمد الشنواني	كتب غيرت الفكر الإنساني
خوناثان ريلي رسميت	الجملة الصليبية الأولى
ريشارد شاخ	رواد الفلسفة الحديثة
زيجمونت هينر	جماليات فن الإخراج
العريد ١ ج - تلمر	الكنائس اللطيفية (٢ ج )

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع يداد الكتب ١٩٩٢/٩٤٦٩

ISBN — 977 — 01 — 3547 — X

## استلواك

م.م	السطر	الخطا	الصواب
٨	١٩	ألباكي	ألباكي
٩	٩	من لى مفالات	من المقالات
١١٣	٢٦	رواكي	رواكي
١٧١	١٩	اللوحة رقم ( ٣ )	اللوحة رقم ( ٤ )
١٨٤	١٠	اللوحة رقم ( ٨ )	اللوحة رقم ( ٦ )
١٨٥	٤ من اسفل	اللوحة رقم ( ٩ )	اللوحة رقم ( ٦ )
٢١٥	السطر	١٦ قبل	السطر ١٥
٢٢٠	الثاني	فان تأثيرها	فان تأثيرها
٢٤٦	١٣	المينيون	والعلمانيون
٣٢٤	٨	لنفس ايراشيه	لنفس الايراشيه







مازلنا نكتب التاريخ على النحو التقليدي، أن في صورة  
أحداث متعاقبة، فيما يدعى بالكرونولوجي أو الحوليات وقد  
تطورت الكتابة التاريخية منذ بداية القرن التاسع عشر وظهرت  
مدارس متعددة متنوعة مازال أثرها وأهنا في مصر. وقد جمع  
المؤلفان عدداً من المقالات التاريخية التي تمثل التاريخ من شتى  
جوانبه :

ومن الموضوعات الواردة في هذا الجزء :  
الرهبان واليهود .  
صورة الإنسان في عصر النهضة .  
هل كانت حركة الإصلاح الديني ثورة ؟  
النساء وعقد الإصلاح الديني  
الحرب الدينية في فرنسا  
كوبرنيك والثورة العلمية  
من هم السيرة ؟